

الشيخ علي محفوظ
مكتبة جامعة كبار العلماء

كتاب الصلاة

إلى

طريق الوعظ والخطابة

كتاب الصلاة



0171932

مكتبة جامعة كبار العلماء
Bibliotheca Alexandrina

هَذَا يَدُ الْفَرَشْتِكَةِ إِلَى طُرُقِ الْوَعْظِ وَالْمُخَاطَبَةِ

للمغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ علي محيى محفوظ

عضو هيئة كبار العلماء

دار الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي اختار لنا الإسلام ديناً ، وجعل السعيد من وقف عند حدوده وتأدب بأدابه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وشموس العرفان (أما بعد) فهذا مختصر نفيس في الوعظ والخطابة جعلته نبراساً للدعاة الناصحين ، وسراجاً يضيء للخطباء الراشدين . وضعته طبق منهج الدراسة لقسم إجازة الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين ، من كليات الجامع الأزهر الشريف والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يديم به النفع العميم ، إن ربي لسميع الدعاء وقريب مجيب .

مقدمة الطبعة الرابعة

اعلم أن الكمالات ثلاثة : نفسية كالعلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وبدنية كالصحة والقوة والجمال وطول العمر في ذلك مع اللذة والبهجة ، وخارجية كالجمال والأهل والعز وكرم العشيرة . وأشرفها الكمالات النفسية ، وأوسطها البدنية ، وأدونها الخارجية . والكمالات النفسية محصورة في أمرين : العلم اليقيني ، وصالح العمل . ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله عز وجل والإيمان به . ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط فهذا هو الصراط المستقيم . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » أي قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى ، وإقراراً بوحديته ، وعملوا على وفاق ما قالوا . فليس يراد منه القول باللسان فحسب ، لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فإن ذكر الاستقامة عقب ذلك القول دال على أنه كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية .

وأن للكمال مرتبتين ، كاملة وأكمل ، فالأولى أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة ما يصير به كاملاً في نفسه . والثانية أنه إذا بلغ هذه المرتبة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين ، ولا ريب أن ذلك فوق الكمال . وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها . فإذا نال هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بإصلاح الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون صحيحاً في دينه مهذباً مستقيماً عاملاً بعلمه ليكون الناس إليه أسكن ، وإلى قبول دعوته أقرب . والحاصل أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فأقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بصالح العمل ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما .

المؤلف

مقدمة الطبعة الخامسة

قبل أن يلقي المغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على محفوظ ربه أوصانا في حديث خاص لا يزال بما حوى من توجيهات ، المصباح الوهاج الذى يضىء لنا الطريق ، أوصانا أن نحافظ على أن تظل الكتب التى ألفها ينتفع بها المسلمون .

وهانحن اليوم نقدم الطبعة الخامسة من كتابه (هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة) منقحة ومزودة بيده الكريمة من نسخته الخاصة ، فهى بهذا خلاصة ما قدم الفقيه الكريم الذى أفنى عمره فى الوعظ والإرشاد .

فإلى تلاميذه الكرام ، وعارفى فضله ، وإلى حاملى لواء الإسلام وإلى المشتغلين بالوعظ والتربية والإرشاد ، وإلى المصلحين الاجتماعيين والخطباء والدعاة الناصحين . وإلى العالم الإسلامى قاطبة ، وأخيراً إلى روح الفقيه الطاهرة نقدم هذا السفر النفيس .

ولعلنا بهذا نكون قد أدينا بعض الأمانة التى فى أعناقنا ؟

أنجال المؤلف

رمضان ١٣٧١ هـ

يونيه ١٩٥٢ م



المغفور له حضرة صاحب الفضيلة الواعظ الأشهر

الشيخ علي محفوظ

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

ترجمته

في محلة روح مركز طنطا غربية ، كانت تقيم أسرة « محفوظ » وهي أسرة طيبة يتصل نسبها بالحسن بن علي رضي الله عنهما .. في تلك القرية ولد وفيها نشأ ، وحفظ القرآن الكريم واستوعب حفظ بعض المتون .

وفي عام ١٣٠٦ هـ التحق بالجامع الأحدي بطنطا واشتغل بتجويد القرآن الكريم على بعض الفقهاء ، ثم بدأ يتلقى العلم على كبار شيوخه ، فكان من أساتذته الشيخ عبد الرحمن الدماطي والشيخ محمد الشيبني الكبير ، والشيخ علي المنوفي والشيخ قطب بكر . وكان في أثناء طلبه العلم مثلاً حسناً للطالب المجد ، واستمر بالجامع الأحدي نحواً من عشر سنوات ظهر فيها نبوغه وتفوقه على أقرانه .

ثم رأى شيخه الأكبر الشيخ الدماطي أن ذلك النبوغ يجب أن يفيد منه الأزهر الشريف ، فحبب إليه طلب العلم فيه فتوجه في عام ١٣١٧ هـ إلى مصر ونزل بالأزهر المعمور ، ثم مالت نفسه إلى مذهب أبي حنيفة بعد أن كان شافعي المذهب فتتلمذ على صفوة علمائه من أمثال الشيخ : محمد الحلبي ، والشيخ بكر الصدي والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد بنحيت ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وفي عام ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٧ م حصل على شهادة العالمية ، ثم اشتغل بالتدريس .

ولما أدخل النظام في الأزهر عام ١٩١١ سار فيه حتى بلغ القسم العالي . وفي عام ١٩١٨ أنشئ قسم الوعظ والإرشاد في الأزهر ، فكان أول من تعهد بالتأسيس والتوجيه ، وفي هذا القسم وجد ضالته ، فجاهد فيه بكل قواه ، ووقف عليه فكره ووقته ، وسرعان ما أنجب على يديه رجالاً دعاة خير ورسلاً لإصلاح ، أشربوا حب الفضيلة ونمت فيهم نازعة الخير .

وفي عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م أوفد على رأس أول بعثة أزهرية إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج .

وفي مايو عام ١٩٣٩ قدرت هيئة كبار العلماء مزاياه وعلمه وفضله ، فقررت ضمه
إلى عضويتها ، وصدر بذلك الأمر الملكي رقم ١٦ لسنة ١٩٣٩ .
وفي فبراير ١٩٤١ منح كسوة التشريفة العالمية من الدرجة الأولى .
ثم لقي مولاه في يوم الأربعاء الثالث من ذى القعدة ١٣٦١ هـ ، الموافق
١١ نوفمبر ١٩٤٢ .

نشاطه :

نظر الفقيد بفكره الثاقب إلى العلم والعلماء ، فوجده أشبه بصناعة خاصة بين
طائفة خاصة في مكان خاص لا يعدو العالم والمتعلم ، قد دأب الأزهر على ذلك جيلا
بعد جيل ، وسواد الأمة عن هذا النور محبوب باحتجاب العلماء عنهم ، اللهم
إلا بصيص من النور يظهر في بعض البلاد التي ينبت فيها العلم بوجود عالم من العلماء
أو طالب من الطلاب في ليالي شهر رمضان من كل عام . . فأخذ على نفسه الموائيق
أن يجدد عهد السلف الصالح ، وأن يقوم بنشر الدعوة الصحيحة بين طبقات الشعب
المصري الكريم .

وضع أساس فن الوعظ والخطابة :

ولقد أحب فن الوعظ والإرشاد حباً لا يعدله حب ، وأخلص له إخلاصاً ،
ما بعده إخلاص ، وامتزج هذا الحب وهذا الإخلاص بإيمان قوى لا حد له ، ثم
سكن هذا المزيج المبارك في قلب كريم في نفس طيبة راضية مطمئنة .
وبهذا القلب عقد اللواء وتأهب للغزو ، فأخذ يثبث فكرته بين طبقات الأزهر
من علماء وطلاب ، فكان من ثمرات هذا الجهاد إنشاء قسم الوعظ والإرشاد في
كلية أصول الدين .

الوعظ في المساجد والجامع العامة :

ثم انتقل إلى الناحية العملية ، فكان يغشى المساجد كل أسبوع والجامع العامة
ناشراً الفضيلة داعياً إلى التمسك بحبل الله المتين ، فظهر نجمه وسطع نوره ، ودمقته العيون

وأسكنته القلوب في سويدائها لما عرف فيه من علم وما أوتيته من قوة البيان ودقة الأسلوب وسلاسة التعبير . وقد أنتجت قريحته الفذة في هذا الفن كتاب « سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة » ثم أعقبه بكتاب « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » وهو يعتبر أول كتاب حديث من نوعه .

وكان أهم ما يلاحظ عليه ذوقه الرفيع في الوعظ ، ومراعاته لشعور الحاضرين وعواطفهم ، يستميلهم بالفكاهة النادرة برقة تملك المشاعر ، ويلقى إليهم بالحجج والحكم في دعة تفتح لها الطريق إلى القلوب قبل الأسماع .

الوعظ في القرى :

رأى — طيب الله ثراه — أن كثيراً من القرى الريفية قد حرم من العلم فكان يذهب إليها مرشداً وداعياً إلى الله يأذنه . مضحياً في ذلك بماله وراحته ووقته فكان يقضى العطلة الصيفية متنقلاً بالوعظ والإرشاد في شتى البلاد . وقد كان يسجل خطبه في سجل خاص حتى بلغ مجموعها نحو (١٠٠٠) خطبة .

محاربة البدع والخرافات :

رأى — رحمه الله — أن كثيراً من البدع والخرافات قد استحكمت في نفوس الشعب حتى أبعدهم عن طريق الدين المستقيم ، فأخذ يكافح ويجهاد ويذكر القوم بمحاسن الدين وقبائح البدع ولم يذنه عن سبيله ما أقامه دعاة هذه البدع من عراقيل وعقبات . . وظل ثابتاً على عزمه حتى اقتلع الأوهام من القلوب وعاد بالناس إلى حظيرة الدين ، وقد ألف في هذا كتابه العظيم « الإيداع في مضار الابتداع » .

الجمعيات الإسلامية العامة :

أيقن أن الجمعيات الإسلامية خير معين على نشر الفضائل بين الأمة فساهم في تأسيس جمعية مطهر الأخلاق الإسلامية . وكان من أعضائها العاملين البارزين .

وساهم في تأسيس جمعية الهداية الإسلامية
وقد انتخب وكيلها في أول جلسة عقدت لتأسيسها في عام ١٣٤٦ هـ .
وكذلك ساهم في تأسيس جمعية تحفيظ القرآن بالعباسية وكان من أعضائها
المخلصين .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت جمعية الرد على المبشرين بالخرفنى تناهض
المبشرين فكان رحمه الله خطيبها وحامل لوائها .
وفازت جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية بالكثير من نشاطه ولما
تكونت جماعة أنصار الحج ساهم في جهادها بكل قواه .
الجمعيات الخاصة:

لم يكتف الفقيد بكل هذه الأعمال الجليلة بل نظر في صفوف الأمة ، فوجد
طائفة من عظمائها المخلصين قد عكفوا على ما لديهم من الأعمال ، فتلطف في الدخول
إليهم ، واستعمل ذكاه وفطنته في استمالتهم وهمس في آذانهم بأحكام الدين الحنيف
فوصلت دعوته إلى قلوبهم ، ووجد التربة صالحة للغرس ، والجو ملائما للأنبات ،
فكون جمعية قوامها العطاء وعصرها :

الطبقة الرافقة مثل المرحوم الدكتور سالم هنداوى باشا والدكتور سليمان عزمى باشا
والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا وغيرهم من طبقتهم ، واشتغل معهم بتفسير
القرآن الكريم في ليلة معينة من كل أسبوع ، واتخذ لذلك عيادة الدكتور سالم باشا
بعابدين حتى أتمه ، في بضع سنين ، ثم انتقل إلى السنة الشريفة فقرأ معهم كتاب
البخارى حتى أتمه ، في بضع سنين ، وقد كان من آثار هذا الغرس أن طلع المرحوم
الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل على العالم الإسلامى بكتابه العظيم « الإسلام
والطب الحديث » .

كذلك كون رحمه الله جمعية أخرى قوامها الدكتور عبد السلام العيادى ونخبة من فبرة المتعلمين ما بين مهندس وتاجر وموظف وجعل مقرها عيادة الدكتور العيادى بالدرب الأحمر ، وقد ابتدأ فى تفسير القرآن الكريم حتى أوشك على إتمامه ولكن المنية عاجلته قبل ذلك بقليل .

وأنشأ جمعية ثالثة قوامها جماعة من أرباب المعاشات ففرس فيهم الروح الدينية الحقة ، وكان مقرها منزل صاحب العزة أحمد بك فهمى المهندس ، فى المغربلين ثم بالعباسية .

وامتد نشاطه إلى الطبييات والمرضات داخل المستشفيات ، فتعهدم فى مستشفى فؤاد الأول للولادة بالموعظة الحسنة والنصائح الغالية مما كان له أثر محسوس فى قباهم بواجبهم الإنسانى على خير الوجوه .

إلقاء دروس دينية فى الإذاعة اللاسلكية

وفى حوالى عام ١٩٣٩ نبتت فكرة إلقاء دروس دينية على أمواج الأثير ، فكان أول من وقع عليه الاختيار لهذا العمل الجليل ، فكان يلقى درساً فى كل شهر تقريباً حتى لقي ربه .

دروس شهر رمضان فى الأزهر الشريف

وكان من عادته رحمه الله أن يلقى درساً فى الجامع الأزهر بعد صلاة العصر من كل يوم من أيام رمضان المبارك ، وقد ظل محافظاً على هذه العادة الجليلة وكان فيها مخلصاً متفانياً ، ولا أدل على ذلك من حرصه عليها وهو فى مرض الموت .

التأليف

ألف الفقيه الكتب الآتية :

١ — الأخلاق — وكان يدرس فى المعهد الابتدائى بالأزهر .

٢ — سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة .

٣ — هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . وهو مقرر للدراسة في كلية أصول الدين .

٤ — الإبداع في مضار الابتداع . وهو مقرر للدراسة في كلية أصول الدين .

٥ — الخطابة . (لم يطبع) وقد ظهرت منه مذكرة مختصرة في ١٠٠ صفحة

خاتمة

وهكذا كان الفقيد الكريم شعلة من نور وعلم ، تفرقت أشعتها في كل ناحية من نواحي الأمة ، فكانت السراج الذي يهتدى به المهتدون . . .
كان رحمه الله يرى أن العلم ثروة وزكاتها الوعظ والارشاد ليكون علماً مباركا طيباً يزيده الله من فضله .

ولقد كان واعظاً بسمته وهيئته ووقاره ووقفته ومشيتته قبل أن يكون واعظاً بقوله ومنطقه ، فكان في ذلك مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : —
(خياركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقته ، ويرغبكم في الآخرة عمله)
رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

رحم الله الفقيد الجليل ، وأحله مقامه بين الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

الفصل الأول

التعريف بالدعوة

أرسل الله عزت قدرته وجلت حكمته رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، عامرة بالخير والهدى ، وكان في دعوته وعبادته ، وفي حربه وسلمه ، وفي أسرته وبين أصحابه ، وفي كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله تعالى فيه : « وإني لكلى خلق عظيم » ، وتحقيقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . رواه ابن ماجه . وقوله : « أدبني ربى فأحسن تأديبى » . رواه العسكرى عن على وهو ضعيف لكنه صحيح المعنى ، صححه أبو الفضل بن ناصر من طريق آخر . حتى اضطرت دعوته الصادقة القوية ، وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هدام الخلق النبوى ، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعى الحق والاستماع لآيات الله البينات ، عاملين بها مخلصين دينهم لله ، وصاروا نوراً يهتدى به إلى طريق التدين الصحيح ، فزاد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ، ولم يترك الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها ، وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالتأسي به والسير على نهجه — وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة في الجامع والأسواق ، وهجرة أصحابه في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء ، بل كانت حياة الصحابة يومئذ في ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه . ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول وتأثروا بهديها وفهموا غايتها الشريفة ، فتحملوا الأمانة بإدارة وأدوها حق التأدية ، فكانوا

في رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية ، في تأدية الواجب على أكمل وجه وأعلى مثال ، فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

ومن أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان . وأنه ما قام دين من الأديان ، ولا انتشر مذهب من المذاهب ، ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلا بالدعوة . وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد إحكامها ، إلا بترك الدعوة . فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب ، سواء أكان ذلك الأمر حقاً أم باطلاً .

ولقد علمنا التاريخ ، أنه ما قام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصاراً وأتباعاً — وما نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة ، والمذاهب الحقبة بإهمال الدعوة تتضاءل — ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته ، لأنه الحق ، لما فرضت علينا الدعوة إليه ، ولما كان ثم حاجة إلى الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين ، الداعين إلى الهدى ودين الحق ، ولما وُصف الله عز وجل الدعوة إليه بأنها أحسن القول ، ولما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر للناس أن طريقته التي يسلكها هو ومن كان على قدمه ، إنما هي الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة .

والدعوة إلى الله مراتب : (الأولى) دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه : (١) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً والدعوة بالسيف ثانياً ، حماية لها ودفاعاً عن الحق وأهله ، لاقهراً على الدخول في الدين . فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم ، وقلمنا اتفق لتغيرهم الجمع بين هذين الطريقين . (٢) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابقين بإظهار الأمر الشريف أفضل (٣) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصنى جوهرأ ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة ، وإنارة النفوس

المظلمة أكمل (٤) أن نفوس الأنبياء حصل لها مرتبتان : الكمال في الذات والتكامل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل (المرتبتان الثانية والثالثة) دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى ، وذلك أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفتين : العلم والقدرة ، والعلماء نواب الأنبياء في العلم ، والملوك العادلون نواب الأنبياء في القدرة . والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد . فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد .

وبهذا علم أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله عز وجل بعد الأنبياء درجة العلماء . ثم هم على ثلاثة أقسام : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله تعالى فيهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » والعلماء بصفات الله تعالى وهم أصحاب الأصول ، والعلماء بأحكام الله تعالى وهم الفقهاء . ففي القرن الثاني كان الدين شغل العلماء الشاغل ، فقد عكف قوم على مواظب الدين وحكمه وآدابه وما يحض على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وهم الزهاد والنسك . وقوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما إلى ذلك ، وهم المتكلمون ، وقوم على تخرج أحكام الفروع ومعرفة الحلال والحرام ، واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وهم الفقهاء .

والكل كانوا على جانب عظيم من العلم والعمل والتقوى والورع ، والكل بحاله هذا كان داعياً إلى الله تعالى . وأما الملوك العادلون فهم أيضاً يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه بمحاربة الكفار المعاندين المعتدين على أهله ، وإما بالمحافظة عليه عند وجوده بنحو قتل المرتدين وقمع العابثين به ، والضرب على أيدي المتمردين عليه المفسدين في الأرض .

وبالجملة فالدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الخلق إلى الصراط السوي وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يخلفهم فيها كبار أتباعهم

والعظماء من أولى العلم وذوى القدرة على ضبط الأمور والتأثير في الأرواح وجذب النفوس إلى الخير ممن يسلكون سنتهم ويهتدون بهداهم .

وأن الداعى إلى الله تعالى خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وحليفة كتابه في تبليغ بَرَائمه ، وفي بيان هديه وسنته ، وفي بيان عقائده وأحكامه ، وأخلاقه الكريمة ، وعظائمه البالغة ، وأسرار التشريع .

إن الدعوة إلى الخير تربية ، والتربية المقيدة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة . ذلك أن التقليد عريق في بنى الإنسان يميل إليه بفطرته ، والمثل العليا أمامه تزيد في شوقه وتضاعف همته وتهيب به إلى الاحتذاء بل المنافسة ، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة الكاملة النافعة ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، وخرج عن ماتقتضيه الفطرة السليمة ، ولم يكن في عداد الصادقين الذين أمر الله أن يكون في زميرهم : « يأبى الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » . ولا ريب أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والإخاء بين المسلمين ، ومقاومة الاتحاد ودفع الشبهات عن الدين . وأقرب طريق لبلوغ هذا المقصد الأسمى الوسائل الآتية : —

- (١) بث الدعوة إلى الإسلام بقدر الطاقة (٢) انتشار المرشدين الناصحين بين المسلمين ولاسيما القرى النائية وأهل البوادي منهم (٣) نشر رسائل وكتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وفضائله وآدابه وأسرار التشريع فيه .
- (٤) إلقاء المحاضرات والخطب الدينية في الأندية والمجتمعات العامة ونشر المقالات في الصحف (٥) إنشاء صحف ومجلات باللغة العربية وغيرها في الأقطار المختلفة ، تعنى بالشئون الإسلامية (٦) العمل على إصلاح منهج الخطب المنبرية ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد (٧) السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها .

الأهلية لأجل العناية بالتعليم الديني والتربية الإسلامية ، وبهذا وحده تسعد الأمم الإسلامية وتسلم من خطر الشقاء في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

معنى الدعوة

الدعوة من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده ، ومنه قول الله تعالى : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » من مواعظها والوقوع في الفاحشة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة ، وقوله جلّ ثناؤه : « والله يدعو إلى دار السلام » السلامة من كل السكاره والأمن من جميع المخاوف وهي الجنة ، ومشاهدا الدعاية . وفي كتب هرقل « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

وفي العرف حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل — وهي ثلاثة أنواع : (النوع الأول) : دعوة الأمة الحميدة جميع الأمم إلى الإسلام ، وأن يشاركونهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق وهذا واجب هذه الأمة بتقتضى جعلها خير أمة أخرجت للناس مقيداً بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبحكم وصف المؤمنين الذين أذن لهم في القتال في قوله تعالى : « الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ، فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

(النوع الثاني) : دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتنهائهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع كالذي قبله خواص الأمة العارفون بأمور الدين ، وأسرار التشريع ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (النوع الثالث) : ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى في ذلك الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهي عن الشر والتحذير منه ، كل

بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على منكره يعلمه تصدى لنصحه وإرشاده و بيان ما يأمر به الدين الحنيف وما ينهى عنه في هذه الواقعة ، كل ذلك برفق ولين فذلك من التواصى بالحق والتواصى بالصبر الذى جعله الله عز وجل آية الإيمان الصحيح ، وسبباً للنجاة من الخسران المبين في قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

الحاجة إلى الدعوة

إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وركبه في أحسن صورة ، وكرمه وعظمه ، وعلى كثير من خلقه فضله ورفعته ، كرمه بالفكر والعقل يميز به الحسن من القبيح ويفرق بين الحق والباطل ، ولكن العقول البشرية وحدها لا تستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلاً عن الأخروية ، ولا تهتدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من غرائزها الوقوف على حقائق الأمور ، ولا أن تدبر شئونها على نظام محكم عادل لا خلل فيه ولا انحراف فإنها — وإن وصلت إلى الغاية القصوى من الإدراك — قد تميل عن الحق إلى الباطل ، وتنحرف عن الصلاح إلى الفساد ، ويخفى عليها وجه المصلحة ، ولا تهتدى إلى مغبة الأعمال ، وكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه ، وكثيراً ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وإن اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير أو الشر ، فقد تغلب عليها الشهوات ، أو يشتد بها الغضب والحسد ، فيصرفها ذلك عن النافع أو تقع في الضار — وإن خلصت العقول من أسر الشهوات ، أو تسلط الغضب والحسد ، فقد لانسلم من غوائل الخلاف والنزاع ، لاختلاف المدارك والمشارب في أصل الفطرة والجبلة ، فترى الإنسان يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يظهر له الشيء حسناً في وقت فإذا لم يلائم غرضه في وقت آخر عده قبيحاً ، وكثيراً

ما يكون الشيء الواحد مشتملاً على مصلحة ومفسدة ، فيحب إنسان جلب مصلحته
فبيادر إليه ، ويميل آخر إلى درء مفسدته فيقر منه .

فلما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك مصالحها في هذه الحياة وفي تلك
الحياة وعاجزة عن الإطلاع على الحقائق ؛ وكانت عرضة لتغلب الأهواء والشهوات
وما إليها من الرذائل النفسية عليها ، وكان من طبائعها اختلاف المدارك والميول .

لما كانت كذلك اشتدت حاجة البشر إلى الهداة المصلحين ، والدعاة الناصحين ،
يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعونهم إلى مافيه الخير والسعادة ،
ويحذرونهم من السقوط في مهاوى الشرور والشقاء ، ويحررون العقول من رق
الأهواء والشهوات ، ويظهرون النفوس من أدران النقائص والرذائل ، ويعرفونهم
كيف يتقون الفتنة عند الاختلاف ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين .

وبهذه الدعوة الرشيدة التي استنارت بها البصائر واهتدت العقول سلك
المجتمع الإنساني طريقاً قويمًا وصراطاً مستقيماً ، فلم من مخاطر الشقاء ، وفاز بحياة
طيبة ، ثم مازال الاجتماع بعد انقضاء عهد النبوة والرسالة في أشد الحاجة إلى دعاة
مرشدين ، وناصحين صادقين أمناء يحمون دين الله من عبث العابثين ، ويحرسون
عقائد الاجتماع ، ويراقبون الأعمال والأخلاق ، ويرشدونه إلى الخير ويحذرونه من
عواقب الشر ، ويفترون السبيل إلى مافيه الخير والسعادة .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال أثر تفريط عظيم في طاعة الله ورسوله ،
بعد ما عظم التساهل والتواكل في أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وكثر التهاون وإهمال التناصح ، ورداً ما يتنازع فيه المسلمون إلى كتاب الله
وسنة رسوله ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على
النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير
هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وجوب تبليغ الدعوة

قد علمت مما تقدم أن الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى شديدة ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، والمهم الذي بعث الله له النبيين والمرسلين ، ولو أهمل أمره لاضمحل الدين وفشا الضلال وعم الفساد ، وهلك العباد ، وساء حال الجمعية البشرية ، لهذا جاء وجوبه في الكتاب والسنة ، وعليه انعقد الإجماع ، قال الله تعالى : (واتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) فقد أوجب على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ، وصونا لأحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات ، ويخلوا بنظامها ، وتحرفهم عن العمل بها الأهواء الفاسدة إذا هم تركوا وشأنهم ، فالخطاب بهذا كافة المسلمين ، فهم المكلفون أن يختاروا منهم طائفة تقوم بهذه الفريضة ، فهنا فريضان إحداهما على جميع المسلمين ، والثانية على الجماعة التي يختارونها للدعوة — والدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي — فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه مع اندراجهما فيه ، من باب عطف الخاص على العام ، إظهارا لفضلهما وشرفهما على سائر الخيرات ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام . في آية (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) : وقال جل ثناؤه : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أوجب جل شأنه على كل جماعة كثيرة من المسلمين كأهل بلدة ، أو قبيلة عظيمة ، أن تقوم منهم جماعة قليلة ليتعلموا الدين ، ويجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من العلم إرشاد قومهم ، وإسداء النصيحة لهم .

وبالجملة فقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه يجب على كل أمة أن يكون منها

جماعة بقدر الحاجة تقوم بالتفقه في أمر الدين ، وأن يكون المقصود منه دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشاد الناس إلى الدين القويم والصراط المستقيم — ولا ريب أن من تعلم لهذا الغرض العظيم ، كان على المنهج القويم ، وفاز مع الفائزين ، كما قال تعالى : (وأولئك هم المفلحون) وقال جل ثناؤه : (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) أى لا تدع التذكير والموعظة فإنها تؤثر في الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل ، فإنها تزيدهم بصيرة في الدين ، وقوة في اليقين .

ولقد شدد بالانكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة ، وأهل دين أهلوها فقال جل ثناؤه : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فخذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به عن مقتنه وغضبه ، فالملعون منه تعالى هو المحروم من لطفه وعنايته ، المطرود عن باب رأفته ورحمته . وقد كان داود عليه السلام لعن المعتدين عامة والذين اعتدوا في السبت خاصة ، ثم لعنهم عيسى عليه السلام . وكان سبب ذلك اللعن الذى طال أمده عصيانهم لله تعالى واعتداءهم المستمر — وقد بين جل ثناؤه ذلك العصيان ، وسبب استمرارهم على الخروج عن حدود الله ، بأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر ما من المفكرات مهما اشتد قبحه ، وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والكمالات ، فإذا أهمل تجرأ الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلامبالاة ، ومتى صار العامة يرون المفكرات بأعينهم ويسمعونها بأذانهم تزول عنهم وحشتها وقبحها من نفوسهم ، ثم يتجرأ الكثيرون على ارتكابها — ذلك كان شأن القوم ودأبهم الذى اعتادوه ، وأصرروا عليه ، ذكره الله للمؤمنين عبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونون مثلهم ، ويحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم . روى أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل

يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحسن لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لعن الذين كفروا — إلى قوله فاسقون » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم » لتأطرنه : بكسر الطاء وضم الراء لتردنه وبابه ضرب ، وأصل الأطر العطف ، ولتقصرنه بضم الصاد والراء تمنعنه من مجاوزته ، وبابه نصر . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم . وفرق بين تغيير المنكر وبين النهي عنه ، فإن النهي عن الشيء يكون قبل فعله ، وإلا كان رفعا للواقع ، فإذا علمت إنساناً ينقص المكيال والميزان ، أو يغش اللبن مثلاً ، وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت — والاستطاعة هنا شرط بالنص — فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى الغاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منك . أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضا بفعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ، ومعاملته ، وإقراءه السلام ، والرد عليه ، يدل على هذا ما فعله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى كون ذلك أضعف الإيمان أنه أقل آثاره وثمراته فى النفع ، لأن مجرد كراهته له بقلبه لا يحصل بهازوال مفسدة المنكر المطلوب إزالته ، فهو قاصر بخلافه باليد واللسان فإنه متعد لأنه كراهة وإزالة وفى خبر آخر : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وهو كناية عن نهاية القلة ، لأن الرضا بالمعصيان الناشئ عن غلبة الشهوة نقصان من الإيمان أى نقصان

والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقلب وكراهة المنكر ، ولم يبق بعدها مرتبة أخرى . ويؤخذ منه أن عدم إنكار قلب المسلم للمنكر دليل على ذهاب الإيمان منه . وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده اتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونهم فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ولا ينافى الوجوب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » لأن معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم ، مثل قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . وبما وجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتدياً مع تركه لهذه الفريضة ، فإذا قام بها ولم يمثل المحاطب فلا جناح عليه بعد ذلك ، لأنه أدى ما عليه ، والذى عليه القول لا القبول ، وهذه شبهة قديمة العهد عرضت للناس في الصدر الأول . روى أحمد والترمذى وأبو يعلى وغيرهم من حديث قيس بن حازم قال : قام أبو بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرأون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها على غير موضعها أى يتوهمون منها أن الإنسان إذا فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه فى نفسه ، ورأى غيره بضد ذلك فلم يأمره ولم ينهه ، لا حرج عليه ، وليس كذلك ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وشرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدرة وتجويز فائدة وإن لم تكن الامتثال مثل كسر جاه الفاسق وخشية أن يعتاد النش* فعل المنكر ، وترغيب الطائعين فى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ومثل رجاء أن يتعظ فلا يقع المكروه بعد ذلك ، وألا يخاف مكروها يناله ، وألا يترتب عليهما محذور آخر ، فإذا لم تتوافر

هذه الشروط سقطة الوجوب وبقى الجواز . وقد استوفينا الكلام على هذا المبحث في كتاب
« الإيداع » في الفصل السابع فارجع إليه إن شئت والله الهادي إلى سواء السبيل .

حكم من لم تبلغه الدعوة

وأما حكم من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ في شاطئ جبل ؛ فليس بمكلف على الأصح خلافاً لمن قال إنه مكلف لكفاية العقل في وجوب معرفته تعالى عندهم وإن لم تبلغه الدعوة — وعلى القول بأن بلوغ الدعوة شرط في التكليف لا يكفي بلوغ دعوة أى رسول ولوسيدنا آدم ، بل لابد من بلوغ دعوة الرسول الذى أرسل إليه . فالذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كانوا بين أزمنة الرسل أو في زمن الرسول الذى لم يرسل إليه) ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان — وماورد من أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار كاسرى القيس وحاتم الطائي ، وبعض آباء الصحابة ، فإن أحد الصحابة سأله وهو يخطب فقال أين أبى ؟ فقال : في النار . فهى أحاديث آحاد لا تعارض القطعى وهو قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ويجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبهم منهم لأمر يختص به يعلمه الله تعالى ورسوله . وإذا علمت أن أهل الفترة ناجون على المذهب الحق ، علمت أن أبويه صلوات الله وسلامه عليه ناحيان لكونهما من أهل الفترة — والقول باشتراط بلوغ الدعوة في التكليف هو مذهب الأشاعرة وجمع من غيرهم ، فمعرفة الله تعالى وجبت عندهم بالشرع وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لأصليا ولا فرعيا — وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل بمعنى أنه يستقل بإدراك الأحكام وإن لم يرد الشرع ، ويقولون إن الشرع جاء مقويا ومؤكداً للعقل — وبنوا كلامهم على التحسين والتقييح العقلين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والتقييح ما قبحه العقل ، فإذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يمدح على فعله ويذم على تركه حكم بوجوبه ، وهكذا . وأما مذهب الأشاعرة فالحسن ما حسنه الشرع والتقييح ما قبحه الشرع — ومذهب

الماتريدية أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يزد به الشرع لأدركه العقل استقلالاً — لوضوحه لا بناء على التحسين العقلي — كما قالت المعتزلة ، والحق أن العقل لا يستقل بشيء أصلاً .

فتلخص أن المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لكن بشرط العقل — والثاني مذهب الماتريدية ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام — والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل — وقد علمت الفرق بين قول الماتريدية بوجوب المعرفة بالعقل ، وقول المعتزلة بثبوت الأحكام بالعقل ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الثاني

السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين

من أنعم النظر فيما قصه الله تعالى في كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من انباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد اتفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى (توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله تعالى رب العالمين المتصرف في أمورهم) والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسول من غير تفريق بين رسول ورسول ، والترغيب في طاعة الله جل وعلا ، والترهيب من مخالفته وعصيانته ، والحث على التحلي بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق السيئة — ويرى أيضاً أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية في أممهم — فترى نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشقي الوسائل ، لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، وترى لوط عليه السلام جل هم في القضاء على الفاحشة (اللواط) لافتتان القوم بها ، وترى

شعبيا عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينهام عن نقص الكيل والوزن ويأمرهم بإيفائهما لانتشار الفش بينهم ، وترى موسى عليه السلام يعمل على انجاء الشعب الاسرائيلي من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، لأن حال ذلك الشعب كانت حينذاك تستوجب الاسعاف أولا . كل هذا قام به الرسل مع الصبر واحتمال الأذى في سبيل إقامة الدين . ومن هذا كله نعلم أن الداعي إلى الله تعالى ينبغي له أن يوجه همته إلى معالجة الشرور والفساد الفاشية في قومه ، ويبدأ بأشدها خطراً وأكبرها ضرراً كما سيأتى بسطه . فهذه هي السنن العامة على وجه الاجمال في دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وعلى الدعاة والمرشدين ، بل على كل ذى غيرة على دينه أن يرجعوا في تعرف ذلك تفصيلا إلى كتاب (دعوة الرسل) لصاحب الفضيلة أئمتنا الأستاذ العلامة الشيخ محمد العدوى فهو العدة في هذا المقام وبالله تعالى التوفيق .

هدى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه في نشر الدعوة

الأصول التي أقام الدعوة عليها هي : الأصل الأول الحجج البالغة فكانت دعوته صلوات الله وسلامه عليه تقوم على الآيات البينة والحجج المحكمة ، فقد اعتمد في تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل السليم ويألفه الذوق ويتلصقه الوجدان ، ولا تقف دونه البديهة ولا تنكره الحقيقة — ولذا لم يعتمد في ذلك على الخوارق ، بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويهيب بها إلى التأمل في الكون وما حوى من مظاهر الابداع والاتقان ، وفي كل شيء له آية ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لا شريك له ، موجود كامل الوجود ، ومن كان كذلك فهو واهب الوجود لكل موجود ، يدعوهم إلى النظر في الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح ، والبرهان القاطع ، إلى أن خالق الأكوان على هذا الإحكام والاتقان ، ومدبرها على هذا النظام البديع ، لا بد قوى قادر وعليم حكيم ، لا يعجزه شيء ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة في الأرض ولا في السماء ، منزّه عن مشابهة المخلوقين ، غنى عن العالمين ،

فلا صاحبة ولا ولد « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » على يدى هذا الرسول الأمين ، هكذا آمن الناس بالله عن بينة ، وأثربوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الحكيم ، فقد جعل العقل حكماً ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وعاب تقديس ما كان عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها — ولم تكن معجزته صلوات الله وسلامه عليه القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية — كان صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله تعالى بهذه الطريقة الواضحة ، وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة ، وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . نقول هذه هى طريقة القرآن وسبيله الحكيم ، التى أرشد إليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إليه تعالى ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عليهم أجمعين .

فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الأحكام والاتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى ، فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم ، فقال جل وعلا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وقال جل شأنه : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » وقال : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » أي فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته .

وقال جل وعلا في التوحيد وإنكار الشرك : « فتعالى الله عما يشركون ، أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعهم إلى الهدى لا يتهتدوا سواء عليكم أਦعوتهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألم أر أنهم أخذوا من دونه لهم أيد يبسطون بها أم لم أعين يبصرون بها أم لم أأذن يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » وقال تعالى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقال جل وعلا : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين » وما إلى ذلك من الآيات البينات على التوحيد وإنكار الشرك .

وقال في تقرير عقيدة البعث :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد

إلى أرذل العمر ليكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور » قال الحسن البصري رضي الله عنه : جاء أمية بن خلف بعظم نحر قد صار رمياً ففركه حتى صار كالرماد ثم قال : يا محمد أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا ؟ لقد قلت قولاً عظيماً ما سمعناه من غيرك ، من يحيي العظام وهي رميم ؟ فقال : « يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » فانصرف مبهوتين . وقال عزت قدرته وجلت حكمته « قَ وَالْقُرْآنِ الْجِيدِ . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » وما إلى ذلك من الحجج البالغة ، والبراهين القاطعة ، مما يسلكه في تقرير العقائد الإلهية ، وتوجيه الناس إلى الحقائق الواقعة ، وإثبات البعث والجزاء .

وعلى الجملة فقد أحكم الله تعالى ما شرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله الصادق الأمين ما يسلكه في هداية الناس إلى الصراط المستقيم . ومن تتبع أخبار الداخلين في الإسلام ، وجد الكثير منهم كان يعتنق الإسلام بمجرد

أن يعرض عليهم الإسلام ، ويتلى عليهم شيء من القرآن — أما اقترح المعجزات والإخبار بالغيب من بعض المتعنتين فإنهم يريدون به التهمك واللجاج ، لأنه كان يطالبهم بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ، وهم يطالبونه بما ليس من شأنه ، ولا من حدود وظيفته . من ذلك ما حكى الله عنهم : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً : أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولم نؤمن لروحك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » ومنه .. « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » كالناقة والعصا واليد وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . ومنه « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يحلها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأنيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكن أكثر الناس لا يعلمون » ولهذا رد عليهم بقوله « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى الشؤء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

الثاني الأساليب الحكيمية

إن للحق والفضيلة نوراً وجمالاً ساحراً جذاباً تشعر به النفوس بأصل فطرتها ، غير أن نفوساً قد انحرفت عن سنن الفطرة السليمة لسوء المنبت ، أو فساد التربية بحكم الوراثة والبيئة الرديئة ، فصارت لا تبصر نور الحق ، ولا يرونها جمال الفضيلة ، يظهر أمامها الحق واضحاً فتراها باطلا ، وتتجلى بين يديها الفضيلة فتراها رذيلة .

وأصحاب هذه النفوس القذرة تراهم بالحشرات أشبه ، يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم (فمن العناية سياسة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب) لأن أمثال هؤلاء لا يميلون إلى الرشد والهدى ، بل يألقون الغى والضلال ،

ومن هذا النوع الخبيث عصابات كثيرة مئى بها الإسلام ، ورسول السلام صلوات الله وسلامه عليه أثناء قيامه بالدعوة ، فلم ييأس من إصلاحهم ، وكان يعالجهم وكل الطوائف بالحكمة البالغة ، والعظة النافذة ، فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة للعقول ، خفيفة على القلوب ، فيدعو بالبرهان الجلى ، والحجة القاطعة طلاب الحقائق ، وهم خواص القوم ذوى النفوس القوية ، وبالخطايبات المقتنة ذوى النفوس الضعيفة ، ويدعو المعاندين الجادلين بالباطل بأحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين ، تلبية لأمر مولاه « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » فكان صلوات الله وسلامه عليه يسلك الطرق الكفيلة بنجاح دعوته ، ويورد لكل مقام مقالا يليق به ، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها ، كما سيأتى بيانه .

فمن أساليبه الحكيمه فى الدعوة — أنه كان يُسأل عن الشئ الخاص فيجيب بما يتناوله وغيره ، حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره كقوله :

« إن الإسلام يُحِبُّ ما قبله » فى جواب من قال له : استغفر لى . وهو رجل من بنى محارب كان يؤذى رسول الله أيام كان يعرض نفسه على القبائل ، فلما جاء ذلك الرجل فى السنة العاشرة فى وفد بنى محارب مسلماً ذكر النبي بما كان يصنعه معه من الأذى ، واستعطفه بطلب المغفرة عن صنيعه ، فأجابه بما يقيد عدم المؤاخذه عن كل من اعتنق الإسلام ، أيّاً كانت سيئاته التى أسلفها قبله ، وقد كان يكفيه فى الجواب أن يقول له « غفرت لك » .

ومنها — الإيجاز إذا اقتضى الحال ذلك كما فى مكاتباته للملوك والأمراء ، والأطناب عند مقتضى الحال كما فى خطبه فى الحث على التزام الأحكام أو التحريض على القتال ، وتوجيه النفوس إلى التجميل بالفضائل . كما يعلم ذلك بالنظر فى خطاب الله تعالى لمشركى العرب قبل الهجرة ، وخطابه تعالى لليهود بعدها كما سيأتى إيضاحه .

ومنها — إعطاء الوسائل صورة ماتفضى إليه ، كما فى قوله صلوات الله وسلامه عليه : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » : رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى

من حديث ابن مسعود . فقد صور للسامع الدلالة على فعل الخير في صورة الفعل نفسه ، لأنهما في الأجر سواء . وكقوله : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » . رواه مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو . فقد أعطى من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه لأنه تسبب في سبهما .

ومنها ضرب الأمثال وصوغ التشابيه التي تتهدى إلى الحقيقة ، فإن التمثيل أثراً كبيراً في إظهار الحقائق الخفية ، وتقريب المعاني البعيدة ، حتى تصير واضحة مألوفاً ، كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . وقوله : « ترى المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير . فقد مثل المؤمنين في تبادل المودة والرحمة والعطف بالجسد في روابطه العضوية ، إذا اعتل عضو اعتلت باقي الأعضاء . وهكذا تكون المؤمنون الكاملون . فهو يرشدنا بهذا الأسلوب الحكيم إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين من الاتحاد والوثام لتقوية أواصر الروابط والمحبة .

الثالث الآداب السامية

قد تكون الدعوة قوية الحجة حكيمة الأسلوب . ولكن يعوزها شيء من الآداب الراقية وحسن التصرف ، إذ لا يكفي في الدعوة إلى الحق أن يطرق الداعي بها الأندية والمجتمعات أو يعرضها على الأفراد في مختلف الأوقات ، دون أن يكسوها من جمال الأدب ما يجعلها حسنة السمعة ، بعيدة الأثر في نفوس السامعين ، فكم من خطيب مصقع وفصيح مَفَوَّه ، يغشى المجالس ويزاحم الدعاة الناصحين في الدعوة إلى الحق والفضيلة فلا يكون نصيبه إلا أعراض الناس

عن دعوته كما يعرضون عن البضاعة المزجاة ، ولو علموا العلة في ذلك لأصلحوا أنفسهم أولاً وألبسوها حلة الأدب وخلعوا على دعوتهم من هذه الخلل النفيسة ، فإن كل من يتصدى لتكميل الناقصين ، وإصلاح النفوس ، لا بد أن يكون مثلاً أعلى في الاستقامة والخلق الفاضل ؛ لهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه داعياً إلى الله بأخلاقه وأعماله قبل أن يكون داعياً بقوله . وهذه هي الطريقة المثلى التي شيد عليها صرح الإسلام ، وأحكم بها دعائهم الإيمان ، فكان صلوات الله وسلامه عليه قدوة حسنة ، وشخصية ممتازة بكل مزايا الأدب والكمال ، التي تكون في الدعاة إلى الخير والفضيلة ، أدبه مولاه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته كما قال : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » متفق عليه . وأثنى عليه بقوله تعالى : « وإنك لعلّى خلق عظيم » وكثيراً ما كان يظهر أدبه في أقواله وفي أعماله كالأمثلة الآتية :

١ — أنه كان يأخذ فيها بالرفق والحلم والثبات والصبر ، فكثيراً ما كان يلحقه الأذى من سفهاء المشركين فيلتقاه بالصبر الجميل ، امتثالاً لقول ربه : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) . وكان يرميه بعض الجفاة من الأعراب بالكلمة الفليضة الخبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام والإنعام ، تلبية لقول مولاه (فاصفح الصفح الجميل) وهو الذي لا عتاب بعده ، ثم هو بعد ذلك يعرض عليهم دعوته في لين من القول ، معرضاً عن جهل الجاهلين ، وعنت المشاغبيين — وكان في استرساله في دعوة إلى الله تعالى مع ثباته واحتماله مثلاً يحتذى وإماماً يقتدى

٢ — تنزله مع المدعويين إلى حد أنه كان يتقدم إليهم بأجمل عبارات التلطف والمجاملة كقوله : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم » . رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٣ — أنه كان لا يواجه أحداً بعينه عندما يريد أن يؤذيه أو يزجره مادام يجد في الموعظة العامة كفاية ، وهذا من الأدب الراقى البائع منتهى الحكمة ، قالت

عائشة رضى الله عنها : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه ، فتره عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية » . متفق عليه . إلى غير هذا من المثل العليا في أدبه الذي كان من أكبر الأسباب في نجاحه في دعوته .

الرابع السياسة الحكيمة

لقد كان لسياسته الحكيمة عظيم الأثر في نجاح دعوته، وإنشاء دولته ، وقوة سلطانه ، ورفعة مقامه ، إذ لم يعرف في تاريخ السياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحين في أية أمة من الأمم ، كان له مثل هذا الأثر العظيم ومن المصلحين المبرزين سواء أكان قائداً محنكاً أو مريباً حكيماً ، اجتمع لديه من رجاحة العقل ، أصالة الرأي وقوة العزم وصدق الفراسة ، ما اجتمع في رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولقد برهن على وفور ذلك كله فيه صحة رأيه ، وصواب تديره ، وحسن تألفه ، وإنه ما استغفل في مكيدة ، ولا استعجز في شديدة ، وإليك أمثلة من سياسته الحكيمة في الدعوة إلى الله تعالى :

١ — كان صلوات الله وسلامه عليه يتحرى بالموعظة أوقات الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها ، حتى لا يجعل الوعظ على الناس ركماً فيتناقلوا عن سماعه ويفوتهم كثير من إرشاداته النافعة ، ونصائحه الغالية . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا — أو قال يتحيننا — بالموعظة كراهة السأمة علينا » . متفق عليه . وقريب من هذا تشويقهم إلى العلم بالشيء الذي يريد بيانه بالاستفهام عنه ، كقوله لابن مسعود رضى الله عنه : « هل تدري ما حق الله على عباده ؟ فقال : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . متفق عليه .

٢ — أنه كان يفعل الشيء في بعض الأحيان مسaire لمن يعلم أنه يريد فعله ، كاتخاذ خاتماً من فضة نقشه (محمد رسول الله) لتوقيع رسائله إلى بعض الملوك ،

حينما أراد أن يدعوهم إلى الإسلام ، وقيل له : إنهم لا يقرمون إلا كتابا مختوما وهذا فيما يرجع إلى العادات ، ولم يكن في فعله جناح يستدعى تركه .

٣ — أنه قد يترك الأمر الذي لا ضرر فيه اتقاء للفتنة : كما ترك هدم الكعبة وبناءها على أساس إبراهيم ، اجتنابا لفتنة قوم كانوا حديثي عهد بجاهلية ، وقال لعائشة رضي الله عنها : « لولا قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وبلغت به قواعد إبراهيم » . متفق عليه .

٤ — تأليفه القلوب بالمال ، فكان يؤثر بعض حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال ، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية بالإسلام ، وهذا إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم رسوخاً لا تزلزله الفتن . وإلى أمثال هؤلاء أشار صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « يأسعدني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه ، خشية أن يكبه الله في النار » . أخرجه البخاري . وفي رواية مسلم من حديث ابن شهاب « خشية أن يكبّ في النار على وجهه » — كبه الله لوجهه من باب رد : صرعه — أما ما كان يعطيه بعض أشراف قريش قبل الدخول في الإسلام فليس لنشر الدعوة ، لأنها كما تعلم تعتمد قبل كل شيء على البرهان والحجة ، وإنما كان إعطاؤهم لتلافي أحقادهم ، لأن الهدايا تذهب بالأحقاد ، وتجمع القلوب إلى القلوب . وغايتها أنها تجعل النفوس متهيئة للنظر في صدق الدعوة ، وصحة العقيدة ، فإنها تتصل بالقلوب من ناحية الآيات البينات ، والبراهين الواضحة ، وهذا النوع وما قبله هم المؤلفون قلوبهم ، وهم صنف ممن شرع الله لهم إعطاء الزكاة بآية « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم »

٥ — تألفه بالجاء ولطف الكلام ، كما كان في موقفه مع الأنصار حين منّ على رجال من قريش بكثير من المال . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : « أفیکم أحد من غیرکم ؟ قالوا : لا ! إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم

فقال : إن قریشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » متفق عليه .

٦ — تألفه بالعفو في موضع الانتقام ، والإحسان في مكان الإساءة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي خير يا محمد ، إن تقتلني تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاکر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاکر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نَجْلٍ قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! يا محمد ! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، والله ما كان أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلي — أو قال الأديان — والله ما كان بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي » . متفق عليه . النجل : قليل الماء . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كنت أمتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذب بردائه جبدة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد من لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بمطاء » . متفق عليه .

٧ — تألفه باللين وترك الشدة في موضع المؤاخذة — كثيراً ما كان يصادف مخالفة لأمره ، أو جحوداً لفضله ، فيقابل الخالف بالتسامح ، ويمرّز الجاحد بالمزيد ،

فيحصل التألف ، ولا يكون هناك مجال للتقاطع . فمن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم قال : « إنا قافلون إن شاء الله ، فنقتل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ وقالوا مرة نقفل . فقال : اغدوا على القتال فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فأعجبهم ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم » . متفق عليه . ومن هذا القليل ما وقع في غزوة أحد من مخالفة الرماة لأمر الرسول بالا يبرحوا مكانهم ، ثم برحوا المكان الذي أوصاهم بملازمته ، وكان ذلك سبباً في هزيمة جيش المسلمين ، أتري أن النبي صلوات الله وسلامه عليه آخذهم وأغلظ عليهم ؟ كلا بل قابلهم باللين والرفق ، فعفا عنهم ، ولم يقابلهم بالشدة والعنف فأثنى الله عليه لذلك بقوله تعالى : (فبأرحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين) فظاً : سئ الخلق . غليظ : قاسى القلب . وجملة الأمر أن القوم لما انهزموا أولاً يوم أحد لم يعامل هؤلاء الرماة بالشدة والقسوة ، بل باللين والرفق فكان هذا تحقيقاً لقوله تعالى في مدحه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وكيف لا يكون كذلك وهو يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورقته ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقته » وهو بالضم ضد الرفق . وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » . رواه مسلم . فلما كان صلوات الله وسلامه عليه إمام الداعين ، وسيد المصلحين ، وجب أن يكون أوفهم حليماً وأحسنهم خلقاً .

وبمثل هذه المعاملة الحسنة اجتمع قلوب أصحابه حوله فتفانوا في محبته والدفاع عنه دعوته بمؤازرته ومناصرتة — وليس ما يبدو من مخالفة الأصحاب إلا أمور نادرة صورية يبعد كل البعد أن يقصد بها المخالفة ، بل مشارها ، على ما يظهر من

فخواها ، إنما هو الرأى والاجتهاد ، كتوقفهم عن التحلل من عمرة الحديبية إلى أن تحلل منها الرسول أمامهم فتابعوه ! وكادوا يقتتلون من تهاقهم على متابعتهم — وكاستعظامهم لبعض شروط المعاهدة ، حتى قال الفاروق رضوان الله عليه : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فلم تعطى الدنية فى ديننا ؟ ثم تبين لهم حسن تصرف النبي وصواب عمله فتابعوه وأثنوا عليه .

وأما مجازاته لمنكر الإحسان بالمزيد ، ومعاملته باللين وعدم التعنيف ، فلأن أعرابياً جاءه يطالب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : « أحسنت إليك يا أعرابى ؟ فقال الأعرابى : لا ! ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ثم قال . أحسنت إليك ؟ قال نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شئ ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . فلما كان العشى جاء فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أ كذلك ؟ قال الأعرابى : نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً » ذكره فى الشفاء وعن الحسن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤاخذ أحداً ولا يقرف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد — أى لا يسمع وشاية الواشين — . ويقرف : يعيب ، من قرّفه إذا عابه .

٨ — تألفه بالصبر على الأذى واحتماله له من أعدائه ، حتى كان فيه المثل الأعلى للدعاة إلى الخير . أودى فى الله فى نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعاً حكماً ، وصبوراً كريماً ، فكمناله من أذى المستهزئين وكيد المنافقين ؟ فجالج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفتيح لله تعالى ، حتى جعل له من أمره فرجاً وصار يمد لأصحابه سبيل المهاجرة ، حتى أذن له فيها ، فهاجر وقبض الله له من الأنصار المخلصين من استعان به على نشر دعوته ، وإقامة دينه — نعم أودى فى

سبيل الدعوة إلى الله حين لم يؤذ أحد في الله إذ ذاك ، فكان يقابل الأذى بالصبر الجميل ، ويعامل أعداءه بالمدارة ، ويتألفهم بحسن المصانعة ، فكان يقابل الحق ، والخرق بالحلم والرفق ، والصلف واللجاج بالوداعة والأناة ، وما كان ذلك ليضعف من عزمه فيثنيه عن تبليغ أمر الله والمضى في سبيله السامى ؛ بل ما فتى يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتي هي أحسن ، حتى ظهر أمر الله وانتصر عليهم بيد ربه حين وعده الله إحدى الطائفتين العير أو النفير ، وأمد ربه بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين — بكسر الواو وفتحها معلين — فقتل منهم نحو السبعين من بينهم عتبة بن ربيعة ذاهية الحرب ، وابنه الوليد ! وأخوه شبة ، وأبو جهل ، وابن مغيط ، وغيرهم ممن كانوا يؤذون الرسول وأصحابه ، ويعنون ويحرضون ولا يستحون — أنظن أنه تشفى منهم بعد ذلك بالتمثيل ؟ كلا : فما جدع لهم أنفًا ، ولا صلح لهم أذنًا ، ولا بقر لهم بطنًا ، ولا لأك لهم كبدا . وكان كل هذا في استطاعته — بل أمر بهم فدفنوا في القليب ، ثم وقف وقفة الأسف يناديهم بأسمائهم : يا عتبة بن ربيعة ! يا شبة بن ربيعة ! يا أبا جهل ! إلخ ، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا . متفق عليه . وقد أسر منهم نحو هذا العدد — أترى أنه فتك به ليستريح من عنائه والسيوف لم ترد إلى أغمارها ، وقد كانت أرواحهم على شفرتها ؟ كلا ! بل أخذته العاطفة عليهم فقبل الفداء من بعضهم ومن على الآخر بغير فداء ؛ حتى عاتبه الله في شأنهم . وهذا لعمرك من الرحمة والحكمة . أجل ، إن في صنيعه هذا لسياسة رشيدة ، وحكمة بالغة وعبرة يديق — إلا على من نظر بنور الله — الاعتبار بها .

ذلك أن أتباع الرسول وإن تحمسوا في ذلك الوقت للانتقام إلا أن منهم من كان يمت للأسرى بالعصبية النسبية . أو بالمصاهرة ، أو بالصدقة القديمة ، وإن مرق الإسلام وقطع كل هذه الصلات ، إلا أن الأتباع كانوا حديثي العهد بالجاهلية فكان من الحكمة ألا يستثير النبي حفيظتهم . وحسبك موقفه صلوات الله وسلامه

عليه في العقو عن سادة قريش وقد أمكنه الله من رقابهم عند فتح مكة ، فقد انتصر عليهم ووقعوا في أصفاد الأسر ، ومع هذا منّ عليهم باطلاق سراحهم فقال : « اذهبوا فانتم الطلقاء » .

ومن سياسته الحكيمة تألفه أصحابه بحسن المعاملة ، ويتجلى هذا فيما نعمته به أصحابه من أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، يؤلف الناس ولا ينفهم ، ويكرم كريم القوم ويؤليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل أحد من جلسائه نصيبه — من جالسه أوقاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، حتى صار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخاب (صخب من باب تعب ورجل صخب وصاحب صخاب كثير اللفظ والجلبة) ولا فاحش ولا عياب ، ولا مداح : فمن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً ، مادعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال ليبيك » متفق عليه . وعن أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفاً ، والله ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده صلى الله عليه وسلم إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزع » رواه أبو نعيم . وهذا غاية في حسن المعاملة . وفي أثر آخر عن أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً ، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ » أى ما شأنه وما حاله . متفق عليه . ولا يخفى ما في الخاطلة من دفع الوحشة وتوفير أسباب الألفة — والنغير تصغير نغر وهو طائر صغير كالصغور كان ذلك الصي

يلعب به فات . فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يواسيه ويمارجه . وعن الصعب ابن جثامة قال : أهديت إلى رسول الله حماراً وحشياً فردّه على ، فلما رأى ما في وجهي قال : « إنا لم نردّه عليك إلا لأنا حرم » . متفق عليه . فأى لطف أحسن من هذا ؟ وأى شعور أرق من هذا ؟ وعن جرير بن عبد الله : « ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رأيته إلا ابتسم في وجهي ، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل فضرب بيده في صدري وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً » . متفق عليه . ما حجبني أى معنى من الدخول على مجلسه المختص بالرجال . بل كان يرجع عن رأيه إلى رأى بعضهم ويشاورهم في الأمر فينزل على رأي أقلهم ، كما هو معروف في غزوة بدر ، أنه نزل منزلاً للقتال فقال له الحباب بن المنذر إن كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة . فقال : « باجتهاد ورأى » ثم ارتحل عنه كما هو مبسوط في السير — وعن أبي هريرة رضى الله عنه : « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولا يخفى ما في مشاورتهم من تطيب نفوسهم وتآليف قلوبهم ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن بحاجة إلى مشاورتهم بما ينزل عليه من الوحي ، وبما وهبه الله تعالى من نور البصيرة ورجحان العقل ، ولما كان استقلال الولي بالرأى يشعر باستبداده وترفه وعدم المبالاة بالرعية ، ومن شأن هذا أنه يورث الفضاضة ، ويستثير الحفيظة . ولا سيما من النفوس العربية ، اقتضت شرعته الحكمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ، ولا سيما في أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعروهم بمكاثمتهم عنده واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم في الأمر) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة في أمتي ، فمن شاور منهم لم يعدم رشداً ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » . وقال الحسن رضى الله عنه : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة . ولكن أراد أن يستن من بعده — وعلى الجملة فالشورى

ركن عظيم من أركان الاجتماع ، فإن الأمة إذا اختارت من بين أفرادها رجالا عرفوا بالفضل وسداد الرأي وحسن تصريف الأمور . وعهدت إليهم بمعاونة الحكم في سن القوانين ومراقبتهم في تدبير الشئون ، كان ذلك أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ فيها ، وأضمن لرعاية مصالح الرعية وحفظ حقوقهم وعدم الاستبداد فيهم ، ولذا جعل الله الشورى أساساً للحكم في الإسلام ، وأمر نبيه بها ، وامتحن القائمين بها في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » بل كان يسوسهم بالنزل معهم إلى أبعد من هذا . روى أنه عليه الصلاة والسلام « كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله علي ذبحها ، وقال آخر علي سلخها . وقال آخر علي طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي جمع الخطب . فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال علمت أنكم تكفونني ولكنني أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وكان يياسط أصحابه ويمازحهم ، فقد كان رجل يسمى زهيراً يهاديه بما يستطرف من البادية ، وكان الرسول يكافئه بموجود الخاضرة وما يستطرف منها ، ويقول « زهير باديتنا ونحن حاضرتك » وجاء يوماً إلى السوق فوجد زهيراً قائماً فجاءه من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه الرسول فجعل يمسح ظهره في صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : « من يشتري العبد ؟ قال زهير : إذن تجدني كاسدا . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت عند الله غال » .

ومن حسن المعاملة أنه كان يدعو أصحابه بكنائهم وأحب أسمائهم ، وإذا أتى قوماً جلس حيث ينتهي به المجلس ، لا يحب مظاهر التفتخ من القيام والتزلف إليه بزخرف القول ، يؤثر أهل الفضل ويحذر الناس ويحترس منهم دون أن يمنع أحداً منهم بشاشته وبشره ، وكثيراً ما كان يتغافل عما يعافه ويعرض عن يتكلم بغير الجميل ، ولا يواجه أحداً بما يكره ، أفضلهم عنده أهمهم نصيحة وأكثرهم نفعا للناس ، مجلسه مجلس هدى وعلم وحياء وحلم وأدب وخير ، لا مجال فيه للوشاة والسعاة بالمهمة ،

كما لا تذكر في مجلسه العيوب — ومع رفقه بجلساته ونزوله إلى مستواهم كان مهيباً جليلاً ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا فيما ينفع . ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه ، إلى غير ذلك مما لا يتفق مثله للقياصرة والأكاسرة وأكبر الناس رهبة وهيبة . توافرت عنده الأموال فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ، بل كان ينفقها في وجوه الخير والإصلاح ويغني بها الفاقة من الناس ، وما أكثر ما كان ينفقها في مصالح المسلمين وكف عدوان المشركين وكسر شوكة المعتدين ، وكثيراً ما كان يبيت على الطوى وعنده الكثير من المال ، فما ينام ولا يهدأ له بال إلا أن يقوم فيقسمه على المستحقين ، ومن لم فيه أمل ، ثم يعود فينال حظه من النوم — روى أن عمر رضى الله عنه قال في جمع من الصحابة : إن الله قد كان خص لرسوله في هذا الفء شيئاً لم يعطه أحداً غيره ، فقال جل وعز « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الآية ، فكانت خالصة لرسول الله ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، ولقد أعطاكموها حتى بقى منها هذا المال . وثبت أن ابنته فاطمة سألته خادماً مما أتى به من الرقيق ، وقد أثرت في يدها الرحن من شدة العمل ، فلم يجبها إلى ما طلبت باعتبارها واحدة من نساء المؤمنين ، وما كان عنده من الرقيق لا يكنى لجميع نساء المؤمنين . ولم يقف في معاملة أصحابه عند حد القول ، بل كان يقول ويفعل معهم كما يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فإلهه ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلى » رواه مسلم . الضياع بالفتح : العيال — إلى غير ذلك مما حقق به مبادئ الفضيلة والعدالة والمساواة ، ورباهم عليه حتى اجتمعت قلوبهم إليه وملّكوه أعنتها ، بل وهبوه أرواحهم وأموالهم ، عاهدون بها في سبيل نشر دعوته وإعلاء كلمته ربه ، صابرين مخلصين .

هديه في تربية أصحابه على الأخلاق السامية

وذلك يتجلى بكل معانيه في معاملته لم على النحو الذي قدمنا ، لأن لم به أسوة يحرصون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلمهم إلى ذلك فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة . ويمرّنهم على الأخذ بها ويشجع الحسن منهم ولو بالكلمة الطيبة حتى تصير ملكة وخلقاً ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون . من إرشاده إلى الأخلاق الفاضلة قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان : خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جبل الجاهل » . أخرجه البزار من حديث أنس . وقوله : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً الذين يأنفون ويؤلفون » . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة . وعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه أنه قال : أراد معاذ بن جبل سفراً إلى جهة فقال : يا نبي الله أوصني ، قال : أعبد الله ولا تشرك به شيئاً قال : زدني . قال : إذا أسأت فأحسن . قال زدني . قال : استقم وليحسن خلقك » . أخرجه ابن حبان في صحيحه . وقوله : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة . وقوله : « عفوا تمفّ نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » رواه الطبراني من حديث عائشة . وقوله « مامن شيء بأثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبيغض الفاحش البذي » . أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء : البذي بفتح فكسر ثم تشديد الذي يتكلم بالفحش وردى الكلام . وقوله : « خيار عباد الله الذين إذا رؤا ذكر الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب » رواه أحمد وغيره من حديث عبد الرحمن ابن غنم : « إن خياركم أحسنكم أخلاقاً » متفق عليه « إن الله خلقا خلقهم لحوائج

الناس يفرغ الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » رواه الطبري وغيره « أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تطرد عنه جزعاً ، أو تقضى عنه ديناً » رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يخطأوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » رواه البيهقي من حديث معاذ رضي الله عنه . مطل من باب نصر وعسر غريمه طلب منه الدين على عسرته ، بابه ضرب ونصر ، وعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضي الله عنهما كلام فقال عمار : لقد هممت بأن لا أكلمك أبداً . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا خالد مالك ولمار ، رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا وقال لمار : إن خالدا يعمار سيف من سيوف الله على الكفار ، قال خالد : فازات أحب عماراً من يومئذ » . « اتق الله حيثما كنت وأنبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح . « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر ابن عبد الله . « إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيراً منحه خلقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منحه خلقاً سيئاً » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة . « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قلت يا رسول الله وما بوائقه ؟ قال : غشمة وظلمه » أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . الغشمة بفتح فسكون الظلم فالعطف تفسير . « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح . « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله

ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفافه الله أمر دنياه » أخرج الحاكم عن ابن عمرو . وقال أنس رضى الله عنه : « لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي قط أفٍّ ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا » . متفق عليه — هذا إلى ما غرسه في نفوسهم من ملكة النظر والبحث والاستنباط ، إذ لم يكن همه على المعجزات بل توجيه النفوس إلى النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق — كما سبق .

فنشأ من ذلك (١) معرفة الخالق التي هي رأس المعارف والعلوم اليقينية ، (٢) تقوية غريزة حب النظام والجمال ، وناهيك بجمال الطبيعة . (٣) تربية ملكة تقدير الجمال والنظام والبحث في الروابط والأسباب ، وفي ذلك تربية الأفكار وتنمية العقول لأن شأنها الميل إلى التعليل والاستنتاج ، وناهيك بتربية العقول والأفكار وما ينشأ عنها من الآثار الحسنة ، ولهذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح من الشخصيات اليقظة التي لا تتخذها الشعوبة والخرافات والأوهام ، بل قل أن تجد للكهانة بين أبناء الأمة الإسلامية سوقا نافقة كما تجدها في سائر الديانات ، ذلك أن الإسلام قام على النظر في البرهان (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) — (٤) غرس مبادئ قوة العزم والرأى واستقلال الفكر والاعتماد على النفس ، ولهذا لم يجد النبي صلوات الله وسلامه عليه في أصحابه ضعفا في مواقف الجدد ، فلم يجد همهم فاترة وعقولهم قاصرة ، كما وجد موسى عليه السلام في بني إسرائيل ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبون به بلسان الخائر الجبان (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ألا بعداً لقوم لا يؤمنون ، لهذا كانوا يقترحون الآيات ويمعنون في طلب المعجزات ؟ كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا .

أثر هديه العظيم في تربية أصحابه

لقد كان لهذه التربية الحكيمة أثرها البالغ في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين — فهذا المقداد بن عمرو يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه

حين أخبرهم عن عزمه على لقاء الأعداء في غزوة بدر : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنعن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير — وبرك الغماد موضع في أقصى أراضى هجر

وهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثل ذلك حين قال النبي في هذا الموقف الرهيب « أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — لأن العدد فيهم ولأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لانجب عليهم نصرته إلا مادام بين أظهرهم ، فإن فيها (يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا) فقال سعد بن معاذ : كأنك تريدنا يا رسول الله . فقال أجل . فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسر بذلك . نعم قالوا ذلك للرسول عن عقيدة ثابتة وعزيمة صادقة ، لأنهم كانوا مؤمنين عن نظر في الدليل وتفكير في البراهين ، فضلا عن نظرهم في قوة إيجاز البيان ، والنظم الذي جاء به القرآن ، فلهذا وقالوا الإيمان يملأ نفوسهم ، والعقيدة تملك عليهم مشاعرهم وحواسهم « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فامض يا رسول الله لما أمرت » ذلك بعزيمة ماضية لانهاب الموت ، وأقوى ماتكون العزيمة إذا مازجتها العقيدة وخالطتها بشاشة الإيمان ، ولذلك جاهدوا مع نبيهم حق الجهاد ابتغاء رضوان الله الذي اهتموا إلى معرفته بفولهم السليمة ، وكانوا

مخلصين في جهادهم ، وكانوا صادقين في إخلاصهم ، وكانوا مؤمنين بحقهم وباطل عدوهم ، وكانوا واثقين بنصرهم لأنهم نصراء الله ، وكان لسان حاملهم يقول (قل عل تر بصون بنا إلا إحدى الحسينين) : النصر أو الشهادة ، ولذا كانوا كالجبال الراسيات التي لا تزلزلها العواصف ، بل كانوا كالصواعق على أعداء الله ورسوله ، ولهذا خطوا أول خطوات النصر في موقفهم هذا يوم بدر ، ثم تتابع النصر وما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم من القرح ، ولا سيما بعد أن آسأهم الله في كتابه بقوله (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس) القرح بالفتح والضم الجراح والقتل ولذا ساروا إلى الأمام حتى أغر الله بهم الإسلام وظهرت كلمته على سائر الأديان . وحسب الرسول صلوات الله وسلامه عليه من آثار هديه العظيم هذا الأثر البالغ الذي تجلى بأكل معانيه في عزم أصحابه وعلو هممتهم ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على مبدأ العدالة والمساواة ما تجلى أيضا بأكل معانيه في الفاروق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على قوة الثقة بالله تعالى بالتوكل عليه ورجاء الثوبة عنده ، ما تجلى بأكل معانيه في الناسك عثمان رضى الله عنه ، « أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر ؟ قال خلفت لهم نصف مالى . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟ فقال عدة الله وعدة رسوله فبكى عمر رضى الله عنه وقال : بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير إلا كنت سابقنا » . رواه ابن أبى حاتم من حديث عامر الشعبي . وعن عبدالرحمن بن خباب قال : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبحث على جيش العسرة « فقال عثمان بن عفان : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يا رسول الله على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يا رسول الله على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فنزل

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ماعلى عنان ماعل بعد هذا » . أخرجه أحمد والترمذى . والأحلاس جمع جلس : وهو كساء يُجعل على ظهر البعير تحت رحله — والقتب غطاء يوضع على ظهر البعير كالإكاف لتبويه وما إلى هذا مما لا نطيل به والله الهادى إلى سواء السبيل .

كتبه صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك والأمم

لقد سن لنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سنة حسنة بمكاتبته الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يبلغوا أممهم ، فذكر كتبته إلى الملوك والأمراء لتكون عوناً للدعاة العاملين ، ونبراساً للهداة المرشدين ، فنقول : بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر السنة السادسة من الهجرة ، كاتب صلوات الله وسلامه عليه ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطابه وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبي بكتاب إلى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك ، وكان في الكتاب على مائتة في الصحيحين :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم : أسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، وإيا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون . سلام على من اتبع الهدى . معناه سلم من عذاب الله من أسلم ، فليس المراد به التحية ، وإن كان اللفظ يشعر به ، لأنه لم يسلم فليس هو بمن اتبع الهدى : الأريسيين جمع أريسي نسبة إلى أريس كفيل وهو الفلاح ، بصدده إيام عن لإسلام (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا نسيلا) أى عليك مثل إثمهم .

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا أحداً من قومه نسأله عنه — وكان أبوسفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة — فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه : سلمهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبوسفيان : أنا — لأنه لم يكن في الركب من بنى عبد مناف غيره — فقال قيصر : أدن مني ، ثم أمر بأصحابه فجلّوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه كي لا تنجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال لا ، قال هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال لا ، قال فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟ قال بل ضعفائهم . قال هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال بل يزيدون . قال هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قال نعم ، قال فكيف جربكم وحره ؟ قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا . قال فهم يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله . وسألتك هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ،

فذكرت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب مُلك أبيه ،
وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل
وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان
حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سُخْطَةً لدينه ، فقلت لا ، وكذلك الإيمان
حين تخالط بشائسته القلوب ، وسألتك هل قاتلتُموه ، فقلت نعم ، وإن الحرب بينكم
وبينه سجال ، وكذلك الرسل تُبْتَلَى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم ،
فذكرت أنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان
ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر ؟
فذكرت أن لا ! وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث
ولم أظن أنه منكم ، وإن كان ما كلمتني به حقاً فَسَيَمْلِكُ موضع قَدَمَي هاتين ، ولو أعلم
أنى أخلصُ إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنتُ عنده اغسلت قدميه . قال أبو سفيان :
فعلت أصوات الذين عنده وكثر لفظهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ،
فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك
بنى الأصفر ، فما زلتُ موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام . ولما سار
قيصر إلى حصص جمع عطاء الروم في قصر له فيها ، وأمر بالأبواب فأغلقت ، ثم أطل
عليهم فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا
هذا النبي . فخاصوا حَيَصَةَ خمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى
قيصر نفرتهم ويئس من الإيمان قال ردوهم على ، فقال لهم إني قلت مقاتلي أختبر
بها شدتكم على دينكم فقد رأيتم ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن
هَرَقْل ، فغلبه حب الملك على الإسلام فذهب بإيمته وإثم رعيته ، ولكنه رد دحية
رداً جميلاً — حاصوا . نفروا —

وكتب إلى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي
ملك الحبشة ، أسلم أنتَ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس
السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم

القول^(١) الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلق الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

وقد بعث صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري فقال للنجاشي : يا أحممة إن عليّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا وكأننا في الثقة بك منك ، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمنّا وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يردّ ، قاض لا يبور ، وفي ذلك الموقع الحزّ وإصابة المفصل ، وإلا فانت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فراك لما لم يرجهم له ، وأمتك على ما أخافهم عليه ، بخير سالف وأجر ينتظر . فقال النجاشي : أشهد بالله إنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفي من الخبر . ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أحممة ، سلامٌ عليك يا بني الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرتَ تَقَرُّوقاً ، إنه كما ذكرتَ وقد عرفتُ ما بعثتَ إلينا ، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً . وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . والتفروق غلاقة بين النواة والقشر .

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله

(١) البيتول من النساء المنقطعة من الأزواج وقيل المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا

ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » ، أسلم تسلم فإن آييت فعليك إنهم المجوس . فلما قرأ عليه الكتاب مرزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مرزق الله ملكه . وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً ، وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه ، فماجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهاء عما أمره به أبوه — وكان الحامل لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي .

وكتب صلوات الله وسلامه عليه إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وبعث به صلوات الله وسلامه عليه مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يمتبر بغيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقد ما سواء ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدم عليه قریش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعبسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به . فقال المقوقس : إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر

بجهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبأ ، والأخبار بالنجوى ، — الخبأ : ما خفي في غيره ، وإخراجه : إظهاره . والنجوى : السر . — وسأنظر . وأخذ كتب النبي صلى الله عليه وسلم فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له . ثم دعاه . كاتماً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن سيأتي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبشت إليك بخريتين في مكان عظيم في القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك » : ولم يسل . وإحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام . ثم منها مولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاهما لحسان بن ثابت رضي الله عنه . والغلة دُلْدُل بقيت إلى زمن معاوية رضي الله عنه .

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه عنهم كيف رأيتهم قالوا رأينا قوما ماتوا أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا ببهجة أميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وصيهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ينسبون أطرافهم بالماء ويحشعون في صلاتهم ، وهنا قال المقوقس والذي يحلف به : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد هذا وصف المسلمين أيام كانوا في عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى المنذر بن ساوى

بعث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ،

أَسْلَمْتُ أَنْتَ فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِن مِّنْ صَّلَاتِنَا وَاسْتَقْبَلْ قَبْلَتَنَا وَأَكُلْ ذَيْبِحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ الرَّسُولِ ، مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ مِنَ الْجُمُوسِ فَإِنَّهُ آمِنٌ ، وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ » . فَأَسْلَمَ وَكُتِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَا بَعْدُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ فَهُمْ مِنْ أَحَبِّ الْإِسْلَامِ وَأَعْجَبِهِ وَدَخَلَ فِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ ، وَبَارِضِي مَجُوسٍ وَيَهُودٍ فَأَحْدَثَ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَمْرًا .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُنْذَرِينَ سَاوِي ، سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، (أَمَا بَعْدُ) فَإِنِّي أَذْكُرُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحُ فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَطْعُ رِسْلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ نَصَحَ لِي فَقَدْ نَصَحَ لِي ، وَإِن رِسْلِي قَدْ أَتَيْنَا عَلَيْكَ خَيْرًا ، وَإِنِّي قَدْ شَفَعْتُكَ فِي قَوْمِكَ فَارْكُ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ . وَإِنَّكَ مَهْمَا تُصَاحِّحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ » .

كِتَابُهُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى مَلِكِي عُثْمَانَ

وَكُتِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَلِكِي عُثْمَانَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَفِيهِ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى جَيْفَرَ وَعَبْدِ ابْنِي الْجَلَنْدِيِّ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ اسْلِمْنَا تَسْلَمْنَا فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْذَرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ إِنَّكُمْ إِنْ أَقْرَرْتُمْ بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتَكُمْ . وَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ تُقْرَأُوا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مَلِكَكُمْ زَائِلٌ عَنْكُمْ وَخَيْلٌ تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمْ وَتُظْهَرُ نُبُوتِي عَلَى مَلِكِكُمْ » كَتَبَهُ أَبِي بَنِي كَعْبٍ وَخَتَمَ الْكِتَابَ . قَالَ عَمْرُو : فَخَرَجْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى عُثْمَانَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا عَمَدْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ — وَكَانَ أَحْلَمَ الرَّجُلَيْنِ وَأَسْهَلَهُمَا خَلْقًا — فَقُلْتُ : إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالنسب والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال : وماتدعو إليه ؟ قلتُ أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وتخلع ما عُبدَ من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال فتى تبغته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشي ! وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نستحلّه في ديننا . ثم قال : ما أرى هرقلَ علم بإسلام النجاشي . قلت بلى ! قال بأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يُخرجُ له خراجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال : لا والله لو سألتى درهماً واحداً ما أعطيته . فبلغ هرقلَ قوله فقال له النّبيّ أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً ؟ قال هرقل ؟ رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذى يدعوا إليه ؟ لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فبردها على فقيرهم ، قال إن هذا خلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل ، قال يا عمرو :

تؤخذ من سوائهم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ! فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عدوهم يطيعون لهذا . قال فكنت ببابه أيا ما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بصَّبْعِي — الضبع وسط العضد أو ما تحت الابط — فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت إليه قال تكلم بمجانتك ، فدفعت إليه الكتاب فغتموا ففرض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أني رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرني عن قریش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتنبه نوطتك الخليل وتبيد خضراك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخليل والرجال . قال : دعني يومى هذا وارجع إلى غدا . فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه ، حتى إذا كان الضد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هنا ، وإن بلغت خيله ألقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غدا . فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا . وصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى ملك اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هُوَذَةَ بن عَمَلِي ، سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر — الخلف للبعير والحافر للفرس ويطلقان عليهما ، والمراد إلى غاية ما تصل إليه قوتي — . فأسلم تسلم

وأجعل لك ما تحت يديك » . وقد بعث بهذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامري فأكرم هوزة وفادته وكتب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسن ما تدعو إليه وأجله ، وأنا شاعر قومي وخطيئهم ، والعرب ، تهاب مكاني ، فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر . فقدم بذلك كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . وقرأ النبي صلوات الله وسلامه عليه كتابه فقال : « لو سألتني سبابة من الأرض ما فعلت ، بادّ وبادّ ما في يديه » فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة . وكان صلوات الله وسلامه عليه يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر

وقد وجه صلوات الله وسلامه عليه شجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان يقيم بغوطتها ، وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » فلما قرأ الكتاب رمى به وقال : من ينزع ملكي مني . واستعد ليرسل جيشا لحرب المسلمين ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف أن كان دحية عنده فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال — ثم بعث بعد ذلك على بن أبي طالب إليهم ووافاه بمكة في حجة الوداع — وبعث المهاجر بن أبي أمية الخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري باليمن ، فقال : سأنظر في أمري — وبعث جرير بن عبد الله البجلي إلى ذى الكلاع الحميري وذى عمرو يدعوها إلى الإسلام فأسلما وتوفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وجرير عندهم .

الفصل الثالث

أشهر الدعاة من عهد الرسول وما بعده وهديتهم فيها

لقد كان المسلمون في الصدر الأول ، ولا سيما على عهد الخليفين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، يهتمون بأمر الدين ، فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم ، الذين عاشروا النبي صلوات الله وسلامه عليه وتلقوا عنه ، متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ، ومقاومة كل ما يمس شيئاً من عقائده وأحكامه وآدابه ، ومصالح أهله . فخطبهم في التحريض على القتال دعوة إلى الله تعالى ورفع دينه وإعلاء كلمته ونشر دعوته ، وخطبهم في الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى الألفة والأخاء دعوة إلى الله تعالى ، وخطبهم في الشورى مظهر لفهم الدين ، كل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية . والكل كان مرجعه في هذا كتاب الله وسنة رسوله ، والمبادئ الإسلامية المعلومة من الدين ، وهكذا في كل أغراضهم كان الدين فيها هو الأساس الذي تقوم عليه دعوتهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الدين الحنيف كان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الذي إياه يحتكمون ، والشرع الذي غلى مقتضاه يسرون ، في كل ما يأتون وما يذرون ، كما يعلم هذا بالوقوف على خطبهم في قواد الجيوش ووصاياهم في عمال الولايات ، ونصائحهم في جمهور الأمة — وكانت عامتهم من ورأيهم يراقبون القائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصعلوك من رعاء الشاء يأمر مثل عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب . ولا بدع فالخلفاء على نراحتهم ورفعة مقامهم ليسوا بمعصومين — وقد صرح عمر رضي الله عنه بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . وقد كان في صدر الإسلام وما يليه يتصدر للدعوة والإرشاد في المساجد العامة والمجتمعات العامة أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل ، وكان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ، ويتبعهم العدد الكثير من

عامة الأمة ، فكان لهم أحسن الآثار وأعظم الفوائد في تصحيح العقائد وإصلاح الأعمال ، وتهذيب النفوس ، والإرشاد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

ومن أحرز قصب السبق في هذا المضمار الحسن البصرى ، وهو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى . كان أبوه يسار من سبى ميسان — بلدة بالعراق — سباه الأمير المنيرة بن شعبة مع سيرين أبى محمد بن سيرين ، حينما افتتحها في عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى وكانت أم الحسن — وتسمى خيرة — مولاة لأم سلمة زوج النبی صلوات الله وسلامه عليه ، وفي بيتها ولد الحسن سنة ٢١ هـ . وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة نديها تطله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليه نديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كاتبا من بركة ذلك . ولشأ الحسن بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة عن الأعراب ، وسمع عثمان ، وروى عن عمران ابن حصين وأبى موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وجندب وزيد بن ثابت الأنصارى ولما أتم علومه ومعارفه ، وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتباً لربيعة بن زياد الحارثى والى خراسان ، وأحد قاتحها لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن . وفضله وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب في الأعمال والولايات ، مع انقياب مسجد البصرة يعمد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكته ، ويبثهم معارفه وفلسفته ، وينشر بينهم دعوته السياسية في تثبيت دعائم الدولة ، إلى أن اختاره عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٩٩ هـ . وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين . وحقاً لقد كان سيد التابعين ، وإمام أهل العلم والحكمة والرأى في عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة في أعلى مقام مع الزهد والورع ، والنسك والتقى ، حتى كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخنا الحسن ، وإنه سيد سمح ، وإنه أخطب الناس وأفصحهم ، وإن علانيته أشبه بسريرته ، وسريرته بعلانيته ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ناهيك من

رجل استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما في يديه من أمر دينهم
 قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلاً يعمل بعمل الحسن البصري ؟ فقال :
 رحم الله الحسن ، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله : ، فكيف يعمل بعمله ، كأن الله
 إذا ذكرت عنده النار كأنه لم يخلق إلا لها ، وما روى قط إلا وكأن النار والجنة
 بين عينيه ، خشية ورجاء ، لا يظلب أحدهما صاحبه — وسمعت السيدة عائشة
 رضى الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ؟ وقيل لعلى
 ابن الحسن رضى الله عنهما : إن الحسن البصري يقول : ليس العجب لمن هلك
 كيف هلك ، وإنما العجب لمن نجا كيف نجا . فقال على : سبحان الله هذا كلام
 صديق . وروى عن الأعمش أنه كان يقول : ما زال الحسن البصري يعنى بالحكمة
 حتى نطق بها . وسمعة آخر وهو يعظ فقال : لله درك إنك لفصيح إذا تلفظت ،
 ناصح إذا وعظت . وكانت مجالس الحسن مجالس الذكر يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه
 من النساك والعباد في بيته مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السختياني
 ومحمد بن واسع وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور
 فيتكلم عليهم قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري .
 إلى غير ذلك من الصفات التي ألبسه إياها شيوخ عصره . وقد روى أبو حيان
 التوحيدى وصفاً جامعاً له قال :

كان الحسن بن أبي الحسن البصري من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً
 وورعاً وغفة ورقة وتأملها وتنزهها ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواظله تصل
 إلى القلوب ، والمواظله تلتبس بالمقول ، وما أعرف له ثانياً ، لا قريباً ولا مدانياً ،
 كان منظره وفق محبرة ، وعلايته في وزن سريره — عاش تسعين سنة لم يُعرف
 بمقالة شماء ، ولم يُرَنَّ بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقي الأديم ، محروس الحریم ،
 يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض
 عليهم باقتنائه ، هذا يأخذ عنه الحديث . وهذا يلقي منه التأويل ، وهذا يسم من

الحلال والحرام ، وهذا يجود له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو في جميع هذا البحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشبهه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العذب ، كالحجاج وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لأئمة في الله ، ولا تُذهله رأفة عن الله . يجلس تحت كرسية قتادة صاحب التفسير . وعمر وواصل صاحب الكلام ، وابن أبي إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخي صاحب الرقائق ، وأشبه هؤلاء ونظرائهم ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجري مجراه ؟ ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوض غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ، ولسان عاضب ، وأن يكون من دعاة الدولة والذائدين عن كيانها ، المواطنين لدعائهم وأركانها بما أوتي من فصاحة وبيان ، وقوة لسن وافتنان . ومهما أغفل التاريخ من الكلام عن مذهبه السياسي فإن مما لا شك فيه أن الدولة المروانية مدينة له بقوة حكمته وبلغ بيانه . كما هي مدينة للحجاج بقوة سياسته وشدة جنانه وأنت عليم بأثر الدعاية السياسية في بسط نفوذ الدولة وقيام سلطانها في الأقطار ، وانبعاث هيبتها في الصدور . فلما كانت الدولة المروانية قد نشأت في عصر لا يزال الدين غصاً ، كان لا بد للقائم للدعوة لها من الالتجاء إلى الدين للاستعانة ببعض ما يتصل به من الفكر والآراء والأقيسة ، يشد بها جوانب دعوته السياسية وقد كان ذلك المزيج من السياسية . وقد كان ذلك المزيج من السياسة والدين مذهب الحسن فيما هو بسبيله من هذه الناحية ، من حياته السياسية .

فلولا الحسن وسيف الحجاج ، لوئدت الدولة المروانية في مهدها ، ألم تر إلى الحسن وقد جلس في مجلسه وبين يديه صنوف من الناس على اختلاف الملل وفيهم حتى اليهود والنصارى ، يصنعى كل منهم إلى أقواله ، وهو يخرج بهم في أساليب الكلام من باب ويدخل معهم في كل باب ، ثم يقول لهم فيما يتحدثون به : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، وإنما هم نعمة ينتقم الله بهم من يشاء ، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع وفي أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه في حلها ، فقال لهم : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : يا رسول الله ألا تسعر لنا ؟ فقال : إن الله هو المسعر ، إن الله هو القابض . إن الله هو الباسط . وإني والله ما أعطيكم شيئاً ولا أمتنعكموه . بهذا وأمثاله كان يزرع هبة الملوك والولاة في صدور الناس ، وبهذا وأمثاله كان يبعث الرضا في النفوس ، غير مصانع ولا مخادع ولكنه الصدق واليقين والنفقة بما يحدث ويقول . ولم يكن يهاب أحداً في قول الحق مهما علا قدره وعزت شوكته .

لما ولي يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق وخراسان سنة ١٠٣ هـ استدعى ابن هبيرة إليه الحسن ومحمد بن سيرين ، وعامر الشعبي ، فلما حضروا إليه قال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة له ، وقد ولاني ماترون فيكتب إلى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ فاستكان ابن سيرين والشعبي تقيّة ولم يجرؤ واحد منهما على معارضته ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تحف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدينه وعباده . فلا تركب دين الله وعباده بسلطان الله . فإنه لا طاعة للخلق في معصية الخالق . فأكبر ابن هبيرة ذلك منه وأجازه وأضعف جائزته ، فقال الشعبي لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا . وهذا يدل على ما كان له في الدولة من مكانة وفي النفوس من جلاله .

ومحصل هذا أن الأمير كان يكتب إلى ابن هبيرة كتباً يرى في تنفيذها معصية الله . فيخاف إن أطاعه غضب الله وإن عصاه لم يأمن سطوته فعرض أمره على هؤلاء فهون الشعبي وابن سيرين عليه الأمر ميلاً منهما إلى هوى الأمير . أما الحسن فقد أنكر عليه طاعة الأمير فيما فيه معصية واشتد في الإنكار . وأن هذا الوالي انعظ بقوله وانقاد له وأجزل له في العطاء لشجاعته في الجهر بالحق كما ترى .

أما مذهبه الاعتقادي فيظهر أنه كان يرى رأى القدرية كأكثر زعماء المعتزلة وأكابهم . قال أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، كما في قوله تعالى : « يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » وقال داود بن أبي هند : سمعت الحسن يقول : كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي . وهذا هو بعينه رأى المعتزلة في القدر — وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ رحمه الله . وتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا بشأنه حتى لم تقم صلاة العصر بالجامع في ذلك اليوم ، وكانت هذه أول مرة وقع فيها هذا الحادث منذ كان الإسلام ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . هذا قليل من كثير من مناقبه رحمة الله تعالى عليه .

وأبو إدريس الخولاني عاين الله بن عبد الله أحد من جمع بين العلم والعمل ، أخذ عن معاذ بن جبل وكثير من الصحابة ، كان واعظ أهل دمشق وقاصمهم وقاضيههم قال الزهري : كان أبو إدريس من فقهاء الشام ، توفي سنة ثمانين — وطاوس بن كيسان اليماني الجندى من الأبناء سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم ، وكان رأساً في العلم والعمل والوعظ ، قال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقال الذهبي : كان طاوس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئاً في وعظ الملوك والأمراء ، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة .

وعمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمداني المرحوم الكوفي وكان يكنى أبادر

وهو ثقة في الحديث ، روى له البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ...
 ووالده أبا ذر بن عبد الله يكنى أبا عمر ثقة أيضاً من أقران النخعي وسعيد بن جبير
 روى له الجماعة . كان عمر هذا قاصاً بليغاً مؤثراً إذا وعظ بكى وأبكى الناس . قال
 ابن السماك : لما دفن عمر ابنه ذر وقف على قبره فبكى . وقال : اللهم إني أشهدك
 أني قد تصدقت بما تليينى عليه من مصيبتى فيه عليه . فأبكى من حضر ، ثم قال :
 شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، ثم ولى وهو يقول : انطلقنا وتركناك ، ولو أقفنا
 ما نفعتناك ، ولكن أستودعك أرحم الراحمين . مات سنة ثلاث وخمسين ومائة
 رحمة الله عليه .

وابن السماك وهو أبو العباس محمد بن صبيح مولى بنى عجل المعروف بابن السماك
 القاص الكوفي ، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ جمع كلامه
 وحفظ ، ولقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم ، مثل هشام بن عروة والأعمش .
 وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره . قدم بغداد زمن هارون الرشيد ثم رجع إلى
 الكوفة فمات بها سنة ثلاث وثمانين ومائة ، ومن كلامه : خف الله كأنك لم تطعه ،
 وأرج الله كأنك لم تعصه . ومنه : من جرعت الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعت
 الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . ومنه أيضاً : خير الإخوان أقلهم مصانعة في النصيحة ،
 وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف
 السلطان ، مالا يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير
 الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأنخلاق أعونها على الورع ، وإنما يختبر ذل الرجال
 عند الفاقة والحاجة ، وأخباره ومواعظه كثيرة .

وسفیان الثوري وهو أبو عبد الله سفيان بن سعد الثوري الكوفي كان إماماً
 في الحديث وغيره ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وتقاه وثقته ، وهو أحد
 الأئمة المجتهدين والهداة للرشدين ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ،
 وورعهم في ثوابه ويحذرهم من عقابه . وكان الناس يختلفون إليه للانتفاع به في

دينهم ودينهم ، وله مع الأمراء مواقف مشهودة كما سيأتى . توفي رحمه الله بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة . وثورى نسبة إلى ثور بن عبد مناة من أجداده .

وابن سمعون وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل الواعظ البغدادى المعروف بابن سمعون ، كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ولطف العبارة ، وكان لأهل العراق فيه اعتقاد عظيم ، وتعلق شديد . توفي رحمه الله ببغداد سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

وشذيلة الواعظ ، وهو أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك بن منصور الجليلانى المعروف بشذيلة الفقيه الشافعى الواعظ ، كان فقيها فاضلا واعظا ماهرا . فصيح اللسان حلو العبارة ، كثير المحفوظات ، صنف فى الفقه وأصول الدين والوعظ . توفي رحمه الله ببغداد سنة أربع وتسعين وأربعمائة — وشذيلة — بفتح فسكون ففتح الياء واللام — لقب له .

والامام ابن الجوزى عالم الآفاق وواعظ العراق ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن ابن على بن محمد الجوزى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . كان علامة عصره وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ . صنف فى فنون عديدة ، وله فى الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه يطول شرحها . وسيأتى بيان طريقته فى نشر الدعوة . توفي رحمه الله عليه ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة . وألجوزى نسبة إلى فرضة الجوز موضع مشهور .

هؤلاء الذين سميناهم أجل الذين كانوا يروون الحديث ويقتون الناس ويدعونهم إلى الخير . وأمثال هؤلاء ممن برعوا فى الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى الحق . مستقف إن شاء الله تعالى على شئ من مواظ هؤلاء الأجلاء ومواقفهم لدى الأمراء .

هديهم فيها

والكثير منهم كان يسلك فى دعوة الناس وهديتهم طريق الكتاب والسنة ، وبعضهم كان كثيراً ما يستعين فى التذكير بضرب الأمثال وقصص الأولين .

سيراً على نهج القرآن الحكيم استرعاء للسامعين . وقد غلب ذلك على هذا البعض حتى عرفوا باسم القصاص ، وحتى استسلم له طائفة من الدخلاء واسترسل فيه إلى أن نسي معه المقصود الأسمى من الإرشاد ، فكان بعض من أوتى ذلاقة في اللسان وقوة في البيان يعتمد على هذا الطريق ، ويتصدى للوعظ مع قلة بضاعته العلمية وعدم تمكنه في الحقائق الدينية ، فيختلس من العامة إجلالا وتعظيما لاحق له فيه . وكان ذلك يثير عليه من معارضة المنافسين له ما يكشف خبيثته ، ويبين غور مقدرته بل كان منهم من يفتضح أمره ويظهر جهله .

وكان عاقبة هذا التنافس انصراف كثير من كبار العلماء عن التصدى إلى إرشاد الناس ، وعكفوا على تحقيق المسائل العلمية ، قانعين بما كانوا يجدون من اللذة العقلية في الوقوف على دقائق العلوم ، مكثفين بمن يعرف فضلهم ويغترف من بحار علمهم ، بقلوب سليمة ورغبة صادقة من خواص الطلاب ، فأصبح العلم صناعة محصورة بين طبقة خاصة ، وتركوا جمهور الأمة لمن يتصدى لإرشادهم من ذوى البضاعة المزجاة ، وباليتهم مع هذا أحسنوا العمل وأخلصوا في القيام بهذه الوظيفة الخطيرة ، بل قاموا يريدون بها الارتزاق . فجزء ذلك إلى سقوط المنزللة وانحطاط القيمة وانصراف الناس عنهم وضياع روح التأثير والانتفاع . ومن هنا أفلت العامة من أيدي العلماء ، وترفع السادة العلماء عن مخالطتهم ، وأصبح الفريقان يتلاومون ويتناكرون ، فهؤلاء يقولون : ما بال الناس قد ثقل عليهم أمر الدين وأنصرفت نفوسهم عن الهدى والرشد ! ؟ وأولئك يقولون : أين علماء العالمون يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ أين حاة الدين يصلحون الفاسد ويقومون الموج — وزاد الخرق اتساعا بميل الأمراء والحكام إلى إقصاء ذوى الغيرة من العلماء فرارا من قيودهم الضيقة « في زعمهم » ولكيلا يزاحمهم في المكانة التي استأثروا بها ، فأبعدوا المخلصين الصادقين في التمسك بالدين وقربوا المنزلقين المتساهلين المسهلين لهم رغائبهم ، المسارعين إلى هوائهم ، فزاد هذا

في انزواء العلماء العاملين منكبين على ممارسة العلوم ، منهمكين في أنواع العبادة ، واجدين لذلك من اللذة الروحية ما أنساهم زخرف هذه الحياة ، وشغلهم عن التعلق بمخاطم الدنيا ، حتى استلأنوا ما استوعره المترفون . وأنسوا بما استوحشه المنعمون . قال قائلهم: « نحن في لذة لوعلمتها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف » .

ولقد كان الاقبال على الدعاة والتعلق بالمرشدين موجوداً في كل عصر ، على قلته وعدم وفائه بحاجة الأمة ، وكان الناس يعززون العلماء ويوقروهم ويقرون لهم بمنزلة خاصة لما يعرفون لهم من علم وعمل ، ويعتقدون فيهم أنهم حفظة الدين وحراسه — ولازال أمر الإرشاد يتراجع إلى الوراء حتى لم يبق منه اليوم إلا اسمه ، ولم يعرف منه الآن إلا رسمه ، والأمة تتدهور في أخلاقها وتتأخر في معلوماتها ، حتى ضلت سواء السبيل ، وجارت من حيث لاتدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى . وتاهت في تيه الهوى وتردت في مهاوى الردى . وأصبح المعروف منكراً ، وصار المنكر معروفاً . كل ذلك من سكوت رجال الدين وتساهل الأمراء وإهمال الحكام في تنفيذ أوامر الدين ، إلا من رحم الله .

ولو أن رجال الدين وجهوا شطراً من عنايتهم إلى النظر في أمراض الأمة وساروا في العمل على مداواتها بحزم وحكمة ، لكانت الأمة اليوم صحيحة في عقائدها ، صالحة في أعمالها . قوية في عاداتها . متينة في أخلاقها . بصيرة في أمر دينها . سليمة من الزلل . بعيدة عن مواقع الخطر . وإذا كانت علل تدهور الأمة في آدابها وتأخرها في أمر دينها إنما نشأت من إغفال تعليمها وتهذيبها ، وإهمال إرشادها إلى الخير وتحذيرها من الشر ، فسبيلُ إنقاذها من سقطتها وخلاصها من ورطتها بين واضح ، وسهل قريب — وهو أن يبصر السادة العلماء هذا الخطر الحديق بالأمة ويدركوه كما هو ، ثم ينشطوا في الدعوة إلى الخير ، يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويعرسون الفضيلة في نفوس الأمة ، خصوصاً الناشئة من أبنائها وبناتها — فهذا وحده هو سبيل سعادتها وفلاحها إذا أحببنا أن نكون

من السعداء المفلحين . وهذا — دون سواء — طريق خلاصها من الشقاء ونكد العيش إن رغبتنا أن نكون سادة آمنين .

ولا يفتي رجال الدين عذراً عند الله أو عند الناس أن يلقوا كل التبعة على ولاية الأمور إذا لم ينصروا الدين . أو على الأغنياء إذا هم قبضوا أيديهم عن المساعدة بالمال أو الجاه . أو على الفاجرين والملحدّين إذا هم تعدوا حدود الأدب مع الله ، وتمردوا على شرع الله . فقد علّمهم الله كيف يدعون إلى الخير ، وعلمهم أن العلم النافع متى اقترن بالإخلاص لا بد أن يحدث في القلوب (ولو قاسية) والنفوس الغافلة (ولو طاغية) أثراً لا يستهان به . وعلمهم أن الحق لا بد ظافر منصور وإن قل أهله ، وأن الباطل لا يثبت في وجه الحق أبداً وإن كثرت أشياعه وأنصاره . قال الإمام على رضي الله عنه وكرم الله وجهه « لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق » .

أى لا بقاء للباطل إلا في غفلة الحق عنه ، كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة . ينبت بإهمالها ، وينمو بإغفالها ، فإذا وجه الزارع إليها عنايته غلبه الخصب وذهب به النبات النافع .

وقال بعض الحكماء قليل الحق يدفع كثير الباطل كما أن قليل النار يُحرق كثير الخشب .

واجب العلماء

لا يظلم السادة العلماء من يقول لهم : أتمم ورثة الأنبياء في العلم والحكمة ، وخلف لهم في وظيفتهم ، وما كان من طريقهم أن ينزروا في مساجدهم ، ويلزموا أما كنهم ويلزموا الناس أن يقبلوا عليهم بل كانوا يتعرضون لهم ويسعون وراءهم يدعونهم إلى الخير ، ويرشدونهم إلى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد ، بل جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كان محفوفاً بالمكارة والخواف ، ولم يقتل

في سبيل ذلك منهم نبي وصديق ، فكانوا أفضل الشهداء . روى أبو داود في سننه عن أبي سعيد مرفوعاً « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » وقد ورد أن علماء السلف تصدوا لنصيحة الملوك والأمراء الظالمين على ماسياتي إن شاء الله . لا يظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم وأدوا الأمانة التي في أعناقكم إلى أهلها ، بعد إيمانهم بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبعد قول الله تعالى (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا^(١) قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وبعد قول إمام المرشدين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه . ثم تدعونهم فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال حديث حسن . وبعد قول سيد الداعين إلى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » رواه مسلم . وبعد قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : ما آتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق لا يكتمه . وقوله كرم الله وجهه : ما أخذ الله على الجاهل أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا

لايس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم في تخليهم عن إرشاد الأمة حتى غلبهم عليه الدخلاء ، وبرز فيه الأدعياء ، بمن لا يحسنون تهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، وهداية الناس ، بل هو محتاج إلى أن يهذى لتصحيح عقائده وإحكام دينه ، وإصلاح نفسه .

لايس كرامة العلماء من يقول لهم : أتم رعاية الأمة في تصحيح عقائدها وصيانة دينها وكل راع مسئول عن رعيته .

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

(١) الإنذار الإعلام بالخوف للاحتراز عنه وكل منذر معلم ولا عكس والمراد التعميم والإرشاد .

أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الأكفاء . وألو الأهواء . وتمادوا في باطلهم حين تخلى رجال الدين عن واجبهم . وتنحوا عن وظيفةهم . فكانت العاقبة ماترى مما يحتاج إلى أزمنة طويلة . وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة في إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى طاعة الله بعد إحكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقتناع ووسائل التأثير ، مع صدق النية والإخلاص في العمل ، والتحلى بالرفق والتجمل باللين وسعة الصدر .

فهذا هو سبيل الحكمة لا يضل من سلكه . ولا يزل من تمسك به . فإنه نعم السبيل الذى يوصل إلى الغاية المقصودة ، والطريق القويم الذى يرشد إلى الضلالة المنشودة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفصل الرابع

فى الوعظ والإرشاد

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ . وتذكير . وقصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصيح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يئلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفى الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية . والتذكير : تعريف الخلق نعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والتذكير يقال على الاتعاض ومنه قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقوله « سيدك من يخشى » ومثله الادكار « فهل من مدكر » .

(والقَصَص) تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها . والقصاص من يفعل ذلك . وهو في الغالب عبارة عن يروي أخبار الماضين — وكثير من الناس يطلق على الواعظ اسم القاص — وعلى القاص اسم المذكر . والتحقيق ما ذكرنا . وأما الإرشاد : فهو الهداية إلى الطريق الموصل إلى المطلوب — والرشاد والرشد بضم فسكون ، والرشد بفتحات ، كما في القاموس ، الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص إذا طلب الرشـد أو اهتدى . وقد يطلق الوعظ والإرشاد في عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية الاعتقادية أو العملية أو الخلقية ، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار .

وإجمالاً فالوعظ هو النصيح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل . والإرشاد الحث على الخير والتحذير من الشر على الوجه المتقدم وهو الترغيب والترهيب .

وغايته : صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم . وشرفه جسيم . فإنه متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ولما كان الإنسان مركباً من الجسم والروح ، وكان كلاهما عرضة للأمراض والعلل ، لا جرم كان محتاجاً إلى طيبين ومتشوقاً إلى علاجين . علاج الجسم وعلاج الروح ، ولا شك أن أفضل العطين ما أصلح أشرف الجزأين ، ولا يخفى أن طب الأجسام قد يصادف ذا روح شرييرة ونفس خبيثة ، فتكون محتها فساداً وشراً على المجتمع . ومحال أن يكون مثل هذا في طب الأرواح فهو دائماً مقض إلى الخير والصلاح ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بأمور : (الأول) أنه

وظيفة الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعظماء المجاهدين : فانهم إنما بعثوا لهداية العالم وسن طريق السعادة للناس في الدارين بتعليمهم عند الجهالة ، وإيقاظهم من الغفلة ، ووقفهم عند حدود الأدب ،

عند التمرد لينقذهم من حضيض الجهل والذيلة ، إلى ذروة العلم والفضيلة
(الثانى) من حيث إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها—أعنى الأمور الروحية —
(الثالث) من حيث الغاية أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة والتخلى عن النقيصة
ثم الفوز بالسعادة الدائمة .

أثره فى تهذيب النفوس

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجالها . وكثيراً ما تودى
بحياتها إذا لم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب
كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفىء نورها ، وقد يفقدها حياتها ،
وذلك بورودها موارد النى والضلال . وانهماكها فى اللذات والشهوات والتهاون
بالأوامر والنواهي ، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور ، وسيئات البدع ونبد
الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ، وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من
الشور والقبائح .

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها ، قال تعالى : « كلا بل ران
على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ركبها كما يركب الصداً وغلبها ، وهو أن يصصر على
المعاصي ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه : ولا دواء
لها إلا مراهم الشريعة الفراء المركبة تركيباً علمياً كيمياوياً دقيقاً من أجزاء الخطب
والمواعظ والإرشادات والنصائح ، من الكتاب والسنة ، فهذه المواعظ والنصائح
دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها
وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى — وبالوعظ والتذكير تهذب
النفوس وتنبيه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . ونستنير البصائر بنور الطاعة
بعد أن أظلمتها المعاصي . قال بعض الحكماء : الموعظة موقظة للقلوب من سِنَّة الغفلة .
ومنقذة للبصائر من سكرة الخيرة . ومحمية لها من موت الجهالة . ومستخرجة لها من
ضيق الضلالة .

وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشقاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والذائل عظم خطرهما وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، وساء حال المجتمع الإنساني .

والبرهان الحسى قائم على أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم ، وأن المعنى الذى يتناولونه فى نصيحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشاراً وأشد رسوخاً فى نفوس تلك الأمة . وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت فى شيء يستعان دائماً على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومتانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبذ العقول من غفلتها ويطهر النفوس من أدران النقائص والذائل . وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتحلى بالفضائل والكمال . وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الخامس

القصاص والقصاص فى الصدر الأول

القصاص هم الذين يقصون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم . ينقلون ذلك موعظة واعتباراً ، وكانوا فى القرن الأول يقدمونهم فى حروب بنى أمية ايقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليُحْمَسُوهم بذلك قبل لقاء العدو ، حتى لا تستولى عليهم رهبة ، ولا يملكهم فزع ، ولا ترد وجوههم

أمال الحياة . وهو ضرب من السياسة وحسن النظر في التدبير ، وكان ذلك دأب الحجاج الثقفي أمير العراق لبني أمية في حزبه ، لأن أكثر من قاتلهم كانوا من المستميتين ديانة أو حمية ، كالحوارج ، والناقين عليه وعلى بني أمية من العرب . أما قبل هذه الدولة فكانت الموعظة في الحروب ، والتذكير بوعد الله تعالى للمجاهدين في إعلاء كلمته من شأن القواد ، يخطبون بذلك الناس ، ولا يتجاوزون الكتاب والسنة وكلمات لهم بين ذلك ، ولم يكن القصص في زمن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ولا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لاجتماع كلمة المسلمين ، وقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما أحدث في عهد معاوية رضي الله تعالى عنه حين كانت الفتنة بين الصحابة وكان قاصراً على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه . قال السيوطي وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا : لم يقص في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص يحدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . وأخرج ابن أبي شيبة والمروزي عن ابن عمر قال : لم يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أبي بكر ، ولا عهد عمر ، ولا عهد عثمان ، إنما كان القصص حين كانت الفتنة . وفي التخريج الكبير للعراقي من رواية الزهري عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبراني إلى قوله ولا زمن أبي بكر ثم قال : وأول من قص قص تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب أن يقص قائماً فأذن له اه ومنه عرفت اختلاف الرواية في زمن حدوث القصص ، ولعله كان قليلاً في زمن عمر وعثمان ثم كثر بمقتله رضي الله عنهم أجمعين . وأول من قص من الصحابة الأسود بن سريع ، وكان يقول في وعظه إذا ذكر الموت وخاطب الميث : فإن تَنَجُّ منها تَنَجُّ من ذى عزيمة وإلا فأنى لا إخالك ناجياً

وأول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثي ، وقد حضر مجلسه عبد الله ابن عمر وسمع منه فكان ذلك داعياً إلى إقبال الناس ورغبتهم في استماع القصص ، لمكان ابن عمر من الدين والورع — وقد أقرته كذلك عائشة رضي الله تعالى عنها .

ولم تنسرك عليه ، حدث عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا عبيد بن عمير ، قالت رضى الله عنها : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم ، قالت : خفف فإن الذكر ثقیل . وقد اتخذ معاوية رضى الله عنه قاصاً كان يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر ، ولعل هذا من دهائه فى السياسة رضى الله عنه . وأول من لزم القص فى مسجد المدينة مسلم بن جندب الهذلى إمام أهل المدينة وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من سره أن يسمع القرآن غصاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ثم كان أول من قص فى مسجد البصرة جعفر بن الحسن رضى الله عنه ، وأول من أقرأ القرآن فيه .

ولم يكن القص فى القرن الأول مردولاً لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن والحديث . ولم يكن يشوبه شيء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية ، وأكثره يأخذونه عن أسلم من أهل الكتاب ، وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة فى قصص الأولين كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة — وكعب الأخبار الذى أسلم فى خلافة عمر وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ، وعن هذين الرجلين ، ووهب بن منبه المتوفى سنة أربع عشرة ومائة أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بالأمم ، وأحوال الأنبياء ، والنذر الأولى ، وما يجرى مع ذلك — وكان وهب من الأبناء « أبناس الفرس » لأن جده جاء إلى اليمن فيمين بعنهم كسرى حين استنجدوه على الحبشة ، وقد أخذ آباؤه عن اليمن أخبار اليهود ، وأخذوا عن الحبشة أخبار النصارى ، ثم كان وهب يعرف اليونانية أيضاً ، فأتسع بذلك علمه حتى قالوا عنه إنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وهو أول من صنف قصص الأنبياء فى الإسلام ، ومن أخذوا عنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء ، وتوفى سنة ست ومائة ، ثم ورث الرواية عنه ابنه عبد الله بن طاوس .

ولما كان القرن الثانى وانهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين

لعمري الحسن البصري رضي الله عنه نشأت بعده الطبقة التي أخذت عنها العامة، وقد اضطربت الفتن، وكثر الكلام، وفشت الأكاذيب في الحديث، وأخبار العرب والشعر، فصارهم القاص أن يجيء بالغرائب، ويكثر من الرقائق، لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية، ولم يبق في حلقات القصص إلا العامة، فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق، وصار القاص عند أولى العلم أحق مخرفاً، إلا قليلاً ممن استوعبوا، وتبينوا وساروا في مذهب الرواة (وهو نقل الكذب^(١)) الذي لا بأس به واسناده إلى أهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان.

ويبتدىء تاريخ هؤلاء بعد الحسن البصري رحمه الله بموسى بن سيار الأسواري، قال الجاحظ وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأى لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار، ولم يكن في هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعري أقرأ في محراب من موسى بن سيار، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد، ثم يونس النحوي، ثم المعلى — ثم قص في مسجده (بالبصرة) أبو علي الأسواري^(٢) وهو عمرو بن فائدستا وثلاثين سنة، وابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة فآختم القرآن حتى مات، لأنه كان حافظاً للسير، ولوجوه التأويلات، فكان ربما يفسر آية واحدة في عدة أسابيع، كأن تكون الآية قد ذكر فيها يوم بدر، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث الكثيرة، وكان يقص في فنون كثيرة من القصص، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك — وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب، ويحتج به،

(١) المراد المكذوب من الحكايات المرغبة في الطاعة المهدرة من المعصية أو الداعية إلى فضيلة والتخلي عن رذيلة.

(٢) بضم الهمزة نسبة إلى الأساورة بطن من تميم

وخصاله الحمودة كثيرة — يقولون إن أبا على هذا لم يُسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحداً من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافأة — ثم قص من بعده القاسم بن يحيى وهو أبو العباس الضرير ولم يدرك في القصص مثله .

وكان يقص معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكشوف . فأما صالح المري فإنه كان يكنى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، قال الجاحظ فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم المطار من أصحاب الحديث ، كان في أواخر القرن الثاني قال له مرحوم : هل لك أن تأتي قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه . فأتاه على تكره لأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقته وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدث قتادة عن الحسن . رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : ليس هذا قاصاً هذا نذير . ولما فضجت العلوم في القرن السادس ذهب القصص وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد ، إذ كان اسم القاص قد أصبح لقباً عامياً مبتذلاً ، وأكثر المتصدرين في الوعظ إنما يكون من أهل الحديث ، والمتسمين في العلوم ، ولم يزد المتصوفة في الأخبار إلا ما يزعمون أنهم احتووه بعلم خاص والله أعلم بغيبه .

وقد اختلف السلف في مدح القصص وذمهم فبعضهم يحرض على الحضور عندهم وبعضهم ينهى عنه ، فنذكر لك فصلاً يكون فصلاً لهذا الأمر فنقول : القَصَصُ قِسمان : مذموم ومحمود ، والأول نوعان : « أحدهما » الاشتغال بالقِصص والحكايات عن الأمم السابقة التي يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة في القرآن الحكيم ، وتزيد عليها ، فإن ذلك مما ينذر حخته ، خصوصاً ما ينقل عن بنى إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، كاسرائيليات الخازن ، وبدائع الزهور ، فكان هذا مذموماً لما فيه من الكذب ، وعلى فرض خلوه عنه الأسلم البعد عنه ، فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه .

الصدق والكذب ، والنافع والضار ، فمن هنا نهى عنه — ولذا قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً .

وثانيهما الاشتغال بحكاية أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع ، ومردفة بما يكفرها ومتداركة بحسنات تغطي عليها كما هو المهود في حضرات السلف ، فإن العاصي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيها ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن المشايخ وبعض الأكابر ، وكلنا بصدد المعاصي ومن الذى عصم منا فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى مقاماً وأحسن حالاً ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فكان هذا أيضاً مذموماً لافضائه إلى إفساد حال السامعين .

في الروض الفائق في المواعظ والرقائق : أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقاً له فذهب إليه وكان عند المزور خادمة وكانت طريفة حسنة فأعجب بها ذلك الولي الزائر وشغفته حباً ولم يزل كذلك حتى وقع عليها في زمن يسير — ولما أدرك أن صديقه قد ينزل به من صاب العذاب والأذى ما لا تحمد عقباه فرها بآ . فأتى صديقه وعلم بما كان فعدا خلقه فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده قد مشى فوق الماء فسأله في ذلك فقال له ذلك قضاؤه وهذا رضاؤه فسر بذلك وخلى سبيله — وما إلى ذلك من الحكايات التي لاحقيقة لها إلا في خيال هؤلاء القصاص المفتونين وينبذها الدين الصحيح والعقل السليم .

ولذا لما دخل على رضى الله عنه البصرة جعل يخرج القصص من المسجد ويقول : لا يقص في مسجدنا . ذلك أنه سمع من كلامهم ما لا ينطبق على الدين . فرأى أن المصلحة في إخراجهم ، وفي تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها حتى انتهى

إلى الحسن البصرى رحمه الله وهو يعظ الناس فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرج ،
إذ كان يتكلم في علم الآخرة ، والتذكير بالموت ، والتنبية على عيوب النفس ،
وأفات الأعمال ، وخواطر الشيطان ، ووجه الحذر منها ، ويذكر بالآلاء الله ونعمائه ،
وتقصير العبد في شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرفها ، ونسكت
عهدا ، وخطر الآخرة وأحوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي ورد الحث
عليه في حديث أبي ذر رضى الله عنه . أخرج السيوطى في الجامع الكبير والحاكم
في التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أبا ذر لأن تغدو لتعلم آية
من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » هذا .

والقصص المحمود ما خلا عن هذين الحذورين ، ورجع إلى ما اشتمل عليه
القرآن الحكيم ، وما صح في الكتب الصحيحة ككتب السنة ، والتفاسير
الموثوق بها . أخرج ابن أبي شيبة والمرزوى عن ابن سيرين قال : بلغ عمر أن قاصا
يقص بالبصرة فكتب إليه (الرتل آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا
لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص) إلى آخر الآيات فعرف الرجل
فتركه — أى تخيرك ونحدثك أحسن الحديث لما فيه من العبر والحكم والعجائب
التي ليست في سواء مع المطابقة للواقع ومتانة الأسلوب — ومقصود سبدا عمر
رضى الله عنه تنبيه ذلك القاص إلى السير في القصص على طريق القرآن ، ونجوى
الصدق واجتناب الأخبار التي لا يعلم صحتها — فعرف الرجل مقصوده وعجز نفسه
عن تحقيقه فترك القصص . وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن قيس بن سعد قال :
جاء ابن عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقص فقال : (واذكر في الكتاب
إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . واذكر في الكتاب إسماعيل) الآية (واذكر
في الكتاب إدريس) الآية . ذكرنا بأيام الله ، وأثنى على من أثنى الله
عليه . يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها . والمراد غلظا بالترغيب
والترهيب ، والوعد والوعيد . فالترغيب بأن يذكركم نعم الله عليهم وعلى من قبلهم

من آمن بالرسول في سائر ماسلف من الأيام ، والترهيب بأن يذركم عذاب الله وانتقامه ممن كذب بالرسول من الأمم فيما سلف من الأيام ، كالذي نزل بعاد وثمود ، ليزداد الطائع ، ويقطع العاصي ، فهذا محمود لأن فيه عبرة لمعتبر وعظة لمزدرج قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء ، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله ابن عمر رضي الله عنه ، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ، ثم خست هذه الصنعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم الميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم ، وأقبلوا على القصص وما يعجب الجاهلة وتنوعت البدع في هذا الفن ، فمن القصص من يستبيح وضع الحكايات المرغبة في الطاعة المزهدة في الدنيا وآفاتهما ، ويزعّم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذا من نزغات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكره الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه غنية عن الاختراع في الوعظ والإرشاد .

وللخلاص من خطر القصص : قال العلماء لا يجوز لقاص أن ينقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير معرفة بالصحيح والسقيم وإن اتفق أنه نقل حديثاً صحيحاً كان آثماً في ذلك لأنه ينقل مالا علم له به ، ولا يحل له النقل من كتب التفسير لأن فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لا يميز الثمن من السمين لا يحل له الاعتماد على الكتب . وكيف يُقدم من هذه حائله على تفسير كتاب الله تعالى — فلا يحل لأحد بهذا الوصف أن ينقل حديثاً من الكتب بل ولو في الصحيحين مالم يقرأه على من يعلم ذلك من أهل الحديث ، فقد حكى الحافظ أبو بكر بن خير اتفاق العلماء على أنه لا يصح لمسلم أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا حتى يكون عنده هذا القول مروياً ولو على أقل وجوه الروايات .

فالذي تلخص مما ذكرنا أنه لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم الحافظ للحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم العارف بصحيحه وسقيمه ومسنده

ومقطوعه ، العالم بالتواريخ و بسير السلف الحافظ لأخبار الزهاد الفقيه في دين الله العالم بالعربية واللغة . ومدار كل ذلك على تقوى الله وإخراج الطمع من أموال الناس وحب الثناء والمدح من قلبه . كذا حققه الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه .

وجملة القول أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع : نوع مقبول بلاشك وهو ما اشتمل عليه الكتاب وصحت به السنة . ونوع مردود بلاشك وهو مالا يصدق العقل ولا يشهد له النقل . والثالث مجهول الحال ، وهذا يجب علينا قبل الحكم عليه أن نضعه في ميزان الشرع القويم ، والعقل السليم . فإن أيدى الشرع وصدق العقل قبلناه ونشرناه كعبرة أو دعوة إلى خلق كريم . وإلا تركناه وراء ظهورنا وولينا وجوهنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الكفاية لمن أراد الهداية (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى ذلك الرد خير لكم وأحسن عاقبة .

ومن أمثلة النوع الثالث ما روى أن رجلاً من بنى إسرائيل وجه ابنه له في تجارة ففست أشهر ولم يقف له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ؛ فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالماً فسأله أبوه هل أصابك في سفرك بلاء ؟ فقال له نعم غرقت السفينة بنا وغرقت مع جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقال لي قل لأبيك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بزائد عليهما .

ومنها ما روى أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين يديهما دجاجة مشوية ففرع الباب سائل فخرج إليه واتهره فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت عنه نعمته وطلق زوجته ثم تزوجت بعده رجل فجلس يأكل في بعض الأيام هو وزوجته وبين يديهما دجاجة وإذا بسائل يطرق الباب فقال لزوجته ادفعي له هذه الدجاجة . فدفعتها إليه ورجعت باكياً فسأله زوجها عن بكاؤها فأخبرته أن هذا السائل كان زوجها الأول وذكرت قصته مع السائل الذي اتهره فقال لها زوجها أنا ذلك السائل . فهذا وأمثاله لو عرض على موازين الشريعة الثراء

تقبله والعقل السليم يصدقه فهو يدخل في مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه
(صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكاً) وأن منع الصدقة عن مستحقة
يجعل العزيز ذليلاً فالظلم عاقبته وخيمة .

الفصل السادس

الوعظ في القرن السادس وتقدير الأمراء له

كانت مدينة السلام (بغداد) تمتاز على غيرها من مدن العالم الإسلامى بكثرة
فقهاائها المحدثين . ووعاظها المذكرين . وكان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ومداومة
التنبيه والتبصير . والمثابرة على الانذار الخوف والتحذير . مقامات تستنزل لهم
من الله تعالى واسع الرحمة وجزيل الإحسان ، وتمنح القارعة الصما أن تحمل بدارهم .
مقامات خلدت لهم أحسن الذكري وجميل الأحداث . قال أبو الحسين محمد بن أحمد
ابن جبير الأندلسى من أدياء القرن السادس في رحلته ما محصله — فأول من شاهدنا
مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وقيه المدرسة
النظامية . والمشار إليه في التقديم في العلوم حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة
إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسى
موضوعة . فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاخين معجبة ونغمات محرجة مؤثرة — ثم اندفع
الإمام المذكور وخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير
كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على
معانيه ، ثم وجهت إليه المسائل من كل جانب فأجاب عنها وما قصر ، ودفعت إليه
عدة رقاع فجمعها في يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ
منها ، وحن المساء فنزل وافترق الجمع : فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هيناً ليناً
ظهرت فيه البركة والسكينة أرسلت فيه العبرات لا سيما في آخره فانه سرت حمياً وعظه
إلى النفوس حتى أطارتها خشوعاً وفجرتها دموعاً . وبادر التائبون إليه وقوعاً على يده .

وشهدنا له مجلساً ثانياً إثر صلاة العصر يوم الجمعة أيضاً حضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية . ورئيس الأئمة الشافعية صدر الدين الخجّندی دخل المدرسة المذكورة فاهتزت له القلوب . ورمقته العيون . فأخذ الإمام رضى الدين فى وعظه مسروراً بحضوره متجملًا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه الأول فأقاد وأجاد .

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحى جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقى على اتصال من قصور الخليفة . وهو يجلس به كل يوم سبت فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد . وفى جوف الفراكل الصيد . آية الزمان . وقرة عين الإيمان . رئيس الحنبلية . إمام الجماعة . وفارس حلبة هذه الصناعة . المشهود له بالسبق فى البلاغة والبراعة . مالك أزمّة الكلام فى النظم والنثر ومن أبهر آياته أنه يصعد المنبر ويتبدىء القراء بالقرآن وعددهم يربو على العشرين فارتأ . فينتزع منهم الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بأدب وخشوع فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية . ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة فإذا فرغوا أخذ الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته مجلًا مبتدرا . وأفرغ فى أصداف الأسماع من الفاظه دررا . وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقرا وأتى بها على نسق القراءة لا مقدماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أن أبداع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ آية لِعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً . ويورد الخطبة القراء بها مجلًا . « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » فحدث ولا حرج عن البحر وهيئات ليس الخبر كالخبر . ثم إنه أتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب . وذابت بها النفوس . إلى أن علا الضجيج وأعلن الثابون بالصياح . وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . كل يلقى ناصيته بيده فيجرها ويمسح على رأسه داعياً له . ومنهم من بغشى عليه ويرفع فى الأذرع إليه فشهدنا هولاء يملأ النفوس إنابة وندامة . ويذكروا أهوال يوم القيامة

— وفي أثناء مجلسه ذلك تطير إليه الرقاع بالمسائل فيجواب أسرع من طرفة عين
وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل — والفضل بيد الله يؤتيه
من يشاء .

ثم شاهدنا له مجلساً ثانياً بكرة يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصور الخليفة
ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع في حرم الخليفة خص بالوصول إليه والتكلم فيه
ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعمامة
فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس
فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس وقعدنا إلى أن وصل هذا الخبر المتكلم فصعد المنبر وقد
تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب فبكت العيون
لقراءتهم فلما فرغوا منها وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات سطع بخطبته
الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أنفائها منتظمت ومشي الخطبة على فقرة آخر
آية منها في الترتيب إلى أن أكلها وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا
فيه والنهار مبصراً إن الله ل ذو فضل على الناس » فتمادى على هذا السين . وحسن
أى تحسين . فكان يومه ذلك أعجب من أمسه . ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك
بديهة لا روية . ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى .
فأرسلت وابلها العيون . وأبدت النفوس سر شوقها المكنون . وتطارح الناس عليه
نادمين تائبين فطاشت الأبواب . واستولى عليها الولة والذهول . واهتزت القلوب
ولم تجد للصبر سبيلاً ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة
الترقيق . تملأ القلوب خشية وزهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس
مأخذه من الاحترام وأصاب المقاتل سهام ذلك الكلام :

أين فؤادى أذابه الوجد وأين قلبي فما صحا بعد
يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والبكاء كاد يمتعه من الكلام فنزل عن

المنبر دهشا . وقد أطار القلوب وجلا . وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالدموع . فن ملن بالانتحاب . ومن متعفر في التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه . وما أسعد من زآه — وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطى من ملكة^(١) النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل الذي يضيق الوجود عن مثله ، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من وعاظ الغرب — وكذا قد شاهدنا بمكة والمدينة مجالس لجلّة من كبار العلماء من خراسان وغيرها فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل القذ — فسبحان من جعله عبرة لأولى الألباب — فهذا يبين لك كيفية وعظ الأولين ومبلغ اعتناء المتقدمين من كبار العلماء بإرشاد الناس وتذكيرهم وإقبال الأمة والأمراء عليهم . والانتفاع بهم . ويدلك على منزلتهم من العلم . ومكانتهم من النصح والتذكير . وأنهم بحق أحكموا وسائل التأثير في النفوس . وبرعوا في الاستيلاء على القلوب . وأنهم كانوا يفترون نصائحهم من مناهل الكتاب والسنة . وقد ساعدتهم على هذا الفوز العظيم أنهم كانوا على جانب كبير من التقوى وصالح العمل . متجملين بالعفة والزهد والورع ، ومتكلمين بالقناعة ومكارم الأخلاق » إن هذا هو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون .

فيمثل مقامات هؤلاء الأجلة . المباركين الأولياء ، ترحم العصاة ، وتقلع الجناة وتستدام العصمة والسلامة ، وتسعد الأمم في الدنيا والآخرة . والله تعالى أسأل أن يجازي كل ذى خير خيراً ، وينقذ ببركة العلماء العاملين عباده العاصين ، من سخطه وغضبه وبرحمته وكرمه ، إنه النعم الكريم الرحمن الرحيم .

(١) الملكة محرّكة مصدر كالملك أى الاستيلاء عليها بقوة روحه في العظة .

الفصل السابع

آداب الداعي

قد عرفت أن الدعوة إلى الله في الأصل عمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأن السادة العلماء نواب عن الأنبياء في هذا الأمر الخطير فهم أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه القويم ، والقائمون على حدود الله ، والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتزيه .

لذلك كانوا أئمة الناس وقادة الخلق يسرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم وبما يرشدونهم إليه من التحلى بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة ، اعتقد الناس فيهم ذلك وأملوهم له . فأحلّوهم من أنفسهم محلاً لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانة يغبطون عليها وربحوا منزلة نصبوا إليها نفوس ذوي المهمة والفضل ، وناهيك بقوم إذا فعلوا لحظتهم العيون ، وإذا قالوا صغت إليهم الأذان ووعت القلوب وحكت الأسنة . فهم مطمح الأنظار وموضع الثقة ، والحجة البالغة ، والبرهان القاطع ، والنور الساطع للناس أجمعين « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » دعا إلى توحيدهِ وطاعته وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه واتخذ الإسلام ديناً ونحلة^(١) .

حقاً ليس أحد أعظم شأنًا وأسعد حالاً ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لله تعالى ، عارفاً به عاملاً بالخير داعياً إليه وماهم إلا طبقة العاملين العاملين الدعوة إلى الله عز وجل ، من ذوي القلوب الحية ، والإيمان الصادق والإخلاص الصحيح .

ولا ريب أن الله تعالى ربط سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بالوقوف عند

(١) والآية تشير إلى أنه ينبغي للداعي أن يكون صحيحاً في دينه مهذباً مستقيماً عاملاً بهداه ليكون الناس إليه أسكن وإلى قبول دعوته أقرب .

حدوده — وامثال أوامره — واجتناب نواهيه — وأنه بمقدار وقوف العبد عند حد الأدب مع مولاه يكون حظه من تلك السعادة — وغنى عن البيان أن السادة العلماء قد انفردوا بفهم الأوامر والنواهي ، ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس . وأنه بقدر قيام العلماء على حدود الله واتباعهم الأوامر واجتنابهم النواهي يكون اتباع الأمة واجتنابها فاذن سعادة الأمة في قبضة السادة العلماء إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس — ومن هنا كانت وظيفتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة ، وتزداد وظيفتهم خطراً ومسئوليتهم عظماً إذا هم تصدوا للدعوة والإرشاد ، لهذا وجب أن تتوافر في الداعي إلى الله تعالى الصفات الآتية .

الصفة الأولى

إن أول واجب على الداعي العلم بالقرآن والمراد به النظر فيه قبل كل شيء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة . وكذلك السنة ، وما صح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالقدر الكافي من الأحكام وأسرار التشريع مع الصدق في نشرها ؛ فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا لمن اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المرتبة وليتمكن من تعليم ذلك على الوجه الصحيح فلا يزيف في عقيدة ، ولا يخطئ في حكم ، ولا يعجز عن إقناع النفوس المتطلعة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية ؛ فيكون الأذعان له أتم ، والقبول منه أكمل — فأما الجاهل فضال مضل وضره أقرب من نفعه ، وما يفسده أكثر مما يصلحه . بل لا يصلح أصلاً إذ لا تميز لجاهل بين الحق والباطل ولا معرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس . قال الحسن البصري رحمه الله : العامل على غير علم كاسائر على غير طريق ، والعامل على غير ما يفسد أكثر مما يصلح . وفي الحكم : « من سلك طريقاً بغير دليل ضل ومن تمسك بغير أصل زل » ، وأما الكاذب فلا خير فيه ولعنة الله على الكاذبين . لهذا حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم وجعله من أخفش الكبائر فقال تعالى :

« قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن
تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . وهذا يعم
القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه . وقال تعالى :
« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله
الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ؛ متاع قليل ولم عذاب
أليم » . فقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه ، وقولهم في شأن
ما لم يحله هذا حلال ، وفي شأن ما لم يحرمه هذا حرام . وهذا بيان منه سبحانه
أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام . إلا بما علم أن الله تعالى
أحلّه أو حرمه .

وأصل الآية صد للعرب عن بدع الجاهلية ومذاهبهم الباطلة التي كانوا عليها
بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك . ثم عدد
عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع
ما شرع الله على لسان رسله . والكذب منصوب بلا تقولوا وهذا حلال وهذا
حرام بدل منه واللام بمعنى في وما موصولة — والمعنى ولا تقولوا الكذب في شأن
ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم : « ما في بطون هذه الأنعام
خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » . من غير استناد ذلك الوصف إلى شرع —
وهو تشريع عام لجميع المكلفين في كل ما يتعلق به الحكم بالحل والحرمة إذ العبرة
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فحق المرشد أن يدع التكلف لما لا يحسن فليس
لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى إليها ولا حد يقف عنده ، ومن كان تكلفه فيه
محدود فأخلق به أن يضل ويضل — وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه
أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » ، وقال بعض الحكماء :
من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلاً من عقلت أن تنطق
بما لا تفهم .

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . روى أن رجلاً قال : يا رسول الله أى البقاع خير وأى البقاع شر ؟ فقال : « لا أدري حتى أسأل جبريل » . روى من عدة طرق . وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه « من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » ، وقال سيدنا على رضى الله عنه : وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وأن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله . أى هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأننى لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدري عُلِّمَ فدرى . ومن انتحل ما لا يدري أهمل فهو : اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من المعجب بما نحسن إنك الجواد الكريم .

الصفة الثانية

العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشئ ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويشمر إرشاده . فأما إن كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذه عقبة في سبيل الإصلاح ، وهيئات هيئات أن ينتفع به فإنه فاقد الرشاد في نفسه فكيف يرشد غيره . قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ؛ فإن من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل منها ، أو أمر بالتخلي عن نقيضة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية في نظر العقلاء : فإن من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه في دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه

فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء والأدواء ما كان يستأثر به . كذلك الداعي إذا خالف فعله قوله . أما الالتئام بما سيأمرهم به أولاً والنخلق بما يدعو إليه فهو أوقع في نفوس السامعين وأقرب إلى إذعان الراغبين . ولذا كان بعض الدعاة لا يذكر لهم في فضائل العتق حتى أمكنه الله تعالى من شراء رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير في قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه فكيف يُسمع منه فضل من أقامه وأحياه — لما عرفت أن الدعوة إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق تربية ، والتربية النافعة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لا بمجرد القول يرشدك إلى هذا حديث الحلق في الحديبية فإن الصحابة رضى الله عنهم لم يمتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم به حتى خلق هو أولاً فافتدوا بفعله أجمعين . وهذا سر عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فالداعي من المدعو يجري مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به كذلك محال أن يحصل في نفس المدعو ما ليس بموجود من الداعي فإذا لم يكن الداعي إلا ذا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول — وأيضاً — فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل فكما أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون — قال حجة الإسلام الغزالي رحمة الله تعالى عليه فيما كتبه إلى أبي حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابه الاعتاز فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وقاعد النور كيف يستنير به غيره . ومتى يستقيم الظل والعود أعوج . ولذا قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ابداً بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويُستقى بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب

أفلا تعقلون » فهذا توبيخ لأجبار اليهود على سيرتهم المعوجة في الإرشاد فإنه لا شك أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقيم في العقول إذ المقصود من أمر الناس بها إما النصيحة أو الشفقة وليس من العقل أن ينصح الإنسان للغير أو يشفق عليه ويهمل نفسه ، فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا القول وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » تعجيب للعقلاء من هذا المسلك المريب والتعجيب وجوه .

منها أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى الخير وتحذيره من الشر وإرشاد النفس إليه وتحذيرها منه مقدم بشواهد العقل والنقل أما العقل فبديهى . وأما النقل فكثيرة ، منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح : « رب اغفرلى ولوالدى ولن دخل بيتى مؤمنا » وعن سيدنا إبراهيم : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذرىتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب فمن وعظ غيره ولم يتعظ فكأنه أتى بما لا يقبله العقل السليم ولهذا قال أفلا تعقلون .

ومنها أن هذا الوعظ يصير سبباً للمعصية لأن الناس يقولون : لولا أن هذا الواعظ مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات لما أقدم على اللهاى فيكون داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعاصى وهذا مناف للعرض من الوعظ فلا يليق بالعقلاء .

ومنها أن غرض الساعى ترويح كلامه وتنفيذ خرامه فلو خالف إلى ما نهى عنه صار كلامه بعزل عن القبول وهذا تناقض لا يليق بالعقلاء ، وفي مثل هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق .

فالآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره

وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الذي لا عقل له. فإن أسر الغير بالخير مع حرمان النفس منه مما لا يتفق وقضية العقل — والمراد بها حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكامل لتقوم بالحق فتكمل غيرها . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » فهذا وعيد شديد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في نفسه مقصر كن يكذب في قوله أو يخلف ما وعد . وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » . متفق عليه — تندلق بالادال المهملة تخرج . والأفتاب الأمعاء واحداها قتب بكسر فسكون وفيه تغليظ العقاب للمرشد الذي يخالف فعله قوله . وعن أنس رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسرى بى رجلا تقرض شفاهم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » رواه ابن حبان في صحيحه . وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم وأنه قدوة فيزل بزله كثيرون ولذا قيل : زلة العالم زلة العالم في الخبر « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا » . وذلك أن أتباعهم اقتدوا بهم في السوء فلزم أن ينالهم مثل عقاب أتباعهم . قال تعالى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » وجملة الأمر أن من فتح لغيره باب الشر وسهل له الدخول فيه فقد عظم عذابه ، وكذلك من دعا غيره إلى خير وأمره بالمعروف وسهل له طريقه فقد عظم قدره وحسن جزاؤه عند الله تعالى « أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مثل الذى يُعلم الخير ولا يعمل به مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق

نفسها « رواء الطبراني في الكبير عن أبي برزة بسند حسن وقال أبو الدرداء :
« ويل للجاهل مرة وويل للعالم سبع مرات » ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه :
قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يفر الناس بتنسكه والعالم
يغرم بتهتكه . وقال حكيم : أفسد الناس جاهل ناسك ، وعالم فاجر ، هذا يدعو
الناس إلى جهله بنسكه ، وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه .

وعلى الجملة فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ . ويبصر ثم يبصر . ويهتدى ثم
يهتدى ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد . ومِسْتاً يستحد ولا يقطع وسراجاً بضئ
للناس ويحرق نفسه . فن الحكم المأثورة « مثل العالم الذي يعلم الناس وهو
غير عامل كشعلة موقودة تضيء للناس وتحرق نفسها . بل يكون كالشمس تفيده
القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده . كالنار تحمي الحديد ولها من الخنوء أكثر مما تفيده .
وكالمسك يطيب غيره وهو طيب في نفسه . ويجب ألا ينقض مقالته بفعاله . ولا يكذب
لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله
في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » وبالله تعالى التوفيق .

الصفة الثالثة

الحلم وسعة الصدر : فكمال العلم في الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب فيستطيع
أن يعالج أمراض النفوس وهو هادئ النفس مطمئن القلب لا يستفز الغضب
ولا يستثيره الحق فتتفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس وحسبك في هذا قول الله تعالى
لإمام الداعين صلوات الله وسلامه عليه « ولو كنت فظاً غليظ القلب
لأنقضوا من حولك » فلو كان الداعي سئ الخلق جافياً قاسى القلب فأغلظ لهم
في القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله فخرموا الهداية بأنوار دينهم فعاشوا وماتوا
جهلاء وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته .

الصفة الرابعة

الشجاعة حتى لا يهاب احداً في الجهر بالحق ولا تأخذه في نصره الله لومة لائم
ففي حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « ياينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على أن تقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » متفق عليه . وعن
عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت
أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودع منهم » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد
وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلي
بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف في الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن
كان مرأ . وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال
يرى أن الله عليه مقالاتهم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن
تقول في كذا وكذا ؟ فيقول خشيته الناس فيقول فيأبى كنت أحق أن تخشى » .
رواه ابن ماجه ورجاله ثقات . والمراد بالخشية فيه مجرد رهبتهم مع القدرة .

— فإن كان جباناً ضعيف القلب عجز عن الأخذ بناصر الحق وتغيير المنكر
وتقرب إلى الناس بأنواع المداينة وتودد إليهم بضروب الملق — وما هكذا تكون
الأطباء ولا اللاتق بقاءة الأم — الطبيب الرحيم هو الذى إذا عرف نوع المرض
في أى شخص كان يادر إلى علاجه بما يستأصله حرصاً على سلامة المريض وهو
لا يبالى بكرامة المريض للدواء وتألمه من العلاج . فأما إذا عمل لذلك حساباً وتساهل
مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فإنه
غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم .

والمداينة السكوت على المنكر لداعى الهوى لا الدين فإذا سكت العلماء على
لنكرات لداعى الدين كأن يكون فى الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت
سمى سكوتهم مداراة وهى مطلوبة شرعاً فى الحديث المشهور . داروا سفهاءكم
— والملقى الود والطف . وملقى من باب طرب ورجل مَلِيقٌ يعطى بلسانه ما ليس .

في قلبه ، وَتَمَلَّكَتْهُ وَتَمَلَّقَتْ لَهُ تَمَلَّقًا وَتَمَلَّاقًا بالكسر تودد إليه وتلطف له .
وعلى الداعى في مقام الحجة على الخصم أن يذكر حجته خالية من السب والشتم
وأنواع الغلظة إذ لو اشتملت على شيء من هذا لجاز أن يقابل بمثله كما قال تعالى
« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ويشد الغضب
وتقع النفرة .

ويمتنع حصول المقصود من الدعوة — أما ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالى
عن السب والشتم والأيذاء فإنه يجذب القلوب ويستميل الطباع إلى قبول الدين الحق
والاستماع إلى النصيح . وبذلك يصل الداعى إلى المقصود ألا ترى قوله جل وعلا :
« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان
للإنسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك
عليهم وكيلًا . » فإنه تعالى أمر المؤمنين على لسان سيد الداعين أن يقولوا عند
محاورتهم مع المشركين الكلمة التى هى أحسن ولا يخاشنهم كقوله تعالى « ولا تجادلوا
أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ثم علل ذلك الأمر بأن الشيطان يفسد بينهم
ويهيئ الشر والمراء ويُغري بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشادة وقد يفضى
ذلك إلى تأكد العناد وتمادى الفساد . فإن الشيطان عدو قديم للإنسان ظاهر العداوة
ينتهز الفرص لإثارة الفتن — ومثال الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا لهم ربكم أعلم
بالحكم إن يرد الإحسان بكم أحسن إليكم بالتوفيق للإيمان وصالح العمل . أو إن يشأ
يعذبكم بالإماتة على أسوأ الأحوال . يقولون لهم مثل ذلك ولا يصرحوا بأنهم من أهل
النار وبئس القرار فإنه مما يثير الشر مع أن العاقبة لا يعلمها إلا الله وحده فيجوز أن
يحتّم لهم بخير — وما أرسلناك عليهم موكولا إليك أمورهم تكررهم على الإيمان
وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فلاطفهم ومر أصحابك والمؤمنين بالملاطفة والملاينة
ولا تشدد الأمر عليهم ولا تغالظ لهم في القول . والمقصود من كل هذا إظهار اللين
والرفق بهم في مقام الدعوة إلى الله تعالى والإرشاد إلى الخير فإن ذلك أقرب إلى
النجاح وحصول المقصود .

الصفة الخامسة

العفة واليأس مما في أيدي الناس فمن يئس بما عند الناس استغنى عنهم فيبقى سيداً محبوباً جليلاً مهيباً ينتفع به — أما إن كان غير عفيف وتطلع إلى ما في أيدي الناس فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محترماً ممقوتاً ثقيلاً مردولاً ، وهان عليه كل ما يلاقيه من أنواع الذلة والإهانة في سبيل الحصول على ذلك الحطام الفاني . وهذا بلا ريب هو السقوط الذي لا خلاص منه والفقير الذي لا غنى معه فمن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله أوصني وأوجز فقال : « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه » . رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصححه إسناده وقال أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطعم في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه . وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا الحسن . قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو دينارهم . فقال ما أحسن هذا .

وبالجملة فواجب الداعي نزاهة النفس عن شبه المكاسب . والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب . فإن شبه المكاسب إثم . وكذا الطلب ذل . والأجر أجدر به من الإثم . والعز أليق به من الذل . وما أحسن قول علي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى :

يقولون فيك انقباض وإنما رأو رجلاً عن موقف الذل أحجبا
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طيم صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستغزني^(١) ولا كل من لاقيت أرضاه منعا
إذا قيل هذا متهل^(٢) قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظما

(١) استفزه واستغفنه وأخرجه من داره وأزعجه .

(٢) مورد وهو عين ماء ترده الإبل في المراعى .

أَنَّهُمَا^(١) عن بعض مالا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أو لم
ولم أبتذل^(٢) في خدمة العلم مهجتي لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذا قاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا^(٣) بحياء بالأطماع حتى تجهما^(٤)

على أن العلم عوض من كل ذلة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بداً منه . نسأل الله الكريم أن يغنيننا بفضلہ عن سواء .

الصفة السادسة

القناعة في الدنيا والرضا منها باليسير فإن كان حريصاً على الدنيا منهكاً في طلبها كانت حاله هذه داعية الترغيب في حبها « وحب الدنيا رأس كل خطيئة » وبذلك يكون مفسداً لأمصلحة وضاراً لآنافعاً . وما هكذا تكون الدعاء إلى الله تعالى . كان محمد بن واسع البصري رحمه الله ينبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد . ولذا قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غمّاً الحسود وأهنأهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضمهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وقال سفيان الثوري العالم طيب هذه الأمة والمال داؤها فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره؟ والعيان أصدق شاهد على ذلك فإنك ترى أنه على قدر قناعة العلماء في الدنيا تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والاتباع لإرشادهم

(١) نهنه عن الأمر فنهته كفه وزجره فكف . (٢) الابتذال ضد الصيانة والبذلة بالكسر مالا يصاب من الثياب والملهجة الروح . (٣) الدنس محرقة الوسخ دنس الثوب والعرض والخلق كفرح دنس دناسة فهو دنس اتسخ ودنس ثوبه وعرضه تدنساً فعل مايشينه به . (٤) رجل جهم الوجه كالج وجهه كتمه لقيه بوجه كالج كتجهمه أو جهم كسمل صار بأسر الوجه أى كالج والجهام بالفتح السحاب الذي لاماء فيه .

وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم
والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولاً ولا يقبلون منهم نصيحة .

الصفة السابعة

قوة البيان وفصاحة اللسان وإلا كان النفع بعيداً بل كان مثال الخرزى
والعار على الإرشاد وأهله فإن مدار الأمر على البيان والتبيين والإفهام والتفهيم .
وكما كان اللسان أبين كان أقوى وأجمل . كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة
كان أحمد وأكمل . وقد سألت موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون
بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته . فقال حين ذكر العقدة
التي كانت في لسانه ، والحبسة التي كانت في بيانه (واحلل عقدة من لساني
يفقهوا قولي) الحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته . وقال : (وأخي هارون هو
أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني) وقال (ويضيق صدري ولا ينطلق
لساني) رغبة منه عليه السلام في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة .
لتكون الأعناق إليه أميل . والعقول عنه أفهم . والنفوس إليه أسرع . فان
خصمه فرعون كان مشاغباً سباباً مذهب كل جاحد معاند . وشأن كل مختال
مكايد كما أخبر الله تعالى عنه بقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد
يبين) أى ضعيف حقير لا يكاد يبين الكلام . قاله افتراء عليه وتنقيصاً له في
أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام ؛ من نوع رثة وقد كانت ذهبت
عنه لقوله تعالى (قال قد أوتيت سؤالك يا موسى) وذكر الله عز وجل عظيم منته في
تعليم البيان . وجميل نعمته في تقويم اللسان . فقال (الرحمن علم القرآن . خلق
الإنسان علمه البيان) أى مكنه من التعبير عما في ضميره لإفهام الغير ، كما مكنه
من فهم بيان غيره ، وضرب لنا مثلاً على اللسان ورداءة البيان حيث شبه أهله
بالنساء والولدان فقال (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) أى
أو جعلوا له تعالى من شأنه أن يربي في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه

وهو مع هذا القصور في الجدل الذي لا يكاد يخلو عنه إنسان في العادة غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه لقبح ما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة — وأصل البيان جمع الفصاحة في اللفظ والبلاغة في المعنى . وقال الزخسري : هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، والمعنى ضد البيان والحصر كالفرح ضيق الصدر عند النطق ؛ وبالجملة ففوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على الداعي ، بهما يملك القلوب ، وبهما يؤثر في الأرواح .

الصفة الثامنة الإمام بما يأتي

١ — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو ما يعبر عنه في العرف بمجالهم الاجتماعية . وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبي بكر كونه أنسب العرب ومعناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة واللين والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر . وما كان إقدامه — منع ما عرف به من اللين وسهولة الخلق — على قتال أهل الردة إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة فلم يهيب ولم يخف وقد خاف عمر مع شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أى خاف أن تضعف شوكة الإسلام بمحاربتهم . حتى قال أبو بكر : والله لو منعوني عقالا مما كانوا يؤذونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . فهذه قوة العلم لا قوة الجهل — ولك أن تقول إن العلم الخاص بحال من توجه إليهم الدعوة من هذه الوجوه لا بد أن يكون فرعاً للعلم بهذه العلوم في نفسها كما سيتبين ذلك .

٢ — علم التاريخ العام ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات فيبني دعوته على أساس صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير ، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال . ولهذا كان القرآن

الحكيم مملوا بعبء التاريخ ، والجاهل به لا يصلح أن يكون داعياً إلى الإسلام ولا مرشداً في الأمور العامة على الوجه الذي يرجى قبوله ونفعه .

٣ — علم النفس الباحث عن قوى النفس وخواطرها وميولها وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية . مثال ذلك أن الأصل أن يكون العمل تابعاً للعلم ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضار ويأتونه ، وعمل كذا نافع ويتركونه (والمحرم شرعاً كله ضار والحلال كله نافع) فما سبب ذلك ؟ وهل يُحسن دعوة هؤلاء إلى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير وارتكبوا الشر ؟ فهذه المعرفة هي من علم النفس الذي يؤخذ منه أن من العلم ما يكون ملكة راسخة للنفس حاكمة على إرادتها مصرفة لها في أعمالها ، ومنه ما يكون صورة تعرض للذهن لا أثر لها في الإرادة فلا تبعث على العمل وإنما يكون مظهره القول أحياناً — وعلم النفس يساوى علم التاريخ في المكانة والفائدة — وقد كان الصحابة على حظ عظيم من هذا العلم فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وبما هدام القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من علم النفس . وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية ، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له أو أرسخ — يدل على هذا ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة وظهروا به في مواطن الحجة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

٤ — علم تقويم البلدان ليُعد الداعي لكل بلاد عدتها إذا أراد السفر إليها وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان والجغرافية . ولذا أقدموا على الفتوحات ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل ، فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعاً للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم . ومن درس ما حفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك جلياً .

٥ — علم الأخلاق الذى يبحث فيه عن الفضائل النفسية وكيفية تربية المرء عليها وعن الفقائق وطرق توقيه منها وهو لازم لرجال الدين والدعاة أزم ، كى يستطيعوا معالجة النفوس وتهذيبها — وما ورد فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار الصحابة والتابعين يغنى بشهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه .

٦ — معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للداعى بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعه إليه ، ومن لم يقف على ما عند الناس من المذاهب والتقاليد الدينية لا يستطيع أن يخاطبهم على قدر عقولهم ، كما كان شأن سادة الدعاة ، عليهم الصلاة والسلام .

٧ — العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له . فعن زيد بن ثابت « أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم ، كتبه وأقرانه كتبهم إذا كتبوا إليه » . وقال أبو جرة : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس على أنهم قد استعربوا فما كان معرفة لغتهم الأصلية إلا مزيد كمال فى الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم ، ولا يقال يمكن أن يستغنى الداعى عن تعلم لغات الأمم بالترجمين من غير المسلمين ، فإنه إن ظفر بالترجمان الأجنبى الأمين لا يتيسر لها أن تفهم من حقيقة الدين عند الترجمة ما يتيسر لها عند مشافهة الداعى لها بلغاتها ، فالواجب أن يكون فى كل جماعة تبعث للدعوة من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبى كما تفعل جمعيات الدعوة إلى النصرانية فإن أفراداً منهم يتعلمون لغات جميع الأمم ، فتراهم يقولون إليها كتبهم ونشراهم الدينية ويتخاطبون بها مع الناس ليتمكنوا بذلك من بلوغ غايتهم المقصودة .

٨ — علم الاجتماع الذى يبحث فيه عن أحوال الأمم فى بداوتها وحضارتها ،

وأَسبابُ ضعفها وقوتها وتأخرها وتقدمها على نحو ما في مقدمة ابن خلدون — وهذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق ، فمن كان له حظ عظيم منهما ، وكان صحيح العقل واسع الإدراك فإنه قد يستغني عن هذا العلم في بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد ، وإن كانت دراسته مزيد كمال فيه وفي فوائده العظيمة — وعلى الجملة يلزم أن يكون الداعي عالماً بأحوال الناس خبيراً بأمراض الاجتماع ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعملهم أخطأ كثيراً في إصلاح القلوب وعلاج النفوس وكان كمن يطب جرب دواء في مرض خاص فنجمع فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسيم فكذا على القلوب .

الصفة التاسعة

قوة الثقة بالله تعالى في وعده وكأل الرجاء في حصول الفائدة ، مهما طال به العلاج وعظمت المصاعب ؛ فإنه متى تمكن ذلك من نفسه انبعثت همته وقوى نشاطه وتنبه إلى انتهاز كل فرصة بما يناسبها موقفاً بأنه لم يظهر تأثيره اليوم ، فعدا يظهر مؤمناً بأن الباطل زهوق ، ولا بد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل ، فإن دولة الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها وإنما بقاءها في نوم الحق عنها ، ودولة الحق هي الثابتة بذاتها فلا يُقلب أنصاره ماداموا معتصمين به مجتمعين عليه . قال الإمام على رضي الله عنه : لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق .

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد الداعين إلى الله تعالى ؛ لم يثن عزمه عن الدعوة إلى الله تعالى عناد أهل الغنى والضلal والعناد ، ومقابلتهم له بالإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المخلصين ، بل ثابروا عليها ، وفي نهاية الأمر كان الظفر لهم . والنصر حليفهم ، وحقق الله تعالى لهم ما وعد ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وجملة الأمر أنه لا يليق بالداعي أن ييأس من الإصلاح إن لم يؤثر عمله لأول مرة ، بل عليه

أن يكرر النصيحة والعظة المرة بعد الأخرى ألا ترى دعاة الباطل يثابرون على نشره بين المسلمين بنشاط لا يعرف الملل . ورجاء لا يعتريه اليأس . وإن لم يحصلوا من سعيهم الآن على طائل مع ما يقاسون من الشدائد وما يتحملون من المشاق في سبيل الدعوة إلى النصرانية كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فإن لم يقد وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل المريض إلى ساحل السلامة . فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين إن شاء الله تعالى بعد صلاحيتها قال تعالى : « وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » .

الصفة العاشرة

التواضع ومجانبة العُجب : فذلك بالدعاة والمرشدين أليق ، ولهم أزم ، لأن التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالمرشدين أقبح ، لأن الناس بهم يقتدون ، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدتهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجب بهم أخرى ، لأن العجب نقص ينافي الفضل ، لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العجب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب ، وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه » وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفاه الله » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة وماتوا إلى من الحوادث : « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبراني في الأوسط . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبايرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وسئل الفضيل عن التواضع فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك عليه بدنياك فضل ، وأن ترفع نفسك عن هو فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

وعلة إعجابهم التفات نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر ، قال الله تعالى « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » أى في العلم ، قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذي علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . فينبغى لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير ماقصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وفي منشور الحكم : إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء . قال ابن العميد :

من شاء عيشاً هنيئاً يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجباً وبما أدركه منه مفتخراً إلا من كان مقلا فيه ومقصراً ، لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال منه أكثره ، فأما من كان فيه متوجهاً ومنه مستكثراً ، فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدده عن العجب به . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

الصفة الحادية عشرة

أَنْ لا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة ما يعلم ، فإن البخل به ظلم
 ولؤم والمنع منه حسد وإثم ، وكيف يسوغ للمرشدين البخل بما مُنحوه جوداً من
 غير بخل وأوتوه عفواً من غير بذل ؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما لو بذلوه لزاد ونما ،
 وإن كتموه تناقص ووهى ؟ ولو استن بذلك من تقدمهم ما وصل العلم إليهم
 ولا تقرض عنهم بانقراضهم ، ولصاروا على مرور الأيام جهالا ، وقد قال الله تعالى :
 « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وروى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم
 والتباس بصائرهم . ثم قرأ : « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد
 ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا
 وأصلحو وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

نزلت في أحبار اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار فقد روى البخاري
 وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : « لولا آية في كتاب الله
 تعالى ما حدثت أحداً بشيء أبداً » ثم تلا هذه الآية . والكتم وإنكتمان ترك إظهار
 الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقيق الداعي إلى إظهاره . والبيانات الواضحة
 الآيات الدالة على الحق ، ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى في أمر محمد
 صلوات الله عليهم أجمعين ، والهدى كل ما يهدى إلى وجوب اتباعه صلى الله
 عليه وسلم والإيمان به ، وهى الآيات الشاهدة على صدقه عليه الصلاة والسلام ،
 والعطف باعتبار التغاير في المفهوم ، ويلعنهم الله يُبعدهم عن رحمته ، ويذيقهم أليم
 نعمته ، ويلعنهم اللاعنون يدعوا عليهم بالابعاد عن رحمة الله كل من يتأتى منه
 اللعن من الملائكة والثقلين — والآية كما ترى تدل على وجوب إظهار علم الشريعة
 وحرمة كتمانها .

وفى الصحيح من عدة طرق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليلينغ الشاهد

منكم الغائب » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار » . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وقال حسن . وأخرج أبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيد البذل . وفي منشور الحكم : من كتم علماً فكأنه نجاهله . ثم له بالتعليم نفعان : « أحدهما » ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال : « تصدقوا علي أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده » . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا العلم وعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء . قيل وما أجرهما ؟ قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة » « والنفع الثاني » زيادة العلم وإتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مخالطة المتعلم تنبيهاً لما ليس عندك . وقال ابن المعتز في منشور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يُحمدها أن لا تجد حطباً . كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فيأتاك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء : علمٌ علمك ، وتعلم علم غيرك ، فإذا أنت قد علمت ما جهلت . وحفظت ما علمت . وبالجملة فنشر العلم أعظم للأجر وأرفع للذكر وأرسخ للمعلوم . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه : « يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً مما طلعت عليه الشمس » . رواه غير واحد . والله تعالى ولي التوفيق .

الصفة الثانية عشرة

الوقار والرزانة بالإمساك عن فضول الكلام ، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه ، والإصغاء عند الاستفهام ، والتوقف عند الجواب وعدمه .

التسرع والمبادرة في جميع الأمور ، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والقبيح والمزاج السخيف وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين ، فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف في المزاج ويفحش فيه ، والإقلال من البروز من غير حاجة والترفع عن الجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك مخل بكرامته وأعظم الناس قدراً عند الخلق من ظهر اسمه وخفى شخصه . وإجمالاً يجب على المرشد أن يتحلى بالسكينة والوقار في جميع أحواله حتى في مشيته وكلامه فذلك مكسب للهية والإجلال لدى الناس وأدعى إلى الانتفاع به .

الصفة الثالثة عشرة

أن يكون كبير المهمة على النفس يستصغر ما دون النهاية من معالي الأمور . ويترفع عن الدنيا ويفضض عند الإحساس بالنقص . ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق فيه مقام الورائة ، فإنه مصلح داع إلى الله تعالى ، ومن كان كذلك انتقلت صفاته هذه إلى نفوس السامعين . ومعلوم أن كل إنسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله إلى ما يميل إليه وينطوى عليه . ومقام الدعوة إلى الله تعالى أحوج شيء إلى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلمة كان الداعي أقوى نفساً وأعلى همة كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من تأثيره في نفوس السامعين .

الصفة الرابعة عشرة

الصبر في مقام الدعوة إلى الله تعالى فهو وصف الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومدار نجاحهم فيها ، ولن تسعد بها كما سعدوا وتظفر فيها كما ظفروا إلا بالصبر والثبات ، ومتى فقدت الصبر والثبات كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب .

قال تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

لا يستخفك لا يحملنك على الخلفة والقلق الذين لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباطيلهم فإنهم ضالون جاحدون ولا غرابة في صدور أمثال ذلك منهم — فانظر كيف أمره تعالى بالصبر على ما يلقاه منهم من الأقوال المؤلة والأفعال السيئة ، وقد وعده النصر وإظهار الدين وإعلاء الحق ، ولابد من إجزاه والوفاء به ، ونهاه صلوات الله وسلامه عليه عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنهم — وإجمالاً أوجب عليه المداورة على الدعوة إليه سبحانه وحرم عليه القلق والضجر بما يناله منهم .

وقال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » رفع منزلتهم وجعلهم قادة يرشدون الشعب الإسرائيلي إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه ، لما صبروا في مقام الدعوة إلى الخير على مقاساة الشدائد ، وكانوا على يقين تام وإيمان صحيح بآيات الله تعالى ، فكانوا كاملين في أنفسهم قائمين بتكميل الناقصين ، جامعين بين العلم والعمل .

وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .

أمره تعالى بالثبات في مقام الدعوة إليه ، والصبر على ما كان يصيبه في الله من أذى المكذبين الجاحدين من قومه ، والاقتداء في هذا الثبات بأرباب الجد والصبر على القيام بأمر الله من رسله الذين لم يضعف من عزائمهم في مقام الإرشاد ما كان ينزل بهم من ضروب الأذى ، وأنواع الشدائد والحن — ونهاه عن الدعاء على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر .

ولا يختص الصبر بعدم استعجال الفائدة قبل وقتها ، بل الصبر على الإيذاء الذي يبتلى به الدعاة دائماً أكد وألزم ، وفضله أعلى وأعظم « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

أى إذا كملت نفسك بعبادة الله فكل غيرك واصبر على ما ينزل بك من

الشدائد والحن ، لاسيما فيما أمرت به إذ كل ما ذكر مما عزمه الله وقطعه وأوجبه على عباده من الأمور — ومع هذا فهي من مكارم أهل الأخلاق الفاضلة وعزائم أهل الحزم السالكين طريق الفلاح .

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » مواعيده « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » مايسكن به قلبك . وبالجملة فقد احتمل صلوات الله وسلامه عليه في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد والأذى وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يسببه من دعوته . فكذلك الداعي إلى الحق يجب عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ويواصل السير في سبيله مهما لاقى من صعاب وناله من أذى .

الصفة الخامسة عشرة

التقوى والأمانة والتحرز بطاعة الله تعالى عن مساخطه ، فإنها صفة المورث الذي هو خلف عنه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » فالعمل بمقتضى الدين يورث ملكة العلم والحكمة وبهما ينال الخير والسعادة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » . رواه مسلم ، فلا يصح أن يكون فاسقاً في دينه قبيحاً في سيرته ، فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة ، فمتى لم تكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزعجه^(١) عن اقتحام الحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، بل كان شراً على نفسه وعلى الناس ، وأيضاً فإنه لا يقبل قول الفاسق

(١) تزعجه تكفه من باب وضع

في الديانات فتتلاشى على يديه وظيفة الإرشاد ، وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية ، والفاسق لا يجوز أن يلي شيئاً من أمور المسلمين ، فلا يكون إماماً ولا قاضياً ولا شاهداً ولا يقدم للصلاة ، ومثله لا يتحامي عن الفتيا بغير علم والعياذ بالله تعالى — رزقنا الله التقوى والاستقامة بمنه وكرمه .

آداب الكمالية

ويحسن بالداعي أن يتحلى بأمور (منها) الورع باتقاء الشبهات ، والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة ، فإن ذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه وأهون على الإقبال عليه ، وأدعى إلى الانقياد له لأن حال الداعي يؤثر في القلوب أكثر من مقالته ، وهكذا كانت صفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين رضى الله عنهم أجمعين .

في صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بتمرة مسقوطة فقال : « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعبر من البحرين فقال : والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين . فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك ، قال لا فقالت لم ؟ قال لأنى أخشى أن تأخذه فتجعليه هكذا « وأدخل أصابعه فى صدغيه » وتمسحى به فى عنقه فأصيب فضلا من المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مسك المسلمين فأخذ بأنفه (سدها بيده) حتى لاتصيبه الرائحة ، وقال : وهل ينتفع منه إلا بريجه قال ذلك لما استبعد ذلك منه وهذا من ورع المتقين . وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت ، إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان فهو من المشتبه .

وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف .

ومن وقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به — ولذا منع الشرع من التعرض للتهمة . أخرج الزبير بن بكار عن عمر بن الخطاب قال من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، وأخرج البيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب قال كتب لي بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن إلا نفسه حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ روى عن علي بن حسين (زين العابدين) « أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمر به رجلان من الأنصار فسلماتم انصرفا فناداهما وقال : إنها صفية بنت حيي فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً . فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يَدْخِلَ عليكما » متفق عليه . وفي رواية « إني خشيت أن يُقَذِّفَ في قلوبكما شراً » .

فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فخرسهما من مرور ذلك اليوم في قلبهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الوزع المعروف بالدين في أحواله فيقول : مثلي لا يظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه ومنه يستفاد أنه ينبغي للرجل إذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول هي زوجي أو محرمي حتى لا يتهم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى ما لا يليق ، وهذا متأكد في حق العلماء والمرشدين فلا يجوز أن يفعلوا ما يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم مخلص ، لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم وإرشادهم . قال الإمام علي رضي الله عنه : إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره . وإن كان عندك اعتذاره .

منها محبة الإصلاح والتفاني في خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الناس

ومحاربة البدع والمفكرات بالحكمة والموعظة الحسنة حتى ينهض بهم إلى أوج الفلاح ودرج السعادة ، فإن ذلك من أخلاق الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء والمرسلين ، وصفة قادة الأمم المجاهدين المخلصين — وما أحسن الداعي يحرص على نفع من يريد إرشاده ويبنى الخير له : قال تعالى في صفة المصطفى صلى الله عليه وسلم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » أى جاءكم رسول من جنسكم عربى مثلكم شديد شاق عليه عنكم ولقاؤكم المكروه حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم بالمؤمنين كافة شديد الرحمة — وبقدر امتلاء قلبه بهذا المعنى يكون له من المحبة والقبول فى قلوب الناس ، فالقلوب كالمرآيا المتقابلة ينطبع فى أحدها ما ثبت فى الآخر ، أما الجمول المتواكل فانه تكلمة عدد وعديم المنفعة .

ومنها التخلق بالخلال الحميدة والشيم المرضية التى أرشد إليها الشرع الشريف . وحث على التحلى بها . كالسخاء ، والجود ، والمروءة ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ ، والسواك ، وتنف الأبط ، وإزالة الروائح الكريهة ، واجتناب الروائح المكروهة ، وتسريح اللحية ، مع المحافظة على أبهة العلم ، ومظاهر العلماء — كل ذلك مما يسهل عليه بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى ، بخلاف التهاون فى هذا ، فانه يقلل من الثقة به وإقبال الناس عليه ، وإمام الدعاة نبينا صلوات الله وسلامه عليه الذى هو وارث له كان على غاية من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

ومنها الإخلاص لله فى العمل ، فلا يطلب على الإرشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا من أحد ، ولا تحصيل جاه أو شهرة أو سمعة ، فان المرشد إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خالياً من الأغراض الدنيوية ، أما إذا كان عمله لشيء من هذه الأغراض فلا أثر لقوله فى قلوب الناس ألبتة ، بل يعمل لوجه الله تعالى وطلباً لمرضاته وحسن مثوبته ، وللتقرب إليه سبحانه بهذه الوسيلة العظيمة اقتداء بإمام المرشدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يرى انفسه منة على من يرشدهم ،

وإن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الأطواق للأعناق ، فانه السبب الأكبر لمدياتهم إلى الحق ، بل يرى الفضل لهم إذ سلموا قلوبهم إليه ليتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة ، فنفعتك تزيد بها على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك في إرشاده أكثر من ثوابه عند الله تعالى ، ولولا المسترشد ما نلت هذا الثواب ، وأى عالم لم يكن له من يفيد العلم صار كعقيم لا نسل له ، فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجوداً ، وإن فقد شخصه ، كما قال الإمام على رضى الله عنه : العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة — يريد العلماء العاملين .

وجملة القول أن من قام بالدعوة إلى الله تعالى لشهوة من الشهوات النفسانية فذلك حظه من عمله ، وكان عند الله مذموماً قال تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . أى من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة ، شبهه بالزراع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نزد له فى ثوابه فنعطه بالواحدة عشرة إلى سبعمائة ، ومن كان يقصد ثواب الدنيا نؤته شيئاً منها على ما قسمنا له مع حرمانه من نعيم الآخرة فالأعمال بالنيات .

وقال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » مدحوراً مطروداً ، وسعيها خطيئاً ، من السعى وهو الإتيان بما أمر به والاتباع عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ، واللام رمز إلى اعتبار صدق النية ، والأخلاص فى السعى ، ومشكوراً مقبولاً عنده تعالى مثاباً عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . يعنى زيجها . رواه الترمذى وغيره بإسناد صحيح : فلا يطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال

عز وجل « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلأعلى الله » . فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والخدوم العلم ، إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل الخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس .

يجب علينا أن نؤدى الواجب حبا في الواجب ، وإطاعة خالقنا ، وتلبية لضمائرنا وإرضاء لوجداننا ، لا إذعانا لسلطان المادة ، ولا جريا وراء شهوة نحصل عليها أو مغنم نصيبه ، فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقي إلى حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلى نفسه — وهذا الشعور الطيب هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الحياة ، وقد حث النبي صلوات الله وسلامه عليه على التخلق به على أبلغ وجه وآكده حيث جعله شرطا للإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه » رواه البخازى — ولنا بالرسول أسوة حسنة في أن الإنسان يعمل الواجب حبا في الواجب . فقد أسدى موسى عليه السلام معروفا إلى بنتى الشيخ الكبير : سقى لهما غنمهما وكفاهما مؤنة نزع الماء من البئر ، ولما دعاه الشيخ ليجزيه على معروفه خيرا وقدم إليه طعاما بادره موسى قائلا : نحن أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا . فاعتذر إليه والد البنيتين بأن تقديم الطعام لكل قادم إنما هو عادتنا مع أضيافنا ، فقبل موسى عذره ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . (نعم) له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم .

فينبغي للداعى أن يتحلى بالآداب الشرعية ، والإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون وارثا نبويا ، وعالما ربانيا ، وأن يعلم أنه لا يجتمع الإخلاص

في القلب ، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار ،
والضرب والحوت — فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً
ثاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا
في الآخرة ، فإذا تم لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص ،
والذي سهل عليك ذبح الطمع علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا ويبد
الله تعالى وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه ، والذي
يسهل عليك الزهد في الثناء والمدح ، علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين
ويضرمه ويشين . إلا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرجي للنبي صلوات الله وسلامه
عليه « إن مدحى زين وذمى شين . فقال ذلك الله عز وجل » قطعة من حديث
طويل أخرجه ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس . فازهد في مدح من لا يزينك
مدحه ، وفي ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه ،
وكل الشين في ذمه .

ومنها دوام مراقبته لله عز وجل في سره وعلايته ، محافظاً على الطهارة ،
ومواظباً على قراءة القرآن ، ونوافل الصلوات ، والصوم ، وغيرها ، معولاً في كل
أموره على الله تعالى ، معتمداً عليه ، مفوضاً أمره إليه . قال تعالى « إن الله لا يخفى
عليه شيء في الأرض ولا في السماء » وقال تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقال تعالى
« إن ربك لبالمرصاد » أى بالمكان الذى يترقب فيه من رصده وهو متميل لأرصاده
العصاة بالعقاب . وقال تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » وعن أبى يعلى
شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السكيس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » رواه
الترمذى وقال حديث حسن . السكيس العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب ،
والعاجز المقصر في الواجب الذى يأتم بهواه ، فنفسه عبد شهوته ، يقع في مساخط
الله ، ويعمل نفسه بعفوه وسعة رحمته ، وقد كتبها تعالى لغيره ، ودان نفسه حاسبها

وبالجملة يجب على من يتصدى لإصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة ، مرضى السيرة ، عنوان الفضيلة ، ومثال الكمال في أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، وإلا فهو فتنة في الأرض وفساد كبير ، حقا لو توفرت في الداعى صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به ، حقا لو تحقق الداعى بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، وينقذهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، واستطاع أن يداوى القلوب ، ويهذب النفوس بما أوتي من مهارة وحكمة ، وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين الرذائل بسور منيع من زواجره ونصائح وترغيبه وترهيبه . يقينا لو كان المرشد على ما وصفنا لكان ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به ويهتدون بهديه ، وبحق يستولى على القلوب ويتغلب على الأرواح ويتصرف فيها كما يشاء ، وفي ذلك كفاية والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

آداب الداعى مع السامعين

وهى كثيرة من أهمها ، وهو من دقائق هذه الصناعة ، أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بتلويح في المقال ، وتعريص في الخطاب ما أمكن ، فالتعريض في ذلك أبلغ من التصريح ، فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بالمقصود منه كان أوقع في نفسه ، وأعظم تأثيرا في قلبه ، وأدعى إلى التنبيه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمة المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ — وأيضا التعريض لا تفتك به سُبُفُ الهيبة . ولا يرتفع معه ستر الحشمة ، أما صريح التوبيخ والتفريع الشديد العنيف ، فقد يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار والبقاء على مايم عليه لاسيا النفوس المنطوية على الكبر .

ألا ترى قوله تعالى في شأن ذلك الرجل النغير على دين الله والدعاة إليه « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » لما سمع بخبر رسل عيسى عليه السلام ، وإنكار القوم لهم حضر مسرعا ودعاهم إلى اتباع هؤلاء الرسل برفق ولين ، تأليفا لقلوبهم ، واستمالة

لها نحو قبول نصيحته ، ووصف المرسلين بما يرغبهم في اتباعهم من التزهد غن
الغرض الدينى ، والاهتداء إلى خير الدين والدنيا — ثم أبرز الكلام في معرض
النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال « ومالى لأعبد الذى فطرني »
أى أى مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذى خلقني ، والمراد تقريرهم على ترك
عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبىء عنه قوله : « وإليه ترجعون » مبأنة في
التهديد على وجه لطيف — ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد ، وزيادة
الإيضاح فقال : « أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم
شيئاً ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين » فوجه الإنكار إلى نفسه وهو يريد
به ، أى لا أأخذ من دون الله آلهة وأعبدوها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة ،
وهو الذى فطرني ، مبيناً حال هذه الأصنام التى يعبدونها ، من دون الله سبحانه
إنكاراً عليهم ، وبياناً لضلال عقولهم ، وقصور إدراكهم ، لأننى إذا فعلت ذلك
أكون ساقطاً في وهدة الضلال الذى لاشك فيه ، فإن إشرارك ما ليس من شأنه
النفع ، ولا دفع الضرر ؛ بالخالق المقتدر الذى لا قادر غيره ، ولا خير إلا خيره
ضلال واضح ، وخسران مبين ، وهذا تعريض بهم . هذا سبيل الحكمة فاسلكه
والله تعالى الموفق للصواب .

ومنها التلطف في القول والرفق في المعاملة مع تحرى الإقناع ، فلهذا شأنه في
نجاح المرشد في مقام الدعوة إلى الخير ، والقرآن الحكيم يرشد إلى ذلك في مواضع
كثيرة ، تأمل قوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » أى أحسن طرق المناظرة
والمجادلة من الرفق واللين ، ليسكن شغبهم وتلين عريكتهم ، وهذا بالنسبة للمعاند
المجادلين بالباطل كما سيأتى — وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال
مبين » ، أى وإن أحد الفريقين من الموحدين والمشركين لعلى أحد الأمرين
من الهدى والضلال الواضح — فإن هذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الناطق
بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه

على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد ، ونظيره قول حسان رضى الله عنه :

أتتهجوه ولست له بكفء فشركا لخير كما الفداء

وقوله : « قل لاتسألون عما أجرمتا ولا نسأل عما تعملون » .

وهذا أبلغ في الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف ، حيث أسند فيه الإجماع إلى أنفسهم ، ومطلق العمل إلى المخاطبين ، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر — فما بعد هذا التلطف طريق يسار فيه ولا وراء هذا الرفق غاية يتهى إليها .

والسر في ذلك أن النفوس جبلت على الميل إلى العظمة وحب الكرامة ، وشبت في الغالب على الأنفة والرعونة ، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة ، فمن أراد صرفها عن غيرها إلى رشادها ، وحاول الخروج بها عن مألفاتها وعاداتها ولم يَمْزُجْ سمرارة الحق بحلاوة التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين ، كان إلى الانقطاع أقرب منه إلى الوصول ، ودعوته أجدر بالرفض من القبول وكان كن رام أن يطهر ثوبا من الدنس فأوقد فيه نارا فأحرقته — ألا ترى قوله تعالى : « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذكر والاتعاظ ، والمعد للنفوس للخوف والانزعاج .

وروى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قربوه ، أدن : فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتحبه لأملك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ؛ أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة لا ، جعلني الله فداءك ، فوضع رسول صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه ، يعنى الزنا » رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

فهذه هي الحكمة في الدعوة ، وبها تجب القدوة . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ، وإبلا نكون متبعين له صلوات الله وسلامه عليه حتى نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر على سنته وطريقته في اللطف وتحري الإقناع بالرفق واللين ، ومن أوتى حظه من الرفق فقد أوتى حظه من خير الدنيا والآخرة — ومن هنا تعلم السر في حمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أكل الناس عقولا ، وأصفاهم أرواحا ، وأحسنهم أخلاقا ومنها أن يذكره بخير ، ويصفه بحميد ، كأن يبين ماله من حسب ، وما فيه من فضل ، وما عليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ، ويعده بذلك لقبول الموعظة ، إذ لا ريب أن ما يكون للأنسان من شرف ورفعة مناط التحلى بالفضائل والتخلى عن النقائص ، لأن الذى يرى نفسه مفضلا مكرما ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنيا والخصائص التى تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذى يرى نفسه رذلا ساقطا خسيسا ، فإنه لا يبالي ما يفعل — ألا ترى قوله تعالى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » حيث ناداهم باسم أبيهم يعقوب الذى هو أصل عزهم ومجدهم ، ومنشأ تفضيلهم وطلب مسهم أن لا ينسوا نعمته عليهم بشرائه ورساله ، وتفضيله إياهم على العالمين بالنبوة والملك ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل في نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأهوال مالا منجاة منه إلا بتقوى الله سبحانه في كل الأحوال ، ومراقبته تعالى في جميع الأعمال .

وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا » فإنه تعالى بعد أن امتن على بنى إسرائيل بإيتاء موسى التوراة لهدايتهم به ، ونهاهم عن أن يتخذوا ربا غيره تعالى يكلون إليه أمورهم ، ناداهم بهذا العنوان ليحملهم على التوحيد والطاعة بتذكير إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح عليه

السلام الذى أننى عليه بأنه كان عبداً كثير الشكر له تعالى فى جميع حالاته وفى ذلك إعلام لهم بأن إنجاء من معه كان ببركة طاعته عليه السلام لربه ، وحث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أقبح أنواع الكفران .

وهذا أسلوب حكيم فى الدعوة فينبغى للداعى أن يبدأ بأحياء إحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة فى نفوس مخاطبين ، لتستعد بذلك لقبول النصيحة وتتغلب بهذا الإحساس ، وذلك الشعور على عوامل الهوى والغواية ، فإن النفس إذا عرفت علوها ، واستشعرت كرامتها ، وسمعت ما فى الرذائل من الخسة حملها ذلك الشعور (شعور الرفعة والكرامة) على النفرة من التسفل بارتكاب تلك النقائص ، وكان ذلك من أحكم الوسائل إلى مساعدة المرشد على بلوغ غرضه من نفوس السامعين .

وجملة القول أن فى الوعظ مسا يجرح إحساس الموعوظ ، وحرجا قد يحمله على النفور من سماعه والاستنكاف من قبوله — فإذا كان الداعى حكيما فذكر ما فى الخطاب من فضل ، وماله من منزلة ، ثم أرشده إلى الخير ، وحذره عن الشر ، حمله ذلك على التخلي عما هو فيه من ضلال وشقاء ، وأقبلت نفسه على التحلى بما يدعو إليه من هدى وسعادة كما يقبل الجريح على من يضمه جراحه ، ويسكن آلامه ، وينقذه من تعب المرض إلى راحة السلامة — فهذا شيء من هداية الكتاب الحكيم لنا ، وكله هدى ورحمة .

ومنها : أن يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم ما يتحملون ، ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم مللا وسامة . من الحكم الماثورة : من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مثونة الاستماع منك : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . قيل لعمر

ابن العاص : ما العقل ؟ قال الأصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان وإنما ركب الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستبدل بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل . وإذا كان المرشد بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يجب على يديه أحد ، وإن لم يتوبهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا وإياه في عناء مكث . وتعبد غير مجد . فإنه لا يعدم أن يكون منهم ذكى محتاج إلى الزيادة وقاصر يكتفى بالقليل ، فيضجر الذكى ويعجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم ، وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشوفى وعائك : — وجلس ابن السماك يوما للوعظ وجار يته تسمع كلامه فقال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت هو حسن لولا أنك تردده . فقال أردده كي يفهمه من لم يفهمه . فقالت إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه — وعلى الجملة فخير المرشدين الفطن الذى لا يقل ولا يمل والله الموفق للصواب .

الفصل الثامن

ما يلزم المرشد اجتنابه

بما لا يجوز له الخوض في دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، ورؤية الباري يوم القيامة ، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد العامة يصعب عليهم الخلاص منه ، بل الصواب لهم الاختصار في أمر العقائد وواجب الإسلام على أن يملأ قلوبهم بالتصديق الجازم بكل ما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقبوله ، والإذعان له ، تصديقا سليما من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة ، ولا يتعمين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين — هذا ما أجمع عليه السلف والمحققون من العلماء — فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحدا بسوى

ما ذكرنا ، وكذا الخلفاء الراشدون ، ومن سوام من الصحابة فن بدم من الصدر الأول « نعم » لو تشكك إنسان فى شىء من أصول العقائد بما لا بد من اعتقاده ، ولم يزل شكه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل —

ونقول فى المتشابه من آيات الصفات وأخبارها خلاصة ما قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه : أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات ، وقد قام البرهان العقلى والنقل على هذه العقيدة ، فكانت هى الأصل الحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء فى نصوص الكتاب أو السنة شىء ينافى ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان « إحداهما » طريقة السلف وهى التنزيه الذى أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى « ليس كمثل شىء » وقوله عز وجل « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله تعالى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لخيالاتنا . أى فيقال مثلاً نؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به ، مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزه عن الحلول وسماة الحدوث . فهذه طريقة السلف وهى أسلم إذ لا يطالب العبد بالخوض فى ذلك ، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه « نعم » إن مست الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء فى هذا « والثانية » : — طريقة الخلف وهى التأويل يقولون إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شىء منه عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشىء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل خلافه يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بدله من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغى طلبه بالتأويل ، ولا مانع من السير

على كلا الطريقتين في فهم وبيان التشابه ، لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة .
يحمل عليها ، لأنه لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى .

فظهر بما تقدم اتفاق السلف والخلف على التنزيه ، وصرف النص الموهم عن
ظاهره المحال عليه تعالى ، لكنهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين المراد من ذلك
النص وعدم التعمين ، بناء على الوقف على قوله تعالى : والراسخون في العلم :
فيكون معطوفاً على لفظ الجلالة وجملة يقولون آمنا به حينئذ مستأنفة لبيان سبب
التماس التأويل . أو على قوله إلا الله ، وقوله والراسخون في العلم استئناف ، وذكر
مقابلة في قوله تعالى : فأما الذين في قلوبهم زيغ ! أى كالجسمه ، فمنهم من يقول
إنه على صورة شيخ كبير ، ومنهم من قال إنه على صورة شاب حسن ، تعالى الله
عن ذلك علواً كبيراً .

والحاصل أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة أو الجسمية
أو الصورة أو الجوارح اتفق أهل الحق وغيرهم ماعدا الجسمه والمشبّهة على أن ظاهره
غير مراد لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره - فما يوم الجهة
قوله تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » فالسلف يقولون فوقية لا نعلمها والخلف
يقولون المراد بالفوقية تعالى في العظمة ، فالمعنى يخافون أى الملائكة ربهم من أجل
تعالیه في العظمة ، أى ارتفاعه فيها ، ومنه قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »
فالسلف يقولون استواء لانعلمه ، والخلف يقولون المراد به الاستيلاء والملك . كما
قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

أى فهو تمثيل وتصوير لعظمة الله تعالى ، وسلطانه في خلقه .

— وما يوم الجسمية قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من
الغمام » « وجاء ربك » وحديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا
حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدهونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه

من يستغفرني فأغفر له » فالسلف يقولون بحجى وإتيان ونزول لانعلها ، والخلف يقولون المراد إتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه ، وبحجى عذاب ربك أو أمره الشامل للعذاب ، وينزل ملك ربنا فيقول عنه - وبما يوهى الصورة ما رواه احمد والشيخان أن رجلاً ضرب عبده فهما النبي صلى الله عليه وسلم : « وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته » فالسلف يقولون صورة لانعلها ، والخلف يقولون المراد بالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته في الجملة ، وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة - وهذا بناء على أن الضمير في صورته عائد على الله تعالى كما يقتضيه ما ورد في بعض الطرق « فان الله خلق آدم على صورة الرحمن » . وبما يوم الجوارح قوله تعالى « ويبقى وجه ربك . يد الله فوق أيديهم » وحديث : إن قلوب بنى آدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فالسلف يقولون وجه ويد وأصابع لانعلها ، والخلف يقولون المراد من الوجه الذات ، ومن اليد القدرة ، وفوقيتها فوقية عظيمة بمعنى أنهم لا يخرجون عن تعلقها ، والمراد من قوله بين أصبعين من أصابع الرحمن . بين صفتين من صفاته وهما القدرة والإرادة .

وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، والبعد عن الخطأ فيما لا ضرورة بل لاجابة إليه - وطريق الخلف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم ، وهى أولى في تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم - والسلف من كانوا قبل الخمسمائة وقيل : القرون الثلاثة : الصحابة والتابعون وأتباع التابعين . والخلف من كانوا بعد الخمسمائة وقيل من بعد القرون الثلاثة - والمشبهة قوم شبهوا الله تعالى بالخلوقات ومثلوه بالحوادث . والمجسمة غلاتهم المصرون على التجسيم الصرف ، وأما غير الغلاة منهم فهم مشبهة الحشوية فقالوا هو جسم لا كالأجسام من لحم ودم لا كاللحم ، وله الأعضاء والجوارح ، والقدرية فرقة تقول إن أفعال العباد مخلوقة لهم من دون الله - وقد استوفينا الكلام على هذه الفرق وغيرها في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع »

وبما يلزم اجتنابه التحدث مع العوام بما لا يفهمه ولا تعقل معناه . فذلك من وضع الحكمة في غير موضعها وهو ظلم - فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها وهو الغالب ، وهو فتنة تؤدي إلى العمل بالباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون بل صار في التحدث بها معهم كالعابث بنعمة الله تعالى — ثم إن ألقاها لمن لا يعقلها في معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس في الوسع — وقد جاء النهى عن ذلك : أخرج أبو داود أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « نهى عن الغلوطات »^(١) قالوا وهي صعاب المسائل أو شرارها — وروى الترمذى أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أتيتك لتعلمني من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام : « ما صنعت في رأس العلم ؟ قال وما رأس العلم ؟ قال هل عرفت الرب ؟ قال نعم قال فما صنعت في حقه ؟ قال ما شاء الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكّم ما هُنَا لِكَ ثُمَّ تَعَالِ أَعْلَمَكَ من غرائب العلم » . فالذى تقتضيه الحكمة ألا تعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول وإلا وقع السامع في الفتنة — وقالوا في العالم الحكيم إنه هو الذي يربى بصغار العلم قبل كبارها — وقد ترجم على ذلك الإمام البخارى فقال « باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا » وأخرج موقوفا على على رضى الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله . ويعرفون : ضد ينكرون لا ضد يجهلون أى حدثوهم بما تصل عقولهم إلى فهمه دون ما يعز عليها فتعده منكراً ومحالا وأخرجه بلفظ آخر « قال على حدثوا الناس بما يعرفون » أى يُدركون بعقولهم « ودعوا ما يشبه عليهم فهمه أتحبون أن يكذب الله ورسوله » . وفي مسلم مرفوعاً عن ابن مسعود رضى الله عنه : « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان

(١) جمع غلوطه بالفتح قبل أصلها أغلوطه حذفته همزتها المضمومة مخفياً والأغلوطه ما يغلط فيه وما يقال به من صعاب المسائل .

فتنة على بعضهم » وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه ، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل — وخرج شعبة عن كثير بن مرة الحضرمي أنه قال : إن عليك في علمك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل . ولا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك .

ومن حديث ابن عمر مرفوعاً « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » . وقال على رضى الله عنه : وأشار إلى صدره ، إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حلة : وصدق كرم الله وجهه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء ، وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فاعط كل ذي حق حقه ، وفي معنى ذلك ما روى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه سئل عن العالم من هو ! فقال : من يضع العلم موضعه ، ويؤتي كل شيء حقه ، وقال بعض العارفين : من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخشهم حقهم ، ولم يقم بحق الله تعالى فيهم ، ولذا قيل كل لكل عبد بعبادته عقله . وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه ، وينتفع بك ، وإلا وقع الانكار لتفاوت المعيار فليحذر المرشد الشطح بكلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائعة معجبة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ولا منها فائدة — كالكلام في مقام الفناء الذي قصرت عباراتهم عن إيضاحه ، ومراتب الشهود التي عسرت التفرقة بين حقائقها ، وكقول القوم في أقسام الإيمان ، وأنه خمسة أقسام :

الأول : إيمان عن تقليد ، وهو الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل ، وهو إيمان العوام (الثاني) إيمان عن علم ، وهو الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها ، وهو لأصحاب الأدلة (الثالث) إيمان عن عيان ، وهو الناشئ عن مراقبة

القلب لله تعالى بحيث لا يغيب عنه طرفة عين ، وهو لأهل المراقبة ، ويسمى مقام المراقبة (الرابع) إيمان عن حق ، وهو الإيمان الناشئ عن مشاهدة القلب وهو للعارفين ، ويسمى مقام المشاهدة (الخامس) إيمان عن حقيقة وهو الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله عز وجل وهو للواقفين ، ويسمى مقام الفناء ، لأنهم يفنون عن غير الله تعالى ، ولا يشهدون إلا إياه — وهناك قسم آخر أسمى من هذه الأقسام ، يسمونه حقيقة الحقيقة ، وهو المرسلين ، وقد منعنا الله تعالى كشفه فلا سبيل إلى بيانه — وقولهم في سر السر ، ونور النور — وما إلى ذلك من اصطلاحات الصوفية — فكل هذا خلاف الشرع ، وما كان عليه سلف هذه الأمة فهو بدعة وضلالة كما أوضحناه في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » .

وبهذا يعلم أن من تقيّد من العامة بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ، ورسيخ في نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل ، وحسنت مع ذلك سيرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بذكر اصطلاحات المتكلمين ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته التي هو فيها ، وطريقته التي هو سالكها ويقتصر معهم على تعليم العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج مع بيان سر مشروعيّتها ، كل هذا من غير تدقيق في مسائلها ولا ذكر اختلاف الآراء فيها ، والحث على الأمانة في الصناعات ، والإحسان في المعاملات التي هم بصددّها ، ويملأ قلوبهم من أنواع الرغبة والرغبة بالجنة والنار وبلايا الدنيا وأحوال يوم القيامة ، كما نطق القرآن الحكيم ، وصرحت به السنة الشريفة ، والآثار الصحيحة : ولا يحرك عليهم شبهة من شبه الكلامية والإشكالات الفقهية ، فإنه ربما تعلقت بقلوبهم ، ويعسر عليهم حلها فيقعون في الشقاء والهلاك بسوء تصرفه — وبالجملة ينبغي أن لا يفتح للعوام باب البحث والجدال ، فإنه ضياع لهم ، وليس من الحكمة في شيء : والله الهادي إلى سواء السبيل .

وبما لا يجوز التعرض له صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور

باطنة لا تحملها الألفاظ ولا فائدة فيها كدأب الباطنية في التأويلات البعيدة ،
 وهم جماعة من الملاحدة نسبوا أنفسهم إلى علم الباطن ، ورفضوا الأخذ بظاهر
 القرآن والأحاديث وقالوا : للقرآن والحديث ظاهر وباطن ، والمراد منهما باطنهما
 دون ظاهرهما ، وحرفوا الألفاظ إلى معانٍ آخر غير مفهومه إلا لهم بادعائهم في ذلك ،
 حتى أنهم تركوا أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ، زاعمين أن لها
 معاني غير ما عمل به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه وأجمع عليه
 المسلمون ، وكفالة الصوفية الذين ذهبوا في التأويل إلى ما وراء طور العقل والنقل
 وأساليب اللغة ، ومثلها دعوى القاديانية الهندية التي يلقب أهلها بالأحمدية أن رئيس
 نحلتهم ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض
 الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار
 من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم المعتدين
 على استقلالهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع عن دينه ووطنه — وإنما
 جعل القادياني هذا من أصول دينه دعاية لدولة أجنبية — ولا يزال الباب مفتوحاً
 عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحي النبوة متصل في خلفائه وأتباعه — فالقول
 بهذا خروج من ملة الإسلام لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام ،
 وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل .

فهذا أيضاً حرام في الشرع وضرر على الناس عظيم : فإن الألفاظ إذا صرفت
 عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه
 عليه وعن أصحابه الذين شاهدوه رضي الله عنهم . ومن غير ضرورة تدعو إليه
 من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام
 الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن ما يسبق منه إلى الفهم إن خرج
 عن جادة الشريعة لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ولا معول عليه فيما يخالف
 ظاهر الشرع ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى — وهذا

أيضاً من البدع المنكرة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .

وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها عن معانيها وتنزيلها على معانٍ أخرى على رأيهم الفاسد . من ذلك قول بعض المتصوفة في تأويل قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كل إنسان . وكذا في قوله تعالى : « فاخلع نعليك » أى نفسك ، وفي قوله تعالى : « وأن ألق عصاك » أى كل ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ، فينبغى أن يلتقيه عنه . وفي قوله تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » المراد منه تخلص إبراهيم من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة — وفي قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أنه الحب والعشق إلى غير ذلك مما نقله القاشانى الباطنى الذى ملأ تفسيره بأمثال هذه المصائب .

ومن ذلك ما قالوه في قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه إنه أراد به الاستغفار بالإسحار ، وقولهم في حديث الإيمان والإحسان : « فإن لم تكن تراه » أى إن أفنيت نفسك تشرفت بالرؤية . مع مخالفته للغة العربية كما لا يخفى إلى غير ذلك حتى يحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، فإن القاعدة عند العلماء (أن الظاهر يجب إقراره على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذا أنه يجب حمل كل لفظ ورد في الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عنها . وبعض هذه التأويلات قطعى البطلان كتزويل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محس تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له كأتى لهب وأبى جهل من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والمردة كما لا يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى أفاضله — وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه صلوات

الله وسلامه عليه كان يتناول الطعام مع أصحابه في ذلك الوقت . روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا زاد ابن عاصم في كتاب الصوم « فأكلوا تمرأ وشربا ماء » فهذه أمور يدرك بطلانها بالتواتر والحس نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الأحساس . وكان لواضعى تلك التأويلات من الفرس بغرض سياسى من إفساد الإسلام على أهله وإحداث الشقاق بينهم فيه وهو إضعاف العرب والقضاء على دولتهم أو إزالة ملكهم للتمكن من إعادة ملك فارس وسلطان الملة المجوسية — ثم رسخ بالتقليد في طوائف جهلوا أصله .

فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل ذلك عن صاحب الشرع ولا عن أصحابه ولا عن التابعين مع سعة روايتهم وكثرة تلقيهم ، ولا عن الحسن البصرى رحمه الله مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم — ولا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده ^(١) من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه تقرير أمر فيأتى بالقرآن شاهداً له يحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية . وقوله : فيلتبوأ مقعده . أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من فسر القرآن برأيه وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك . والمقصود الزجر عن القول في القرآن بالهوى والرأى .

ولا تفهم من هذا أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر في الآيات فلسنا نريد هذا ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والتابعين والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة فأكثر ، ولنعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح . فهذا جائز لأنها معان

تحتها الألفاظ بخلاف ذلك كما عرفت لا تحتلها الألفاظ ولا يدل عليها نقل ولا يقرها عقل .

وصفة القول أن النصوص الشرعية تحمل على ظواهرها وما تدل عليه في عرف اللسان ، وأن العدول عن ذلك إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد . وما سميت الملاحدة باطنية إلا لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ، بل لها معان باطنية لا غير ، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينهما وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان . هذا خلاصة ما في العقائد النسفية وشرحها للسعد .

الفصل التاسع

السجع والأشعار في الوعظ .

السجع في الكلام العربي المنشور هو اتفاق فواصل الجمل على حرف واحد نحو فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ، ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ، ويكثر في كلام بلغاء العرب ومواعظ المتقدمين كالإمام على رضي الله عنه والحسن البصري وأبي الفرج بن الجوزي ، وهو نوعان : حسن وقبيح ، فالحسن ما توفرت فيه شروط ثلاثة « الأول » أن يكون بعيداً عن التكلف والتعسف « الثاني » أن تكون كل سجمة دالة على معنى مغاير لمعنى غيرها « الثالث » أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق ، وبهذا يكسب الكلام حسنا وجمالا — والقبيح ما خلا من هذه الشروط .

كقول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والقرض ، والعمر والبرص — والبرص القليل وماء برص قليل وهو خلاف العمر ، والعمر بوزن الجر الكثير

فمثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ولهذا كرهه النبي صلوات الله وسلامه عليه . قال الأزهري : ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم في حنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم « إياكم وسجع الكهان » .

وهو مكروه شرعا ثقیل على النفس ولو في الدعاء ، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لسكاتب : إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ، رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما بإسناد صحيح . وسجع من باب قطع . وروى البخاري من رواية عكرمة عن ابن عباس قال « حدثت الناس كلَّ جمعة مرة » فذكر الحديث وفيه : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإن عهدي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

وكل هذا محمول على التكلف في السجع ، فإن خلا عن التكلف وإعمال الفكر ، وكان لكالم فصاحة الداعي أو لكونه محفوظاً مثلاً فلا بأس به ، بل هو حسن كما عرفت . يدل عليه ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما من قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم مُنْزِلَ الكتاب . ومجرى السحاب وهازم الأحزاب إهزمهم وانصرنا عليهم » وروى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : أعيذكما بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامة . ومن كل عين لامة » والهامة كل ذات سم يقتل ، وقد يقال على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالقمل والبق ، والعين الامة التي تصيب بسوء فقيه جواز استعمال السجع في الدعاء الخالي عن التكلف وسر النهي عن تكلف السجع في الدعاء أنه يذهب الخشوع والخضوع ويلهى عن الضراعة والافتقار وحضور القلب .

ومن أمثلة السجع الحسن قول الإمام أبي القاسم محمود الزمخشري : يا أبا القاسم

حتم تلهو وتلهب . وغراب البين فوقك ينعب . وإلام تروح في التماس الغنى
وتقدو . وسائق الردى وراءك يحدو . ألا وإن بذل الاستطاعة . واستقصاء الجد
في الطاعة . أولى بمن يركب الآلة الحدياء بعد ساعة ، كآنى بجنارتك يسرع بها
إلى بعض الأحداث . وبأهل ميراثك هجروك بعد الثلاث . وغادروك وأنت معفر
مطروح . فضمك لحد وضريح . ولم يبق إلا عملك الذى لزمك فى حياتك لزوم
صحبك . وهو يستبقى صحبتك بعد قضاء نحبك : فيصحبك على التخت مغسولا
ويرافقك على النعش محمولا . ويكون معك على الاكفاء فى المصلى . ويحالفك
وأنت فى الحفرة مدلى . فإذا راعتك نفخة النشر . وفاجأتك أهوال الحشر . وفر
منك أبوك . وأمك وأخوك . وجدته يفد معك أينما تقد . ويرد حيثما ترد . ولعلك
ستصحب من هذا القرين صاحب صدق يؤنسك فى وحشتك . ويلقى عليك
السكينة فى حين حيرتك ودهشتك . ويمهد لك فى دار السلام المهاد الأور
ويوردك السلسيل والكوثر .

وقوله رحمه الله : أرضى الناس بالخسار . بائع الدين بالدينار . قِ فاك مما يقرع
قفاك . قد جمع الأصل والفرع . من تبع العقل والشرع . إن صبح السرَّ صبح
العان . وإن لم يصب فلن ولن . شينان شينان فى الإسلام . الرشوة والشفاعة
فى الأحكام . رب زيادة هى نقصان فائدة . والكف تنقصها الأصبع الزائدة .
قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج . واللؤلؤ يخرج من الماء الأجاج . شمع الشمس
لا يخفى . وسراج الحق لا يطفأ . تقول أنا صائم . وأنت فى لحم أخيك سائم . أعمالك
نية إن لم ينضجها نية . اطلب وجه الله فيما أنت صانع . وإلا فعملك كله ضائع .
ومنها قول الحريرى مخاطب الغافل المفتون بالدنيا إنكاراً وتوبيخاً .

إلام تستمر على غيك . وتستمرى مرعى بغيك ؟ وحتم تنتهى فى زهوك
ولا تنتهى عن لهوك ؟ أنظن أن ستنفك حالك . . إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك
حين توبقك أعمالك . أو يغنى عنك ندمك . إذا زلت قدمك . أو يعطف عليك

معشرك . يوم يضمك محشرك ؟ هلا اتهمت محبةً اهتدائك . وعجبت معالجة
دائك . أما الحمام ميعادك . فما إعدادك . وبالمشيب إنذارك . فما أعذارك وفي الالحد
مقيك فما قيك . وإلى الله مصيرك . فمن نصيرك .

ومنها في التحذير من الفرور — يأيها الفرور بالسلامة . ما أعددت ليوم القيامة
يوم الخسرة والندامة . يوم يجعل الولدان شيبا . يوم يدع المسرور كئيها . الدنيا دار
تجارة فالويل لمن تزود منها الخسارة .

ومنها قول الاصبهانى فى أطباق الذهب — يا أرباب القوة والطاقة . أنظروا
بعين الإفاقة . إلى أهل الفاقة . وياركبان الناقة . رفقا بضعاء الساقة . وياحمة الأوزار
وخزنة المال المستعار . لا تجروا ذيل الافتخار . على أرباب الافتقار فقلوبهم خير من
قلوبكم . ومطلوبهم أعز من مطلوبكم . شغلكم التجول بالأسواق عن تنسم قبول
الأشواق . وألما كم حب الرزق عن الرزاق . وياعمار الخراب . وشرباب الشراب
لا تعمروا هذه القرية الجلحاء . ولا تسكنوا هذه المهلكة الفيحاء . لاتخذوا الدنيا
الفانية سواق . إن الباطل كان زهوقا .

وقوله أيضاً — يامن يسعى لقاعد . ويسهر لراقد . ويامن يحرس لراصد :
ويزرع لحاصد . ويبخل لبازل . ويجمع لآكل . تبنى الايوان وعن قليل ينهدم
ركناك وتبسط الرواق وفي الحدث سكناك . قلب كقلوب الكفار وحرص كحرص
الفار . ينقب بالأظفار . ولا يبقى على المأدوم والفقار . قل لى إذا وقعت الواقعة .
وقرعت القارعة . وأزف لك الرحيل . واجتمع الطيب والعليل . واختاف الفسال
والفسيل . والعائد يغمز عينيه . والطبيب يقاب كفيه . حتى إذا انقطع نفسك .
وخفى جرسك . أينفك حينئذ حلال أصبته أم حرام غصبته : أم نشب حرشته ^(١)
أو ولد حضنته . أو ربع أسسته . أو نبغ غرسته ^(٢) أو حطام حرسته أو قفر حرشته

(١) النشب فتحتين المال والمقار وحرشته أحرزته من حرش الصب ساه

(٢) النبع شجر تتخذ من أغصانه السمام

أو وفر أورثته ؟ كلا لا ينفك فيء قد غنمته . ولا يضرك شيء عدمته ولا ينجيك إلا خير أمضيته . أو خصم أرضيته . فانتبه يا نائم واستقم يا هائم . لقد تهت في بادية لا يبلغك ندائي . وترديت في هاوية لا يبلغها ردائي . نعيم هواؤك ويصحي^(١) حين لا ينفك نصحي . ولا تعص الله في أولاد سوء إذا حضرك الموت غابوا . وما حزنوا لما أصيبوا . بل فرحوا بما أصابوا . وأن تدعهم لا يسمعوا دعائك ولو سمعوا استجابوا . وأما الأشعار^(٢) — فالأكثر منها في المواعظ مذموم قال الله تعالى في وصف عامة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاؤون » جمع غاو ، وهو الضال المنهمك في ضلاله لا يرده شيء « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » والهائم الذاهب على وجهه لا مقصده . وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنقرة وأبخلهم على حاتم .

وقال تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولأن الشعر مقر الكذب قالوا « أحسن الشعر أ كذبه » وقال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مفلحاً في شعره . — أفلق الرجل وافتلق وشاعر مفلق أتى بالعجيب — ولذا لما أسلم منهم جماعة وكانوا مفلقين ضعف شعرهم كحسان وليبد ، وقد فطن حسان من نفسه ذلك وقد اختلفوا في مدح الشعر وذمه ، وأحسن ما قيل فيه قول الإمام الشافعي رحمه الله حين سئل عن ذلك : الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وروى مثل ذلك عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق ، وروح الوصال والتشوق إليه ، والتشكي من ألم الفراق كأنشاد قول ابن الفارض : —

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرق من النسيم إذا سرى
عني خذوا ولي اسمعوا وبى اقتدوا وتحذوا بصباقتي بين الورى

(١) أصبحت السماء انقشع عنها النسيم فهي مصحية وصحو

(٢) الشعر هو الكلام الملقى الموزون قصداً واقع موزوناً اتفاقاً لا يسمى شعراً

وقول أبي بكر البصري من أكابر المحبين :

ولو قيل طأ في النار أعلم أنه رضاك أو مدن لنا من وصالك
لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها سروراً لأنى قد خطرت ببالك
وقوله:

وكان فزادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أجابه فاست أراه عن فئائك يبرح
رميت بين منك إن كنت كاذبا وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني بعيشك يتلح
فإن شئت واصلى وإن شئت لاتصل فلست أرى قلبى بغيرك يصلح

والجلس لا يجمع إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات . وقلوبهم
غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة . فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو
مستكن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيصيحون ، ويتواجدون ، ويتراقصون ،
وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع ضعف في الدين . وفساد في الأخلاق فلو اقتصر
الجلس على الخواص العارفين الكاملين الذين عرفوا باستغراق قلوبهم بحب الله
تعالى ولم يكن معهم غيرهم فلا بأس به إذ أولئك لا يضر معهم الشعر الذى يشير
ظاهره إلى الخلق بذكر الأوصاف المناسبة لهم من جمال ووصال وفراق . فإن المستمع
ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه بحسب المقامات فالألفاظ هى هى والمعانى
مختلفة وكل إناء بالذى فيه يرشح — ولذا كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يتكلم على
بضعة عشر رجلاً فإذا كثروا لم يتكلم .

فينبغى للواعظ في وعظ العامة أن لا يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة ظاهرة
يرتدع بها عن خبث الباطن . أو حكمة نادرة يتعظ بها في كشف السر الكامن
كقول الإمام الشافعى رحمه الله

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا نزل القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالى
إذا ما كنت ذا قلب قنوع
وقول صالح بن عبد القدوس :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى
إن القلوب إذا تنافر ودها
واحذر مأخاة الذئب لأنه
وقول بعضهم :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا
وقول بعضهم :

وفي قبض كف الطفل عند ملاده
وفي بسطها عند الممات إشارة
وقوله :

عجبت لمن بشرى الضلالة بالهدى
وما كان يوما طالب الشر راجيا
ولكن هي النفس الأثيمة دائماً
ولبعضهم في التحذير من إطلاق النظر إلى النساء .

والمعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها
يسر مقلته ما ضر مهجته

وابعض الأدباء في حفظ اللسان والعين .
إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
وعينك إن أبدت إليك معايها
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
ولبعضهم في الخلق الفاضل .

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأصفيح عن سباب الناس حلماً
ومن هاب الرجال تهيبوه
وقال بعض الصوفية في الحث على الرضاء والتسليم .

يا هذه النفسُ أعلی
والحادثات جليها
والعالمون صغيرهم
لا تجزعي يا نفس

ولبعضهم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ندمت على ألا تكون كمثل
وأشد الحسن البصري في وعظه .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
وأشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي الخطيب البليغ القاص
الشجاع في قصصه .

أرض تخيرها لطيب مقيلا
جرت الرياح على محل ديارهم
فأرى النعيم وكل ما يُلهى به
وخطب عبد الله بن الحسن رضى الله عنهما على منبر البصرة في يوم العيد فأنشد :

أين الملوك التي عن حفظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقها
تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء وذاق الموت بانها
وقال موسى بن عبد الله الخزازي : بلغني أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
كان لا يحيف فوه من هذا البيت :

ولا خير في عيش أمرىء لم يكن له مع الله في دار القرار نصيب
كل ذلك على سبيل استشهاد لكلامه ، واستثناس لما يورده من أحكامه
فقد روى البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « : إن من الشعر لحكمة » وبالله تعالى التوفيق .

الفصل العاشر

مراجع الوعظ

مراجعته على قسمين أولية وثانوية « فالأولى » هي العلوم الدينية التي أساسها
التوحيد وينبوعها الصافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعمل العقائد
مبناه آيات التوحيد ، ولا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة صالحة لتخاطب جميع
العالم على اختلاف العقول والمشارب والملل والنحل ، وهي بمحبتها وقوتها داحضة
لكل شبهة رغم إلحاد الملحدون وزينج المارقين ، وما على المرشد إذا تعرض للعقائد
إلا أن يرجع إلى كتاب الله تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحر الفيض
وبكسوها بالثوب اللائق بها في مقام التخاطب ، ثم يورد الآية والآيات دليلا على
قوله ، فلهذا تأثير في النفوس يشهد له العيان : أو يسلك من أول الأمر طريق
القرآن الحكيم في عرض الكائنات على الأنظار وتنبيهها إلى وجه الدلالة فيها على
وحدانية مبدعها وقدرته وعلمه وحكمته . وهذا أمثل الطرق وأفضلها .

وعلم التكاليف العملية التي سرها حفظ نظام العالم وإصلاح حالى المعاش
والمعاد ، وأيضاً الابتلاء والاختبار . فإن كان من العبد الامتثال فالمثوبة . وإن كان

الاباء فالعقوبة . مرجعهُ أيضاً آيات الأحكام والسنة الغراء « وعلم الأخلاق » الذى غايته إصلاح النفوس وإعداد الإنسان لأن يكون إنساناً حقيقياً يصلح للخلافة عن الله عز وجل فى أرضه هو معظم آيات الكتاب الحكيم والسنة الشريفة « وقسم السمعيات » كذلك مرجعهُ الكتاب والسنة .

وبهذا علمت أن بحرك الزاخر ومنهلك الصافى الذى لا ينضب مأوّه ، وأستاذك الذى لا ريب فيه هو الكتاب والسنة . ثم بعدهما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الأخلاق لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة — وإن هذا المعنى لتجدد كثيراً فى كتب الفحول من العالمين العاملين . والدعاة المرشدين الذين قنعوا فى الدنيا . ورضوا منها بالقليل ، وعلقوا قلوبهم بالله تعالى ، وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

فهذه مراجع الوعظ الأولية التى منها يستمد . لهذا أرشدك إلى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة ، وحفظ القرآن الكريم مجوداً ، وحفظ كثير من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى ، لتكون أسرع إلى التأثير عند سماعها فلآيات والأحاديث طلاوة تهش لها النفوس وحلاوة تبهج عندها القلوب — وناهيك بكتاب رياض الصالحين للإمام النووى رحمه الله تعالى ، وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى بتخريج الحافظ العراقى ، فإنها نعم العدة والبضاعة الثمينة المرشد . كذلك أرشدك إلى الرجوع كثيراً إلى كتب المتحققين لتستقى منها ما ينعش روحك ويغذى نفسك ويملأ قلبك ثقة بالله تعالى ، ولا يتجافى مع أعراض الدين الحنيف الواضحة مثل كتاب منازل السائرين للإمام الهروى بشرحه مدارج السالكين للإمام ابن القيم ودهمهم فى شطحاتهم ومعمياتهم فلاحاجة للناس بها ، بل هى رموز وضعوها لأنفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين » .

القسم الثاني - المراجع الثانوية

هي العلوم الوضعية سواء أكانت آلة للعلوم الدينية . ومنها التاريخ والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من عطاء التابعين والأئمة المجتهدين نتعرف منها أعمالهم الجليلة وأخلاقهم الفاضلة التي كونت عظمتهم والتي هي سر نجاحهم ، أم لا كالعلوم الدنيوية التي يتوقف على كثير منها نظام الحياة الاجتماعية من الرياضة والطبيعة بل الفنون والصنائع لقربها من فهم السامعين تفيد المرشد تشبيهات ومقابلات وأمثالا يستعين بها في التعاليم الدينية ويتوصل بها إلى المغايز الأدبية . يرشدك إلى هذا إمعان النظر في قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . فإن الجهاد يتوقف على علوم دقيقة وصنائع كثيرة إذا جهلتها الأمة أو قصرت فيها ضعفت شوكتها وذلت دولتها . وكانت عرضة لأذلال الفاتحين . واستعباد المستعمرين ولوراجعنا تاريخ الأمم الغابرة ، وتأملنا أحوال الأمم الحاضرة . لعلنا كيف عزت الأمم التي شمرت في هذه الفريضة وسعدت ، وكيف ذات الأمم التي قصرت فيها وشقيت .

ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات ، ووظيفته من أعظم الوظائف . وموقف المرشد في الحياة موقف القواد المجاهدين ، والعطاء العاملين وكما أنه لا بد للقائد من إحكام العدة وبعد النظر ، وأصالة الرأي ، كذلك لا بد للواعظ الديني أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والأخلاق الدينية ، ملما بعلوم الاجتماع والعلوم الكونية مما تعرضت له النصوص الشرعية ككشئون السموات والأرض والظواهر الجوية ، لئلا يعرض له من ذلك ما قد يعجز عن الجمع بينه وبين النصوص الشرعية ، أو يكون ظاهر الجمالة به ، وقد علمه صغار المتعلمين ، فيتخذ عجزه أو جهله ذريعة إلى ضعف الثقة به وعدم الاذعان له .

كما أنه لا بد أن يكون محيطاً تمام الاحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملماً بجميع أطرافه مستحضراً لما جاء فيه من الآيات القرآنية ، وصحيح الأحاديث النبوية وآثار

السلف الصالح والحكم النافعة ، ليستطيع أن يوفى الموضوع حقه فتعظم فائدته ويأمن من الخلط والزلل ، كما يأتي بسطه — وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع التأني والسكينة ، وإجابة السائل عن كل ما يحتاج إليه ، وتفهمه على قدر استعدادة باللفظ والبساطة والحلم ، وكل هذا لا يغنى عنه من الوعظ والارشاد شيئاً ما لم يكن ماهراً في طرق الارشاد ، علماً بوسائل التأثير في النفوس واستمالة القلوب ، وهي المهمة التي نحن بصددنا ، وسيأتيك من وسائل التأثير ما فيه الكفاية والله تعالى ولي التوفيق .

الفصل الحادي عشر

أنواعه

هو باعتبار العرف نوعان : تعليم وتأديب « فالتعليم » يكون ببيان عقائد التوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة — وبيان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب والحرام والمسنون والمكروه والمباح ، مقرونة بحكمة التشريع ، ومشفوعة بالحث على التمسك بها ، والتحذير من التهاون فيها — فان من تدبر أسلوب القرآن الحكيم علم أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغي أن تساق إلى الناس مساق الوعظ الذي يلين القلوب ويبعثها على العمل ، لا أن تسرد سرداً خالية من وسائل التأثير .

ألا ترى قوله تعالى « وبسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله » فإن الأمر بالتقوى بعد النهى عن إتيان النساء في المحيض ، والأمر بإتيانهن في موضع الحرث ، والأمر بالتقديم لأنفسنا تحذير من مخالفة هذا الهدى الإلهي . وقوله تعالى « واعلموا أنكم ملاقوه » إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد

منافع الطاعة والامثال . وتجرح مرارة مغبة المخالفة والمصيان وقوله تعالى « وبشر المؤمنين » تبشير للطائعين الذين يقفون عند الحدود ، ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والأولاد ، والمبشر به عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة وقوله تعالى « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه وعيد شديد وتهديد عظيم بمد الأمر بالعدة ونهى المطلقات عن كتمان الولد أو الحيض في قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » كأنه تعالى يقول : إن تحقق إيمانهم بالله الذي شرع الحلال والحرام لمصلحة الناس ، ويوم الجزاء ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات لا بما شرع الله ولا بيوم الحساب — وقوله تعالى : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه يفيد أن الذي تقدم من الأحكام والحدود المقررة بالحكم والشفوعة بالوعد والوعيد^(١) يوعظ به أهل التصديق بالله ويوم الجزاء على الأعمال ، فهؤلاء هم الذين يتقبلونه فتخشع له قلوبهم ، ويسارعون إلى العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، ورجاء الانتفاع به في العاجل والآجل — أما سواهم فلا * وقوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » فإنه ختم به أحكام الرضاع والنظام ، ونفقة الموضع ترغيباً وترهيباً ، ليعتد النفوس على التزام هذه الأحكام والحفاظة عليها ، أى أنه تعالى يحصى لكم أعمالكم ويجازيكم عليها ، فإذا راعيتكم حقوق الأولاد بالتراضى والتشاور واجتناب المضارة ، جعلهم قرة أعين لكم في الدنيا وسبباً لمثوبة الآخرة ، وإن أهملتم واجهم وعمد كل منكم إلى الإضرار بصاحبه بسبب الولد ، كان الولد بلاء وفنة لكم في الدنيا وكانا بالإساءة إلى أنفسهما وولدهما عرضة لعذاب الآخرة * وقوله تعالى : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » فإنه تحذير راجع إلى الأحكام السابقة عليه من التعريض بخبطة النساء وغيره ، أى في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم

(١) وهو من أول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » إلى هذه الآية الكريمة .

فما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنفتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » تحذير — جاء على سنة القرآن الحكيم في قرن الأحكام بالعظة ترغيباً وترهيباً : للمحافظة عليها والالتفات إليها . وأما قوله تعالى : « واعلموا أن الله غفور حلیم » بعد ما ورد من الوعيد والتشديد في الآيات السابقة ، فإنه يفيد أن للعبد مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود ، وأراد الرجوع إلى مولاه فإنه غفور له حلیم لا يعاجله بالعقوبة ، بل يمهله ليصالح بحسن العمل ما أفسد بما سبق من الزلل ، ولا ريب أن المرشد إذا سلك في هذا النوع طريقة القرآن الكريم التي ذكرنا شيئاً منها استرعى الأسماع وأخذ بجماع القلوب .

(والتأديب) يكون بتحديد الأخلاق الحسنة كالحلم والشجاعة والوفاء وبيان آثارها في المجتمع الإنساني والحث على التخلق بها ، وتعريف الأخلاق السيئة كالغضب والجبن والعدو وشرح مضارها ، والتحذير من الانصاف بها من طريق الترغيب والترهيب . وينبغي للمرشد أن يستشهد في كل من النوعين بما جاء فيه من الكتاب والسنة الصحيحة ، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأحوالهم في ذلك رضى الله عنهم أجمعين ، فإن لهذا شأنًا عظيمًا لا يستهان به في الوصول إلى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقي طاهر من الأدناس ، متخلق بما يدعو إليه ، فإن للموعظة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان — وإليك لقرى في لهجة القائل وهو يدعو إلى معنى متمكن في نفسه مالا تجده وهو يتصنع في الدعوة مهما كان فصيح اللسان بليغ الأسلوب ، فكل كلام يبرز عليه كسوة من القلب الذي عنه صدر ، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله : ما بالنا نعظ الناس فنبيكهم وأنت نعظ الناس فتبكي ؟ فقال : ليست النائمة كالشكلى ! والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الثاني عشر

إعداد الموعظة

من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة ، فليعتمد إلى المذكرات الفاشية ولا سيما ما كان منها قريب العهد ، وحديثه على أسنة الناس أو ذاخا في الصحف . ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضررا وأسوأها أثرا ، فيجعله محور خطابه وموضع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية ، ويحصي هذه المضار في نفسه أو بقله ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار السلف ، ثم يأخذ في كتابة الموضوع إن شاء كتابته ، مُضمَّنه ما فيه من تلك المضار ، وما ورد فيه عن الشارع بمحذراً من الوقوع فيه حاثا على التوبة منه — هذا إذا أراد الاقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة — فإذا أراد الحُضَّ على عمل صالح أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل ، فليفكر في مزاياه وآثاره الحسنة تفكيراً عميقاً ، وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك في الكتابة المسلك الذي يناسبه السجع المتكافئ والحسنات الثقيلة التي كثيرا ما تخفى الأغراض وتحجب المعاني — وينبغي أن يكون تفكيره في جو هادئ بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس ومراجعة العقل أى حائل ، كما ينبغي له أن يكون عند التفكير والإلقاء فارغا من الشواغل النفسية مقللا من الطعام والشراب حتى لا تذهب بطنته بفضته ، ويكون نشطا خفيف الروح حاضر الذهن سريع الخاطر حاضر البديهة .

ثم إذا كتب الموضوع فإن شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء ذكر مضمونه ، وليحذر جهده من قراءته على الناس في ورقة فذلك يضمف قوته ويذهب بتأثيره في النفوس كما هو مشاهد — والثاني أحسن الأسرين حتى لا يكون مقيدا بعبارة خاصة فإذا عرض له أمر جديد أثناء الخطابة أمكنه القول فيه . وكثير من الحفاظ

إذا نسوا جملة تلعثموا أو أرتج عليهم فيفقدون هيتهم من نفوس السامعين : وما أحوج الخطيب إلى الهيبة والجلال ! فكان من الأحسن والمصلحة ألا يتقيد بعبارة يحفظها بل يتخير من العبارات ما يؤدي المعاني التي حصل عليها ببحثه وتفكيره — هذا إذا كتب الموضوع — وإن شاء عدم الكتابة واكتفى برسم الموضوع في مخيلته وتسطيره في ذاكرته التي قواها بالمران والممارسة ، كان ذلك أحسن وأكمل — ومن النافع في مثل هذا الحال تقسيم الموضوع بحسب نقطه إلى أقسام كي يسهل عليه استحضاره عند إلقائه ، ويسير فيه بانتظام مستوفيا كل ما يحتاج إليه ، وبإعداد الموضوع على هذا الطريق الذي رسمنا يكون الخطيب في مأمن من الزلل والاضطراب ، وتبقى للموضوع صورة ثابتة في نفوس سامعيه وتعظم الفائدة . أما بدون إعداد الموضوع ، واستحضاره تماما ، وتقسيمه قبل الدخول فيه فلا يأمن أن يتخبط فيه ويسير في التأدية مشوشاً مضطرباً ، ولا يبقى له مثال في نفوس السامعين ، ولا يحصلون منه على الغاية المقصودة ويسرع إليهم نسيانه .

ثم بعد ذلك ينبغي له أن يراعى حال التأدية استعداد السامعين ، فيتنزل في العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنباً الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم ويتوسط مع الأوساط ، ويتأنق مع الخاصة ، فيكون مع جميع الطبقات حكماً يصح الأشياء في مواضعها . وفي كل حال يتجافى في كلامه عن كل زخرف باطل لأن مقصوده لا يتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة السكاذبة ، بل على اختيار المعاني النفيسة وتنسيقها وشرحها بالدقة ، وصوغها في قالب لطيف ، وإلباسها ثوباً شفافاً حسناً ، مستعينا في إبلاغها أذهان السامعين وإنفاذها في قلوبهم ودفع السآمة والملل عنهم ، بإيراد الشواهد عليها من الحكم الثرية والشعرية ، والملح^(١) التاريخية ، والفكاهات الأدبية .

فَمِنْ الْحُكْمِ الثَّرِيَّةِ قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَظْلَمَ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِ مِنْ

(١) ملح من الأحاديث واحدها ملحة كسبعة مالح الشيء من باب ظرف حسن فهو مالح .

تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة من لا ينفعه ، ومدح من لا يعرفه . وقوله
أظلم الناس لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف
وتكبر على ذوى الفضل — وقوله من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ، ومن
وعظه علانية فقد فضحه وشانه — وقوله التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث
الراحة ، وأرفع الناس قدراً من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله .
وقول ابن شبرمة : العجب ممن يحتسى من الحلال مخافة المرض ، ولا يحتسى من الحرام
مخافة النار — وقول بعضهم من سمع بأذنه صار حاكياً ، ومن أصغى بقلبه كان
واعياً ، ومن وعظ بفعله كان هادياً — وقولهم اجتمعت حكمة العرب والعجم على
أربع كلمات : لا تحمّل بطنك مالا تطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولا تنق بأسراً ،
ولا تنتر بمال وإن كثرت . وقولهم : ثروة العاقل في علمه ، وثروة الجاهل في ماله ،
ومم السعيد آخرته ، ومم الشقي دنياه .

وقولهم : إرفع علم الحق يتبعك أهله — العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل
التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه .
أحق من عطفت عليه بمحلك ، من لم يستشفع إليك بغيرك — يسار النفس أفضل
من يسار المال ، ومن أحسن وهو على ظهر الأرض إن يساء إليه في بطنها — من
كساه الحياء ثوبه ، خفي على الناس عيبه .

ومن حكم سيدنا على رضي الله عنه

أدبُ المرء خيرٌ من ذهبه — بشر نفسك بالظفر بعد الصبر — خَفِ الله تأمن
غيره — خليلُ المرء دليلُ عقله — صاحبُ الأخيار تأمن الأشرار — عِشْ قَنِيْعاً
تَكُنْ مَلِكاً — وَحَدَةُ المرء خيرٌ من جليسِ السوء — شرُّ الناس من لا ينبل أن
تراه الناس مَسِيئاً — كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان — الخازم من حفظ ما في يده
ولم يؤخر شغل يومه لغيره . وقال حكيم : اجتنب سبع خصال يسترح جسمك ،
وقلبك ، ويسلم لك عرضك ودينك : لا تحزن على ما فاتك ، ولا تحمل هم ما لم ينزل

بك ، ولاتلمُ الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل ، ولا تنظر
 بشهوة إلى ما لم تملك ، ولا تغضب على من لم يضرك غضبك ، ولا تمدح من لم يعلم
 من نفسه خلاف ذلك — وقال الأحنف بن قيس : لا مروءة لكذوب ، ولا سود
 لبخيل ، ولا ورع لسيء الخلق . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ذهب
 حياؤه مات قلبه — من كذب فجر ومن فجر هلك — ثلاث خصال من لم تكن
 فيه لم ينفعه الإيمان . حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يحجزه عن المحارم ، وخلق
 يدارى به الناس — أقلل من الدينِ تعش حراً ، وقال حكيم : اعقل لسانك إلا عن
 حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال آخر :
 إذا جالست الجاهل فأنصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن فى إنصانتك
 للجهال زيادة فى الحلم . وفى إنصانتك للعلماء زيادة فى العلم . وقال عمر بن عبد العزيز
 رضى الله عنه : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياهم — ومن الحكم الماثورة :
 لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم
 وإن كان عليه أمسك ، وقلب الأحق من وراء لسانه : يتكلم بكل ما عرض له .
 وقال معاذ رضى الله عنه : أنت سالم ما سكت ، فإذا تكلمت فعملك أولك . وقال
 بعض الحكماء : إزم الصمت فإنه يكسبك صفوة الحجة . ويؤمنك سوء المغيبة ،
 ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار — وقال حمزة بن رافع الدوسي
 من حكماء العرب : أجدر الناس بالصنيعة من إذا أعطى شكر . وإذا منع عذر ،
 وإذا مظل صبر . وإذا قدم العهد ذكر . وقال : أكرم الناس عشرة من إذا قُرب
 منح . وإذا ظلم صفع . وإن ضويق سمح . وقال : الأمل الناس من إذا سأل خضع .
 وإذا سئل منع . وإذا ملك كنع^(١) ظاهره جشع وباطنه طمع — وقال : أجل
 الناس من عفا إذا قدر . وأجل إذا انتصر . ولم تطعه عزة الظفر — وقال : أنعم
 الناس عيشاً من تحلى بالعفاف . ورضى بالكفاف . وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف .

(١) قبض . يقال : تكنع جلده إذا تقبض . يريد أنه أمسك بخيل .

وقال : أشقى الناس من حسد على النعم . وسخط على القسَم . واستشعر الندم على ما انتمم - وقال : أغنى الناس من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم .

ومن الحكم الشعرية قصيدة ألى الفتح البستي وهامى مشروحة بإيجاز .

زيادة المرء فى دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

الزيادة النمو ، يحىء لازماً ومتعدياً ، وهذا لازم لوقوعه فى مقابلة النقصان ، وهو لازم . الربح اسم ماربجه ، ويحىء مصدرأً أيضاً ، وضده الخسران . المحض الخالص الخير ضد الشر والمعنى : زيادة كل امرئ فى دنياه زيادة تشغله عن الله تعالى نقصان فى الحقيقة ، وما ربحه من المال فى الدنيا خسران فى الحقيقة ، إلا إذا كان خيراً محضاً ، وهو ما يبنى به الدار الآخرة ، والجمع بين الزيادة والنقصان والربح والخسران طباق .

وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه فى التحقيق فُقدان

وجدان مصدر وجدت الشيء وجدانا بالكسر ووجوداً مقابل فقده . الحظ النصيب . التحقيق : مصدر حققت الأمر وأحققته إذا صرت منه على يقين . وفى بمعنى عند . فقدان بضم الفاء وكسرها . فقد الشيء إذا عدمه . لا ثبات له : لابقائه والمعنى كل نصيب من دار الدنيا أصابه المرء لادوام له ، فانه عند إمعان النظر عدم فلا يحول عليه ، ولا يركن إليه ، والذي يحول عليه عند أولى النهى الحظوظ الأخروية لأنها الباقية ، ولو ذكرت الفناء بدل الواو سيكون تعليلها لما تضمنه البيت الأول لكان أوجه .

يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً بالله هل لخراب العمر عمران

الخراب ضد العمران ، والدهر الزمان . الاجتهاد بذل الوسع لنيل المقصود . العمر بضم العين عيش الإنسان ، والعمران مصدر كغفران . المعنى يا عامراً لما خبره مرور الزمان بأذلاطه فى كل أوان ، أخبرنى هل عامر لخراب عمرك موجود ؟ والجمع بين

العمارة والخراب طباق . وبين العمر والعمران تجنيس تام .

ويأحرىصاً على الأموال يجمعها أنسيت أن سرور المال أحزان

الحرص : الجشع — النسيان خلاف الذكر والحفظ أنسيت مبنى للهجول وفاعله الأصلي إما الحرص أو الجمع الدال عليهما أول الكلام . المعنى ياجشعاً في جمع الأموال أساك الحرص والجمع كون سرور المال هوماً وأحزاناً ، أما في الدنيا فسكاً ترى ، وأما في الآخرة فلأنه يحاسب عليه من أين جمعه ، وفيه أنفق . والجمع بين السرور والحزن طباق .

دع القواد عن الدنيا وزينتها فصفوها كدر والوصل هجران

دع . بعد بقرينة استعماله بمن ، ويرى زرع مكان دع ، من وزع يزع وزعاً مثل وضعه يضعه وضعاً . أى كيفه — زينتها : زخرفها — صفواً الشيء خالصة . الوصل : الالتقاء ، والهجران بالكسر كالهجر ضد الوصل . المعنى : لما كان سرور المال يوجب الأحزان ينبغي أن تبعد قلبك عن حب الدنيا والافتتان بزينتها لأن ما تصورت صفوه منها فهو بخلافه ، ووصلك إياها هو في الحقيقة قطيعة .

وأرئع سمعك أمثلاً أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان

الإرعاء : الأصغاء — السمع : الآذان — والمراد بالأمثال الأبيات التي تذكر بعد — التفصيل : التبيين — الياقوت : الحجر المشهور — المرجان : الخرز الأحمر المعروف . ومعناه واضح .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

استعبد الإنسان إتخذه عبداً والفاء للتعليل — وما في طالما وقلمها كافة ، عن طلب الباعل ، وتسكتب موصولة كما في ربما وإنما ، هذا إذا كانت كافة أما إذا كانت مصدرية فليس إلا الفصل . وهنا يصلح لكل واحد منهما . المعنى يشبه أن يكون مأخوذاً من كلام الإمام على كرم الله وجهه إذ يقول « بالبر يستعبد الحر » معناه : المرء بربه يسترق الحر ويستحق الشكر .

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته أنطلب الربح مما فيه خسران .
 الجسم : الجسد وكذا الجسمان والجثمان . كم للاستفهام ، منصوب على الظرفية
 أو على المصدر حسب تقدير المميز ، أى كم زماناً تسعى ، أو كم سعياً تسعى . والمهمزة
 للاستفهام التوبيخى ، أى لا ينبغي لك أن نطلب الربح في غير محله المعنى : يامن
 يخدم جسمه ويطلب إرادته أكثر سميك لخدمته . وينبغى للعاقل ألا يسعى وراء
 شهوته ، فليس في ذلك ربح له ، بل فيه خسرانه ، لأن في خدمته تقويته ،
 وهى توجب استيلاء القوة الشهوية والغضبية ، ومن غلبت عليه هذه القوة
 التحق بالبهائم .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
 الإقبال : ضد الإدبار ، والنفس : الروح — والاستكمال : طلب الكمال
 والفضائل جمع فضيلة وهى المزية ، كالتحلى بالأخلاق الحيدة . والمعنى : لما زجر
 عن خدمة الجسم لسوء مقبتها ، أمر بتربية النفس ، وذلك بتحليلتها بالأخلاق
 الكريمة ، والشائئ المرضية ، وتنزيهاها عن المكدرات الطبيعية ، والعلائق البدنية
 فإن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه .

وإن أساء مسيء فليكن لك في عروض ذلته صفح وغفران
 أساء إليه نقيض أحسن إليه — عروض : مصدر عرض الأمر إذا ظهر —
 الصفح : الإعراض عن الذلة ، والغفران : التغطية والستر — صدر البيت في معنى
 الإيذاء أى لا تشغل بإساءة من أساء إليك ، بل أعرض عنه واستر زلته —
 ولو كان مكان الواو فاء ليكون تفرعاً على البيت قبله لكان أقرب ولم يحتاج
 إلى هذا التكلف .

وكن على الدهر معواناً لذى أمل يرجو نذاك فإن الحر معوان
 معوان للمباغمة من المعونة — الأمل : الرجاء — الندى : العطاء — الحر :
 كناية عن الكريم : المعنى من كان يرجو منك عطاء يستعين به على نوائب الزمان
 فحقق أهله أمه ، لأن ذلك دأب الكريم .

واشدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خاتمتك أركان

الشد : العقد ، يقال شد شد يشد بضم الشين وكسرها إذا عقد . الحبل : الرسن ويستعمل في العهد مجازاً ، وفي بعض النسخ بحبل الدين مكان بحبل الله . والدين الإسلام . الاعتصام : طلب المصمة ، وهي الحفظ : ركن الشيء جانبه الآخر ، وقد يطلق على العز والمنعة كقوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » المعنى استمسك بعهد الله ودينه الذي رضيهِ لسعادة الناس ، فإن من استمسك به فقد استمسك بالركن الذي لا يشقى أبداً من لجأ إليه واعتصم به في دينه ودنياه .

من يتق الله يحمده في عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا التقوى : امتثال الأوامر واجتناب النواهي . والحد : الثناء بالجليل على الجليل . عواقبه : عاقبة كل شيء آخره — يكفه : من الكفاية بمعنى الوقاية — العز : خلاف الذل . والمهوان خلاف العز . والمعنى : من يطع الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهي كان محموداً في عواقب ذلك . ويدفع الله عنه شر جميع الناس . سواء أكانوا أعزاء أم أذلاء .

من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان الاستعانة طلب الإعانة . في طلب أى شيء مقصوده . العجز : الضعف . الخذلان : ترك العون والنصر . وقوله فإن ناصره عجز ، من قبيل قولهم رجل عدل . وفيه ثلاثة أوجه : فإن قيل يشترط في الجملة الشرطية أن يكون الأول سبباً للثاني وطلب الإعانة من الغير ليس سبباً لأن يكون ناصره عاجزاً : قلنا تقدير الكلام من استعان بغيره تعالى في طلب مقصوده يكن ذلك سبباً للإخبار بأن ناصره عجز وخذلان . فجواب الشرط محذوف ، نظير قوله تعالى « إن كان قيصه قد من قبل فصدقت » أى يكون سبباً للإخبار بأنها قد صدقت . والمعنى يفهم مما ذكر .

من كان للخير مناعاً فليس له على الحقيقة إخوان وأخذان مناع : مبالغة مانع . الحقيقة : من حق إذا ثبت ، والمراد الواقع والخدن

الصديق . المعنى : من كان دأبه وديدنه منع الناس من الخير فلايس له في الواقع صاحب ولا صديق ، وكان شريراً عدواً لنفسه واغيره ، ومن أظهر له المحبة فيما لدفع شره أو لغرض آخر ، وليس في الواقع محباً ولا صديقاً له .

من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للإنسان فتان جاد بالشيء : سخابه وسمح . قاطبة : جميعاً . فتان مبالغة من الفتنة ، وهي الامتحان والاختبار . والمراد هنا السحر والجذب . والمعنى : من سخا بالمال أحبه الناس جميعاً وانقادوا له ، فان طبيعة المال سحر النفوس وجذب القلوب إلى صاحبه .

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان المسالمة المصالحة . يسلم : مضارع من السلامة . الغوائل جمع غائلة من الغول وهو الإهلاك فجأة ، يقال غاله الشيء واغتاله إذا قتله من حيث لا يدرى وعن الكسائي أن الغوائل هي الدواهي . والمراد هنا الشرور . عاش من العيش وهو الحياة . قرير العين : قرت عينه تقرُّ بكسر القاف وفتحها ضد سَخِنَتْ . والمراد الاطمئنان ، الجذل بالتحريك : الفرح . يقال جذل بالكسر يجذل فهو جذلان . المعنى من دار مع الناس ولم يعاند معهم سلم من شرورهم وعاش مطمئناً هادئ البال فرحاً مسروراً .

من كان للعقل سلطان عليه غدا وما على نفسه للحرص سلطان يقال للقوة المفكرة عقل ، وللعلم المستفاد بتلك القوة أيضاً عقل . السلطان : الوالى والحجة والبرهان أيضاً . وعلى الثانى يجرى مجرى المصدر . المعنى : أن من كانت أعماله صادرة عن سلطان الدين والعقل لم تغلب عليه الشهوة ولا الحرص والطمع ، وكان محبوباً لدى الله والناس أجمعين .

من مدطرفا لفرط الجهل نحو هوى أغضى عن الحق يوماً وهو خزيان الطرف : العين . الفرط : أفرط في الأمر إذا جاوز فيه الحد ، والاسم منه الفرط . الهوى : مقصوراً ميل النفس إلى الشيء ، من هواه يهواه إذا أحبه . والنحو الجانب . الخزى الهوان . أغضى عن الحق أعرض عنه . المعنى : من مدعينه إلى جانب هوى

نفسه الأمارة بالسوء لتجاوز جهله الحد ، وأغمض عينيه عن رؤية الحق ، وأعرض عنه في يوم أى يوم ، والحال أنه خزيان في ذلك اليوم ، مهان حيران ، فالعاقل من لا يجعل زمام عقله في يد نفسه وهواه .

من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر برهان
صروف الدهر : حوادثه ونوائبه ، والطبع والطبيعة : السجية التي خلق الإنسان عليها . البرهان : الحجة . المعنى من رجوع إلى حوادث الزمان ونوائبه ونظر إليها بالعين السليمة ، ظهرت له الحجة القاطعة على طبيعة الزمان ، وأنه لا يؤمن غائلته .
ويقرب من هذا البيت قول بعض الأدباء :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبان
الزرع : البذر على الأرض ، والمراد العمل . يحصد : حصّد الزرع جذاه وقطعه والمراد يجذ . إبان الشيء بكسر الهمز وتشديد الباء وقته وللعقوبة وقتها ، كما قال تعالى « وأملئ لهم إن كيدى متين » فالظلمة والأشرار إن لم يندموا في العاجل فلم ندامة في الآجل ، وكان الظاهر أن يقال من يزرع الشر يحصد الشر ، إذ أن المحصود لا يكون إلا من جنس المزرع ، إلا أنه من قبيل إقامة المسبب مقام السبب ، وهى سائفة شائفة .

من استنم إلى الأشرار نام وفي قيصه منهم صِلْ وثعبان
استنم إليه : سكن واطمأن ، والمراد ركن إليهم . الأشرار : جمع شر كزند وأزناد ، وقيل جمع شرير ، وهو كثير الشر ، مثل يتيم وأيتام . الصل بالكسر الحية التي لا يفيد معها علاج . والثعبان ضرب من الحيات . المعنى : من صاحب الأشرار وخالطهم وصل شرهم إليه من حيث لا يدرى ، ولا يقدر على دفعه . وفي ذكر القميص لطيفة تدرك بالتأمل .

كن ريقَ البشر إن الحرهتهُ صحيفة وعليها البشر عنوان
الريق بالتشديد من كل شيء أفضله ، ومنه ريق الشباب ، وريق الثياب ،

وقد يخفف . البشر — بكسر الباء — طلاقة الوجه . الهمة : ما ييمئك من نفسك على طلب المعالي . الصحيفة : القرطاس . وقيل الأوراق المكتوبة ، وهو المراد هنا بقرينة قوله : وعليها البشر عنوان . المعنى : كن طلق الوجه بشاشاً ولا تكن منقبضاً عبوساً . فإن عادة السكريم إدخال الفرح ابتداءً على أخيه خصوصاً عند اللقاء كصحيفة جاءت من قريب أو حبيب تحمل البشارة ، فإن من وصلت إليه تلك الصحيفة يحصل له الفرح والنشاط بمجرد النظر في عنوانها ، بخلاف ما إذا كانت معنونة بضدها ، فإنه يتألم لمجرد رؤيتها . كذا من دأبه العبوس والانتقباض عند لقاء الناس كما قال بعض الأدباء :

بشاشة وجه المرء خير من القِرَى وكيف إذا جاء بالقرى وهو ضاحك

ورافق الرفق في كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذمه إنسان
الرفق ضد العنف . الأمور : جمع الأمر وهو الشأن — الرفيق : اللين الهين .
المعنى : صاحب اللين في كل الشئون ، فإن اللين من بنى الإنسان لا تلحقه ندامة ولا يذمه أحد من الناس ، وإنما يذم الشديد المعاند . وفي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . وقال بعض الحكماء : عليك بالصدق في مقالك ، والرفق في أفعالك ، فمن صدق في مقاله جل قدره ، ومن رفق في أفعاله تم أمره .

ولا يفرنك حظ جره خرق فألخرق هدم ورفق المرء بنيان
غرته الدنيا غروراً من باب فقد خدعته بزيتها ، واغتر بالشئ خدع به .
الحظ النصيب — الخرق بفتححتين مصدر والاسم الخرق بالضم ، والأخرق ضد الرفيق وبابه طرب . المعنى : لما أمر بالرفق واللين حذر من الغرور بنصيب جره إليه العنف والشدة لأنهما كالهدم والرفق كالبنيان ، والأول مستلزم للعدم ، والثاني مستلزم للوجود .

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة فلن يدوم على الإحسان إمكان

يقال : أمكنه إذا جعله قادرا . المقدرة بالضم اليسار ، وحذف معمول أحسن يفيد العموم أى أحسن إلى كل أحد لأن من أحسنت إليه إذا كان أهلاً له فالإحسان إليه واجب ، وإن لم يكن أهلاً له فأنت أهل له . ومعنى البيت واضح .

فالروض يزدان بالأنوار فاغمة والحر بالعدل والإحسان يزدان
الروضة : الموضع المعجب بالزهور والروضة : العشب والبقل . يزدان من الزين بمعنى يتزين الأنوار : جمع نور بفتح فسكون ، ونور الشجرة زهرها — فغم الورد : انفتح . المعنى : أحسن ما دمت متمكناً من الإحسان قادراً عليه ، لأن زينة الحر الكرم بالعدل والإحسان إلى الناس ، كما أن الروض زينته بالأنوار المتفتحة . فنزل الحر منزلة الروض ، والعدل والإحسان منزلة الأنوار المتفتحة ، والأصل في هذا الكلام تقدم المصراع الثانى على الأول ليسكون تمثيلاً له إلا أنه قدم لضرورة النظم .

صن حرَّ وجهك لا تهتك غلالته فكل حرُّ الحر وجهه صوان
حرَّ وجهك المراد به ماء الوجه — الهتك : مصدر هتك الستر هتكاً من باب ضرب خرقه أو شقه حتى يظهر ما وراءه . وهتك الله ستر الفاجرة : فضحه . الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب والدرع ، والمراد من الحر الكريم . المعنى : صن ماء وجهك لا ترقه لأمر دنيوى لأن الكريم هو الذى يصون ماء وجهه ويحفظه عن كل لئيم كما يصون عرضه كما قال ابن عبد القدوس .

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه
حياؤه فاحفظه عليك فإمّا يدل على فعل الكريم حياؤه
دع التكاسل فى الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان
التكاسل إظهار الكسل مع عدم إرادته كالتجاهل . والمراد به هنا الكسل والتناقل عن الأمر وبابه طرب . السعادة : خلاف الشقاوة . ومعنى البيت جلى .
ولا ظل المرء يرى من هوى وتقى وإن أظلته أوراق وأفنان

الأنهى جمع نهية وهو العقل سمي بها لأنه ينهى صاحبه عند القبيح ، وإما جمعه لأنه أراد به العقل العملي والنظري ، فالعقل قوة للنفس الإنسانية بها يقتدر على تحصيل الآراء في الأمور التي تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس والبدن ، والنظري قوة يتمكن بها من تحصيل العقائد والآراء في الموجودات التي لا تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس الإنسانية وإطلاق الجمع على الاثنين سائغ . التقي والتقوى بمعنى ، وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي . الأوراق جمع ورق الشجرة والكتاب واحده ورقة . الأفنان جمع فنان وهو الفنص . الواو من وإن أظلمته للعطف على محذوف كقولك « أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني » وعند البعض الواو للحال وعلى كلا المذهبين معنى الشرطية منسلخ عنها ، إذ المراد التسوية . المعنى : أن من لم ينتفع بالعقل بنوعيه ولم يمتثل الأوامر ويحجب النواهي فليس يعد في زمرة الإنسان وإن كانت تظله أوراق الأشجار وأغصانها ، وإن كانت صورته صورة آدمي ، فإنه في الحقيقة ليس بآدمي ، لأن كل شيء خلق لغاية ولم تحصل عنه تلك الغاية كان في حكم المعدم ، ولذا كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء هذا ليس بفرس ، والإنسان البذيء ليس هذا بإنسان ، ويقال فلان لاعين له ولا أذن إذا بطل فعل عينه وأذنه وإن كان شبيهماً باقياً ، وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عى فهم لا يبصرون » في من لم ينتفع بهذه الأعضاء . وعبر بانتفاء الظل وأراد انتفاء الإنسان لأن الظل من لوازمه وانتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم .

والناس أعوان من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوان
 العون إذا استعمل باللام كان معناه المحبة وإذا استعمل بعلی فعناه البغض
 المولادة ضد المعادة وهي المصادقة من قولك وليه يليه إذ أحبه وصادقه ، ومنه الولي
 ضد العدو . الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت
 لنا عليهم الدولة ، والجمع الدول بكسر الدال . الدولة بالضم في المال يقال صار النبی

دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والجمع دولات ودول . والادالة : الغلبة يقال اللهم أدلنى على فلان وانصرنى عليه . ودالت الأيام دارت . والله يداولها بين الناس . وتداولته الأيدي أخذته ، هذه مرة وهذه مرة . والمعنى واضح
سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بِأَقْلٍ حَصِرٌ وبأقلٍ في ثراء المال سَحْبَانُ
سحبان رجل من بلغاء العرب يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة يقال
هو أفصح من سحبان بن وائل وبأقل : رجل مشهور بالعي حتى يضرب به المثل
فيقال أعينى من بأقل — الحَصِرُ : العي وعدم البيان . الثراء : كثرة المال . والمعنى
أن الرجل الفصيح البليغ مع الفقر لا يؤبه به ولا يسمع له . والرجل العيى الذى
لا يكاد يُبين مع الفنى موقر محترم وهذا من فساد الزمان .

لا تودع السر وشاء به مذلاً فإرعى غمًا في الدَّوِّ سِرْحَان

أودعه مالا دفعه إليه أيسكون ودبعة عنده واستودعه ودبعة استحفظه إياها .
وشى فى كلامه وشيا : كذب ، ووشى به عند السلطان وشيا : سعى به . وبأبه
وعد مذل بسرهم كعلم وتصروكرم فهو . مذل ومذبل أفشاء الغنم : اسم جنس
لا واحد له من لفظه — الدو والدَّوِيَّة : المغازة والسرحان بالكسر الذئب جمعه
سراحين والأثنى سرحانة — المعنى لا تقتل سرك عند من هو معروف بإفشاء
الأسرار لأنه لا يؤتمن عليه كذئب فى فلاة لا يؤمن على الغنم بل الغالب أنه يمزقها
ويفرقها . شبه السر بالغنم والوشى بالذئب فكما أن صاحب الغنم يريد حفظها
كذلك صاحب السر ينبغي له أن يحفظه من واش يفشيه بين الناس كتفريق
الذئب الغنم .

لاتحسب الناس طبعاً واحداً فلهم غرائز لست تحصيها ألوان

الطبع : السجية التى جبل عليها الإنسان وهو فى الأصل مصدر والطبيعة مثله .
الغريزة الطبيعة والقريحة — اللون : النوع والهيئة كالسواد والبياض وهو صفة
الغرائز وكذلك الجملة الفعلية بعدها قدمت للضرورة . المعنى : لا تظن أن الناس

طبيعة واحدة وغرائز متحدة ، لأن غرائزهم متنوعة وطبائعهم مختلفة ، فإذا اقتضت طبيعة بعضهم حفظ السر فلا تظن أن كل أحد أمين عليه . ولتحقيق هذا أورد مثلين . سائر ين فقال :

ما كل ماء كصداء لوارده نعم ولا كل نبت فهو سعدان

صداء ككتان أعذب عين عند العرب ، السعدان نبت من أفضل مراعى الإبل . أصل المثل الأول أنه لما قتل لقيط بن زرارة من بنى دارم تزوج امرأته رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ فقالت : كل أموره حسنة ، ولكنى أحدثك أنه خرج مرة إلى الصيد فلما رجع إلى وبقيصه نضح من دم الصيد والمسك تضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه فضمني ضمة وشمى شمة ، فليتنى متئمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ فقالت : ما كل ماء كصداء لوارده . فأرسلته مثلا يضرب للشئ يفضل على أقرانه ويعلو على أشكاله . وأصل المثل الثانى ما رواه أبو عبيد عن المفضل أنه لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس وكان مغرطا ، فقال لها أين أنا من زوجك ؟ فقالت : مرعى لا كسعدان . فأرسلته مثلا : نعم حرف يقرر به ما سبقه مثبتا كان أو منفيا ملفوظا أو مقدرأ كقولك لمن يقول أقام زيد ؟ نعم أى قام أو يقول لم يقيم زيد : نعم . أى لم يقيم . وهنا يقرر بها ما تقدم تقديرأ لأن الشاعر لما قال المصراع الأول تخيل سائلا سأله أى أصادق أنت فيما قلت ؟ فقال : نعم . أى أنا صادق فيه — المعنى : ليس كل إنسان من دأبه إخفاء سر صديقه بل إخفاء أسرار الأحرار شيمة الكرام الأبرار ، كما قيل صدور الأحرار قبور الأسرار كما ليس كل ماء كماء صداء فى السلامة والعذوبة لوارده ولا كل نبت كنبت سعدان فى التسمين والمنفعة لراعيه .

لا تخدشن بمطل وجه عارفة فالبر يخدشه مطل وليان

خدشه خدشا من باب ضرب جرحه فى ظاهر الجلد خرج منه دم أولا —

المطل التسوية بوعد الوفاء مرة بعد أخرى ، وبابه قتل . العارفة . المعروف .
 اللين بفتح اللام أكثر من كسرهما وتشديد الياء المطل في الدين فهو مرادف لما
 قبله . المعنى لا تجرحن بأظفار مطلق . وجه معروفك وإحسانك لأن الماطلة تشين
 البر والمعروف . قال بعض الحكماء : خير المعروف من لم يتقدمه مطل ولم يتبعه من
 خير البر عاجله ، وأفضل الإحسان ما سلم من المن والأذى .

لا تستشر غير نذب حازم يقظ قد استوى فيه إسرار وإعلان
 شاوره في الأمر واستشاره بمعنى ، أى أخذ رأيه فيه ، نذب خفيف في الحاجة .
 الحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة . يقظ حذر متحذر : الأسرار : السكمان .
 الإعلان : الإظهار . فيه أى عنده . المعنى : لا تستشر في أمورك إلا من توفرت
 فيه هذه الخصال الأربعة الخفة في الحاجة وضبط الأمور واليقظ والصراحة في الحق .

فللتدبير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
 التدبير جمع تدبير وهو النظر في الأمر الذى تؤول إليه عاقبته . فرسان
 جمع فارس كصحبان جمع صاحب ركض الفرس برجله استحثه ليعدو — أبر الرجل
 على أصحابه علام وغلبهم من الأبرار وهو الغلبة والعلو — المعنى : لما نهى عن
 استشارة من لم تتوفر لديه شروط الاستشارة تخيل أن المخاطب يحسب أن أهل
 التدبير انعدموا وأهل الاستشارة فُقدوا ، فأزال هذا التوهم بقوله : فللتدبير .
 أى أن أهل الاستشارة باقون ولها رجال إذا ركضوا في ميزان الرأى نفعوا من
 يرجع إلى رأيهم ، كما أن للحرب فرسان إذا جالوا في ميدان القتال غلبوا على
 أعدائهم وظفروا بهم .

والأمور مواقيت مقدرة وكل أمر له حد وميزان
 المواقيت جمع ميقات وهو الوقت . محددة حد الشيء نهايته ومعناه واضح .
 فلا تكن عجلا في الأمر تطلبه فلايس يحمد قبل النصيح بحران
 العجل صفة مشبهة من العجلة وهى خلاف البطء . والنصح بضم النون وفتحها

الإدراك . البحران : عند الأطباء شر المقاومة والموافقة التي تكون بين الطبيعة والمرض وتلك إنما تكون في كل ثلاثة أيام ونصف يوم . ثم هذه المقاومة إن وقعت بعد نضج مادة المرض فهي علامة غلبة الطبيعة وآية الصحة ، وإن وقعت قبل نضجها كانت غالباً علامة الهلاك فلذا قال فليس يحمد قبل النضج بحران — المعنى : لما كان للأمور أوقات مقدرة وأزمان معينة ، فيكون لها نهاية عينها الله تعالى لحصولها ولا تحصل قبل بلوغها فإذا لا فائدة في العجلة فليس تحمد كما لا يحمد البحران قبل نضج مادة المرض . وأورد المصراع الثانى على سبيل التمثيل والفاء في المصراع لأول للتعليل .

كفى من العيش ما قدسد من عوز فقيه للحر قنيان وعُنيان
المراد من العيش ما يحصل بسببه العيش — سددت الثلثة : أصلحتها وأرتقتها
عوز الشيء عوزاً من باب تعب عز فلم يوجد وعزت الشيء أعوزته من باب قال
احتجبت إليه فلم أجده ، وأعوزنى المطلوب مثل أعجزنى وزناً ومعنى ، وأعوز الرجل
إعوازاً افتقر ، وأعوزته الدهر أفقره . وفي بعض النسخ رمق مكان عوز . والرمق
بقية الروح . قنيان : مال يتخذ قنية تقول قنوت الغنم وغيرها قنوة وقنيته قنية
بكسر القاف وضمها فيهما إذا اقتنيتها لنفسك لا للتجارة ، واقتناء المال وغيره اتخاذه
وقى الرجل بالكسر قى كرمى صار غنياً وراضياً وأقناه الله أعطاه ما يقتنى من
القنية والنشب . وأقناه أيضاً : أرضاه . والقنى الرضا ويقال أيضاً أغناه وأقناه :
أعطاه ما يسكن إليه . غنيان : مصدر غنيت بكذا عن غيره من باب تعب إذا
استغنيت به ، والاسم الغنية بالضم فأنا غنى وغنيت المرأة بزوجها غنيانا بالضم
استغنيت عن غيره . المعنى : كفاك من المال ما أزال فقرك فلا تطلب كثرة المال
لأن بذلك القدر راحة للحر وغنى عن الكثرة مع التعب .

وذو القناعة راض من معيشته وصاحب الخرص إن أثرى فغضبان
قنع قناعة من باب سلم رضى بالقسم — الثراء بالمد كثرة المال ومن في من

معيشته بيان لمخدوف أى راض بما قسم الله له من أسباب عيشه بخلاف الحريص فهو غضبان غير راض عن الله تعالى وإن أكثر عليه نعمته وماله لأنه غير راض بالمقسوم وما أعطاه الله تعالى بالنسبة إلى حرصه قليل .

حسب الفتى عقله خلا يعاشره إذا تحاماه إخوان وخلان
حسب الفتى كاف له عن غيره . الخلل بكسر الخاء : الخليل كالحلب والحبيب
المعاشرة : المخالطة — تحاماه الناس . توقوه واجتنبوه . المعنى : إذا اجتنب الفتى
إخوان سوء وأحابب زور فعقله يكفيه عنهم ، فالرجوع إليه عند الحاجة أولى .

هما رضيعا لبان حكمة وتقى وساكننا وطن مال وطغيان
اللبان بالكسر لبن المرأة خاصة . الحكم : القضاء وأصله المنع يقال حكم عليه
بكذا إذا منعه من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك . والحكمة وزان قصبة
للدابة سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماع ونحوه ومنه اشتقاق الحكمة
لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرزال . وهى لغة كمال العلم قال ابن الأعرابي حكم
يحكم إذا تناهى فى علمه .. واصطلاحاً استكمال النفس الإنسانية بالعقل النظرى
والعمل على قدر الطاقة البشرية . وعند القوم إصابة الصواب فى القول والعمل أو
هى نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن يدرك به الأشياء كما يدركها بعينى رأسه .
التقى والتقوى بمعنى وهو ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس . الطغيان مجاوزة
الحد — الأعراب هما ضمير مبهم مبدأ يفسره الخبر كما تقول هى العرب تقول كما
شاءت . وفائدة هذا الصنيع تشويق السامع أولاً بذكر المبهم ثم تفسيره ثانياً ليتمكن
أوقع فى ذهنه . خبره رضيعاً لبان أى لبان ندى واحد بمعنى أخوان . حكمة بدل
من رضيعاً . والمعنى الحكمة والتقوى أخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر والمال
والطغيان يسكنان فى وطن واحد لا يفارق أحدهما صاحبه . والحكم باعتبار الأغلب

إذا نبأ بكرم موطن فله وراءه فى بسط الأرض أوطان
يقال نبأ بفلان منزله إذا لم يوافق وراءه بمعنى خلف ويحى بمعنى أمام فهو من

الاضداد . والمراد هنا الثانى . بسيط واسع . المعنى : إذا لم يوافق الكريم مسكنه
لحصول الموان له من الأرذال فأرض الله واسعة أمامه فليرتحل إلى بلد موافق وفي
هذا المعنى يقول بعض الأدباء .

فأقم بدار ما أصبت كرامة وإذا نبا بك منزل فتحول

يا ظالمًا فرحًا بالعز ساعده إن كنت في سنة فالدهر يقطان

الظلم وضع الشيء في غير موضعه — العز خلاف الذل . ساعده أعانه . السنة :
بالسكر النوم الخفيف والمراد هنا النوم وهو غشية ثقيلة تقع على القلب فتمنعه معرفة
الأشياء . والسنة ما يتقدمه من النعاس . الدهر الزمان والمراد خالقه . المعنى : يامن
يظلم الناس مستمينًا بعزه إن كنت في نوم وغفلة فالله تعالى ليس بنائم ولا غافل
فيجازيك ويحاسبك على ظلمك حسابًا عسيرًا في هذه الحياة وفي تلك الحياة .

ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكله وهل يلذ مذاق المرء خطبان

مرؤ الطعام من باب ظرف ومرى بالسكر صار مريضًا سائقًا هنيئًا تحمد عاقبته
واستمرأ وجده مريضًا . الظلم المراد به ما أخذه ظلمًا . الإنصاف : العدل . لذ الشيء
يلذ من باب سلم لذاذاً ولذاذة بالفتح صار شهياً فهو لذ ولذيذ . ولذت الشيء وجدته
لذيذاً يتعدى ولا يتعدى . المذاق الفم أو العصب المفروش على سطح اللسان المودع
فيه القوة الذائقة . أخطب الحنظل إذا صار خطباناً وهو أن يصفر وتصير فيه خطوط
نخضر وخطبان فاعل يلذ ومفعوله مذاق المرء وهو من باب القلب كقولهم عرضت
الثاقة على الحوض لأن واجد اللذة هو المذاق لا الخطبان . المعنى : لو أنصفت الناس
من نفسك ونظرت إلى العاقبة علمت أن ما أكله الظالم مما أخذه ظلمًا لم يسغ من
حلقة بل ينغص فيه ولا يجده لذة في الحقيقة فهو بمنزلة الحنظل الذى لا يجد المرء
لذة في تناوله .

يا أيها العالم المرضى سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريان

السيرة : الطريقة وما عليه الرجل من الأخلاق والأفعال . البشارة : الخبر الذى

يسر به الانسان حتى يظهر أثر السرور على بشرته . الريان : ضد العطشان . المعنى :
يامن انصف العالم النافع وحسنت سيرته في الناس بشر نفسك بحسن الحال
والاستغناء عن الناس فأنت حينئذ غني النفس خفيف على القلوب حبيب لدى الله
والملائكة والناس أجمعين .

ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج فأنت ما بينها لاشك ظمان
الجهل ضد العلم . أصبح بمعنى صار . لجة الماء بالضم مغمطه وكذا اللج ومنه
بحر لَجَّى — الظمان العطشان والبيت مقابل للبيت قبله . فبعد ما بين حال من
جمع إلى العلم النافع السيرة الحسنة ، بين حال من أنصف بصددهما ، لكن لما كان
الجهل مستلزماً ضد الثاني من الوصفين تركه . المعنى : يامن رسخ في الجهل ولم يبذل
طاقته في الخروج من ظلمته لو صرت في لجج لم تنتفع بماؤها فأنت فيها على حالك
قبلها إذ لا شعور لك بالعطش لأن جهلك يحول بينك وبين الشعور به فالعلم حياة ونور
والجهل موت وظلمة .

لاتحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان
الحسان والخسبة : الظن — الدوام الاستمرار . الأبد : الدهر . ساءه ضد
سره من باب قال . ومساءة بالمد والإسم السوء بالضم والفتح ومعناه واضح .
يارافلا في الشباب الوخف منتشياً . من كأسه هل أصاب الرشد نشوان
رقل في ثيابه أطالها وجرها متبخراً من باب نصر . الشباب : الحداثة وكذا
الشبيبة وهو خلاف الشيب — الوخف : الشعر الكثير الأسود ويحرك . ومن
النبات الريان تقول : وحف النبات والشعر يَوْخَف ككرم ووجل وحافة ووحوفة
بالضم غزُر والمراد هنا الحسن والقوة . الإصابة : الوصول والبلوغ — الرشد بضم
فسكون الهداية والاستقامة على طريق الحق — النشوة السكر وانتشا إذا سكر
والنشوان السكران . المعنى : يامن اغتر بشبابه وسكر من كأسه ولم يتدبر في
عواقب أمره أجب عن هذا السؤال وهو : أن السكران يجد طريقاً إلى الهداية
وسبيلاً إلى الاستقامة على الحق (لا) .

لا تغتر بشباب رائق خَصِلٍ فكم تقدم قبل الشيب شبان
الشباب والشيبة حدائة السن خلاف الشيب — راق الشراب صفا وراقه
الشيء أعجبه وبأيهما قال . الخَصِلُ الرطب . الشيب : بياض الشعر . والمشيّب
دخول الرجل في حد الشيب من الرجال ، الأُشيب المبيض الرأس وجمعه شيب —
الشبان جمع شاب — المعنى : لا تغتر بعنفوان الشبان وقوته فكثيرا سبق في الموت
القوى الضعيف والصغير الكبير .

ويا أبا الشيب لو ناصحت نفسك لم يكن لمثلك في الإسراف إمعان
النصح الصدق والإخلاص ومنه التوبة النصوح — الإسراف مجاوزة القصد
— والسرف بفتح الحاء اسم منه والمراد الإسراف في بقية العمر — أمعن الفرس
إمعانا تباعد في عدوه . وأمعن في الطلب إذا بالغ في الاستقصاء . والمعنى واضح .

هب الشيبة تبلى عذر صاحبها ما عذر أشيب يستهويه شيطان
هب : احسب وافرض يتعدى إلى مفعولين ليس له ماض ولا مضارع —
الشيبة حدائة السن — تبلى تظهر ومنه أبلى في القتال إبلاء حسنا أظهر بأسه —
الأشيب مبيض الرأس — يستهويه يذهب به يقال استهواه كذا إذا هوى به
وأذهبه ومنه قوله تعالى « كالذي استهوته الشياطين في الأرض » ذهبت به مردة
الجن بعد أن كان بين الأنس . وقيل استهواه استهامه والمراد زين له الشيطان
طرق المعاصي وأضله عن الهدى — المعنى : افرض أن حدائة السن عذر يقبله
الناس ولا يلومونه على ما فرط منه وإن لم تصلح عذرا فما عذر من أبيض شعر
وأسه وجاءه نذير الموت ، يزين له الشيطان أنواع الفساد ويستميله إلى الشرور
والقبائح ؟ فطوبى لمن ملك زمام نفسه ولم يغلب هواه على عقله لأن الهوى مَلِكٌ
غشوم وسلطان ظلوم .

كل الذنوب فإن الله يغفرها إن شيع المرء إخلاص وإيمان
الذنوب الأثم والمراد بالذنوب المذكورة ما سوى الشرك بقرينة قوله إن شيع

المرءُ الخُ الفُقر التغطية والستر ، والمراد يتجاوز عنها . التشيع السير خلف المسافر للوداع وكذا خلف الجنائزة — الإخلاص في الطاعة ترك الرياء وخالصة في العشرة صافاه . الإيمان حديث النفس التابع للمعرفة أى قول الإنسان بعد العلم بالشئ قبلت هذا ورضيته وأذعنت له . أو تصديق النبي صلوات الله وسلامه عليه في كل ما جاء به عن الله تعالى ومعناه واضح .

وكل كسر فإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران الكسر بمعنى المكسور والجبر : أن تغنى الرجل من فقر أو تصالح عظمه من كسر وبابه نصر تقول جبرت العظم جبراً وجبرانا أصلحته : وجبر العظم بنفسه جبورة أنجبر وبابه دخل . القناة الرمح وجمعه قنا كحصى وهى الرماح — الدين . ما شرعه الله على لسان الرسول من اعتقادات وعبادات ومعاملات وأخلاق كريمة — المعنى أن الله تعالى يغفر الذنوب إذا كان للعبد إخلاص وإيمان لأن الدين يصلح كل ثمة وخلل في العمل وأما كسر قناة الدين فخلل واقع في أصله ولا يرجى له إصلاح .

خذها سوائر أمثال مهذبة فيها لمن يبتغى التبيان تبيان الأخذ التناول . السوائر جمع سائر على غير قياس . أمثال جمع مثل وقد تقدم معناه . التهذيب التنقية ويكون بالتنبيه على العيوب ، ورجل مهذب منظر الأخلاق . الابتغاء الطلب . والتبيان الإيضاح : والمعنى ظاهر .

ما ضر حسناتها والطبع صائغها إن لم يصغها قريع الشعر حسان الضر خلاف النفع — حسناتها قائلها وناظمها يعنى نفسه والضمير لأبيات القصيدة ، ولما كان الناظم شاعراً مطبوعاً معروفاً بالفصاحة والبلاغة نزل منزلة الصفة التي اشتهر بها في الأول ، وأراد بالثاني العلم الموضوع لحسان شاعر الرسول صلوات الله وسلامه عليه — الطبع السجية — الصائغ من صاغه يصوغه صوغاً وبابه قال : القريع السيد الحنك ، يقال : هو قريع دهره من قرعه دهره إذا كان

ذا كان تجربة وبصيرة يقرع الشدائد والحن التي تصيبه — الإعراب ما استفهامية خبرها الجملة حسانها مفعول به والضمير فيه يعود على أبيات القصيدة المتقدمة ، والواو للحال ، وإن للشرط يصفها فعله ، والجزاء محذوف دل عليه ما تقدم — ويروى أن بالفتح 'وعليه تجعل ما نافية وأن وما دخلت عليه فاعل ضر وقرع الشعر فاعل يصفها وحسان عطف بيان عليه — والمعنى : ما تلونا عليك من الأبيات المنقحة والأمثال المهدبة هي غاية في الحسن ونهاية في الإبداع وإن لم يكن ناظمها قد بلغ رتبة حسان رضى الله عنه . فإن الشعر لا يعتبر باعتبار قائله ، بل بسلاسته وجودة سبكه . قال على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : (لا تنظر إلى من قال ، وانظر إلى ما قال) ومعناه : إذا سمعت كلاماً فلا تنظر إلى حال قائله ، ولكن انظر إلى كثرة طائفه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ومن الملح التاريخية ما روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهود أشهدهم ، فقال . كفى بالله شهيداً ، قال فأتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً . قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى » فخرج الذى استلف « فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها » حال كونه « يقدم عليه » بفتح الدال على الذى أسلفه « للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً » زاد فى رواية أبي سلمة : وغدا رب المال إلى الساحل يسأل عنه ويقول اللهم أخلفنى وإنما أعطيت لك « فأخذ » الذى استلف « خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه » الذى استلف منه « ثم زجج موضعها » سمرها بمسامير كالزج وهو النصل « ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك وإنى جهدت » بفتح الجيم والهاء « أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها »

وفى رواية استودعتكها « فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه » دخلت البحر « ثم انصرف وهو » أى والحال أنه « فى ذلك يلتبس مركباً يخرج إلى بلده » أى بلد الذى أسلفه « فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم « الرجل » الذى كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لأتريك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك المال « الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف » بصيغة الأمر « بالألف الدينار » التى أتيت بها حال كونك « راشداً » مهتديا .

وعنه رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويذهب عني الذى قد قَدِرَني الناسُ » أى تباعد عني وكرهني الناس به أى بسببه . فالتأند محذوف و بابه طرب . تقول : قدرت الشىء وتقدرته واستقدرته : كرهته « فمسحه فذهب عنه قَدَرُهُ وأُعْطِيَ لوناً حسناً . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال : البقر (شك الراوى) فَأُعْطِيَ ناقةً عَشْرَاءَ فقال بارك الله لك فيها — فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ، قال : شعرٌ حسنٌ ، ويذهب عني هذا الذى قد قَدِرَني الناسُ فمسحه فذهب عنه وأُعْطِيَ شعرًا حسناً — قال : فأى المال أحب إليك قال البقرُ فَأُعْطِيَ بقرةً حاملاً . قال : بارك الله لك فيها — فأتى الأعمى فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر الناس . فمسحه فرد الله إليه بصره . قال فأى المال أحب إليك قال الغنم فَأُعْطِيَ شاةً ولداً : فأنجب هذان « المشار إليهما صاحبا الإبل والبقر » وَلَدَ هذا فكان لهذا واد من الأبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص

فى صورته وهىئة فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعبيراً أتبلغ به فى سفرى فقال : الحقوق كثيرة . فقال كأتى أعرفك ألم تكن أبرصاً يقدرُك الناس « بفتح الذال يكرهك » فقيراً فأعطاك الله ؟ قال إنما ورثتُ المال كبراً عن كابر « أى كبيراً عن كبير فى العز والشرف أى ورثته عن أبى وجدى : فقال « إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت — وأتى الأقرع فى صورته وهىئة فقال له مثل ما قال لهذا وردّ عليه مثل ما ردّ هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت — وأتى الأعمى فى صورته وهىئة فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها فى سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله عز وجل . فقال أمسك مالك فانما ابتليتم « أى امتحنتم أى عاملكم الله العالم بالخفيات معاملة التجنّب ليرتب على عملكم جزاءه « فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك » متفق عليه ، والناقة العشراء بضم العين وفتح الشين وبالدهى الحامل . وقيل الحامل التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر من يوم طرّقا الفحل وهى من أنفاس الإبل . قوله أنتج وفى رواية فنتج معناه تولى نتاجها والنتاج الأولاد والنتج والإنتاج تولى الولادة والنتاج للناقة كالعابلة للمرأة : « وقوله ولد هذا » هو بتشديد اللام أى تولى ولادتها وهو بمعنى نتج فى الناقة : فالمولود والنتاج والقابلة بمعنى لكن هذا للحيوان وذلك لغيره . وقوله « انقطعت بى الحبال » هو بالحاء المهملة والباء الموحدة أى الأسباب فى طلب الرزق . وقوله لا أجهدك : معناه لا أشق عليك فى رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالى . وفى رواية البخارى لا أحمدك : بالحاء المهملة والميم . ومعناه لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه كما قالوا ليس على طول الحياة ندم أى على فوات طولها .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا يُدْجِيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أُغْبِقُ قبلهما أهلاً ولا مالا فنأى بى طاب الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فسكرت أن أوقظهما وأن أُغْبِقُ قبلهما أهلاً أو مالا فلبثت والتدحج على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبيبة يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه — قال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى أَلَمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت فلما وعدت بين رجلها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها — وقال الثالث اللهم استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فتموت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أدّ إلى أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى ، فقلت لا أستهزئ بك . فأخذ كله فاستأقاه فلم يترك منه شيئاً اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون — متفق عليه — أغبى بفتح فسكون أى ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أقارب ولا رقيقاً والغبوق كصبور ما يشرب بالمشى . وأرح بضم المهملة وكسر الراء أرْجِع من أراح رباعياً . ويتضاغون يضجعون من الجوع .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أشتِ الذهب ، وقال الذي له الأرض : إنما بعثك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما لى غلام . وقال الآخر لى جارية . قال أنكحها الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه فتصرفا « متفق عليه . وفي صحيح مسلم من حديث أنس : مات ابن لأبي طلحة ، من أم سليم ، فقالت لأهلها ، أى لقرابتها الذين عندها وشعروا ب وفاة ابنها ، لاتحدثوا أباطلحة ب وفاة ابنه ، لثلاثين غص عيشه وهو صائم فلا ينال حاجته من الطعام ، حتى أكون أنا أحدثه فجاء ، فقال : ما فعل ابني ، قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، أى أهدأ أحواله فإنه كان في قلق واضطراب للزعر فذهب ذلك حينئذ وظن أبوطلحة أنها تريد أنه زال ألمه وأخذ في العافية وفي عبارتها التوجيه ، فقررت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له ، بتحسين الهيئة بالحلى ونحوه ، أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك الوقت . وهذا يدل على قوة صبرها وكال يقينها ، فوقع بها — جامعها — فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أباطلحة أرايت أخبرني لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم أَلهم — أى أهل البيت المستعيرين — أن يمنعمهم ؟ قال لا ، قالت فاحتسب ابنك . أى أطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله ولا تندسها بما يحبط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكة . قال أنس : فغضب أبوطلحة وقال لأم سليم : تركتيني حتى تطلخت — أى تقذرت بالجماع — ثم أخبرتني بابني . فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك (المذكور من فعل أم سليم الدال على حسن صبرها وكال يقينها مما يعجز عنه كثير من الرجال) فقال النبي صلى الله عليه وسلم بارك الله لكما في ليلتكما . قال أنس : فحملت أم سليم وولدت غلاما سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ورزق عبد الله هذا تسعة أولاد صالحين كلهم قد قرءوا

القرآن لدعائه صلوات الله وسلامه عليه لها بالبركة — وفي الحديث فوائد : التسليم
عن المصائب ، واجتهادها في عمل مصالحه ، ومشروعية المعارض إذا دعت إليها
الضرورة ولم يترتب عليها ابطال حق لمسلم ، وإجابة دعوة النبي صلوات الله وسلامه
عليه ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه — والحامل لأم سليم على هذا
الصنيع المبالغة في الرضا والتسليم لأمر الله وقضائه ورجاء اخلافه عليها ما فقد منها ،
إذ لو أخبرت أبا طلحة بالأمر في أوله تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادت ،
فلما علم الله صدق نيتها وإخلاصها له في العمل بلغها منها وأصلح لها في ذريتها —
وكان لأم سليم من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى فكانت تشهد الوقائع
وتداوى الجرحى وكانت مثلاً أعلى في الشجاعة والمروءة رضى الله عنها . وبالجملة فقد
ذكر الإمام النووي في رياض الصالحين أحاديث كثيرة نافعة في هذا المعنى وعقد
الملح باباً خاصاً في آخر كتابه هذا فارجع إليه .

ومن الفكاهات الأدبية — ماروى أن الهرمزان أحد قواد الفرس دخل
مستسلماً على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا عمر كنا وإياكم
في الجاهلية على بعد من الله جل وعلى ، فغلبناكم لأنه لم يكن معنا ولا معكم ، فلما
كان الله معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا باجتماعكم وتفرقنا — أى ولما جمع
الله تعالى بالإسلام بين قلوبنا غلبناكم .

ومنها ما روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم باناء فيه مرق
حار وعنده أضياف فعمثت فصب المرق على رأسه فأراد ميمون أن يضربها فقالت له
الجارية : يا مولاي أعمل بقول الله تعالى « والكاذمين الغيظ » : فقال لها
قد فعلت . فقالت أعمل بما بعده : « والعافين عن الناس » قال قد عفوت عنك .
قالت الجارية : « والله يحب المحسنين » قال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله
تعالى ولك ألف درهم — وهذا غاية في الحلم والكرم والعفو عند القدرة .

ومنها ما روى : أن محمد بن المنكدر كان يبيع قطعاً من الثياب بعضها بخمسة

دراهم وبعضها بعشرة . فباع غلامه في غيبته قطعة من الحمسيات بعشرة فلما عرف لم يزل في طلب ذلك الأعرابي الذي اشتراها حتى عثر عليه فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال : يا هذا قد رضيت فقال وإن رضيت فأنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا فاختر إحدى ثلاث إما أن تأخذ قطعة من العشريات بدراهمك ، وإما أن ترد عليك خمسة ، وإما أن ترد قطعتنا وتأخذ دراهمك . فقال أعطني خمسة . فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا التاجر ؟ فقيل له هذا محمد بن المنكدر فقال لا إله إلا الله هذا الذي نسمع أنه مستجاب الدعاء . وهذا مثل أعلى في العفة والأمانة .

ومنها : أنه كان لمالك بن دينار جار يهودي فحول اليهودي مستحمه إلى جدار البيت الذي فيه مالك وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة وكان مالك ينظف البيت كل يوم ولم يقل شيئاً . وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى فضايق صدر اليهودي من طول صبره على هذه المشقة . فقال : يا مالك قد آذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تخبرني ولم تشكني إلى أحد . فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فندم اليهودي وأسلم وحسن إسلامه — وعن عبد الرزاق قال : صبت جارية لعلى بن الحسين الماء ليتهاى للصلاة فسقط الأبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : « والسكاظمين الغيظ » فقال لها كظمت غيظي . قالت : « والعافين عن الناس » : قال لها قد عفا الله عنك . قالت : « والله يحب المحسنين » قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

من فضائل على كرم الله وجهه وإنصافه من نفسه ما روى أن يهودياً شكاً — على بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فلما مثل بين يديه قال الفاروق لعلى أجلس يا أبا الحسن مع خصمك مجلس الخصومة . فظهرت دلائل الامتناع على وجهه فلحظ ذلك أمير المؤمنين فقال له : أكرهت يا على أن تجلس

امام خصمك ؟ قال . لا ! ولكنك ناديتني بكينيتي فرفعتني عليه فكرهت ذلك —
 أى أن من آداب القضاء النسوية بين الخصمين فى مثل ذلك — فانظر هداك الله
 إلى رجل يتمتع لأن الحاكم يرفعه على خصمه لمجرد ندائه بكينيته (يا أبا الحسن)
 وهذا مما تعتبط به الناس وترتاح له ولكن عليا رضى الله عنه وكرم الله وجهه كان
 حربصا على الحق فى نفسه ناصرا له فى مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه إن عددا
 قليلا من هؤلاء السادة الأفذاذ الذين يقومون على حراسة الدين الخفيف وآدابه
 السامية جديرون أن يفتحوا الأرض وأن يصلحوا منها ما فسد وقد فعلوا فأدهشوا العالم .
 ومنها ما حكى عبد الله بن عبد الرحمن قال : كنت عند سهل بن عبد الله
 الثستري^(١) الصوفى وهو يتكلم على الناس فوقف علينا غلام جميل فد بعض الناس
 عينه ينظره وواقفه جماعة فى النظر . فقال سهل : مهلا أيها الناس تغفرون بحلم الله
 عنكم وإمامه لكم فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح
 وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، فانكم هجتم على ما نهاكم
 عنه فان عدتم إلى أمره أقام لكم على حلمه ، وإن تماديتم فى شهواتكم لم آمن
 عليكم عقوبة تأتى إليكم ، فانه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فغلبهم البكاء وأعلنوا
 التوبة والانابة إلى الله تعالى .

(ومنها أيضا) ما روى أن خدام بعض الملوك التقطوا طفلا وجدوه مطروحا
 فى الطريق فأمر الملك أن يضموه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت
 عليه أمارات النجابة والذكاء فهذب به وعلمه ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولى عهده به
 فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيا وخداما أميناً ، وبعد ذلك
 قدمه فى أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ومتصرفا فى شئون قصره ،
 وفى بعض الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجراته فذهب ليحضره فرأى بعض
 جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يزنيان ، فنوسلت إليه الجارية أن يكتم

(١) يضم التاء الأولى وفتح الثانية ويجوز ضمها منسوب إلى تستر مدينة بخوار ستان سكن
 البصرة . صبح ذا النون المصرى توفى سنة ثلاث وثمانين .

الخبر ، ووعده كل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمين شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر — لكن الجارية أوجست في نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم يفشى أمرها فانتظرت الأمير حتى حضر ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها فقالت إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه فعزم على قتله ثم دبر له قتلة في الخفاء حتى لا يعلم الناس بسبب هذا القتل — ذلك أنه قال لكبير خدمه إذا بعث إليك أحداً يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وابعث به إلى لأطمئن ثم ادفن الجثة فأجاب الخادم بالسمع والطاعة ، وفي يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له : اذهب إلى فلان الخادم وقل له يعطيك كذا وكذا . فامثل الأمر وذهب إلا أنه لقي في طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم في أمر فاعتذر وقال : إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا نبعث فلانا الخادم نائباً عنك ليحضر ما تطلب حتى تفصل في شأننا . فأجابهم إلى ما طلبوا فأرسلوا واحد منهم وهو الشاب الذي سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب وأخبر الرئيس بالرسالة أخذه إلى المسكان الذي أعده ثم قطع رأسه على غرة وجاء به إلى الأمير ، فلما أبصره زال عنه ما كان يجده من انقباض نفسه ، ولكنه لما رفع الغطاء عنه رأى رأساً غير رأس أحمد اليتيم فسأله عن الذي قتله ، فقال هو فلان ، قال : ألم يكن أحمد ؟ قال لا ، فأمر بإحضار أحمد فسأله عما فعل فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنباً ؟ قال : نعم إنه فعل كذا وكذا مع فلانة ، وقد سألوني بالله وبك أن أكتنم الخبر ، فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان من محبة أحمد وإكرامه — وكافت هذه عاقبة الوفاء للوفى وعاقبة الخيانة للخائن والجزاء من جنس العمل « وماربك بظلام للعبيد » قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه في مقام التشابه من آيات الصفات وأخبارها النبوية ما خلاصته .

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والنقلي على هذه العقيدة (عقيدة التنزيه) فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يناقظ ظاهرة التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان إحداها طريقة السلف وهي التنزيه وتفويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك أى فيقال مثلاً نؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزّه عن الحلول وسمات الحدوث .

والثانية طريقة الخلف وهي التأويل — يقولون : إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منه عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي المقاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها أى فيقولون في « الرحمن على العرش استوى » المراد به الاستيلاء والملك — والقاعدة عند العلماء (أن ظاهر الكتاب أو السنة يجب إبقاؤه على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذه القاعدة أنه يجب حمل كل لفظ ورد في الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عن تلك الحقيقة اهـ وبهذا البيان القيم يمكن فهم وتطبيق الوقائع على الوجه المعقول الصحيح وبالله التوفيق .

الفصل الثالث عشر

ضرب الأمثال

لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس — فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته — ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك هو النهاية في الإيضاح — ألا ترى أن الترغيب

في الإيمان إذا كان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد
إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة — وإذا كره في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد
قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة أو بشجرة خبيثة — وإذا أخبر بضعف
أمر من الأمور، وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته
من الأخبار بضعفه مجرداً .

وفرق بين قولك لإنسان وأنت تعظه : إنك لا تجزى على السيئة حسنة
فلا تُقر نفسك ، وأقلع وأنب إلى ربك ، وبين أن تقول له في أثره : إنك لا تجنى
من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع — وكذا بين أن تقول : إن الدنيا لا تدوم
ولا تبقى ، وبين أن تقول : الدنيا ظل زائل وعارية تسترد ووديعة تسترجع ، وتذكر
قول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « من في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ،
والضيف مرتحل والعارية مؤداة » . وتنشد قول لبيد :

وما المسال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وقول الآخر :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعارٌ

وما إلى ذلك مما ينبئك عن صيغ التمثيل ويخبرك عن حال المعنى معه . وأن
إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداءً أو مجيء في أعقاب المعاني وعلى أثرها
لإيضاحها وتقريرها أكد وقعاً في القلوب وأبلغ أثراً في النفوس إن الآخرة خير
لوجوه (الأول) إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة (الثاني) إن نعم الدنيا
منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة (الثالث) إن نعم الدنيا مشوبة بالمهموم والغموم
والمسكاره ونعم الآخرة صافية عن السكودورات (الرابع) إن نعم الدنيا
مشكوكة فإن أعظم الناس تنمناً لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني
ونعم الآخرة يقينية — وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا —
إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط

وهو قوله « لمن اتقى » وهذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

ولمثل هذا أكثر الله تعالى في كتابه الحكيم وفي سائر كتبه من ضرب الأمثال : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومن سور الإنجيل سورة الأمثال وشاعت في الكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكثر من ضرب الأمثال في مخاطبته ومواعظه كما سيأتى . واعلم أن من قضية وجوب التماثل بين الشئيين في مناسط التمثيل تتميل العظم بالعظيم ، والحقير بالحقير .

وقد مثل في الإنجيل غل الصدور بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزناخير وجاء في عبارات البلغاء : أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد^(١) وأضعف من بعوض : وأطيش من فراشة ، وآكل من السوس ، وأعز من مخ البعوضة — إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

ومن الأمثال السهلة في ثبوت الحق وزهوق الباطل قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالأ أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله^(٢) كذلك » أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نسكت رائقة « يضرب الله الحق والباطل » أى مثل الحق ومثل الباطل وبين ذلك بقوله « فأما الزبد » من السيل وما يوقد عليه من المعادن « فيذهب جفاء » أى يرمى به « وأما ما ينفع الناس » من الماء الصافى وخالص المعادن « فيمكث في الأرض » ينتفع به أهلها « كذلك » مثل ذلك الضرب العجيب « يضرب » يدين « الله الأمثال » فى كل باب إظهاراً لسكال اللطف والعفاية فى الإرشاد والهداية فاه تعالى مثل الحق فى إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من جهة السماء فتسيل به الأودية

(١) ذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها .

(٢) (زبد رابيا) غشاء ورغوة عاليا فوق الماء (زبد مثله) خبث مثل زبد الماء فى كونه رابيا فوقه .

على قدر الحاجة والمصلحة حسب اقتضته مشيئته تعالى وحكمته ، فينتفع به من وجوه شتى ، ويمكث في الأرض بأن يبقى بعضه في منابعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقموات والآبار . وبالسبيكة التي تؤخذ من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد للانتفاع بها في الحلى وعمل الأمتعة كالأواني ، وآلات الحرب والبخار ، ويدوم ذلك مدة طويلة ، ومثل الباطل في عدم نفعه وسرعة زواله يزيد الماء والمعادن .

ومنها في سرعة انقضاء الدنيا قوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » أى اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها . ولا يضرهوا عن الآخرة صفحا ، وأنها كماء أنزلناه من السماء فالتف بسببه نبات الأرض وخالط بعضه بعضاً لكثرتهم فصار النبات إثر بهجته ونضارته مهشوماً مكسراً تفرقه الرياح — والمثبه به الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر براقا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يكن « وكان الله على كل شيء مققدرا » قادرا على الكمال ومن جملة الشيء الإشاء والإفناء

ومنها ما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذِرَكَ ، وإما أن تبتاعَ منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يُحْرِقَ ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً مُنْتِنَةً » . مَثَلُ . صفة : السوء بالفتح مصدر أطلق عليه مبالغة فى التنفير منه وبالضم اسم مصدر . ويجوز ضم وفتح السين فيما ذكر . والكير بكسر فسكون الزق الذى ينفخ به . يُحذِرَكَ كيعطيك وزنا ومعنى . تبتاع تطلب البيع منه . منتنة قبيحة متفيرة . فجائس الأخيار إما أن يعطى بمجالستهم من الفيوضات الإلهية أنواع الهبات فضلا من الله وإحسانا ، وإما أن يكتسب بمجالستهم علوما وآدابا يستفيدونها منهم ويأخذونها عنهم وإما أن يكتسب بمصاحبتهم حسن الثناء وجهيل الأحداث . وجليس الأشرار

إما أن يحترق بشؤم معاصيهم قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »
والركون الميل إليهم بنحو الجالسة والمصاحبة ، وإما أن تدنس سمعته وتقبح بين الناس
سيرته — وفي الحديث حث على مصاحبة من ينال الخير بمجالسته من علم وخلق
حسن وذكر الله تعالى وهداية إلى طرق الخير وأنواع البر ، فعن أبي هريرة رضى الله
عنه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدهم
من يخال » رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح وقال الترمذي : حديث حسن —
الدين الطريق والمسلك . والخليل الصديق . وإذا كان المرء على مشرب صديقه
فليُنظر بعين البصيرة إلى أعمال من يريد صداقته وأخلاقه فمن رضى أعماله وأخلاقه
صادقه ومن سخط أعماله وأخلاقه تباعد عنه — من كلام على رضى الله عنه : إياك
وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول بروق منظره ويقبح أثره — وفي الحديث
أيضاً تحذير من مجالسة من ينال الشر والإثم بمخالطته كاللغتاب والنام والسكران
والزاني والمراي . وهذا المثل في الحث على مصاحبة الأخيار ومقاطعة الأشرار .
وروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثلُ المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوق
الناس في شجر البوادي قال عبد الله : ووقع في نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا
حدثنا ما هي يا رسول الله . قال هي النخلة » .

مثل بكسر فسكون وبفتحتين كشبه وشبه وزنا ومعنى والمراد الحال العجيبة
أو الصفة الغريبة — وقع الناس ذهبت أفكارهم إلى شجر البوادي وذهلوا عن النخلة
فجعل كل يذكر نوعاً من الأنواع — فاستحييت منعنى الحياء من التصريح بما فى
نفسى لكونه أصغر القوم ورأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يتكلمان . والمعنى :
كأنه صلوات الله وسلامه عليه قال : إن حال المسلم العجيب الشأن كحال النخلة أو
صفته الغريبة كصفتها . فالمسلم هو المشبه والنخلة المشبه بها ووجه الشبه بينهما
كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها وجوده ما دامت حية والانتفاع بنخشها
وورقها وأغصانها وجمال قوامها وتنضيد طلوعها وجميع أجزائها حتى نواها ينتفع به

علماً للأبل فكلمها خيرات ومنافع . كذلك المؤمن خير كله بصالح عمله وحسن معاملته ومكاملته وأخلاقه وما يظهر على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمتة فالإيمان الصحيح كشجرة طيبة لا يثمر إلا طيباً . وفي الحديث استحباب طرح الأستاذ المسائل العلمية على تلاميذه اختباراً لإفهامهم وتشجيعاً لهم على حسن التفكير ، وفيه أيضاً مشروعية الامتحان لطلاب العلم ليعرف الكفاء للوظائف الدينية من غيره — وفيه أيضاً توقيف الكبار وعدم التكلم بحضرتهم واستحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان وزيادة الإفهام والإيضاح . وهذا المثل في بيان آثار الإيمان الصادق وما يجب أن يكون عليه المؤمن من الأعمال النافعة والأخلاق الفاضلة .

وروى أيضاً من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثلى ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدْلَجُوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم — فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » — مثل . المثل بفتح الحاء المعجمة الشأن أو الصفة الغريبة كما سبق . يورده البليغ على سبيل الشبه لإرادة التقريب والتفهيم . ما بعثنى الله به إليكم . أى مع المبعوث إليهم فالمثل مورد لهذه الثلاثة كما يعلم من الحديث . عني بالثنائية والإفراد . النذير العريان : المنذر الذى تجرد عن ثوبه وأخذ يرفعه ويديره فوق رأسه إعلاما لقومه بالعساة — ذلك أن ربيثة القوم وعينهم يكون على مكان عال فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه وبقى عريانا — ضرب به النبي صلوات الله وسلامه عليه المثل لنفسه ولما جاء به ولما جاء إليهم تقريبا لإفهام المخاطبين بما يأقونه ويعرفونه لأنه تجرد لإبذارهم . النجاء بالنصب مفعول مطلق فيه إغراء أى اطلبوا النجاء بأن تسرعوا بالهرب لأنكم لا تطيقون مقاومة ذلك الجيش . والنجاء الثانى تأكيد وكلاهما ممدودان

وجاء فيهما القصر . فادخلوا من الإدلاج وهو السير أول الليل أو كله ومهزته همزة قطع . المهل بفتح التين السكينة والتأني . فنجوا لأنهم أطاعوا النذير وساروا من أول الليل . صبتهم الجيش أتاها صباحا هذا أصله ثم استعمل فيمن يطرق بقتة في أى وقت كان . اجتاحتهم بحيم ثم جاء مهمة استأصلهم من جعت الشيء أجوحه إذا استأصلته . ومنه الجائحة وهي الهلاك — وفي الحديث إرشاد الأمة وحشها على التزام المسارعة إلى الخير والطاعة وتحذيرها من الوقوع في الشر والمعصية ببيان حسن مغبة الطاعة وسوء عاقبة العصيان — وهذا مثل في الطائع والعاصي وبيان مآل كل منهما

وروى أيضاً من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . القائم في حدود الله المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، والحدود ما نهى الله عنه . واستهموا اقترعوا : نجوا أى الآخذون في أنفسهم ونجوا بالتشديد أى نجوا المأخوذون الممنوعين — وهكذا إقامة الحدود يحصل لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساکت بالرضى بها — وفيه وقوع الجميع في العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من حديث جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً . فقال : اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، ففهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك — فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد

رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام . ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » .

وإذا أردت أن تبين أن العمل الصالح هو الصاحب النافع فاضرب لهم مثلا رجلا كان له أصحاب ثلاثة لا يقوى على مفارقتهم ، وكان يميل إلى اثنين منهم ميلا شديداً ولا يركن إلى الثالث إلا قليلا مع أنه كان حسن الطوية خالص النية ، فاتفق له ذات يوم أنه اتهم بتهمة خطيرة (جناية قتل) فقبض عليه وزج به في أعماق السجن وهو في الواقع بريء ، فأخبر أصحابه بأمره وطلب منهم أن يذهب أحد منهم معه إلى دار القضاء ويشهد له بما يعلم كي ينجو من خطر الحاكم . فاعتذر الأول قائلاً : إنه يتعذر على الانتقال لكثرة ما عندي من الأشغال . والثاني ذهب معه إلى باب المحكمة ثم أحجم عن الدخول خوفاً من غضب الحاكم عليه واتهامه بالتزوير في الشهادة لمكان الصحبة — وأما الثالث الذي كان قليل الميل إليه فإنه لم يتأخر عن الذهاب معه والدخول أمام القضاء . فلما مثل بين يدي الحاكم شهد لصاحبه بالحق وعلم الحاكم صدقه في الشهادة فقبل شهادته وعطف قلبه على صاحبه المتهم فحكم ببراءته وأخلى سبيله .

فالمراد بالأصحاب الثلاثة المال والعيال وصالح العمل — فإن اكل امرئ في هذه الحياة أصحابا ثلاثة ماله وأهله وعمله لا ينفك عنها ولا استغناء له عنها — فإذا فاضت روحه فارقت أمواله التي هي أعز أحبابه ، وأما أهله وعياله فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ثم يتركونه راجعين إلى منازلهم يتنازعون ماترك — وأما أعماله التي كان لا يعرف ما يترتب عليها من حسن العاقبة فإنها لا تنفارق به إلى أن يقف بين يدي أحكم الحاكمين وتشهد أمامه لصاحبها لاعليه ، فيشملة الله بعدله ورحمته ويدخله فسيح جنته — قال صلوات الله وسلامه عليه : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . متفق عليه .

مثل الدنيا وأهلها في تعلقهم بها

الدنيا شبه ملجأ أقامه ملك قوى غنى ليأوى إليه أبناء السبيل المسافرين ، وقد أعد في هذا الملجأ كل وسائل الراحة من أغذية وأكسية وأوان وفرش وجميع ما يحتاج إليه اللاحىء من المسافرين ، وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيه انتفاع العارية ثم يتركها لمن يأتي بعده . فيأخذها فرحاً مسروراً وعند الرحيل يتركها راضياً شاكراً للملك حسن صنيعه . فكان النازلون فيه على قسمين : قسم انتفع بها على أنها عارية ثم سلمها منشرج الصدر شاكراً وهم العقلاء المتبصرون — وقسم ظن أن هذا الملجأ وطن له وأن جميع ما فيه من متاع ليس عارية تسترد بل منحة مؤبدة فكانوا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح وهم الحمقى عمى البصائر .

ومثل آخر للدنيا

مثل الناس فيما أوتوا من متاع الحياة الدنيا كمثل رجل هياً متحفاً جميلاً وأباح الدخول فيه على الترتيب لكل جماعة يوم معين فدخله طائفة منهم فقدم إليهم طبق من ذهب عليه بخور ورياحين ايشموه ويتركوه لمن يأتي بعدهم لا يهتملّ كوه فن كان على علم بقانون هذا المتحف ورسومه انتفع به ثم تركه راضياً شاكراً — ومن جهل قانون المتحف ورسومه وظنوا أنه هبة لهم دائمة ومنحة من صاحب المتحف مؤبدة تفجعوا لاسترجاعه منهم وتألوا لأخذه من أيديهم .

ومثل الناس في اشتغالهم بالدنيا وزينتها عن الدين مثل إنسان منحه ملك عظيم جوهرة ثمينة وأمره بالمحافظة عليها ونهاه عن التفريط فيها ، ثم لقيه صائغ خبير بالجواهر فأوصاه أيضاً بالمحافظة عليها وحذره من التفريط فيها ، فلقية شخص محتال عدو لهذا الملك ولرعيته ؛ فلما رأى تلك الجوهرة حسده عليها وأظهر له جوهرة أخرى مزخرفة ومزينة بكل أنواع الزينة من الذهب والفضة والألماس واللؤلؤ والزمرد والياقوت ولا زال يحتال عليه ويزينها له حتى استبدل هذه الجوهرة المزخرفة بتلك الجوهرة الثمينة ، فلقية ذلك الصائغ ثانياً فسأله عن جوهرة الملك فقال قد استبدلت

بها هذه الجوهرة المزينة ، فقال له الصائغ هذه ليست بجوهرة بل قطعة بلور مزينة بأنواع الحلى وقد خدعت في الاستبدال فاختلعا في أمرها فتحكما إلى شيخ الصاغة فقضى بأنها قطعة بلور لا جوهرة فسقط في يده وتحسر على ما فرط في منحة الملك .

فالملك هو الله تعالى ، والإنسان هو المكلف ، والجوهرة الثمينة هي الشريعة الغراء ، والصائغ هو العالم الناصح ، والختال هو الشيطان فهو الإنسان عدو مبين ، والجوهرة المزينة هي الدنيا وشهواتها ، وشيخ الصاغة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو المرجع عند التنازع والاختلاف ، وهو المرشد الأول والناصح الأمين وعلماء الأمة نوابه في ذلك ، وكل من قتن بالدنيا وزينتها وشغل بها عن طاعة الله تعالى فهو لاشك خاسر ونادم في الآخرة « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن فإنه ينفعه ذلك .

ومن الأمثال السهلة في كيفية توزيع الجزاء في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا أن تقول : الناس ينقسمون في الآخرة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك في الدنيا أن يستولى ملك قوى على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون . ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون . ويُجلى سبيل بعضهم فهم الناجون . ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يُجلى إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدع ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في خدمته ونصرته — وتتفاوت الخلع بتفاوت الدرجات في الخدمة . والإهلاك أيضاً يكون بحز الرقبة أو تفكيلاً بالمثلثة بحسب درجات المعاندة . وتعذيبُ المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فكذلك الناس في الآخرة يتفاوتون في الجزاء بحسب تفاوت الأعمال « الرتبة الأولى » رتبة الهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، ولا تكون إلا للجاحدين المعرضين عن الله تعالى المتجردين للدنيا

المكذبين بالله ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية لا تنال أصلاً إلا بالإيمان « الثانية » رتبة المعذبين وهي لمن تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه ، وشدة العذاب وخفته وطوله وقصره بأمرين : الأول قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته والكلام فيمن مات على غير توبة « الثالثة » رتبة الناجين والنجاة السلامة فقط وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين ومن لم تبلغهم الدعوة وعاشوا على البله فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جنابة تبعدهم فاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون منزلة بين المنزلتين « الأعراف » « الرابعة » رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم السابقون المقربون وما يليق هؤلاء بمجاوز حد البيان قال تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال عز وجل : في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . متفق عليه .

وفي الكتاب والسنة وكتب القوم من ذلك شيء كثير^(١) مفيد وبمثله يستطيع أن يسترعى الأسماع ويمتلك القلوب حتى يقودها إلى مباشرة العمل ويرد النفوس الشريرة عن النقي إلى الرشد وبمثله يمكنه أن يسحر الألباب حتى ينسى السامع من يقول ويفكر فيما يقول ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيره المرضية ، وبهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشر والفساد ، ويغرس فيها حب الخير والصالح وروح الألفة والاتحاد ، وبهذا يصلح حال الناس وتنال السعادة في العاجل والآجل وبالله تعالى التوفيق .

(١) وقد تركنا بيان ما يستفاد من بعض هذه الأمثال من العظات والعبر لاستعداد الطالب وفضائله .

الفصل الرابع عشر

رعاية مقتضى الحال

وينبغي للمرشد أن يلاحظ مآلةتنضيه أحوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية ويراعى أيضاً الزمان والمكان من إلقاء درس أو خطابة أو شدة أو لين أو جدل بالحسنى أو ضرب مثل أو رواية قصص أو إيجاز أو إطباب فيما يقول إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، والجامع لهذه المتفرقات قول الله جل ثناؤه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » فإنه تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى دين الإسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم ، وأخرى بملة إبراهيم بالمقالة الحكمة وهى الحجة القطعية المزيحة للشبهة ، وذلك بالنسبة لأولى النفوس القوية الاستعداد لإدراك المعاني الطالبين للحقائق وهم الخواص ، وبالخطايات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصهم وتتوخى الخير لهم ، وذلك بالنسبة لذوى النفوس الكدرة ضعيفة الاستعداد الشديدة الألف للمحسوسات القوية التعلق بالرسوم والعادات ولكن لا عناد عندهم وهم العوام ، وبأحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات تسكيناً لشغبهم وإطفاء للهبهم كما فعل الخليل عليه السلام ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ، لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ورسخ فى نفوسهم من العقائد الباطلة فصاروا بحال لا تنفع فيه المواعظ والعبر بل لابد من إقامهم الحجر لكن بأحسن طرق الجدال لتلين عريكتهم وتزول شكيمتهم . الشغب بالتسكين تهيج الشر ولا يقال شغب بالتحريك .

ويصح أن يقال إن هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن المدعويين على ثلاثة أحوال : منيب متذكر ، وهذا شديد الحاجة إلى معرفة الأوامر والنواهي . ومعرض

غافل ، وهذا شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب . ومعارض متكبر ، وهذا شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الآية الكريمة في حق هؤلاء الثلاثة ، ولم يقيد الحكمة بوصف الحسنة إذ كلها حسنة بخلاف الموعظة إذ ليس كل موعظة حسنة وكذلك الجدال ، وهذا قد يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه ، فهو مأمور بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن .

والحاصل أن طرق الدعوة إلى الله تعالى تتفاوت بتفاوت أحوال الناس فإن لكل مقام مقالا ، ولكل نفس إعراضاً وإقبالا فقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضاً على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة ، وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس في بعض المجتمعات والأوساط فلا يعدل عنها إلى الدرس . وقد يكون اللين أفضل من الشدة فقد تكره الموعظة لما فيها من الغلظة أو الخرق . قال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إنني أريد أن أعظك بعضة فيها بعض الغلظة فاحتملها . قال : كلا ، إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني ، قال لنبية موسى إذ أرسله إلى فرعون : « فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » أي لا قولاً غليظاً منفراً ، والقول اللين نحو قوله تعالى : « هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فنخشى » فإن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه القوز العظيم والسعادة الدائمة والترجى بالنسبة لهما أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجهد طاقته ويبدل أقصى وسعه .

كذلك الإيجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الأبواب الراجحة والقلوب الحاضرة . وأما الإطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة ويكون مع الغبي والذكي . وليجعل القرآن الحكيم في ذلك إماماً يقتدى به ومرشداً يهتدى بهديه ، ألا ترى أنه إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الوحي والإشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم ، وإذا خاطب غيرهم كبنى إسرائيل أو حكي منهم جمل الكلام مطولاً مبسوطاً معاداً في مواضع كثيرة لبعده فهمهم وتأخر معرفتهم

واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة ، فما خاطب به مشركى العرب في مقام الاستدلال على قدرة الله ووحدانيته قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

بيانه أن أقل درجة المعبود القدرة على جلب ما ينفع العابد ، ودرء ما يضره ، والآلهة التي عبدها المشركون لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقته ، فكيف ماهو أكبر منه . ولا يقدرّون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب وهو أضعف الحيوانات ، ولا على استرجاع ما سلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يليق بعقل أن يعبدها من دون الله ، والمعبود في الضعف والعجز فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل هو تسوية بين السالب والمسلوب الذباب والآلهة في الضعف والعجز فالطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما يأخذه مما هو عليه ، ولفظ الآية يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستاب فمن جعل هذا إلها مع القوى العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتسفيه أحلامهم والشهادة على أن الشيطان قد لعب بهم أعظم من لعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات فأعطوها صوراً وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستردوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدرّوا عليه

وقوله تعالى في الاستدلال على وحدته وأن الألوهية تقتضي الاستقلال بالتصرف في الملك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولملا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » فان هذا الكلام لا يوازيه في الاختصار كلام .

ومما جاء في مقام الرد على منكرى البعث قوله تعالى « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » فإنه لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الإيجاز لم يقدروا — ونظيره قوله تعالى « قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وقوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » فإن هذا معلوم لكل صانع يتكرر منه عمل لأن الأول لم يستقر بعد في خزانة الخيال ، والثانى قد ارتسم وثبت له مثال ، وإذا كان هذا في حق من يتفاوت في قدرته الصعب والسهل كذلك فما ظنك بمن لا يتوقف مقدوره إلا على مجرد تعلق الإرادة الأزلية ؟ فهذه الآيات الكريمة على إيجازها برهان قائم على أن البعث مما يدخل تحت سلطان قدرته تعالى من باب أولى وغير خاف عليك ما جاء فيه عن بنى إسرائيل .

وعلى الجملة فللايجاز موضع كما أن للإطناب موضعاً فاستعمال أحدهما موضع الآخر خطأ واضح وعى فاضح ، كما روى عن جعفر بن يحيى البرمكى أنه قال : متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيماً . وقال الخليل : يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم — وقد كانت العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها — فالإطناب إذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو في الوعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز في الافهام محمود . والمرشد الحازم هو الذى يتفرس في حال القوم ويأتى في كل حال ما يناسبه وسيأتيك مزيد بيان لهذا المقام مع عدة تطبيقات في الضرب الرابع من أضرب التهيب فتفطن له .

الفصل الخامس عشر

« الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في إرشاد الناس »

إعلم أن ذلك يطول بيانه . ولا يمكن استقصاؤه . فانه يختلف باختلاف الأمراض الاجتماعية ويتنوع بتنوع الأحوال والدواعي ، ولكنها ترجع إجمالاً إلى طريقين : الترغيب والترهيب . كما يشير إليه قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ^(١) » ويشرح المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً . فإن قوله عز وجل ويشرح المؤمنين وما بعده بيان لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ، فالترغيب بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير ، وتبشيرهم بحسن المثوبة — والترهيب بوعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى ، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العقوبة — ثم إن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما — والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما .

فقد وعد جل شأنه المؤمنين الصادقين الاستخلاف في الأرض . والأمن من المخاوف ، والعزة والسيادة والحياة الطيبة — وأوعد العاصين بالجزى والذل ، وضنك المعيشة في الحياة الدنيا — كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم في الآخرة . وبالوعد ساق الطائعين إلى الجد في الطاعة ، وبالوعد وقف العاصين عند حد الأدب ؛ وإليك بيان الطريقين .

الترغيب

نذكر لك من هذا الطريق ما يفيد في حمل الناس على التشهير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة وهو ضربان (الأول)

(١) للذة أو المصيرية أو الطريقة التي هي أقوم الطرق وأسدها وهي ملة الإسلام والتوحيد ، والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى إليها من تمسك به ، لا تحصيل الهداية بالفعل ولا كان خاصاً بالمؤمنين .

الترغيب في جنس الطاعات بما جاء في ذلك من الكتاب والسنة كقول الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » . فإنه تعالى وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصالح العمل — ومنه نصردين الله — أن يجعلهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف بنى إسرائيل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين ، وأن يجعل دينهم ثابتاً مقررأ بحيث يستمرون على العمل به ويرجعون إليه في كل ما يأتون ، وما يذرون ، وأن يبذلهم بعد الخوف من الأعداء أماناً بتأييدهم بالنصرة والإعزاز ، ولقد أنجز تعالى وعده هذا للمهاجرين وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم ، وبذلك رغبهم في الطاعة . وقوله تعالى : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأُولَئِكَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَنَّهُمْ فِيهَا مُقِيمُونَ » . أى للذين أحسنوا أعمالهم في هذه الدار مثوبةً حسنة مكافأة لهم فيها على إخلاصهم في العمل وَلَمْ تَوْتَوْهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ مِمَّا أُوتُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثُوبَةِ فهذا وعده تعالى للمخلصين في الأعمال بحسن الجزاء في هذه الحياة وفي تلك الحياة ترغيباً لهم في الازدياد من صالح العمل مع الإخلاص فيه .

وقوله تعالى ترغيباً في صالح العمل : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . فإنه تعالى وَعَدَهُ حَسَنَ الْحَالِ وَالْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » . فيعيش الموفق عيشاً طيباً هنيئاً ، وإن كان معسراً فإن معه من القناعة ، والرضى بالمقسوم ، وتوقع الأجر العظيم ما يطيب عيشه — بخلاف الفاجر الخذول ولو كان موسراً فلا يدعه الحرص ، وخوف القوات أن يتهنأ بعيشه فهو دائماً في عناء ونكد ، هذا في الدنيا ، والجزاء الآخرة خير وأعظم ، والعيش عيش الآخرة .

وقوله تعالى ترغيباً في التقوى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » . فهذا أيضاً وعد

منه تعالى للمؤمنين الصادقين أن يمنحهم بتقواهم هداية في قلوبهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً وظفراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين والمنافقين كما قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أو نجاة مما يحذرون في الدارين وفي الآخرة يستر عنهم السيئات ويمحو لهم عن الزلات .

والحاصل أن العمل على مقتضى الدين ورعاية سنن الله في خلقه يورث ملكة العلم والحكمة وينير البصيرة ، وبذلك يفرق المرء بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذ ذاك يمنحه الله نصراً على أعدائه يعز به المؤمن ويذل به العدو .

وقوله تعالى ترغيباً في التمسك بالدين : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » أى وأوحى إلى أنه لو استقام الجن والإنس على ملة الإسلام لوسعنا عليهم الرزق — وتخصيص الماء الغزير بالذكر لأنه أصل السعة والخيرات كلها في الدنيا « لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً » لنختبرهم كيف يشكرون — وكما يختبر الله تعالى عبده بالبلايا ليظهر أمره أيصبر عليها أو لا يختبره بالنعيم أيشكره عليها أم يكفره — ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وسماع موعظته وقبول وحيه يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا يطيقه .

وقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » البرهان ما يبرهن به على المطلوب ، والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم سعى به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه بل هو نفسه برهان على صدق دعواه وحقيقته ما جاء به ، يظهر ذلك لكل من عرف حياته قبل البعثة وبعدها ، فإنه برهان بسيرته العملية كما أنه برهان في دعوته العملية . فقد نشأ ينميماً أمياً لم يعن بتربيته عالم ولا حكيم ولا سياسى ، ومع هذا قام في كهواته يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله وطاعته ، ويعلمهم حقيقة الإيمان الصحيح بالله تعالى وكل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من تقويم العبادات ونظام المعاملات ومكارم الأخلاق . كل ذلك على أساس الحجج الكونية والبراهين العقلية ،

فلا غرابة أن يسمى هو نفسه برهانا — والنور المبين هو القرآن الكريم ، فإنه كالنور النير في نفسه المنور لغيره ، ولا ريب أن القرآن بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيقته ، وأنه من عند الله بإعجازه غير محتاج إلى غيره ، مبين يبين للناس الحجة الواضحة والسبل المادية إلى سعادة الدنيا والآخرة إذا هم سلكوها واستناروا بضوئه — والاعتصام الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ — والرحمة الجنة — والفضل ما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء كما قال تعالى في آية أخرى « ويزيدهم من فضله » .

والمعنى — بعد ما أقام سبحانه في الآيات السابقة الحجة القاطعة على المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وبطلان ما هم عليه من أنواع الكفر والضلال ، وجه هذا النداء العام إلى جميع المكلفين يدعومهم به إلى اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بالنور الذي أنزل معه حيث يقول جل ثناؤه : يا أيها الناس قد أتاكم برهان عظيم شأنه جلى أمره وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم وأنزلنا إليكم على يديه كتاباً كريماً كالنور نير في نفسه منور لغيره يبين لكم كل ما تحتاجون إليه لسعادة العاجلة والآجلة ولم يبق بعد ذلك علة لمتعل ولا عذر لمعتذر — وأن الذين صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته وآمنوا برسوله وبما جاء به وتمسكوا بهذا القرآن العظيم سيدخلهم في دار الإحسان ، ويتفضل عليهم زيادة على جزاء أعمالهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة إليه ، ويعرفهم طريقاً قوياً يبلغون به سعادة الدارين — بالسكال والنصرة والعزة والسيادة في الأولى ، وبالجنة والرضوان في الآخرة — وهذا وعد كريم منه تعالى بهذه الأمور الثلاثة : الرحمة ، والفضل ، والهداية ، ترغيباً لهم في الإيمان بالله ورسوله والتمسك بكتابه الله والعمل بسنة رسوله ، فيا سعادة الموفقين ويا شقاوة الخذولين المحرومين .

وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته ، وإقراراً بوحدانيته ، ثم ثبتوا على هذا الإفراز ومقتضياته ، والخوف هم لتوقع المكروه ، والحزن غم لفوت نافع أو حصول

ضار — والمعنى أنه تعالى كتب لهم الأمن من كل هم وغم — وهذا وعد المدين
 جمعوا بين التوحيد الذى هو رأس العلوم اليقينية والاستقامة فى جميع أمور
 الدين والدنيا التى هى رأس الأعمال الصالحة . بالأمن من كل المخاوف والسلامة
 من جميع المكارهِ فى هذه الحياة وفى تلك الحياة — وبمثل هذا الوعد الكريم رغبهم
 فى الإيمان والاستقامة . وقوله تعالى « من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند
 ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يقول جل ثناؤه من أخلص نفسه لله تعالى
 فلم يشرك معه فى العبادة أحداً وهو مخلص فى هذا التوحيد وفى جميع أعماله فله
 جزاؤه الذى أعد له على عمله وهو الجنة عند مالكة، ومدبر شئونه ولا خوف عليهم
 فى الدنيا والآخرة من نزول مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات مطلوب — وهذا وعد
 منه سبحانه لأهل التوحيد الصادق والعمل الصالح مع الإخلاص له بالخير العظيم
 فى العاجلة والآجلة -- وبذلك رغبهم فى التوحيد وصالح العمل والإخلاص فى
 فى ذلك له تعالى .

وقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » أى
 سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرع فيها محبة يعيشون بها فى الدنيا مطمئنين
 مكرمين لما لهم من الإيمان وصالح العمل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى
 يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه . وفى صحيح البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم :
 « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام : إني أحب فلانا فأحبه فيحبه
 جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ،
 ثم يوضع له المحبة فى الأرض » — وذلك عادة لا يكون إلا لمن تكمل بالإيمان
 وصالح العمل وتحلى بمكارم الأخلاق وصنائع المعروف — وهذا وعد منه تعالى
 للمؤمنين العاملين بأنه يجعلهم محل رحمته وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول
 الناس أجمعين . وبذلك رغبهم فى الإيمان وعمل الصالحات . وقوله تعالى « فإما
 يأتينكم منى هدى » من كتاب ورسول « فن اتبع هداى فلا يضل » فى الدنيا
 « ولا يبقى » فى الآخرة فهذا وعده تعالى من يتبع الهدى بخيرى الدنيا والآخرة

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . يعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه « ومن أعرض عن ذكرى » هداى الذاكر لى والداعى إلى . « فلن له معيشة ضنكا » ضيقاً في الدنيا ، فترى الفاسق شرها حريصاً منهمكاً في جمع المال وعنده فوق ما يكفيه . ولا يهدأ له بال ويضيق صدره لأقل نازلة ، وناهيك بذلك ضيقاً في معيشتهم وتعذيباً لنفوسهم — وترى الصادق الإيمان مملوء القلب بالقناعة والرضا وليس عنده قوت يومه « ونحشره يوم القيامة أعمى » فاقد البصر كما في قوله تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكاً وصماً » ويصح أن يكون المراد من هذا أنهم لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم فقد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون — والمراد بالعمى في الآية التى معنا عدم الهداية إلى طريق الخلاص وفقد البصيرة وقد كان في الدنيا يحسن التفكير ذا بسر في أموره « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت » في الدنيا « بصيراً قال كذلك » مثل ذلك فعلت أنت « أتت آياتنا » واضحة نيرة لا تخفى على أحد « فنسيتها » عميت عنها وتركته ترك المنسى الذى لا يذكر أصلاً « وكذلك » مثل ذلك النسيان الذى فعلته في الدنيا « اليوم تنسى » تترك في العمى والعذاب جزاء وفاقا — وهذا وعيده تعالى لمن يعرض عن الهدى وداعيه بنكد الدنيا وشقاء الآخرة .

وقال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فإنه تعالى وعد المجاهدين المخلصين في سبيل الله أن يزيدهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى « والذين اعتدوا زادهم هدى » وفي الحديث : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وإطلاق الجهاد يعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة .
وقال تعالى « ولينصرن الله من ينصره إن الله تقوى عزيز » فإنه تعالى وعد من ينصر دينه بالنصر على أعدائه حتى يكون هو الظافر . وبين تعالى أنه قوى على

هذه النصرة التي وعد بها المؤمنين عزيز لا يضام ولا يمنع مما يريد — ولقد أنجز عز سلطانه وعده . حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم — أجل نصرهم الله تعالى على هؤلاء الأعداء الأقوياء عندما كانوا متمسكين بدينهم وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرف من بعدهم عنه خرجوا من الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالنصر المبين — وصفوة القول أن طاعة الله تعالى هي المستتبعة للخيرات في العاجل والآجل وعصيانه مستوجب للشرور والآلام في الدنيا والآخرة .

وكحديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات » وفي رواية مسلم بنفعك الله بهن أى بعلمهن والعمل بمقتضاهن : « احفظ الله » أى دين الله بحفظ أوامره ونواهيه فتقف عندها بالامتنال والاجتناب فلا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك « يحفظك » فى نفسك وأهلك ومالك ، ومصدق ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة » وما يصيب الإنسان من النوائب والشدائد فهو بتضييع أوامر الله تعالى وتعمديه حدوده . قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . « احفظ الله تجده تجاهك » أمامك بمعنى معك حفظاً وتأيداً وإعانة حيثما توجهت وقصدت ، من أمور الدين والدنيا فالمعية معنوية : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » كناية عن قدم المقادير فلا تبدل ولا تغيير — ولا ينافيه قوله تعالى : « يحول الله ما يشاء ويثبت » لأن الحول والأثبتات مما جفت به الصحف أيضاً — رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وفي رواية الإمام أحمد وعبد بن حميد فى مسنده « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء » أى سعة الرزق وصحة البدن « يعرفك فى الشدة » بأن يجعل لك من كل هم فرجا ومن كل

ضيق مخرجاً بما سلف منك من ذلك التعرف كما وقع للثلاثة أصحاب الغار^(١)
 « واعلم أن ما أخطأك » جاوزك فلم يصل إليك « لم يكن ليصيبك » لأنه
 تبين بكونه لم يصل إليك أنه غير مقدور عليك « وما أصابك لم يكن » قدر
 « ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر
 يسراً » والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة .

(الضرب الثاني) الترغيب في أنواع الطاعات — كالصلاة والصدقة والصوم
 والحج والجهاد لإعلاء كلمة الله وبر الوالدين . وإصلاح ذات البين كذلك يلزم
 ترغيب الناس في أنواع الفضائل النفسية كالشجاعة والعفة ، والصدق والوفاء والأمانة ،
 والإخلاص والحلم والتواضع ، والكرم والسخاء والصبر لدى الشدائد ، وطهارة
 الضمير وحب الخير للناس — كذا يرغبهم في إتقان الصنائع الوطنية ، ويحث على
 ترويحها بالاقبال عليها ، لما في ذلك من تشجيع الحركة الاقتصادية التي تعز بها الأمم
 وترقى الشعوب ، وإجمالاً كل ما ينفع الأمة في العاجل والآجل بذكر ما جاء فيها
 من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة مع شرح ذلك شرحاً وافياً حسبما تدعو إليه
 الحاجة — ويرجع في ذلك إلى مثل كتاب رياض الصالحين للإمام النووي —
 وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء العلوم للإمام الغزالي
 مع الرجوع في تفسير الآيات والأحاديث إلى مظانها فذلك أعون على الإفادة
 وتتمام الإفادة .

ومن أنفع وسائل الدعوة إلى خير الأعمال وحميد الخصال تنبيه الأمة إلى
 ماضي أسلافها الصالحين الذين رفعوا منار العلم والدين ونشروا لواء العدل والمساواة
 لتعلم من هم لعلمها تستحي من أن تكون شر خلف لخير سلف بل لعلمها تندم
 على سوء حالها فتقلع عما هي عليه من شرور الأعمال وفساد الأخلاق حتى
 صارت في أخريات الأمم بعد أن كانت في مقدمتها « نعم » هذا من أحسن

(١) حديثهم في الصحيحين من رواية ابن عمر وفي رياض الصالحين باب الاخلاص وقد تقدم -

الطرق التي ترقى شعور الأمة ، وأقرب وسيلة تهيب بها إلى خير الأعمال والتحلي
بمجد الخلال — ذلك أن تذكيرها بشرفها السالف وتشخيص مجدها الرفيع ،
وعزها المنيع أمام عيونها يدعوها بلا شك إلى التأسي بهم فيما كان لهم من جلائل
الأعمال — وحيد الخصال — أحسن زاجر للمرء عن مساويه إن كان حياً أن يتفكر
فيمن مضى من أمته وحماة دين الله فيرى فيهم العلماء الحكماء ، والأمراء
المعطاء والولاة العادلين ، والشجعان المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم
مخلصين في سبيل الله والحق ففازوا بالسعادتين وخلدوا لأنفسهم أحسن الذكرى
وجيل الأحدث .

وأكبر ما يهون على المرء احتمال الضيم والذل جهله بنفسه ونسيانه شرف
أسلافه وأجداده فتخفى عليه سيرتهم الحسنة وأعمالهم الجليلة الخالدة وأخلاقهم
الكريمة فلا ينجل أبداً من السقوط في حماة الرذيلة ولا يستحي أبداً من إنيان
النقائص .

من يهن يهن الموان عليه ما لجرح بميت إيلام

لهذا ترى دعاة الاستعمار إذا غلبوا أمة إسلامية جعلوا أكبر همهم القضاء على
دينها ولغتها وعاداتها ، وعملوا على إضعاف الروح العلمية فيها حتى تتلاشى قوميتها
وتنسى مجدها التالذ وشغلها بزخرف الحياة وزينتها وأنواع الملاحى عن كل ما يرقى
شأنها فتراها مفتونة بتقاليد الغالبيين وعاداتهم القبيحة الضارة ، وتراها تكثر من
الإعجاب بما ظهر على أيديهم من المخترعات وإتقان الصناعات ذلك لجهلها بماضى
أسلافها وإلا فقد ظهر على يد السلف الصالح من الحكم والآداب وإتقان الأعمال
في سياستهم المدنية وفي حروبهم وقضائهم بين الناس ما هو أعلى بكثير مما يندش له
هؤلاء الجهلاء عند ظهوره على يد هؤلاء المستعمرين . فواجب المسلم أن يقف على
محاسن دينه وآثار السلف الصالح ليعلم أن المحاسن التي في دينه ولسلفه كثيرة جديرة
بالحفظ والعناية والله تعالى التوفيق .

طريق الترهيب

ونذكر لك من هذا الطريق الأمور النافعة في التحذير من كل المعاصي صغيرها وكبيرها . والمفيدة في حل عقدة الأصرار . وحل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أضرب « الأول » أن يذكر ما في القرآن الكريم من الآيات المخوفة للذنبيين وكذلك ماورد من الأخبار والآثار — فإن الله تعالى حذر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته . وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدانيته . وجعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة والأولى ، كما جعل الأجساد القذرة عرضة للأمراض القاتلة في الدنيا وهو في كل حال حاكم عادل « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »

قال الله تعالى « فلما آسفونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه » انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين « معناه أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن يُعجل لهم عذابنا وأن لا نحلم عليهم « فجعلناهم سلفاً » أى جعلناهم قدوة لمن بعدهم من الكفار يستكون مسلكهم في استحقاق مثل ما حل بهم من العذاب ومثلاً للآخرين عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم . أو قصة مجيبة تجرى مجرى الأمثال لم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون — وقال تعالى « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لم كونوا قردة خاسئين » أخبر تعالى أنهم لما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه لغضبهم وجعلهم قردة أزلاء مبمدين والخسوء هو الطرد والصغار والأمر للتكوير ، أى فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ، روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فثقلوا بالقردة كما ثقلوا بالجمار ، ومثل هذا قوله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » فالسخر معنوى لا صورى على الصحيح وليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم نص فيه على كون ما ذكر مسخاً لصورهم وأنهم قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير .

وقال تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة »
 أى أنه تعالى لو يؤاخذ الناس جميعاً بما اقترفوا من السيئات كما فعل بالأُم الماضية
 ما ترك على ظهر الأرض من نسيمة تدب عليها من بنى آدم . وقيل ومن غيرهم أيضاً
 بشؤم معاصيهم . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
 غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » أى من يخالف الرسول
 فيما جاء به من الحق من بعد ما ظهر له بالمعجزات الدالة على صدق رسالته ويسلك
 طريقاً غير طريق المؤمنين الذين هم مستمررون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم
 نجعله واليا لما تولاه من الضلال ونخذه بأن نخلى بينه وبين ما اختاره في الدنيا ندخله
 جهنم في العقبي — وقال تعالى : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم »
 وقال تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالداً فيها
 وله عذاب مهين » والآيات في ذلك كثيرة .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « إن الله يغار
 وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه » — وفيهما أيضاً
 أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها
 وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل » . والغيرة الحمية والأنفة ،
 والمراد بها في حقه تعالى لازمها وهو الانتقام . وروى أحمد والترمذى والحاكم وصحاحه
 والنسائي وابن ماجه وغيرهم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
 قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكثت نكته سوداء في قلبه فان تاب واستغفر
 صقل قلبه ، وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه » أى تغشيه وتغطيه تلك النكته
 السوداء « فذلك الران الذى ذكره الله في كتابه — كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
 يكسبون » أى من الخطايا والسيئات وفي قوله « يكسبون » معنى الاستمرار
 والاسترسال . وران عليه ستره وغطاه . أى أن قلوبهم قد أصبحت في غلف من
 ظلمات المعاصي حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ولثل هذا كان السلف
 يقولون : المعاصى بريد الكفر . ومن أحدث لكل ذنب يقع فيه توبة نصوحا

لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا . وقذف هذا . وأكل مال هذا . وسفك دم هذا . وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فئيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح في النار » . رواه مسلم . وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخاري — والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قيل له هل تركت بنو إسرائيل دينهم ، أى حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم كسجنهم قردة وخنازير^(١) وأمرهم بقتل أنفسهم ؟ قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه . وإذا نهوا عن شيء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينساخت الزجل من قميصه — وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله . وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله تعالى . وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا عظمت الذنب فقد عظمت حق الله تعالى وإذا صغرت فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله ، وما من ذنب صغرت إلا عظم عند الله — وقال حذيفة رضي الله عنه : إذا أذنب العبد نكث في قلبه نكثة سوداء ، فإذا أذنب نكث

(١) تقدم لك أن المسح معنوي على الصجيج كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره خلافاً لما عليه الجمهور من أن صورهم تحولت فكانوا قردة وخنازير حقيقة .

في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كله أسود . ويؤيده قول السلف : المعاصي
 بريد الكفر أى رسوله . باعتبار أنه إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يعد
 يقبل الخير قط ، فينثذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف فيرتكب
 ما أراد ويفعل ما أحب ، ويتخذ الشيطان ولياً من دون الله فيضله ويغويه ويمده
 ويمنيه ، ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلاً . قال تعالى : « إن يدعون
 من دونه إلا إناثاً » أى ما يعبد المشركون من غيره تعالى إلا أصناماً مؤنثة كاللات
 والعزى ومناة « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً
 خارجاً عن الطاعة عارياً عن الخير لأنه هو الذى أغرام على عبادة الأصنام
 فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً
 مفروضاً » أى شيطاناً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع لأجعلن لى منهم
 حظاً مقطوعاً أدعومهم إلى طاعتي . « ولأضلنهم » عن الحق بالدعاء إلى الضلالة
 « ولأمنينهم » لألقين فى قلوبهم الأمانى الباطلة من طول الحياة وأن لا بعث
 ولا حساب « ولأسرنهم فليبتكن آذان الأنعام » لأحلنهم على أن يقطعوها وكانوا
 يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً وحرّموا الإنتفاع بها
 « ولأسرنهم فليغيرن خلق الله » دينه بالكفر وإحلال ما حرم وتحريم ما أحل
 « لقوله لا تبديل لخلق الله » « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر
 خسراناً مبيناً يعدمهم » يوسوس إليهم أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار
 « ويمنيهم » مالا ينالون « وما يعدم الشيطان إلا غروراً » باطلا هو أن يرى شيئاً
 يظهر خلافه .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم
 بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا
 من أصحاب السعير » .

وفي التوراة ما معناه : أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين
 على الثواب وعلى الروابع . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن وهب قال : إن الرب

سبحانه وتعالى قال في بعض ما يقول لبنى إسرائيل : إني إذا أطاعني العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه باركت فيه وفي آثاره ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عصاني العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتى تبلغ السابع من ولده . ويؤيده قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » فإنه تعالى أمر الأوصياء بأن يخافوا الله في شأن اليتامى خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وإلا فقد عرضوهم للضياع . ففي الآية الكريمة بعث على الرحمة وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه ، وتهديد المخالف بحال أولاده ، ولو شرطية جوابها خافوا عليهم والجملة صلة الذين — والمعنى ليخف الله الذين حالم وصفتهم أنهم لو شاربوا أن يتركوا أولاداً ضعافاً خافوا عليهم الضياع بعدم — وأمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد الأمر بها مراعاة العبد والمتنهن إذ لا نفع للأول بدون الثانى — وأن يخاطبوا اليتامى بالشفقة وحسن الأدب وفى الحديث « البر لا يبلى والذنب لا ينسى . والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان » أى كما تفعل يفعل معك . والقصاص إن لم يكن فيك أخذ من ذريتك ولذا قال تعالى : « خافوا عليهم فليتقوا الله » فإن كان لك خوف على صفارك وأولادك الضعفاء فاتق الله فى أعمالك كلها لاسيما فى أولاد غيرك فإن الله تعالى يحفظك فى ذريتك . ويسر لهم من الحفظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ما تقر به عينك بعد موتك وتسره روحك . قال تعالى « وأما الجدار فكان اغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا » الآية . وأما إذا لم تتق الله فى أولاد الناس ولا فى حُرهم فاعلم أنك مؤاخذ بذلك فى نفسك وذريتك وأن مافعلته كله يفعل بهم .

فإن قيل هم لم يفعلوا فكيف عوقبوا بزلات آبائهم وانتقم منهم بمعاصى أصولهم ؟ « قلنا » لأنهم تبع لأوثاك الأصول وناشئون عنهم « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » أى أنهم يرثون الشر عن آبائهم كما يرثون أوصافهم الجسمية — واثن قيل بالعدوى فى الأمراض الحسية فالنفوس أقبل

لها في الأمراض المعنوية . هذا مانشير اليه هذه الآية — ومن استقرأ أحوال الفجار وجد أنهم لا يلدون إلا فجراً — فالخصل أن الذرية ترتكب ما يستحق عليه العقوبة بشؤم ما كان يصدر من الآباء بمقتضى تلك الوراثة والعدوى . ويؤيد هذا حديث : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه الحاكم . وحديث : « أعف نفسك تعف بناتك » وروى الطبراني في الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً « عفوا تعف نساؤكم ووبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » وسلب المال منهم إن لم يكن لسوء تصرفهم كان من قبيل رد الحقوق إلى أربابها لكونها في الأصل مثلاً منصوبة .

وإن قال قائل قد يجد في فرع العصاة صالحاً كابن أبي طالب وبالعكس كابن نوح وابن آدم القاتل وفي هذا قال بعض الأدباء :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد ينجث الفرع الذي طاب أصله ليظهر فعل الله في العكس والطرد

قلنا : هذا مع قلته لأمر باطن يعلمه الله تعالى لو لم يكن منه إلا الأعلام بعبز الخلق حتى الكمل منهم عن هداية أقرب الناس إليهم لكفى « إنك لا تهدي من أحببت » أى لا توصل من أحببت — وربما كان للفاسق ظاهراً أعمالاً صالحة باطنة يثيبه الله بها في ذريته فيتمتعين الأخذ بقوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » وفي مسند الإمام أحمد أيضاً كتبت عائشة إلى معاوية رضى الله عنهما : أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً . وقال أبو الدرداء : احذر أن تبغضك قلوب المؤمنين وأنت لا تشعر . قال الفضيل هو العبد يخلو بمعاصي الله فيبقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر — وقال يحيى بن معاذ عجبت من ذى عقل يقول في دعائه : اللهم لا تشمت بى الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو . قيل له : كيف ذلك ؟ قال يعصى الله فيشمت في القيامة كل عدو — وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طمع الله على قلبه فلم يوقفه بعدها لخير . وقال إن الرجل — أى الكامل — ليذنب الذنب

فما ينسأ ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة . وفي صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه . وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار » عبر بالذهاب لكونه أخف الطير وأحقه — ولأنه يدفع بأذى شيء — وقال به هكذا أى نحاه بيده — وفيه تمثيل الذنوب فى نظر المؤمن بالجبل ثقلاً وخطراً وفى نظر الفاجر بالذباب خفة وحقارة — والمعنى أن المؤمن لقوة إيمانه وشدة خوفه من الله تعالى لا يأمن العقوبة بسبب ذنوبه . والمؤمن دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخاف من أقل المفوات ، وأن الفاجر لضعف إيمانه وقلة خوفه من مولاه يستهين بالذنوب ولا يبالى بالمعاصى — وقال بعض السلف : يا أهل المعاصى لا تعتزوا بطول حلم الله عليكم واحذروا أسفه . أى شدة غضبه من الإفراط فى المعاصى فإنه تعالى قال « فلما آسفونا انتقمنا منهم » والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغى أن يكثر المرشد منها إن كان ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة . وورثه كل عالم بما أصابه . وبالله تعالى التوفيق

« الضرب الثانى » حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من المصائب والبلايا بسبب هفواتهم التى هى خلاف الأولى فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق فى صحيح البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قام موسى النبى خطيباً فى بنى إسرائيل » يذكركم أيام الله وأيامه هى نعمائه وبلاؤه « فستل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم » من جميع الناس فى اعتقاده وظنه فلم يكن ذلك كذباً « فعتب الله عليه ^(١) » تنبيهاً له وتعلماً لمن بعده ولئلا يقتدى به غيره فى تزكية نفسه فيهلك — وأصل العتب المراقبة أو تغير النفس والمراد به عدم الرضا بذلك ، ولذا أمره بالذهاب إلى الخضر للتأدب لا للتعليم

(١) عتب عليه وجد وبابه نصر وطرب .

« إذ لم يرد العلم إليه » تعالى كأن يقول الله أعلم « فأوحى الله إليه إن عبدا من عبادى بجمع البحرين هو أعلم منك » بشيء مخصوص وهو ما علمه من الغيوب وحوادث القدرة مما لا يعلم الأنبياء منه إلا بما أعلموا به . كما قال سيدهم وصفوتهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فى هذا المقام « إني لا أعلم إلا ما علمنى ربى » وإلا فلا ريب أن موسى عليه السلام أعلم من الخضر بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة ويدل هذا قول الخضر فى هذا الحديث : « إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه » فانظر كيف عوتب على حكم بناء على ظنه واعتقاده وامتحن من أجله بالذهاب إلى الخضر وموسى أفضل منه تأديبا له واعتبارا لغيره — وغاية ما وقع منه أنه ارتكب خلاف الأولى فما بالنا ونحن المذنبون المقصرون — وكما روى صاحب القوت رحمه الله أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا ! قال لقولك لأخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون — لم خفت عليه الذئب ولم ترجى له ؟ — ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال : لأنك رجوتنى وقلت عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . وبما قلت : يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . أى اطلبوا خبرهما من الإحساس وهو المعرفة . وروى البيهقي فى الشعب من حديث أنس رضى الله عنه : « أتى جبريل يعقوب عليه السلام وقال إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا ، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادى ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب وإذا كان صائما أمر مناديا فنادى ألا من كان صائما من المساكين فليفطر مع يعقوب ^(١) » — وكذلك لما قال يوسف عليه السلام لصاحب الملك اذ كرنى عند

(١) وأخرجه الحافظ المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب من رواية الاسبهاني فى باب

كفالة اليتيم .

ربك . قال الله تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين »
 فعوقب بطول السجن برجوعه إلى غير الله تعالى مع أن الاستغاثه بالخلق في دفع الظلم
 جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهذا وإن كان جائزاً
 لعامة الناس إلا أن الأولى بالصدّيقين أن يقطعوا نظرهم عن الالتفات إلى غيره تعالى
 وأن لا يشتغلوا إلا بالالتجاء إليه .

ومن ذلك ما جرى لسليمان بن داود عليهما السلام من تخلف رجائه من أجل
 أنه لم يقل بلسانه إن شاء الله . قال الله تعالى « ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه
 جسداً ثم أناب » فإن أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضي الله
 عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام
 لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تآني بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له
 صاحبه قل : إن شاء الله . فلم يقل إن شاء الله فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة
 جاءت بشق رجل والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله
 فرساناً أجمعون » متفق عليه ، لأطوفن أي لأجامعن أو لأقعن — وصاحبه قرينه
 من الملائكة ، أو وزيره من الإنس ولم يقل إن شاء الله أي بلسانه لا إباء عن
 التفويض إلى الله تعالى ، بل لشغل أو نسيان عراه فصرفه عن الاستثناء القدر
 السابق أن لا يكون ماتمى كما هو اللائق بمنصب النبوة . وشق الرجل : هو الجسد
 الذي ألقى على كرسيه كما جاء ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
 قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تآني بفارس يجاهد
 في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت
 بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره . فوالذي نفسي بيده لو قال إن
 شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون . فذلك قوله : ولقد فتننا سليمان »
 فهذا مما قد يغيب عن الخواص من خفي سكونهم ، ولبح نظرهم إلى ما سوى الله
 تعالى كأنكالم المؤمن على قوته . أو إعجابه بها ، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر
 ولم يرد بها القرآن الحكيم ورود الأسمار ، بل الغرض منها العظة والاعتبار ، ليعلم

العبد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع جلالة قدرهم عند الله تعالى ، لم يتجاوز عنهم في الهفوات الصغيرة . فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر الذنوب ، فليعتبر بذلك العبد ويكون على غاية الوجل — نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالمؤاخذة ولم يؤخروا إلى الآخرة — والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً — ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر — فهذا أيضاً مما ينبغي للمرشد أن يكثر منه على أسماع المصيرين على الذنوب فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة إن شاء الله تعالى .

(الضرب الثالث) أن يقرر في أذهانهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جنائياته التي صدرت منه — فرب إنسان يتساهل في أمر الآخرة ويستخفه ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به — فإن الذنوب كلها يعجل شؤمها في الدنيا غالباً — قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . كالجدب وقلة الأمطار والرياح في الزراعات ، والربح في التجارات ، ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثرة الحرق والفرق ، وبحق البركة من كل شيء بشؤم معاصيهم ليذيقهم بعض جزاء تلك الجرائم وتماه في الآخرة ، لعلهم يرجعون : كي يُقلعوا عما هم عليه من السيئات — وقال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ، أي لو أنهم صدّقوا بما أوحى إلى الأنبياء معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالسراء والضراء وانقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ، لو سعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب ولكن لم تغنهم الآيات والنذر فعاقبناهم بما كانوا يفترون من الكفر وأنواع المعاصي — وقال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . أي ما ينزل بكم من المكاره كالآلام والأسقام بالنفس والأهل ، والولد والعاهات بالمرزوعات والمواشي فهو بسبب معاصيكم التي ارتكبتوها ، ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها ، هذا في الجرمين ، أما ما ينزل بالطائعين من

الحزن والبلايا فلاسباب أخرى منها تعريضهم لثواب الصبر عليها ، ورفع درجاتهم — وفى الحديث ، (خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : البغى ، والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر) — روى من عدة طرق ، وبنحوه رواه الطبرانى من حديث جابر ، وعن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل المات » : رواه الحاكم والأصبهاني بسند صحيح — حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بذنوبه ، وقد تسقط منزلته من القلوب فيصير ثقيلاً مرذولاً ، ويستولى عليه أعداؤه — قال تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، أى جعل القرية التى كانت هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة — والمثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشيء موجوداً أم لم يكن فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذا الوصف — وأن يكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضررها الله مثلاً لغيرها إنذاراً من مثل عاقبتها . آمنة : ذات أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كما ينزل ببعض القرى من إغارة الأعداء عليها وطلب الإيقاع بها — مطمئنة : ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث فى بعض القرى من الفتن الداخلية بين أهاليها ووقوع بعضهم فى بعض — يأتيها رزقها : أقواتها — رغداً : واسعاً من جميع نواحيها — فقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والعصان ، بدل الشكر والطاعة ، فعاجلهم الله بالعقوبة وغشيمهم من آلام الجوع والخوف وأضرارها ما غشيمهم بما كانوا يقتربون فيها قبل على وجه الاستمرار وهو الكفران والتمرد وهو فى كل ذلك حاكم عادل — ولقد جاءهم : هذا من تمام التمثيل أتى به لبيان أن ما صنعوه من كفران هذه النعم لم يكن خروجاً عما يوجبه العقل السليم فقط ،

بلى كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الطاعة والشكر على النعمة وأنذرهم بسوء عاقبة أمرهم فكفروا برسالته وكذبوه فيما أخبرهم به — فأخذهم العذاب المستأصل لشأقتهم عقب ما ذاقوا منه ما سمعت . وهم ظالمون أى حال تلبسهم بجرمة الكفر والتكذيب غير مقلعين بما ذاقوا من المقدمات الزاجرة عنه لو كانت لهم ضمائر وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد ، وتجاوزهم في ذلك كل حد معتاد . وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى كما يرشد إليه قوله سبحانه : « وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا » ، وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لهم ولبن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا في حرم آمن يُتخطف الناس من حولهم ولا يخطر لهم خوف من عدو ولا قلق داخلي على بال وكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء . ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول ، فأنذرهم وحذرهم فكفروا بنعم الله تعالى وكذبوه صلى الله عليه وسلم فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » . ما أصابهم من جذب إليهم وأزمة شديدة فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعِلْهَز وهو طعام يتخذ من الدم والوبر في وقت الجماعة وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من إغارة سراياه صلى الله عليه وسلم على مواشيهم وغيرهم وقوافلهم . وما حل بهم يوم بدر أشد وأنكى .

وقال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . فهؤلاء قبائل الين غرهم الله تعالى بنعمه ومنحهم حياة طيبة ، فلما أعرضوا عن واجب الشكر سلهم الله النعمة وأرسل عليهم سيلا جارفاً أغرق أموالهم وخرب بلادهم : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه

ثم أعرض عنها إنا من الجرمين منتقمون » — وقال تعالى : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا في الأرض . وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم وتكبروا عن طاعة الله سبط الله عليهم أقواماً ذوى قوة و بطش في الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا واتخذوا من جلودهم نعلا ومن شعارهم حبلا — وذلك من قبيل توبة بعض الظالمين بعضاً مما حرت به السنة الإلهية قضينا : أوحينا — والكتاب التوراة — وجاسوا : ترددوا اطلبهم بالفساد — خلال الديار في أوساطها للقتل والفتك بهم إلى غير ذلك من الآيات .

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه » واللام في الرجل للمعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين فلا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أكثر مالا وأحسن صحة من العلماء لأن الكلام في مسلم أراد الله أن يرفع درجته في الآخرة فيصيبه من ذنوبه في الدنيا . وبه عرف أنه لا تنافي بينه وبين خبر : « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولذا وجه بعضهم الخبر بأن الله تعالى لطائف يحدتها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته ، والانهماك في نهيمته — فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زجراً له عما أقبل عليه . وتأديبا له لئلا يعود لمثله ، فعادة الله في خلقه أن العبد متى مال قلبه إلى شيء والتفت خاطره إلى شيء جعل ذلك الشيء منشأ للآفات فينئذ ينصرف وجه القلب عن عالم الحدوث إلى عالم القدس فإن آدم عليه السلام لما تعلق قلبه بالجنة جعلها محنة عليه حتى زالت الجنة فبقى آدم مع ذكر الله تعالى — وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلق شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذ خليلا والخلة مقام يقتضى إفراد المحبوب بالحبة فلما أخذ الولد شعبة من الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمر بذيبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب

المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطيئ النفس فيه فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وتم مراد الله — وهذا الامتحان كان في إسماعيل أول أولاده على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم — ولما استأنس يعقوب بيوسف عليهما السلام أوقع الفراق بينهما حتى بقي يعقوب مع ذكر الحق جل وعلا . ولما طمع محمد صلى الله عليه وسلم من أهل مكة بالنصرة والإغاثة صاروا من أشد الناس عليه حتى قال : « ما أودى نبي مثل ما أودى » ، ومشاهد أن من يتعاق بالمال أو البنين يصيبه من آلام الحياة ومتاعبها ما يذهب بلذة ما تعلق به منهما . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا » وعن عائشة رضي الله عنها « ما من مسلم يصيبه وصَبٌّ ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى إنقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » والوصب بفتح الصاد المرض والنصب بالفتح التعب والنصب بضم فسكون الشر والبلاء والشسع بالكسر واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها . وقال بعض السلف ليست اللعنة سواداً في الوجه ، ونقصاً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه — وهو كما قال — لأن اللعنة هي الطرد والابعاد . فإذا لم يوفق للخير ويُسرَّ له الشر فقد أبعاد . والحرمان عن رزق التوفيق أكبر حرمان . وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويحجره إليه ويتضاعف فيحرم العبد عن رزقه النافع من مجالسة الناصحين أطباء القلوب . المذكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين المهذبين ؛ بل يمتته الله فيمته الصالحون .

حكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في وسط الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً عن الوقوع حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنوب فعضدها يخوض في الذنوب.

خوضاً — وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر — ولذا قال الفضيل رحمه الله : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك — وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى — وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي — وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله لا يموت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه . فدقائق العقوبات على قدر جلائل الدرجات .

والحاصل أن القوم حملوا الحديث على السكّلة من الرجال . والرزق على المعنوى . والحديث في ذاته شامل للسكّلة وغيرهم . وصالح لإرادة الرزق بنوعيه الحسى والمعنوى . فأهل الدنيا يعاقبون في رزق الدنيا بتعذر طرق الاكتساب ونقص الأموال وهلاكها . وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق لصالح الأعمال وتعذر فتوح العلوم النافعة وحسبك في هذا قول الإمام على رضى الله عنه : لا ينزل البلاء إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة — والأخبار والآثار كثيرة في شؤم الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس . والذل والاستعباد وكثرة الهموم حتى تظهر السكّابة على وجوه أرباب المعاصي ويحرمون بركة الرزق . وإن جاءت أحدهم نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر عليها حتى يعاقب على كفرانه ، بل من شؤم المذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب من بعده صفته بطريق العدوى كما سبق . فان ابتلى خلفه بشيء كان ذلك أيضاً إيلاماً له في ذريته . وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته . ويوفى شكرها ويبارك له في رزقه وفي ولده . وتكون كل بلية نزلت به كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته ، بل قال بعضهم كل بلية اقترنت بالصبر كانت نعمة .

(الضرب الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب كالقتل . والزنا . وأكل الربا . ومال اليتيم . وتناول الخمر . والميسر والسرقه . والقذف . والغيبة والنميمة . كذلك يلزم تحذير الناس من أنواع الرذائل الخلقية ، كالجهن والشره والكذب ونقض العهد والعدو والخيانة ، والنفاق والرياء ، والغضب

والكبر، والبخل والشح، والجزع عند البلايا، والحقد والحسد، وتنفيرهم من عدم إتقان الأعمال والمصنوعات، وعدم الاقبال عليها لما في ذلك من إماتتها وكسادها فتتأخر الأمة وتفقد استقلالها وعزتها — وإجمالاً كل ما يضر بالأمة في دينها ودنياها ويرجع في هذا إلى مثل كتاب الزواجر والترغيب والترهيب، وإحياء علوم الدين للامام الغزالي. وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه. فينبغي المرشد أن يكون كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنبض. والسحنة^(١) على العلل الباطنة ويشغل بعلاجها فليستدل المرشد بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداءً بإمام المرشدين صلوات الله وسلامه عليه. والسلف الصالح من بعده فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال: « لا تغضب. فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخاري. وقال له آخر: أوصني يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع^(٢) وإياك وما يعتذر منه » رواه العسكري في الأمثال والحاكم وغيرهما وصحح إسناده. فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه. وفي الثاني مخايل الطمع في الناس وطول الأمل. وعدم حضور القلب في الصلاة. وكثرة الاعتذار لأخوانه فنهاه عنها وقال رجل ل محمد بن واسع البصري رحمه الله: أوصني. فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة. قال: وكيف لي بذلك؟ قال إلزم الزهد في الدنيا أخرجه أبو نعيم في الحلية فكان محمد بن واسع تخيل في السائل مخايل الحرص على الدنيا فأمره بالزهد فيها — والمخايل العلامات والأمارات. وقال رجل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أوصني فقال كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً. فكأنه تفرس فيه آثار الغظاظ والغلظة — وكتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنهما أن اكتبني لى كتاباً توصيني فيه ولا تكثري — وذلك حين تولى الامارة. فكتبت إليه: من عائشة

(١) السحنة بفتحين الهيئة وقد تسكن

(٢) أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه

إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس . ومن التمس سخط الله
 برضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك » رواه الترمذى والحاكم . فانظر
 إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي يكون الولاة بصدددها من مراعاة الناس وطلب
 مرضاتهم — وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك
 الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .
 فإذا ن على المرشد أن يصرف عنايته إلى تفرس الصفات الخفية . وذكر النصائح
 الثلاثة بالمقام والأشخاص ليسكون اشتغاله بالمهم ، فإن ذكر جميع مواظب الشرع
 مع كل واحد غير ممكن . والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه إضاعة للوقت .
 ووضع الشيء في غير محله — فإن كان المرشد يتكلم في جمع لا يدرى باطن حاله
 فطريقه أن يعظ بما يشترك الناس في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر
 فإن في الشريعة أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله
 ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري رضى الله عنه : أوصنى . قال : عليك
 بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ،
 وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت
 إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان — وقال رجل للحسن البصري رحمه الله :
 أوصنى فقال : أعز أمر الله يعزك الله . ومن وعظ ابن مسعود رضى الله عنه : مكارم
 الأخلاق من عمل أهل الجنة ، وصنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وأهل المعروف
 في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . ومعنى قوله : وأهل المعروف في الدنيا الخ أن
 أصحاب المعروف في الدنيا يأتون يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم حجة ،
 فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له ويدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان
 إلى الناس في الدنيا والآخرة — وقال ابن عباس رضى الله عنهما صاحب المعروف
 لا يقع وإن وقع وجد متكا — وقال لقمان لابنه : يا بني لا تركن إلى الدنيا ولا
 تشغل قلبك بها فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، يا بني

لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك ، ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بني من يرحم يرحم . ومن يصمت يسم . ومن يقل الخير ينعم ومن يقل الشر يائس ، ومن لا يملك لسانه يندم . وقال أيضاً لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتك . وأنصت إليهم بأذنيك . فإن القلب يحيا بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء . ولا تجادلهم فيمقتوك . وخذ من الدنيا بلاغك . وأنفق فضول كسبك لآخرتك . ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً . وعلى أعناق الرجال كلا . ولا تجالس السقيه ولا تخاط ذا الوجهين — عال الرجل افتقر فهو عائل والجمع عالة ، والعيلة الفقر وعيال الرجل من يعولهم وواحد العيال عيّل كجيد ، وكلا حملا وثقلا عليهم ، فهو مرادف لعيال — وقال رجل لأبي حازم^(١) أوصني فقال : كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه — وروى البيهقي في الشعب قال : أراد موسى أن يفارق الخضر فقال له موسى : أوصني . قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً وكن بشاشاً ولا تكن غضاباً وارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تعير امرأ بخطيئته . وابك على خطيئتك يا ابن عمران — وكتب الحسن البصري رحمه الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فخف مما خوفك الله . واحذر مما حذرك الله . وخذ مما في يديك لما بين يديك . فعند الموت يأتيك الخير اليقين والسلام — وكتب عمر إليه يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد فإن الهول الأعظم والأمر المفضعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ومن نظر إلى العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ومن خاف أمن ، فإذا زلت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع . وإذا جهلت فاسأل . وإذا غضبت فأمسك والسلام — فظلع الأمر كظرف فظاعة فهو فظيع شديد شنيع جاوز الحد في التبعج — وكذا أظلع الأمر إفضاعاً فهو مفظع —

(١) هو سلمة بن دينار المدني التابعي الشهير بالأعرج كل كلامه حكم وعظة .

وأفطع الشيء واستفطعه وجده فظيماً ، وكتب مطرف^(١) بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز ، إلى عدى ابن أرطاة الفزاري^(٢) رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله ، أما أوليائه فغفتمهم ، وأما أعداؤه فغفرتهم — وكتب أيضاً إلى بعض عماله ، أما بعد : فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، وأعلم أن الله آخذ للمظلومين من الظالمين . والسلام — رواه أبو نعيم في الحلية .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ الناس وإرشاد من لا يدري خصوص حاله — فهذه المواعظ مثل الأغذية يشترك الكافة في الانتفاع بها ، متى كانت من ناصح أمين ، مهذب حكيم — قال عامر بن عبد القيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وبالله تعالى التوفيق .

الفصل السادس عشر

أن يحذر الناس من المعاصي بالخوف من الله تعالى فيبين لهم الخوف ، وما ورد في فضله ويتلو عليهم كثيراً مما يورث الخوف ، ويذكر لهم أحوال الأنبياء والملائكة والصحابة والتابعين والسلف الصالح فيه .

فانخوف تألم القلب وانزعاجه لتوقع مكروهه في الاستقبال ، وينتظم من علم

(١) من أقران الحسن البصري .

(٢) كان عاملاً له على البصرة ونقل سنة اثنتين ومائة . روى له البخاري في الأدب المفرد .

وحال وعمل — فالأول هو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويُجَوِّزُ العفوَ والافلات ، ويكون خوفه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله من تفاحش الجناية ، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً ومنتقماً ، وكونه محفوفاً بمن يحته على الانتقام ، وكان هذا الخائف لاشفيع له عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فقوة خوفه وشدته على قدر العلم بقوة هذه الأسباب ، وضعفه بضعفها . وقد يكون الخوف لاعن جنائية بل عن صفة المخوف ، كالذي وقع في مخالاب السبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار ، كذلك الخوف من الله عز وجل تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، وأنه لو أهلك المين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وكل من يفعل ما يريد من غير مبالاة يجب الخوف منه — وذلك كخوف الملائكة قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فإنه خوف الإجلال .

وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً — وعلى قدر معرفته بعيوب نفسه وعلمه بجلال الله تعالى واستغذائه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وهم العارفون بانفسهم وبربهم — والخشية أشد الخوف وقيل خوف يشوبه تعظيم الخوف منه وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . ثم إذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف وانزعاج القلب ، ثم يفيض أثر ذلك من القلب على الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط منه واستعداداً للمستقبل — ولذا قيل : ليس الخائف من يسكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه — وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

وأما فضل الخوف فاعلم أن ماورد فيه خارج عن الإحصاء . وناهيك دلالة على فضله أن الله تعالى جمع للخائفين بين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال تعالى « ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وإنما حصر الخشية في العلماء لأنها إنما تكون عن علم ما يخشى منه ، والعلماء هم الذين علموا قدره وسلطانته وشدة تنزيهه وبطشه وأنه الذي يفعل ما يريد من غير مبالاة « ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وقال عز وجل « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » فخص الرضوان بأهل الخشية — وقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » أمر بالخوف منه وأوجبه ، وجعل الإيمان منشأً وعلة ، فلذا لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعفه بضعف معرفته وإيمانه . وقال تعالى « سيذكر من يخشى » — وأخرج ابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها » . وروى ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه « قال الله سبحانه وتعالى : وعزتي وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنت يوم القيامة » وآمنته بالمد جعلت له الأمان — وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضل العلم دال على فضل الخوف لأنه ثمرة العلم بالله تعالى .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله . أى لأنها تمنع النفس عن الخالفات — ورأس الحكمة أصلها وأساسها ، والحكمة هنا نور يقذفه الله فى قلب المؤمن التقي يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطأ . وقال أبو سليمان الداراني : كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : من خاف ذل الخوف على كل خير . أى أرشده إلى ما فيه كل خير فى الأولى والآخرة إما ظاهراً وإما باطناً . وقال بجي بن معاذ رحمه الله : مسكين ابن آدم

لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . أى لأن خوفه منه يحمله على الشح بما معه على نفسه وعياله ، والإخلال بواجب المال . فلو خاف النار كما يخاف الفقر لمرب من أسبابها إلى أسباب الجنة — وقيل له : من آمنُ الخلق غدا ؟ فقال أشدهم خوفاً اليوم — وقيل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير — أى تزول عن مواضعها من شدة الخوف — فقال والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمْنٌ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف » وفيه استحسان لتغليب جانب الخوف على جانب الرجاء — وعلى الجلة فالتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر . وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده ، بل كل ما ورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية . فإن البكاء ثمرتها ، قال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله » . وذكر منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . متفق عليه — وقيل صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى مسلم أبداً » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التى تقرب العبد إلى الله تعالى .

وأما ما يورث الخوف — فقد عرفت أن الخوف من الله تعالى على مقامين الخوف منه والخوف من عذابه . والأول خوف العلماء وأرباب القلوب السليمة والبصائر النافذة العارفين من صفاته تعالى ما يوجب الهيبة والحذر المطلعين على سر قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » وقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » .

والثانى خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما دارى جزاء على الطاعة والمعصية . ووضعه بسبب الغفلة وضعف الإيمان . وتزول تلك الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة . وبالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ، فان فانت المشاهدة

فالسماح لا يخلو عن تأثير . ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ، وغلب أمن المكر على الظلمة الأظغياء ، والفراغة الأغبياء . والجملة والعموم والرعاع والظنم ، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار العذاب ولا بعد الحجاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفاً في الحديث الصحيح : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفي صحيح البخاري عن أم العلاء امرأة من الأنصار « أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت : فطار لنا — أى وقع — في سهمنا عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبدتهم ومن شهد بداراً فاشتكى مرضناه حتى إذا توفى وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمهم ؟ فقلت لا أدري بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إنى لأرجوه للخير . أى فالإنكار عليها من حيث جزمها بتلك الشهادة من غير مستند قطعى ، فكان اللاتق بها أن تبرزها في حيز الرجاء لا الجزم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بى . قالت فوالله لا أزكى أحداً بعده » . أى على جهة الجزم بل على جهة الرجاء وحسن الظن بالله تعالى : « قالت وأحزنتى ذلك فتمت فرأيت لعثمان عينا تجرى فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذاك عمله » — ولما توفى عثمان هذا قبّل صلى الله عليه وسلم خده وبكى حتى سالت دموعه الكريمة على خد عثمان وبكى القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذهب عنها — أى الدنيا — أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس بشيء » . وسماه صلى الله عليه وسلم السلف الصالح . وهو أول من قبر بالقيع رضى الله عنه — فتأمل زجره صلى الله عليه وسلم عن الجزم بالشهادة على الله فى عثمان هذا مع كونه شهيد بداراً وقوله « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرتُ لكم^(١) » وكونه قبله وبكى ، ووصفه له بأعظم الأوصاف وأفضلها وهو أنه لم يتلبس من الدنيا بشيء ، وبأنه السلف الصالح ، تعلم أنه ينبغي للعبد وإن عمل من الطاعات ما عمل أن يكون على حيز الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء . « ول فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً » .

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « شيبتي هود وأخواتها الحاقة ، والواقعة . وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت والغاشية » روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتغالهن مع قصرهن على ذكر أحوال الآخرة وعنائها وفضائنها ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما اشتملت عليه هود من الأسر بالاستقامة كما أمر . وهو من أصعب المقامات الذي لا يتأهل إلا هو صلى الله عليه وسلم وهو ك مقام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من جوارحه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يناسب كل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل . ولذا لما قيل له صلى الله عليه وسلم عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه : أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » والقرآن كله مخاوف لمن تدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . لكان كافياً ، إذ شرط المبالغة في مغفرته أموراً أربعة يعجز العبد عن آحادها . التوبة والإيمان الكامل المراد في نحو قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه من حديث أنس . والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله وشهوده

(١) قال ذلك لعمر رضي الله عنه لما قال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . وهي قطعة من حديث الصحيحين وفيه قصة الظليمة التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى مشركي مكة . يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقاله وحاله ودعائه وإخلاصه —
وأشد منه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾
فقد نبهك الله تعالى إلى أنك إذا ثبتت توبة نصوحا وآمنت إيماناً كاملاً ، وعملت
عملاً صالحاً كنت على رجاء أن تعد من زمرة الفائزين — ولا تغتر بما قيل إن عسى
من الله واجبة الوقوع فإنه أكثرى لا كلى . قال تعالى « فقولوا له قولاً لينا لعله
يتذكر أو يخشى » وقرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش تذكرًا وخشية نافعين —
فيايك وأن تأمن مكر الله وإن وصلت إلى ما وصلت فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم
الخاصرون — واستحضر قول الله تعالى « ليسأل الصادقين عن صدقهم » . وقوله
تعالى « فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا
غائبين » وقوله « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين
اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » أى ما من أحد إلا داخل النار كان ذلك أمراً محتوما
أوجه الله عز وجل على نفسه وقضى أنه لا بد من وقوعه ألبتة ، ثم يخرج منها الذين
اتقوا الكفر والمعاصي ويترك فيها الكفار والعصاة جثيا ، ومنهارا بهم كما كانوا
عند إحضارهم حول جهنم — وقوله تعالى « يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفدا
ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » أى نجمهم إلى ربهم الذى يغفرهم برحمته الواسعة
وأفدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لإكرامهم وإنعامهم ونسوق المجرمين
كما تساق البهائم إلى جهنم عطاشا فإن من يرد الماء لا يرد إلا لعطش — وقوله
تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » فإنه غاية في الوعيد مستعار من قول الرجل لمن
يتهدده سافرغ لك أى سأجرد للإيقاع بك من كل ما يشغاني عنه والمراد التوفير
على النكاية فيه والانتقام منه — وقوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
وصاحبته وبنيه لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » يكفيه في الاهتمام به ويشغله
عن غيره — وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ،
يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فحرف عذاب الله هو الذى

أذهب عقولهم وطير تمييزهم وصيرهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ، ولا نجاة من تلك الأفزاع والأهوال إلا بالتقوى كما أمر الله عز وجل . وقوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم » فأخبر تعالى أنه يسأل بعضهم عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله تعالى ، فيقول الموفقون : إنا كنا في الدنيا في أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله فمن الله علينا بالمغفرة والرحمة ووقانا نار جهنم . والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام — سميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة — وقوله تعالى « والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فانظر بعين بصيرتك ونور سريرتك إلى أنه تعالى قد حكم على كل إنسان^(١) بأنه خاسر إلا من جمع أموراً أربعة فإنه ينجو من الخسران المؤدى إلى الهلاك — الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق بأن يتلبس بما دل عليه الكتاب والسنة من الأخلاق والآداب ، والأحكام ، والشروط في سائر الأقوال والأفعال ، والأحوال الظاهرة والباطنة فلا يأتي شيئاً منها إلا وقد أخلص فيه وابتغى به وجه الله وحده . والتواصي بالصبر بأن يصبروا على الطاعات ، وعلى ما يلقونه من المكاره والبليات ، وعن المعاصي وما لها من الشهوات واللذات . فمن تحقق بهذه الشروط الأربعة كما ذكرنا كان على رجاء عظيم من السلامة من الخسار والبوار والعار والشنار بالفتح العيب والعار .

وفي الصحيحين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتكم الأقرين » فقال : يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بنى عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ غم رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمه رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً : « : عشيرة الرجل رهطه الأدنون : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « يا رسول الله والذين

(١) إذ : آل فيه للعموم والاستغراق بدليل الاستثناء.

يأتون « هكذا قراءة عائشة رضى الله عنها » ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون « يا رسول الله هو الذى يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال لا يا بنت أبى بكر — أو يا بنت الصديق — ولكنه الرجل يصلى ويصوم ، ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » . رواه الإمام أحمد والترمذى والبيهقى وغيرهم . وفيه دليل على أن الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لكونه لا يعلم قبول عمله لخفاء ما يطرأ على الأعمال من الآفات — وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » متفق عليه — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن عمله فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تحدث أخبارها » ثم قال : أتدرون ما أخبرها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وكان ابن السماك يعاتب نفسه ويقول لها : تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطالبين أن تدخلها . هيهات هيهات . للجنة قوم آخرون ، ولم أعمال غير ما نحن عاملون — وقال بعض السلف : لو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل — وكان سهل التستري رحمه الله يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : « وقلوبهم وجلة » ، ولما احتضر سفيان الثوري رحمه الله جعل يبكي ويجزع ، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن غفوا الله أعظم

من ذنوبك . فقال أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال .
 بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . ومعناه أن المال الجنة إذا تحقق موته
 على التوحيد — فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء
 الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدمها مثل الابتداع في الدين ، والزنا والربا وأكل مال
 اليتيم والكبير ، والنفاق ، والحقد والحسد وجملة من المعاصي والصفات المذمومة .
 وإنما كان الابتداع في الدين سبباً في سوء الخاتمة لأن المبتدع مرتكب إثمًا وعاص لله
 تعالى — ولا نقول الآن هو عاص بالكبائر أو الصغائر بل نقول هو مصر
 على ما نهى الله عنه ، والإصرار يعظم الصغيرة — إن كانت صغيرة — حتى تصبح
 كبيرة ، وإن كانت كبيرة فأعظم . ومن مات مصرّاً على المعصية يخاف عليه ، وربما
 إذا انكشف الغطاء وعان علامات الآخرة استفزّه الشيطان وغلبه على قلبه حتى
 يموت على التغيير والتبديل . وخصوصاً حين كان مطيعاً له فيما مضى من زمانه مع حب
 الدنيا المستولى على قلبه — قال عبد الحق الأشبيلي رحمه الله : إن سوء الخاتمة
 لا يكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه ما سُمع بهذا قط ولا علم به والحمد لله —
 وإنما يكون لمن كان عنده فساد في العقل ، أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم
 أو لمن كان مستقيماً ثم تغيرت حاله أو خرج عن سننه وأخذ في طريق غير طريقه
 فيكون عمله ذلك سبباً لسوء خاتمته وسوء عاقبته والعياذ بالله قال تعالى : « إن الله
 لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وجملة القول أن المبتدع مع كونه مصرّاً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه
 معارض للشرعية بعقله غير مسلم لها في تحصيل أمره معتقداً في المعصية أنها طاعة حيث
 حسن ما قبحه الشارع وفي الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره فهو قد
 قبح ما حسنه الشارع ، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة إلا من رحم
 الله . وقد قال تعالى في جملة من ذم : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم
 الخاسرون » ، والمكر جاب السوء من حيث لا يفطن له فمكر الله تعالى استدراجه

بعبد وأخذه من حيث لا يحتسب ، ولا يأمن مكره تعالى إلا الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها والاستعداد القريب ، المستفاد من النظر في الآيات — وسوء الخاتمة من مكر الله إذ يأتي الإنسان من حيث لا يشعر به نسأله تعالى العفو والعافية^(١) . — ولذا اشتد خوف الصحابة من النفاق وقد فسره الصحابة والتابعون بما لا يخلو عن شيء منه إلا صديق . قال رجل لابن عمر رضى الله عنه : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخاري . وقال الحسن البصري رحمه الله : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج^(٢) . فالمراد النفاق العملي لا الاعتقادي — فإن النفاق العملي هو ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً ومراعاتها علناً ، نسأل الله تعالى السلامة .

الفصل السابع عشر

سوء الخاتمة

هو نوعان : الأول وهو أخطر النوعين وأسوأهما عاقبة — أن يغلب الجحود على القلب عند سكرات الموت فتفيض الروح في حال غلبة الجحود فيكون ذلك حجاباً بين العبد وبين الله تعالى أبداً وذلك يوجب البعد الدائم والعذاب المخلد — وسبب الجحود ضعف الإيمان في الأصل . ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومتى ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوى حب الدنيا ، حتى لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، ولا أثر له في كفها عن السيئات — وذلك يورث الانهماك في اتباع الشهوات حتى يُظلم القلب ، وتتراكم عليه ظلمات

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتاب الأبداع في مضار الابتداع الطبعة الرابعة .

(٢) أى الدخول في الأمر والخروج منه على وجه يخالفه .

الذنوب فلا تزال تطفيء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى تصير طبعاً ورينا — فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفاً لشعوره بفراق الدنيا ، وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعاره فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما بقدر عليه من الموت ، وكراهته من حيث أنه من الله تعالى فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب — كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً .

والذي يُقضى إلى مثل هذه الخاتمة غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى — أما من كان حب الله تعالى أغلب على قلبه من حب المال فهو أبعد عن هذا الخطر — فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق اقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، ولهذا قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » . أي إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ، ومن المجاهدة لإعلاء كلمة الله فانظروا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذا وعيد شديد ، وتهديد شنيع للعنكمكين ، في طلب الدنيا .

فإذن كل من فارقه روحه في حالة الانكار على الله تعالى ، وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله ، وماله ، وسائر محابه الدنيوية كان موته قدوماً على ما أبغضه ، وفراقاً لما أحبه . فيقدم^(١) على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا

(١) قدم من سفره قدوماً ومقدماً بالفتح من باب تعب — وقدم يقدم كنصر ينصر قدماً كقفل بمعنى تقدم قال تعالى يقدم قومه يوم القيامة — وأقدم على الأمر إقداماً فملاً بشجاعة .

قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والفساد ، وأنواع الإهانة — وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المطيع المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ، ووعناء الأسفار طمعاً فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الأكرام ، وبدائع الأنعام — قال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم رحمه الله : يا أبا حازم مالنا نذكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب — قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما المحسن فكانا غائب يأتى أهله فرحاً ، وأما المسيء فكانا عبد الآبق يأتى مولاه خائفاً محزوناً .

الثانى وهو ما دون الأول أن يغلب على القلب عند الموت حب شهوة من شهوات الدنيا فيتمثل ذلك فى القلب ويستغرقه ، حتى لا يبقى فيه متسع لغيره فيكون استغراق قلبه به صارفاً وجهه إلى الدنيا ، ومتى انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومتى حصل الحجاب نزل العذاب — فإن اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطير لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، كما أنه يبعث على ما مات عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب تضاد الصفة التى غلبت عليه ، فإن ذلك بالأعمال ، وقد انقطعت بالموت ولا أمل فى الرجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، ويشتد الندم حيث لا ينفع ، إلا أن أصل الإيمان إذا كان قد رسخ فى القلب بصالح الأعمال فإنه ينجيه من الخلود فى النار ويخرجه منها القليل منه كما فى الخير « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . رواه البخارى .

ولهذا النوع سببان : أحدهما كثرة المعاصى والآخر ضعف الإيمان — وذلك أن مقارفة المعاصى من غلبة الشهوات ، ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة وكل ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله إلى

الطاعات أكثر كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى ، وإن كان إلى المعاصي أكثر غلب ذكرها على قلبه عند الموت — فربما تفيض روحه عند غلبة معصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى لا شغاله بما تقيد به — فالذى غلبت طاعاته على معاصيه بعيد عن هذا الخطر — والذي غلبت عليه المعاصي وكان قلبه بها أفرح منه بالطاعات خطره عظيم جداً — وأما الذى لم يقارف ذنباً أصلاً فهو أبعد عن هذا الخطر . ويعرف هذا بمنال : هو أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، ولا يرى إلا ما يمانل مشاهداته فى اليقظة — فالمرأى الذى يحتلم لا يرى صورة الواقع — والفقيه الذى قضى عمره فى درس المسائل يرى من أحوال العلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة — والتاجر يرى من أحوال التجارة أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الألف — وسكرات الموت وما يتقدمه من العشية قريب من النوم فيحضره عند ذلك جملة من الأحوال التى عهدها فى طول حياته ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكر الشيء فى القلب طول الألف فطول الألف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح — ولذلك تخالف منامات الصالحين منامات الفاسقين . فيتكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة وتميل إليها نفسه فربما تفيض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته — وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها .

ومن أراد السلامة من ذلك فلا سبيل له إلا المجاهدة طول العمر فى فطام نفسه عن الشهوات محافظة على القلب منها ، ويكون طول المواظبة على الخير ، وتخليه الفكر عن الشر عُدّة وذخيرة لحالة سكرات الموت وشدائده ، فإن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه — ولذا نقل عن بقال أنه كان يُلقن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة ، فكان مشغولاً بالحساب الذى طال إنفع له فغلب على لسانه ولم يوفق للشهادتين .

وبهذا عرفت أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم تسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح — ومن أجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، إذ ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء ، واستيلائه على القلب وهو لا يخلو عن أمثاله — وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج عنه حب الدنيا والأهل والمال ، والولد وجميع الشهوات . إذ لا يَهْتَجُم على صف القتال موطناً نفسه على الموت ، وبائعاً دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به إلا حباً لله وطلباً لمرضاته ، وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها من خاطر السوء الذي قال فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبق بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة^(١) ، فيختم له بما سبق به الكتاب » ، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاء بل هي الخواطر المتقدمة ، فاشتغل بالاستعداد لها — فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحفظ من المعاصي جوارحك ، ومن الفكر فيها قلبك ، واحترز من مشاهدة المعاصي وأهلها جهداً فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يحوز أن تخطف فيه روحك — هذا ما دمت في اليقظة ، فإذا أردت النوم فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ليس على لسانك فحسب ، فإن حركة اللسان وحده ضعيفة الأثر وبالله تعالى التوفيق .

(١) الفواق بضم الفاء وفتحها ما بين الحلبتين من الوقت لأنها تحب ثم تترك سوية يرصعها العصيل لتدور ثم تحلب .

الفصل الثامن عشر

أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف

لاريب أن عقل الأنبياء وعلمهم ومكانتهم عند الله تعالى وكذا الملائكة لم يكن دون عقلك ، وعلمك ، ومكانتك . وقد اشتد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على القرآن قلتُ يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية — فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً — قل حسبك الآن فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان » — أحب صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن من غيره ليكون عرض القرآن سنة أو ليتدبره ويفهمه فإن المستمع أقوى على التدبر ، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها — وقراءته صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب رضى الله عنه كانت ليعلمه كيف أداه القراءة وخارج الحروف . وبكاؤه صلى الله عليه وسلم على المفرطين أو اعظم ما تضمنته الآية من هول المطمع وشدة الأمر — ذرفت العين ذرفاً من باب ضرب دمعت . وذرف الدمع سال وذرفت العين الدمع — وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله » — متفق عليه — وروى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن عبد الله بن الشيخير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » — أى فوران وغليان كغليان القدر على النار يسمع صوته ، والأزيز صوت غليان القدر . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه »

رواه ابن أبي الدنيا . وروى الإمام أحمد رحمه الله أن داود عليه السلام مارفع رأسه إلى السماء بعد هفوته حياء من الله عز وجل ، وسببها أن الخضم لما تسوروا الحراب ودخلوا عليه من طريق غير مألوف غلب على ظنه عليه السلام أنهم يريدون قتله فهم بالانتقام لنفسه منهم ثم تبين له عذرهم فهذا رَوْعُه وسكن غضبه ، ومال إلى الصفح والتجاوز عنهم ، طلباً لمرضاة الله تعالى — وكانت هذه الواقعة هي الفتنة ، لأنها جرت مجرى الابتلاء والامتحان — ثم إنه عليه السلام طالب من ربه أن ينفّر له ما همّ به من الانتقام منهم وتاب من ذلك الهم وأناب ففقر له هذا القدر من الهم والعزم — هذا أقرب ما قيل في بيان فتنة داود عليه السلام . وما عداه فهو إما بعيد الوقوع أو محال صدوره منه لإخلاله بمقام النبوة . وقال المسيح عليه السلام : معاشرَ الحواريين ، خشية الله ، وحبُّ الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان عن الدنيا . بحقٍ أقول اسكن إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل — رواه أبو نعيم وغيره وعن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « سأل جبريل عليه السلام مالى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ فقال جبريل : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد — وروى ابن أبي الدنيا أن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها — فهذا شيء من أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته وقس نفسك وتأمل في القصور عن لحوق درجاتهم عليهم الصلاة والسلام .

أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في شدة الخوف

عرفت أن أعظم حامل على خوف الله تعالى وخشية سطوته هو العلم ، ومن ثمّ غلب الخوف على علماء الصحابة ومن بعدهم حتى كان بعضهم يضعف وبعضهم يدهش^(١) وبعضهم يسقط مغشياً عليه قال الله تعالى « إن الذين أوتوا العلم من

(١) دهش الرجل يدهش وبابه طرب .

قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » فهؤلاء علماء أهل الكتاب حين سمعوا القرآن استولى عليهم خوف الله تعالى فسقطوا على الأرض ساجدين من شدة الوله والخشية — ومن شدة الخوف قال أبو بكر رضى الله عنه : ليتنى كنت شعرة فى صدر مؤمن ، وقال يوماً لطائر : ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه قيل له فى الصلاة : قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء . فقال مروه فليصل — وفى رواية عنها قالت قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء » متفق عليه . فكان رضى الله عنه رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن كما فى البخارى .

وقال عمر رضى الله عنه عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر له ، وروى أنه رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فكان يعاد أياماً ، وأخذ يوماً تَبَنَّةً من الأرض فقال : يا ليتنى كنت هذه التبنة ليتنى لم أخلق ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ليتنى كنت نسياً منسياً ليت أمى لم تلدنى — وقال له ابن عباس رضى الله عنهما : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل بك وفعل ؟ قال : وددت أن أنجولا على ولا لى ، وفى رواية لا أجر ولا وزر ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا القيامة لكان غير ما ترون — رواه صاحب الحلية — ولما قرأ رضى الله عنه سورة التكويد وانتهى إلى قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » خر مغشياً عليه . ومرو يوماً بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى « إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع » نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً ، ورجع إلى منزله فمضى شهراً يعود الناس ، ولا يدرون ما مرضه ولا يستبعد أن يتفق الغشى والإغماء بل :

الموت لمن سمع الموعظة بحق فضعف عن مقاومة الرقة وشدة التأثير الحاصل بسببها .
فقد روى عن ابن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع
ابن خيثمة فمررنا على حداد ققام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار فنظر الربيع إليها
فتمايل ليسقط - ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون
فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية « إذا رأيتم من مكان بعيد
سموا لها تنغيظاً وزفيراً وإذا أقعوا منها مكاناً ضيقاً مُقرّنين دَعُوا هنالك ثبوراً »
فصعق الربيع أي غشى عليه فاحتملناه فأتينا به أهله قال : وربطه عبد الله إلى الظهر
فلم يفق فربطه إلى المغرب فأفاق ورجع عبد الله إلى أهله - فهذه حالات طرأت
لواحد من أفاضل التابعين بمحضر صحابي جليل ولم ينكر عليه لعله أن ذلك خارج
عن طاقته فصار بتلك الموعظة الحسنة كالمنجي عليه - تنغيظاً غليظاً كالغضببان إذا
غلا صدره من الغضب . زفيراً صوتاً شديداً . مُقرّنين مصدّدين قد قرنت أي جمعت
أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال - ثبوراً هلاكاً وقال عثمان رضي الله عنه ودِدْتُ
أنى إذا مت لم أبعث - وقال ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى « أَمَّنْ هُوَ
قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » هو عثمان بن عفان
رضي الله عنه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ليتنى إذا مت لم أبعث - ولم يرد به حقيقة
التمنى ، بل أظهر أن له قبائح يخاف من المؤاخذة بها بعد البعث . ونظيره ما وقع لأسامة
حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن حبه حيث قتلَ مَنْ نطق بالشهادتين ظاناً
أنه إنما نطق بهما انتفاءً لا حقيقة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاتبه وكرر
عليه : هلا شققت عن قلبه ؟ قال أسامة حتى تمنيت أبى لم أكن أسلمتُ يومئذ -
فإنه لم يتمن الكفر ولا تأخير إسلامه حقيقة إلى بعد هذه الواقعة وإنما تمنى سبق
هذه القعدة منه لإسلامه حتى يكفرها الإسلام - ففي الصحيحين من حديث أسامة
ابن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرة من
جهينة فصباحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه

قال : لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً . قال أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » . وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح . قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ » الحرقه بضم الحاء وفتح الراء بطين من جهيئة القبيلة المعروفة . متعوذاً معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها .

ونقول إن أسامة قد اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفاً من السيف ، فلما عتب عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا رسول الله أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علقته كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غُبراً بين أعينهم أمثال رُكب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فنادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبلى ثيابهم ، والله كأنى بالقوم باتوا غافلين — ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم — هملت عينه : فاضت ، وبابه نصر — وبه : نداه ، وبابه رد — وقال معاوية رضى الله عنه لضرار بن ضمرة الضدائى : صف لى علياً . قال : ألا تعفينى . قال : بل صفه . قال : ألا تعفينى . قال : لا أعفيك . قال أما أنه لا بد « فإنه كان بعيد المدى » واسع العلوم والمعارف لا تدرك غايته فيهما « شديد القوى » فى ذات الله ونصرة دينه « يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه » تأسفاً وحزناً إذ هذا فعل المتأسف

الحزين « ويخاطب نفسه » بالمرحبات والمقلقات « يعجبه من اللباس ماخشن » من باب سهل « ومن الطعام ما حضر ، كان والله كأحدنا يحيننا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوانه ، ونحن والله مع تقر به لنا ، وفربه منا لا نكلمه هيبه له فإن تبسم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويجب المساكين ، ولا يطعم القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لرأيت في بعض مواقفه وقد أرحى الليل ستوره ، وغارت نجومه وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تملل السليم « أى اللدغ سمي به تفاؤلاً » ويبكي بكاء الحزين وكأنه سمعته يقول ياربنا ياربنا يضرع إليه ثم يقول يا دنيا يا دنيا ألى تعرضت ؟ أم بى تشوقت ؟ هيهات هيهات غرمتى غيرى ، قد بتت لك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، فذرفت عين معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء . قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من دُبح واحدُها فى حجرها فلا تقرأ عبرتها ولا يسكن حزنها » — رقا الدمع والدم سكن وبابه قطع — والعبرة بالفتح تحلب الدمع .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : ودِدْتُ لو أنى شجرة تعضد . وكذا قال طلحة ابن عبيد الله رضى الله عنه أحد العشرة — وقال عمران بن حصين رضى الله عنه : ودِدْتُ أن أكون رماداً تنسفنى الرياح فى يوم عاصف — وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أندرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ — وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال : قلوبهم بالخوف قَرِحَةٌ وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر أماننا والقيامة موعدا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله موقفنا . وهذا منه رضى الله عنه بيان عن الخائفين بحسب حاله

ومر الحسن البصرى رحمه الله بشاب وهو مستغرق فى ضحكك جالس مع قوم فقال له الحسن : يا فتى هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة

تصير أم إلى النار؟ قال لا . قال فما هذا الضحك؟ قال فما روى ذلك الفقي بعده
 ضاحكاً . وروى عن ميسرة بن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول
 ياليت أُمي لم تلدني . فقالت له أمه حين سمعت منه ذلك مراراً : يا ميسرة إن الله
 تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال : أجل واسكن الله قد بين لنا أنا
 واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها — أى ولا جزم عنده بأنه من المتقين
 الناجين فلذا اشتد خوفه منها — وكان عطاء السليمى من الخائفين ولم يكن يسأل
 الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو — وقيل له فى مرضه : ألا تشقى شيئاً ؟
 فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعاً للشهوة — ويقال إنه ما رفع رأسه
 إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة — وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء قال .
 هذا من أجل يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس — وقال ذر بن عمر لأبيه
 عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت
 البكاء من كل جانب؟ فقال يا بنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .
 رواه أبو نعيم فى الحلية — وقال رجل للحسن البصرى (رحمه الله) : يا أبا سعيد كيف
 أصبحت؟ قال بخير . قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال تسألى عن حالى
 ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتملق كل
 إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال
 الحسن : حالى أشد من حالهم — نقله فى القوت .

فهذا شيء من مخاوف الخلفاء والأولياء والعلماء والشهداء والصالحين رضى الله
 عنهم أجمعين — ونحن أجدر منهم بالخوف — واسكن ليس الخوف بكثرة الذنوب
 بل بصفاء القلوب وكال المعرفة . وإلا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا . بل
 قادتنا شهوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ،
 فعميت بصائرنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة
 أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزججنا ، ولا وعظ الواعظين يؤثر فينا .
 فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا ويصلحنا إن كان تحريك اللسان

بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا — سئل سعيد بن جبير رضى الله عنه عن الخشية فقال : هي أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معاصيه . فهذه هي خشيتك . وأما الغرة بالله فهي أن يتبادى الإنسان في المعصية ويتمنى على الله المغفرة — وكيف يغتر العاصي ويطمع في النجاة وهي ليست إلا للعشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة — ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم ليتنى كنت شعرة في صدر مؤمن — وهذا عمر أفضل الناس بعد أبي بكر رضى الله عنهما وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ومع ذلك سأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بالمنافقين والفتن ، فقال له : يا حذيفة هل أنا من المنافقين ؟ فقال : لا والله است منهم يا أمير المؤمنين — فخاف عمر رضى الله عنه أن تكون نفسه قد لبست عليه حاله وسترت عنه عيوبه وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروطاً بشروط لم تحصل منه فلم يغتر به وعلى الجملة فليس يراد بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل — وإنما يراد خوف يسكن القلب حتى يمنع صاحبه عن المعاصي ويجمله على ملازمة الطاعة فهذا هو الخوف النافع — لا خوف الحمقى الذين إذا سمعوا ما يوجب الخوف لم يزيدوا على أن يقولوا : رب سلم نعوذ بالله ، وهم مع ذلك مصرون على القبايح — والشيطان يسخر بهم كما تسخر أنت بمن رأيتك وقد قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن منيع بابه مفتوح له فلم يفزع إليه . وإنما اقتصر على رب سلم حتى جاءه السبع فأكله .

الفصل التاسع عشر

الحث على المسارعة إلى صالح العمل والتحذير من التأخير
لا شك أن من له إخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما في غد والآخر بعد سنة يستعد للأول دون الثاني — فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار ، وعدمه نتيجة بعده — فمن انتظر الموت بعد سنة اشتغل بطول المدة ونسى ما وراءها ولم يفكر أن كل يوم يمضي نقص منها — وذلك يمنعه من المبادرة إلى العمل فإنه أبداً يرى لنفسه

متسماً من الوقت فيؤخر العمل — وقد قال الله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » من المسابقة بمعنى المبادرة والمسارة أى بادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم وتزدوا في دنياكم لأخراكم فإن الله تعالى قد بين لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط . وقال تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » أى بادروا إلى ما يؤدى إليهما من أداء الواجبات وترك المنهيات — وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى على طريق التمثيل . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً » شاغلا عن أمور الآخرة « أو غنى مطعياً . أو مرضاً مفسداً » لحاله « أو هرماً » الهرم بالفتح كبر السن وقد هرم من باب طرب « مُتَنَدّاً » مورثاً للفند محركاً وهو ضعف الرأى والخطأ فيه « أو موتاً مجهزاً » سريعاً « أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » الداهية الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه — والقيامة في أقصى غاية من الفظاعة والمرارة . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس . حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك . وفراغك » فى هذه الدار « قبل شغلك » بأهوال القيامة « وشبابك قبل هَرَمك . وغناك قبل فقرك » وهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها — رواه البيهقى والحاكم بإسناد حسن . وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » من الشواغل الدنيوية المانعة عن أمور الآخرة . والغبن بالسكون فى البيع وفى الرأى بالتحريك — ومن لم يستعملهما فيما ينبغى فقد غُبن ولم يحمد رأيه — وقال أبو حامد أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما بعد زوالهما — وفيه تشبيه المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال بأن كلا من أسباب الربح فمن عامل الله بامتنال وأوامره ربح . ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله وخسر — ونبه بكثير على أن الموقف لذلك قليل — رواه البخارى والترمذى .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السَّعَف فقال : ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه » .
رواه ابن أبي الدنيا والترمذى بإسناد حسن والسَّعَف : غصون النخل جمع سَعَفَة بالتحرىك . وقال جابر بن سَمُرَةَ رضى الله عنه . « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذرُ جيشٍ يقول صَبَحَكُمْ ومَسَاءَكُمْ بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه » رواه مسلم — شبه حاله في خطبته وإنذاره بقرب القيامة . وتهالك الناس فيما يرددهم بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم يقصد الإحاطة بهم بغتة فلا يفوته منهم أحد — فكما أن المنذر يرفع صوته وتحمر عيناه ويشتد غضبه على تغافلهم فكذا حاله صلوات الله وسلامه عليه عند الإنذار . والساعة منصوب على المعية أو مرفوع بالمطف على الضمير المتصل أى بعثت وبعثت الساعة تنزيلاً لها منزلة الموجود مبالغة في تحقق وجودها وبجيئها — والمقصود التنبيه على قرب القيامة وأن الباقى من عمر الدنيا قليل ليسارع الناس إلى العمل استعداداً للموت وما بعد الموت . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح . فقليل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » رواه البيهقى فى الشعب والحاكم وابن أبي الدنيا وغيرهم من طرق عديدة . وقال عمر رضى الله عنه : « التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة . »

وخطب الإمام على رضى الله عنه على المنبر فقال : « اتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم » أى سابقوها وعاجلوها بها أى استكملوا أعمالكم قبل حلول آجالكم « وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم » أى اشتروا ما يبقى من النعيم الأبدى بما يفنى من لذة الحياة الدنيا وشهواتها المنقضية « وترحلوا فقد جدَّ بكم » الترحل الانتقال ، والمراد منه هنا لازمه وهو إعداد الزاد الذى لا بد منه للراحل والزاد فى الانتقال

عن الدنيا ليس إلا التقوى : فقد جُدَّ بكم - أى حُثِّمْتُمْ وأزْعِجْتُمْ إلى الرحيل « واستعدوا للموت فقد أظلمكم » قرب منكم حتى كأن له ظلاً قد ألقاه عليكم ، ولا عدة له إلا صالح العمل « وكونوا قوماً صيحين فانتبهوا » أى كونوا قوماً حذرين إذا استنمتمهم الغفلة وقتاً ما ثم صاح بهم صائح الموعظة انتبهوا من نومهم وهبوا لطلب النجاة « وعلّموا أن الدنيا ليست بدار » إقامة « فاستبدلوها بدار الآخرة فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى . » بل منحكم قوة العقل التى تصغر عندها كل لذة دنيوية ، ولا تقف رغائبها عند حد منها فكأنها مقطوعة على استصغار كل ما تلاقيه فى هذه الحياة . وطلب غاية أعلى مما يمكن أن ينال فيها فهذا الباعث الفطرى لم يوجده الله تعالى عبثاً فاستعملوه فيما خلق له - وسدى مهملين بلا راع يزجركم عما يضركم ، ويسوقكم إلى ما ينفعكم . ورعاتنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلفائهم . « وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية » هى الأجل « تنقصها اللحظة وتهديمها الساعة لجديرة بقصر المدة . وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار تجرى سرعة الأوبة » ذلك الغائب هو الموت يسوقه الليل والنهار بكرورهما عليك وما أسرع مرهما والانتهاى إلى الغاية « وإن قادماً يقدّم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة » وذلك القادم أيضاً هو الموت إما بفوز وإما بشقوة وعدته الأعمال الصالحة والمساكنات الفاضلة « فتزددوا فى الدنيا من الدنيا ما تُحْرِزون به أنفسكم غداً » أى تحفظونها به وهو تقوى الله فى السر والنجوى وطاعة الشرع وعصيان الهوى « فأتق عبداً ربه نصح نفسه . قدّم توبته وغلب شهوته » وأمر بصيغة الماضى جاءت بياناً للتزود للأمور به قبلها « فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشیطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها » حال من الضمير فى عليه أى لا يزال الشيطان يفعل معه ذلك حتى يفاجئه الموت وهو فى أشد الغفلة عنه « فيا لها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة » لأنه أوتى فيه المهلة وممكن فيه من العمل فلم ينشط له « وأن تؤذيه أيامه إلى شقوة سأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة » لا تطعمه

« ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه » ولا تقصُر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » . رواه الطبراني — وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في موعظته : « المبادرة بالمبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأً نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا » يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك » . رواه ابن أبي الدنيا — فرحم الله امرأً علم أن الدنيا ساعة ، فجعلها طاعة وابتغى الرحمة وهرب من العقوبة حتى جاءه أجله وهو على ذلك .

الفصل العشرون

سنة الله تعالى في الهداية والإضلال

صرح القرآن الحكيم في مواضع كثيرة بأن أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فأعمال البر تشعُر الهدى ، وكلما ازداد الإنسان منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح — ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضلال والشقاء . وأيضاً فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما انصفوا به من الفجور .

فمن الأصل الأول قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فإنه يفيد أن العبد إذا آمن بهذا الكتاب الكريم واهتدى به محملاً وامتنل أوامره واجتنب نواهيه وصدق بأخباره كان سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا غاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية — وذلك أن الإنسان إذا آمن بالله

فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على صالح الأعمال حصلت له ملكة راسخة في الإقبال على الآخرة وفي الإعراض عن زخارف الدنيا ، وكما كانت هذه الأحوال أكثر كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكما كان الاستعداد أقوى وأكمل كانت معارج المعارف أكثر ، وإشراقها ولعابها أقوى . ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى : « هدى للمتقين » ، فكما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد من التقوى والاستقامة ، وكما فوت على نفسه خطأ من التقوى فاتته حظ من الهداية بحسبه — فكما اتقى زاد هداية ، وكما اعتدى زادت تقواه . قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . فأفاد أن الله تعالى يهدي بالقرآن من طلب رضاه بالإيمان به إلى طرق السلامة من المخاطر والنجاة من العقاب ، وينقذهم من ظلمات فنون الكفر وأنواع الضلال إلى نور الإيمان والهداية بتيسيره وتوفيقه — فالنور والكتاب المبين هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك والإلحاد والزيف ، وإبانة ما خفي على الناس من الحق — والصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الله تعالى ، والهداية إليه عين الهداية إلى سبل السلام ، عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي .

وقال تعالى : « هو الذي يريك آياته وينزل لكم من السماء رزقاً » ، فأنه عزت قدرته وجلت حكمته أبدع الآيات الكونية الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرد الألوهية ، وجعلها أمام أبصاركم وعقولكم لتستدلوا بها على كمال قدرته وبالعظمة ، وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى ، وتخصوه بالعبادة والتعظيم اللائق بمجلاله وينزل من أجلكم ما هو سبب أكيد في رزقكم وحياتكم وهو المطر . وأفرد بالذكر مع كونه من الآيات المذكورة ، لانفراده بعنوان كونه من آثار رحمته

وجلائل نعمته الموجبة للشكر : « وما يتذكر إلا من ينيب » أى وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة ويعمل بمقتضاها إلا من يرجع إلى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ، ومن ليس كذلك فهو بمنزل من التذكر والاتعاظ وكذلك الشأن فى الآيات التنزيلية لا ينتفع بها إلا من أقبل عليها وتدبر ما فى ثناياها ، وتأمل ما فيها من الحكم البالغة ، والعلوم النافعة له فى دينه ودنياه . أما من أعرض عنها فهو محروم من هدايتها والانتفاع بها — والحاصل أن الآيات البينات إنما تنفع النفوس المستعدة لقبول الحق المتوجهة إلى طلبه ، وأما النفوس الخبيثة التى يفضحها الحق ويؤلها ويظهر باطلها التى تحب ستره والاسترسال فيما هى فيه من اللذة البهيمية والجاه المزيف ، فإن الآيات المذكورة لا تزيدها إلا مرأً وجدلاً فى القول وجحداً وعناداً بالفعل : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وقال تعالى « فذكر إن نفعت الذكرى سيدكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا » . أمر الله جل وعلا رسوله المصطفى بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى ، والاستعداد لامثال أوامره والتزام أحكامه ، وأشار بقوله إن نفعت الذكرى إلى ما عليه أهل الباطل القائمون على ما ورثوا عن آبائهم ، وإلى جمودهم وصلابة جهلهم ، وأن الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا (وذلك كما تقول للواعظ : عظ المرابين إن سمعوا منك) ، وليس الشرط قيداً فى الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الأمر بالتذكير عام نفعت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله صلوات الله وسلامه عليه أصدق شاهد على ذلك ، ولذا أردف الأمر بقوله : « سيدكر من يخشى » ، أى سيتذكر بتذكيرك من يخاف الله تعالى فى الجملة ، فيزداد خوفه بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكر به ، فيقف على حقيقة فيؤمن به ويعمل عليه — فالذكرى نافعة حتماً فى فريق من الناس وهو الذى يخاف الله ويخشى عاقبة الجحود

والعناد بعد ظهور الدليل ووضوح وجه الحق ، وإنما يتجنب الذكري ولا ينتفع بها
الأشقي الذي غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان بإعراضه عن النور الساطع والبرهان
القاطع . وهذا الفريق الذي لا يخلو منه زمن سيلقى من الله جزاءه كما قال تعالى :
«الذى يصلى النار الكبرى» هى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ثم لا يموت فيها
فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة .

وقال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » يلطف به ويشرحه لزيادة الطاعة
والخير فهو تعالى حكيم يعطى الهداية للخير لأهلها .

وقال تعالى : « ويهدى إليه من أناب » . أى أنه تعالى يهدى إلى جنبه العلى
الكبير هداية موصلة كل من أقبل على الحق وتأمل ، فى تضاعيف ما نزل من
دلائله الواضحة .

وقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » فهدهم
أولا للإيمان بكل ما يجب الإيمان به فلما آمنوا هدهم بالإيمان هداية بعد هداية ، أى
أنه تعالى يوقفهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة ويهديهم
بإيمانهم أيضاً إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية . كما قال صلى الله عليه
وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، فإن العمل بدين الله مع رعاية سنن الله
فى خالقه يورث العلم والحكمة وينير البصيرة وبذلك تنكشف أمامه الأشياء ونظير هذا
قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، أى يزيد المؤمنين المهتدين هدى ،
وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى البعض الآخر كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه ،
كما أن بعض الغواية يجر إلى بعضها — وهو ممكن عقلاً إذ لا يبعد أن يكون بعض
أنواع الاهتداء مشروطاً ببعض ، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ، ولا امتناع
فى كون بعض العلم مشروطاً ببعض ، فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار
بحيث لا يمتنع أن يمنح الهداية التى هى المشروط — مثاله الإيمان هدى ، والإخلاص
فى الإيمان زيادة هدى ، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان ،
فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص — وقوله جل ثناؤه فى سورة

القتال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أى الذين اهتدوا إلى طريق الخير فأمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ، زادهم هدى بالتوفيق إلى سبل السعادة ، فى الدنيا والآخرة — وإجمالاً زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة ، فى أمور الدين والدنيا ، « وآتاهم تقواهم » ، ألهمهم إياها وأعانهم عليها . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » . ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل — وبالجملة فالإيمان الصادق له نور يسطع فى القلوب فيهديها فى ظلمات الشبه ، وينير لها السبيل إلى الحق الذى لا يشوبه باطل ، فيسهل عليها أن تميظ كل أذى يمتثر فيه السالك .

وقال تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فى سورة إبراهيم فى قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . ولقمان فى قوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . وسبأ فى قوله : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثمل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . والشورى فى قوله : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن بشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فأخبر جل شأنه عن آياته العيانة أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته القرآنية الإيمانية أنه إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والأنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه . قال تعالى : « طه ما أنزلنا

عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » . وقال في الساعة : « إنما أنت منذر
مَنْ يَنْشَاهَا » . وأما من لا يؤمن بها ، ولا يرجوها ولا يخافها ، فلا تنفعه الآيات
العيانية ولا القرآنية .

ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم التي كذبت الرسل وما
حل بهم من أنواع الخزي والذل في الدنيا قال بعد ذلك : « إن في ذلك لآية لمن
خاف عذاب الآخرة » . فأخبر أن في عقوبات المكذبين عبرة لمن خاف عذاب
الآخرة واعتقد صحته ووجوده — وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون
ذلك عبرة في حقه — وإنما كان الصبر والشكر سبباً لا انتفاع صاحبهما بالآيات
لأنهما أساس الإيمان فتصفه صبر ونصفه شكر — وعلى حسب صبر العبد وشكره
تكون قوة إيمانه — وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ولا يتم الإيمان
إلا بالصبر والشكر فإن رأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى والشهوة ، ورأس الشكر
التوحيد ، فإذا كان العبد متبعاً هواه مشركاً بمولاه ، لم يكن صابراً ولا شكوراً ،
فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً .

ومن الأصل الثاني وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال قوله تعالى
« يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله
من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض » فإن
تخصيص الإضلال بهم مترتباً على صفة الفسق وما هم عليه من القبائح المذكورة بعده
إيدان بأن ذلك هو الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال . فإن كفرهم
وعدوهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر في حكمة
ضرب المثل إلى حقارة المثل به حتى رسخت به جهالتهم . وازدادت ضلالتهم
فأنكروه وقالوا ما قالوا — فالمراد من الفاسقين هنا العاتون الماردون في الكفر
الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله والاستهزاء به .
وقوله تعالى « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقل قليلا ما يؤمنون » فإنه
صريح في أنه تعالى أبعدهم عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم

العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرّة ، بعد أن خلقهم على الفطرة ،
والتمكن من قبول الحق ، وسبب الآيّة أن اليهود ادعوا أن قلوبهم مغشاة بأغشية
جبيلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به النبي صلوات الله وسلامه عليه ولا تفقهه . فرد الله
عليهم ما قالوا وكذبهم فيه ببيان أن المانع كسبي لا جبلي

وقوله تعالى : « فما لكم في المنافقين فِئتين والله أركسهم بما كسبوا » روى أن
قوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو معتلين
بوباء المدينة ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين ،
فاختلف المسلمون في كفرهم وإسلامهم ، فبين الله أمرهم وأخبر تعالى بأنه قد ردّهم
في الكفر كما كانوا بسبب ما كسبوه من الارتداد والحق بالمشركين والاحتيال
على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وأصل الركن رد الشيء مقلوباً .

وقوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » فأخبر جل شأنه أنه يثبت المؤمنين
على ما ثبت لديهم بالحجة وتمكن في قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها
المعجبية « كلمة التوحيد » في الحياة الدنيا ، فلا يزالون عنه إذا فتنوا في دينهم كالذين
قتلهم أصحاب الأخدود وبلال وصهيب — وفي الآخرة فلا يتاعثون إذا سئلوا عن
معتقدهم في الموقف ، ولا تُدهِشهم أهوال القيامة — وأنه تعالى يخلق في الكافرين
الاضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنين بسوء اختيارهم وظلمهم لأنفسهم . حيث
بدّلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الواضحة فلم يهتدوا إلى
الحق « ويفعل الله ما يشاء » من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه
مشيئته التابعة للحكم البالغة .

وقوله تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في
طغيانهم يعمهون » فأخبر أنه تعالى عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه
وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتلائه
فلا يبصرونه . لكن لا مع توجههم إليه واستعدادهم له بطريق الإيجار . بل بأن

يخيلهم وشأنهم بعدما علم فساد استعدادهم ونفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلاً ويطبع على قلوبهم حسبا يقتضيه استعدادهم كما بينه تعالى بقوله: « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » أى ندعهم في طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين كما قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللا رسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله بحسن الطاعة حين يدعهم إلى ما فيه حياتهم من العلوم الدينية والجهاد لإعلاء كلمة الله — ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين قلوبهم .

وقال تعالى: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » فأفاد أنهم لما أصرروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه عاقبهم الله تعالى بصرف قلوبهم عن قبول الحق والميل إلى الصواب بصرف اختيارهم نحو الغي والضلال . وقال تعالى: « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته فقالوا أساطير الأولين . وقال تعالى في شأن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم » أخبر تعالى أنهم رجالا ونساء مشابهون في النفاق وصفاً وعملاً كأن كلا منهم عين الآخر يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ويمتنعون عن بذل المال في سبيل الله ، وأنهم تركوا التقرب إليه تعالى بالطاعة والإنفاق في سبيله ، فجازاهم على نسيانهم له تعالى وبهمالهم لطاعته بجرمانهم من التوفيق والهداية ، وفضيلة التقرب إليه بالإنفاق والجهاد في سبيله في الدنيا ، ومن الثواب على ذلك في الآخرة . فقبض اليد كناية عن الشح والمراد من نسيانه تعالى لهم لازمه وهو جعلهم كالمنسى الذى لا يتعهد ولا يعتنى بشأنه ذلك لخبيثهم وقبائحهم — وقال تعالى في موعظة المؤمنين وحثهم على الخير وتحذيرهم من الشر ومشابهتهم للمنافقين في أخلاقهم وقبائحهم: « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » أخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كلها بالعلم النافع والعمل

الصالح وهما الهدى ودين الحق - فأنسام طلب ذلك ومحبه ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له تعالى وإغفالهم لذكره وطاعته .

وقال أيضاً في حق المنافقين : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حتى رعايته تهاوناً منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للعلماء الصحابة رضى الله عنهم : ما الذى قال الساعة ؟ استهزاء فى صورة الاستعلام والاستعادة شأن الخبيث المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد — فأخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم بأنهم لم يتوجهوا نحو الخير أصلاً واتبعوا أهواءهم الباطلة — وبين أنه تعالى راد للذين اهتدوا إلى طريق الحق هداية بالتوفيق والإلهام وأعانهم على تقواهم — فإن المؤمن المتهتدى يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم .

وعلى الجملة فإن من تدبر آيات الهداية والاضلال يعلم أن الله تعالى إنما يهدى من هو مستعد للهداية بسبب إنابته إلى ربه وأخذه فى سبيل تعرف الحق واستعماله مواهبه فيما خلقت له — وأن من تكبر عن معرفة الحق وأعرض عن كتاب الله وهدى رسوله واتبع هواه جدير بأن يطمس الله على قلبه ويصرفه عن آياته . تلك هى سنة الله عز وجل فى خاتمه المبينة على غاية الحكمة ونهاية العدل .

نماذج فى مواضع القرآن الحكيم

قد عرفت بما تقدم لك خطورة وظيفتك وعظم مسئوليتك إذا تصدرت لمظة الناس وإرشادهم ، وما ينبغى أن يكون عليه المرشد من الصفات النفسية والآداب الدينية التى يتحلى بها ليسكون وارثاً نبوياً وعالمًا ربانياً ، ذا حياة طيبة نافعة ، نائراً للفضيلة . محارباً للنقيصة مهذباً للنفوس ، صالحاً للتأثير فى الأرواح — وعرفت أيضاً مراجع الوعظ وأنواعه والطرق التى يسلكها فى إرشاد الناس إلى الحق من الترغيب والترهيب .

وبقى عليك أن تعرف جملة من مواعظ الكتاب الحكيم والحكم النبوية العالية ، وكيف تتصرف فيها على سبيل الحكمة بحسن التأدية عند القيام بواجب مهمتك ، فإن منهلك الصافي وبحرك الزاخر الذى لا ينضب معينه ، وإمامك الذى تقتدى به ومرشدك الذى يهديك إلى سواء السبيل هو ذلك الكتاب المبين . والسنة الشريفة . وآثار السلف الصالح . ثم كل كتاب فى أصول الدين الحنيف أو الفروع أو الأخلاق ، لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة .

وسندك لك بعون الله تعالى وحسن توفيقه موجزاً من المواعظ الجامعة لكثير من شعب الإيمان ووجوه البر ، وشيئاً مما يتعلق بجملة الخلائق وخصوصاً الإنسان حتى تعرف منزلته من بينها وما قدر له من العيش الرغد والحياة الطيبة بقيامه بوظائف العبودية ونزعه لكسب الفضائل وخصائص الإنسانية ، ليكون لك نبراساً تستضيء به ومثالاً حياً تنسج على منواله فى عملك — وإجمالاً تهتدى به فى طريق دعوة الخلق إلى الله تعالى حتى تسير بهم نحو السعادة فى العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

الموعظة الأولى الكمالات النفسية .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق وللغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » كان صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يصلى إلى بيت المقدس وبقي كذلك بعد الهجرة يصلى إليه أكثر من سنة (سبعة عشر شهراً) فلما أمر بالتوجه إلى الكعبة كثر الخوض فى أسر القبلة وكان فى ذلك محنة للمسلمين واليهود ، والمشركون والمنافقين . فأما المسلمون فقالوا : سمعنا وأطعنا « وقالوا آمنا به كل من عند ربنا » وهم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم . وأما اليهود فقالوا خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبياً

لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء . وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما المناقون فقالوا ما ندرى محمد أين يتوجه ، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء من الناس وكانت كما قال الله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليظهر من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه — وعلى الجملة كان من المسلمين الاغتباط بالتوجه إلى الكعبة وكان من أهل الكتاب التشدد فى التوجه إلى بيت المقدس ، وظن كل أنه الغرض الأكبر فى الدين فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل عند الله تعالى ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة إلى الكعبة هى كل شئ لأنها قبلة إبراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى — فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين . ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلى بالإعراض عن كل ما سواه تعالى فى صلاته والإقبال على مناجاته ودعائه ، فتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركناً من العبادة فليس لكم أن تذهلوا به عن سائر صفات البر ، ولكن البر الذى يجب صرف الهممة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال التى بينها الله عز وجل ، أى أن البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره فى النفس والعمل فقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » إلخ .

وهنا يذكر للناس حكمة تعيين الجهة فى الصلاة ، وحكمة التوجه إلى بيت المقدس أولاً ، ثم التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة إن اقتضى الحال ذلك وكان فى الوقت سعة كأن يقول : (١) معلوم أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم فإنه لا بد وأن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه . ويبالغ فى الخدمة والتضرع له بالقراءة والتسبيحات كائناً ما كان ، والركوع والسجود كالخدمة ، واستقبال القبلة بمنزلة التوجه بالوجه نحو الملك لامعرضاً عنه —

وجملة القول أن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان الله سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيل شرع للناس مكاناً مخصوصاً^١ يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى رحمة منه تعالى بعباده . (٢) إن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وحضوره لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعيين ، وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف في الأوهام كان استقبال تلك الجهة أولى لأن شرفها محقق . (٣) إن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين ، ولو توجه كل واحد في صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوم اختلافاً ظاهراً فتعين جهة واحدة يتوجه إليها الجميع في الصلاة يدفع ذلك الهم ويحمل المؤمنين على الألفة والاتحاد والتعاون على أنواع البر وأعمال الخير ، وفي ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وأما سر التوجه إلى بيت المقدس والرجوع عنه إلى الكعبة فهو (١) تمييز المؤمنين الصادقين في إيمانهم من غيرهم ليعلم المؤمنين من يوالون ومن يعادون . قال تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » . أى وما جعلنا القبلة لجهة التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي بيت المقدس إلا لذلك ، فالوصول هو المفعول الثاني لجعل (٢) أنه إذا رسخ في أوهام بعض الناس أن هذه الجهة أشرف من غيرها بسبب أن الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه في قوله « بيتى » وبناء الخليل وولده لما كان الإنسان عند استقبالها أشد تعظيماً وخشوعاً (٣) أنه لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب وعزهم وفخارهم كانت رغبتهم في تعظيمه أشد (٤) الإسراع في قبول ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي ، لأنه لما كانت الكعبة منشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعظيمها تعظيماً له . ومن رسخ في قلبه تعظيمه كان بقبول شريعته أجدر ، وإلى امتثال أوامره ونواهيه أسرع — ومن الحكمة في جعل القبلة في أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت

في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان وكان سلطان أهل الشرك متمكناً فيها ،
والأمل في انكشافه عنها بعيداً ، فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنس بعبادة
الشرك — وإن كان الله أمر إبراهيم بتطهيره للطائفتين ، والعاكفين والركع
السجود — إلى بيت المقدس قبله اليهود الذين هم أقرب إلى ما جاء به من التوحيد
والتنزيه ، ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها ،
وإزالة سلطة الوثنيين عنه جعله الله قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه ، فيكون ذلك
مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على سنة إبراهيم من التوحيد
والعبادة الصحيحة لله وحده . وفي قوله تعالى : « ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم
تهتدون » ، بشارة بهذا الاستيلاء تبعث فيهم روح الأمل والرجاء ، ثم يبين لهم أن
البراسم جامع للطاعات وأعمال الخير التي تقرب العبد إلى مولاه تعالى ، ومنه
بر الوالدين واسترضائهم بكل ما أمكن ، ويلفت السامعين إلى أن الله عز وجل
اشتراط أموراً لا يتحقق البر بدونها .

الأول الإيمان بأمر خمسة (أحدها) الإيمان بالله تعالى أى التصديق بأن
للكون رباً قادراً عليهما ، مدبراً حكيماً ، متصفاً بكل كمال منزلها عن كل نقص ،
ولا يكون هذا الإيمان أصلاً للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً
بالخضوع والإذعان . ويظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل . أما التصديق
الذى لا يستتبع الآثار ولا يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل ، أو تكون
له آثار ناقصة فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجيه
من عذاب يوم القيامة — قال حجة الإسلام الغزالي : مثل المؤمن الذى لا يعمل
والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع ، إذ قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت
شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلاً حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلعك ، ويعطير
بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل العواصف ما جف من أوراقى وتبقى الأوراق
الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقياً سليم المعرض سليم
العقيدة ، كالذهب البوتقة بظاهر نقياً لامعاً . أما ضعيف الإيمان فإن النوائب

تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مردولا مشلوم العرض . كسير النفس ذليلا عند الله وعند العباد . وهنا يلفت السامعين إلى معرفة الله تعالى بالنظر في الكائنات الدالة على أنه تعالى كامل الألوهية من طريق القرآن الحكيم - ويذكر لهم آثار الإيمان الصادق وأوصاف المؤمنين ، وهي في القرآن أيضا كثيرة ومن أجمعها الآية التي معنا وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . وقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » إلى آخر السورة - وقوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . ذلك هو الإيمان الذي يصح أن يكون أساس كل برٍّ ومبدأ كل خير وسعادة (وثانيها) الإيمان باليوم الآخر - ومعنى الإيمان به التصديق بوجوده وما اشتمل عليه من بعث وجزاء وسمى به لأنه آخر أيام الدنيا أى متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها ، فهو من تسمية الشيء باسم مجاوره - وهنا يبين أن هذا الإيمان فرع ما قبله لأنه إذا آمن العبد بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأنه تعالى تام القدرة على جميع الكائنات آمن بصحة البعث والنشر والحشر ومالا فلا . ويملا قلوب السامعين رهبة من أهوال يوم القيامة بآيات وأحاديث الوعيد الشديد ، ليحملهم بذلك على التزود لسفر طويل ، والاستعداد لحساب عسير . ويبين لهم أن الإيمان باليوم الآخر يهون أمر الحياة الدنيا ويحق شأنها ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ، ووسيلة إليها ، لا يجب منها إلا ما كان مقررا إلى الله وسبيلا إلى سعادة الآخرة ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءه ، بل سياتر عنده أن يبقى فيها عاملا للصالحات

وأن يفارقها فراراً من شرها وتمجلاً لتعظيم مقيم عند الله تعالى . (وثالثها) الإيمان بالملائكة ، أى التصديق بوجودهم وبأنهم كما وصفهم الله تعالى « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والملائكة خلق زوحيان عاقل عالم قائم بنفسه ، وهم من عالم الغيب فلا نبحث عن حقيقتهم ، سخرهم الله تعالى لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة — وهنا يذكر أن الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى ، لأن ملك الوحى روح عاقل عالم كما عرفت ، يقيض العلم بإذن الله على روح النبى بما شرعه الله تعالى لعباده ولذا قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتب والأنبياء ، فهم الذين ينزلون بالشرائع على المرسلين : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » — فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحى والنبوة وإنكار الأرواح . وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه حظوظ الدنيا وشهواتها ، وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل الآخرة . (ورابعها) الإيمان بالقرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ومعناه التصديق بأنها كلام الله تعالى المنزل على بعض رسله وأن ما تضمنته حق لا ريب فيه . سواء نزل مكتوباً كالتوراة أولاً كالقرآن — وهنا يبين أن الإيمان بالقرآن الحكيم يستلزم العمل به والاهتداء بهديه ، فإن المؤمن الموقن بأن هذا الشئ ضار قبيح لا تتوجه نفسه إلى إتيانه . والمؤمن الموقن بأن هذا الشئ نافع حسن لا بد أن تتوجه إرادته إليه عند عدم المانع — فما بال مدعى الإيمان بالكتاب قد تهاونوا به وأعرضوا عن امتثال أوامره ونواهيه . (وخامسها) الإيمان بالنبیین جميعاً من غير تفرقة بين أحد منهم — وهنا يبين ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز ، وبذكر حكمة إرسالهم والحاجة إلى الرسالة وشيثان خصائصهم وأخلاقهم وسيرتهم ، ليعلم الناس بهم ويهتدوا بهديهم ، ويتخلقوا بأخلاقهم . وأن ما جاء فى القرآن من عصيان آدم عليه السلام ومن معاتبة جماعة منهم على أمور فعلوها فإنما هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما يشاء وأن يعاتبه على خلاف الأولى

معاقبة غيره على المعصية . أو يقول إن عصيان آدم بالأكل من الشجرة مما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذه عليه ، وغاية باعلاء من حكمته أنه كان سبباً في عمارة الأرض ببني آدم . ويبين أن الإيمان بهذه الأمور الخمسة قد جمع كل ما يلزم التصديق به ذلك أن المكلف مبدأ ووسطاً ونهاية . ومعرفة المبدأ والنهاية هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر . وأما معرفة المصالح التي في الوسيط فلا تتم إلا بالرسالة ، وهي لا تتم إلا بثلاثة . الملائكة للوحي ، ونفس ذلك الوحي وهو الكتاب ، والفأب عن الله تعالى في إبلاغه للخلق وهو الرسول .

« الثاني » من الأمور المعتبرة في تحقق مسمى البر إعطاء المال لمستحقه قال الله تعالى « وآتى المال على حبه » أى مع حب المال والشح به — وهنا يذكر أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت . ففي البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا » كناية عن الموصى له والموصى به فيهما « وقد كان لفلان » أى وقد صار ما أوصى به للوارث فيبطله إن شاء إذا زاد على الثلث أو أوصى به لوارث آخر — والمعنى تصدق في حال صحتك واختصاص المال بك وشح نفسك به بأن تقول لا تتلف مالك لئلا نصير فقيراً لا فى سياق موتك لأن المال حينئذ خرج منك وتعلق بغيرك — وعن أبى الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى تصدق عند الموت مثل الذى يهدى بعد ما شبع » — ومعقول أن حال الصحة مظنة الحاجة إلى المال ، وعند الموت يكون الاستغناء ، وبذل الشيء عند الاحتياج أدل على الطاعة من بذه عند الاستغناء عنه — وأن الإعطاء عند الصحة أدل على تيقنه بالوعد والوعيد من إعطائه حال المرض والموت . وأن الهبة عند الموت تشبه الهبة عند الخوف من القوت . ثم يذكر أن ذلك حث على بذل المال فى نوافل الصدقات وأنواع البر إلى هذه المصارف الستة الآتية « ذوى القربى » وهم الذين يقربون منه بولادة الأبوين

أو الجدين — والقريب إذا كان أحوج فهو بذلك أولى لأنه صدقة وصلة فإن
 الإنسان إذا احتاج وفي أقاربه غنى فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم والإنسان
 بفطرته يألم لفاقة قريبه أشد من ألمه لفاقة الأجنبي ، فإنه يقوى بقوته ويضعف
 بضعفه — فمن قطع الرحم ورضى أن ينعم وأقاربه بأسوء كان بريئاً من الفطرة
 والدين الصحيح « واليتامى » الفقراء الذين فقدوا من يعولهم وانقطعت حيلهم
 وليس لهم بعد الله إلا عطف الأغنياء — وهنا يبحث على العناية بشأن اليتامى لئلا
 تسوء حالهم . وتفسد أخلاقهم فيكونون شراً على أنفسهم وعلى الأمة « والمساكين »
 من ذوى الحاجة مع العفة والكف عن المسألة ، فإنهم لما عجزوا عن كسب
 ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن السؤال ، طلبت مساعدتهم
 ومواساتهم من ذوى اليسار « وابن السبيل » المسافر فقد تشدد به الحاجة
 للوصول إلى أهله . وفي الأمر بمواساته وإعانتة في سفره ترغيب من الشارع
 الحكيم في الضرب في الأرض والسياسة « والسائلين » ضرب من المساكين
 ألبائهم الحاجة إلى استئداء الأكل فكانوا لذلك موضع عطف ورحمة ،
 والسؤال محرم شرعاً على القادر على الكسب إلا لضرورة شديدة يجب على
 السائل أن لا يتمداها — وفي هذه المصارف السالفة يجتهد في تحريك العواطف
 وهز القلوب نحو البر بهم بما يحضره من وسائل الترغيب والترهيب « وفي الرقاب »
 أى وضعه في فكها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب وإعتاقها .
 وفي طلب بذل المال في هذا النوع دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب واعتباره أن
 الإنسان خلق ليكون حراً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون
 الأسير رقيقاً — وهنا يبين سر مشروعية الرق في الإسلام ، ومعاملته للرقيق بالرأفة
 والرحمة ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب في إطلاقه من قيد الرق ، حتى يظهر
 الأمر للناس وتقطع أسنة الطاعنين على الدين الحنيف من أجل الرق في الإسلام
 — وجملة الأمر أن الإسلام يعتبر الإنسان حراً بطبعه ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج
 الإنسان عن طبع الإنسان فيقف في سبيل الدين الحق والدعوة إليه وفي طريق نشر

الفضيلة بين الناس ، فعند ذلك يصح أن تهذر آدميته ويعامل معاملة البهيمة ، غير أنه مع ذلك قد شرع الإسلام للتحرير طرقاً كثيرة في الكفارات ، وفي أموال الزكاة المفروضة ، وفي الصدقات غير المحدودة . كما سيأتى ذلك مفصلاً في محاضرة سر مشروعية الرق في الإسلام آخر الكتاب إن شاء الله تعالى . وارجع في ذلك إلى كتب حكمة التشريع في الكلام على الجهاد .

« الأمر الثالث » مما لا بد منه في تحقق البر « إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » وهنا يبين سر مشروعية الصلاة وأنها إذا أدت على الوجه المطلوب كان لها أحسن أثر في جلاء القلوب وتطهير النفوس من أدران الرذائل ، وفي ذلك سعادة المجتمع الإنساني ، وما عم الشقاء وزاد البلاء إلا من إضاعته بلا خشية — ويبين أيضاً حكمة الزكاة وأنها من أحكم الروابط بين الفقراء والأغنياء . وما انقطعت الصلة وانعدمت الألفة بين المسلمين إلا من منعها . كذا يذكر أنها نظام حكيم عادل معقول لا ما يسعى إليه الأشرار الأغرار دعاة الاشتراكية من قلب النظام الإلهي وهيئات هيئات أن يبلغوه حتى يأتى وعد الله .

« الرابع » مما لا بد منه في تحقيق البر الوفاء بالعهد . والموفون بهدم الدين إذا وعدوا أنجزوا . وإذا نذروا أو حلفوا وفوا . وإذا قالوا صدقوا . وإذا ائتمنوا أدوا — ثم يشرح لهم أن الوفاء يتناول كل ما يلتزمه العبد اختياراً فيما بينه وبين مولاه من النذور والأيمان . وما يأخذه على نفسه كذلك بينه وبين سائر العباد في عقود المعاوضات من الشرائط . وكذا ما ينبغى الوفاء به من الوعود العامة بين الناس وأنواع المحالفات . ويمتدح الوفاء وأهله ويحث على التخلق به . ويذم الإخلاف ويحذّر منه .

« والخامس » مما لا بد منه في تحقق البر الثبات لدى الشدائد ، والصبر عند المكروه . فإن الله تعالى مدح الصابرين « في البأساء » الفقر والشدّة « والضراء » المرض والزمانة « وحين البأس » وقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب — وهنا يذكر فضيلة الصبر ومعناه ويسهل على الناس التخلق به في جميع الأحوال بأن الله

تعالى أضاف إليه جميع الخيرات وبلوغ أعلى الدرجات . وأن الذين تحملوا بهذه النعوت الجميلة هم الذين صدقوا في الدين واتباع الحق وتحملوا وجوه البر لم تغيرهم الأحوال ولم ترزلمهم الأحوال « وأولئك هم المتقون » عن الكفر وسائر الرذائل .

ثم يحتم القول ببيان الآية إجمالاً ليكون ذلك أثراً باقياً في نفوس السامعين كأن يقول : إن الله عز وجل بعث الناس على استيفاء أنواع الطاعات ووسائل السعادة ، ونههم إلى أنه ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه . إن الخير كثير الوجوه فلا تقفوا موقف الذين قصرت أنظارهم . فالبر كل البر أن تجمل النفس بالمعارف وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ، وأن يسخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأن يكون المرء حسن العشرة فيبذل المال لدوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وأن يكون كريم الأخلاق فلا يخاف إذا وعد . ولا يمزج عند الملأ . كالفقير وشدة . والمرض وحدته ، والقتال وصدمة . فالآية الكريمة كما ترى جمعت الكمالات البشرية كلها تصريحاً وتلويحاً في خصال ثلاث . صحة الاعتقاد : وذلك بما بين شعب الإيمان من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين . وحسن المعاشرة بإيتاء المال لمن ذكر ، وتهذيب النفس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء والصبر . وبذلك يتم الجمال والكمال . ويلزم لاستيفاء البيانات المشار إليها استحضار معاني النظم الكريم والرجوع إلى كتاب رياض الصالحين . والأحياء . وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين فمن ابتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم

على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس فيها خالدون » .
 إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل
 جوارحه فيما يرضيه . والسعيد الموفق إذا جاءت الموعدة انفتح لها قلبه ونشطت للعمل
 عليها أعضاؤه ، أولئك هم أهل الهداية . وأولوا الأحلام الراجحة وأولئك هم البشري
 في الحياة الدنيا وفي الآخرة . « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
 أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . ثم يبين أن الله عز وجل حكم
 بالفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع .

(الصفة الأولى) الإيمان بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد صلوات الله
 وسلامه عليه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها حيث قال تعالى : « قد
 أفلح المؤمنون » ، فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن جعلوا بواطنهم بأنوار
 المعارف ، وكلوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية ، وتحلوا بمكارم الأخلاق قد فازوا
 بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقفاً من حالهم فإن إيمانهم الصادق
 وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب هذا الوعد الكريم
 وفي هذا المقام يشبه الإيمان بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان
 الصحيح الذي يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن
 يقول أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيء القول فقد روى البخاري في تاريخه أن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم قال . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقّر في القلب وصدقه
 العمل ، وإن قومًا غرهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن
 نحسن الظن بالله تعالى . وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

(الصفة الثانية) الخشوع في الصلاة بالخضوع والتذلل لملك الملوك ورب
 الأرباب ، وعدم التفات القلب فيها إلى شيء سوى التعظيم له تعالى ، وبسكون
 الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود ، وعدم الالتفات يميناً ويساراً ، وهذه
 الثلاثة من لوازم خشوع القلب وتفرغه له تعالى . فقد رأى بعض السلف رجلاً
 يعبد بيده في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . روى ذلك

عن حذيفة وسعيد بن المسيب رضى الله عنهما . قال تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » . فهؤلاء الخائفون من هيبه الله عز وجل المتذللون له الخاضعون لجلاله قد أزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين — وفي هذا المقام يبالي في الخض على الخشوع في الصلاة مبيناً أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد فكلاً لا عبرة للجسد بلا روح كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلي إنما يناجي ربه والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود . أما الذكر فإنه مناجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبراً عما في القلب من التضرعات . فأى سؤال في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلاً عنه ، ولا ريب أن المقصود من القراءة والذكر الثناء والدعاء . والمحاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب غافلاً عن جلالة وكبريائه ولسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعدته عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم له تعالى ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم . فلم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس في ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلاً بين الكفر والإيمان . من أجل ذلك قال أرباب القلوب بوجوب الخشوع فيها . كذلك يحذّر الناس من العبث والالتفات في الصلاة بأن المصلي مشمول بإحسان الله تعالى ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه فمن أبى ذر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإن التفت أعرض عنه » . رواه أبو داود والترمذى . وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . رواه البخارى — والاختلاس الاختطاف . وعن معاذ بن جبل « من عرف من على يمينه وشماله متعبداً وهو في الصلاة فلا صلاة له » . وإجمالاً يبين أن الأليق والأحوط الخشوع في الصلاة .

(الصفة الثالثة) ترك العبد ما لا يعنيه من كل مالا يعود عليه منه فائدة في الدين والدنيا قولاً أو عملاً . كالهزل واللعب وضياح الأوقات فيما لا ينفع والاسترسال

في الشهوات إلى غير ذلك من كل ما نهى الله عنه . بل ينبغي للمرء أن يشتغل بما ينفعه من عمل صالح لمعاده أو درهم حلال لمعاشه . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » تاركون له في عامة أوقاتهم وخاصة حال اشتغالهم بالصلاة ، فهؤلاء قد مدحهم الله تعالى بالإعراض عما لا يفيد والتباعد عنه رأساً مباشرة وميلاً وشهوداً . فهم لا يفعلونه ولا يرضون به ولا يخالطون من يأنيه . قال تعالى في امتداح الكملة من عباده : « وإذا مرو باللغو مروا كراماً » أى معرضين عنه — وفي هذا المقام يحذر السامعين من الكسل في الأعمال الدينية وإهمال الصنائع الدنيوية وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار الصالحين في ذلك .

(الصفة الرابعة) أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب في أموالهم إلى مستحقه في ذلك تملك القلوب ويدوم الوثام والوفاق ويتم الصفاء والهناء بين الناس ، ويعظم الخير وتم الرحمة والبركة في الدارين . قال تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » مؤدون . وصفهم تعالى بذلك بعد ما وصفهم بالخشوع في الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها والمالية إلى أربابها والتجنب عن المحرمات وكل ما توجب المروءة اجتنابه ، فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبدلوا ، وفي هذا المقام يرغب الأغنياء في دفع الزكاة ، ويرهبهم من منعها بذكر نصوص الوعد والوعيد في ذلك مع بيان سر مشروعيتهما فإنه يدع في نفوس السامعين أحسن أثر .

(الصفة الخامسة) نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا يحل . وقصره على ما أحل الله له من الحرائر أو الإماء بعقد النكاح ، وملك الميمن . ففي ذلك الغنم والسلامة . قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم » الآية . فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم وهي داعية لهم إلى ما لا يخفى فصانوا فروجهم . وغضوا أبصارهم فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلال وبذلك بلغوا كمال العفة . أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن

يكون حيواناً ينزود ذكره على أنثاه من غير قيد ولا شرط ، فذلك الجاني على حرمة
الآداب المنتهك للحرمات ، قد أفرط في الاعتداء على الأعراض ، وجاوز الحد
في تمزيق ثوب العفاف ، وعرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء في العاجل والآجل .

وفي هذا المقام ينفر الناس من الزنا واللواط والاستمناء باليد وإتيان البهائم
ويحذروهم من إرسال النظر إلى النساء والفلان بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض
والنفاس مبيناً ما في ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد
الحياء والزهرى والنهاب المثاني والسل الرئوى والسيلان وضياح الأموال وفساد الأخلاق
(الصفة السادسة) رعاية الأمانات والعهود وحفظها فتلك فضيلة عظيمة ومنقبة

جليلة ، وآية على شرف النفس وعلو الهمة . قال تعالى : « والذين هم لأماناتهم
وعهدهم » لما يؤتمنون عليه ويماهدون من جهة الحق أو الخلق « راعون » فأتمون
عليها حافظون لما — وفي هذا المقام يبين أن الأمانة تتناول كل ما يكون تركه خيانة
لله أو للعبيد فمن ذلك سائر العبادات فإن المرء مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل
أو قول كالودائع والعقود وما يتصل بهما — ومنها الأمرار بالمأمور بكتبتها : فيلزمه
الحفاظة عليها وعدم إفشائها ، ويبين أن العهد يتناول العقود والإيمان والنذور ،
وأن مراعاة هذه الأمور والقيام بها لا بد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة ويرغب
الناس في الأمانة والوفاء ويحذروهم من الخيانة والغش في الصنائع والمعاملات ، ومن
نكث العهود بما يحضره من الآيات والأحاديث والآثار مبيناً ما في الخيانة والاختلاف
من الأضرار الخلقية والاجتماعية ويضرب لذلك الأمثال ويسوق الحكم .

(الصفة السابعة) الحفاظة على الصلوات بالمواظبة عليها وتأديتها في أوقاتها على
الوجه الأكمل وتلك فضيلة مستقلة ، كما أن الخشوع فضيلة أخرى ، قال تعالى :
« والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وفي هذا المقام يحض الناس على الحفاظة على
الصلاة في الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها ، فبذلك تهذب
النفس ويصفو القلب ويمتلىء حياء وخشية — وبذلك ينال الخير وتسعد الأمة وتقلع
النفوس عن غيها . ثم يذكر كل ماله بالمقام صلة . وهنا يرغب السامعين بأن الذين

توفرت فيهم تلك الصفات السبع وامتازوا بها عن غيرهم من عامة المؤمنين موعودون من الله تعالى من أجل هذه النقوت الجليلة بدار النعيم ، وأنهم المستحقون لها بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم قال تعالى : « أولئك هم الوارثون » الجديرون بأن يسموا وراثاً لا من ورث كراثم الأموال وרגائب الذخائر : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون — وإجمالاً يذكر أن هذه الآية جمعت كثيراً من علامات حسن الخلق وشمال الأبرار الكاملين ، وهذا كله لا يتيسر للمرشد على الوجه الأكمل إلا بعد استحضاره معاني النظم الكريم وإعداد كل ماله بهذه البيانات صلة حتى تنتشر به مخيلته وتعيه ذاكرته ، ونعم المساعد على هذا رياض الصالحين وبالله التوفيق .

الموعظة الثالثة النهى عن الانهماك في طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين وإن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون » . إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها غناء ، وعيشتها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب . وحرامها عقاب ، إن أخذه من حله تحوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أذلته ، ومن أبصر إليها أعمته والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام . بل فهموا أنها نعم في طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هي طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير وقتعوا فيها بالقليل ، فاستراحوا قلوبهم وأبدانهم .

وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم^(١) فى الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم خافوا فأمنوا وأحسنوا ففازوا .

وأخرى جهلاء : عى البصائر لم ينظروا فى أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزيتها ففتنتهم فإليها أخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهمتهم عن الله تعالى وشغلتهن عن ذكره وطاعته « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » نعم إلههم نسوا الله : أهملوا حقوقه ، وما قدره حق قدره ولم يراعوا لانهما كهم فى الدنيا مواجب أوامره ونواهيه ، حق رعايتها « فأنساهم أنفسهم » ، جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها وسيرون يوم القيامة من الأحوال ما ينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين . « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » — وفى مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله « اجتهدك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأنته

(١) من الأزواج والأولاد : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

الدنيا وهى راعمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفترق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمسى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع .

ثم يكشف للسامعين عن حقيقة الدنيا ويبين لهم قصر مدتها . وانقضاء لذتها ، بما يضر به من الأمثال الحسية . كما تقدم فى الفصل الثالث عشر . ويذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصفها والتحذير من الافتتان بها . كقوله تعالى « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » شرح لنا العليم الحكيم فى هذه الآية حال الدنيا التى افتتن بها قصار النظر وبين أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلاً عن الافتتان بها والانهماك فى طلبها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب . ولهو تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينة لا تفيد المفتون بها شرفاً ذاتياً كالملابس الجميلة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة . وتفاخر بالأنساب والعظام البالية . ومباهات بكثرة الأموال والأولاد وعظم الجاه — ثم أشار جل شأنه إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال قريبة الاضمحلال كمثل مطر راق الزراع نباته الناشئ به ثم يهيج يتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له فسرعان ما تراه مصفراً متغيراً ذابلاً بعد ما رأيت أخضر ناضراً . ثم يصير من اليبس هشياً متكسراً . فى تشبيه جميع ما فى الدنيا من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يقنى ويتلاشى فى أقل من سنة إشارة إلى سرعة زوالها وقرب تلاشيها — وبعد ما بين سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها تزهيداً فيها وتنقيداً من الانهماك فى طلبها أشار إلى فحاشة شأن الآخرة وفظاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيباً من عذابها الأليم . وترغيباً فى تحصيل نعيمها المقيم ، حيث قال « وفى الآخرة عذاب شديد لمن عصاه لأنه نتيجة انهماكهم فيما ذكر مفصلاً من أحوال الحياة الدنيا (ومغفرة)

عظيمة (ورضوان) عظيم لمن أطاعه . وما زينة الحبيسة المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الفرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها مزرعة للآخرة ومطية لتعيمها .

وفي البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك . ومن حياتك لموتك . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه سر على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ قالوا : من هوأنها ألغوها . قال : والذي نفسى بيده للذيأها أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تبدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » أخرجه الترمذى وهذا أبلغ شيء في تحقير الدنيا التى استعبدت الناس وأذلتهن وشغلتهن عن خالقهن ومالك أمرهم .

لهذا حذر الله تعالى عباده المؤمنين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورهم والاعتناء بمصالحهم والاسترسال فى التمتع بملاذها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر أنواع العبادات المذكرة لجلال المعبود الموصلة إلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة .

والمراد نهيهم عن الإهمالك فى جلبها والتلهى بزخارفها عن السعى فى كسب رضا تعالى ونيل إحسانه وإنذار الغافلين عن الله تعالى المفتونين بحبها — وحجبها رأس كل خطيئة — بقوله « ومن يفعل ذلك » وألهاه ماله وولده عن ذكر الله وطاعته وأهل أمر السعادة « فأوائلكم الخاسرون » السكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفانى . وأمرهم أن يبادروا قبل فوات الفرصة فى تخليص أنفسهم من خطر المسئولية ويبرئوا ذمتهم من الحقوق الواجبة كإعانة المجاهدين والفقراء والمساكين بقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » وهو فى حكمه عادل وبالجميع رءوف رحيم .

فما كلف الأغنياء بما يعسر عليهم ولكن بقليل من كثير صار لديهم من واسع الكرم تفضلاً منه وإحساناً لإدخار الآخرة وتزوداً إليها ، يحمله لهم الفقراء إلى الدار الآخرة من قبل أن ينزل الموت بساحته ويشاهد دلائله ويعاين أماراته لا يسمع له

عذر ولا تنفعه شفاعة (فيقول) عند تيقنه بحلوله يا « رب لو لا آخرتى » أمهلنى « إلى أجل قريب » أمد قصير متمنيا أن يزداد فى أجله حتى يتصدق ويرزى وهو تعالى لا يمهل من انقضت مدته وحضر أجله « ولن يؤخر الله نفساً » عن الموت « إذا جاء أجلها » انتهى زمنها المقدر لها عنده سبحانه « والله خير بما تعملون » فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فسارعوا إلى الخيرات واستعدوا لما هو آت .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) أى السورة المسماة بما ذكر لكونه صدرها » قال النبي بعد إتمامها « يقول بن آدم » أتى بالمضارع إشارة إلى أن هذا القول ديدنه ودأبه بحسب طبعه « مالى مالى » أى مالى هو الذى أعتنى به وأهتم ، فالتكرار لفظاً للتعظيم والاهتمام « وهل لك » أى أنقول ذلك « يا ابن آدم » وتهتم بأمره وهل لك « من دنياك التى » اهتممت بأمرها واحتفلت بشأنها ، والاستفهام للإنكار أى مالك منها على الحقيقة « إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فألبيت أو تصدقت » على محتاج قاصداً وجه الله تعالى « فأمضيت » أنفذته وفى رواية فأبقيت — والمراد أمضيت التصديق ونجزته فأبقيت ثوابه مدخراً لك عند الله تعالى — رواه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح . وملخصه مالك من دنياك إلا ما انتفعت به فى دنياك بأن أكلت أو لبست ، أو أخراك بأن تصدقت ، وما عدا ذلك من باقى المال ، فأنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره — وفيه تحريض على الافتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وإدخار ما عداه عند مولاه — وما أحسن قول بعضهم اجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله ، واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ويختتم المقال بذكر معنى النظم الكريم إجمالاً كأن يقول : إن الله تعالى ينبه عبده إلى المبادرة بطاعته وشكره من قبل أن يعاين ما يئأس معه من الإهمال ويتعذر عليه تدارك الأمر ويفوت وقت القبول فيتحسر على ما فرط . ويعرض على أنامله لافقد ما كان متمكناً منه — ويذكر لهم هنا ما يناسب المقام كأن يقول قال سعيد

ابن جبير : الدنيا متاع الفرور إن أهلك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعيتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

وقال إيمان لابنه : « يا بني إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها » وقال : « يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتسكن سفينةك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشراها بالتوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً ، وعيسى عليه السلام لم يضع لينة على لينة » . وكان يقول : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل لابن آدم رحمه الله : بم وجدت الزهد في الدنيا ؟ قال : بثلاثة أشياء : رأيت القبر موحشاً وليس معي مؤنس ، ورأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد ، ورأيت الجبار قاضياً وليس معي حجة ولا من يدافع عني .

فعلى الرجل الرشيد أن يتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، ويتدارك أمره قبل أن ينزل عليه سلطان الموت ، فلا تقبل منه توبة ولا ينفع له عمل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الرابعة هداية القرآن إلى السعادة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال الله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

إن الله تعالى قد امتنَّ على عباده برسوله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وكتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والذي هو أكبر نعمة لله عز وجل على المؤمنين « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » اتضح به للناس سنوك المنهج القويم والصرط المسنقيم بما أرشد إليه من صحيح العقائد . وما فصل فيه من الأحكام وبين من أخلاق وآداب واتسع للعقول طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . فهو الضياء والنور .

والشفاء لما في الصدور . من أعرض عنه هلك ، ومن طلب العلم في غيره ضل . هو
 حب الله المقين ، ونوره المبين ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غرائب ، من آمن به
 سبق ، ومن قال به صدق ، ومن عمل به بجا ، ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط
 مستقيم ، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه ، هو ينبوع الملة ، وأساس الإسلام الذي
 ارتضاه الله عز وجل ديناً لعباده ، وقانون حكيم يرشد الناس إلى سعادتهم في الحياة
 الدنيا وفي الآخرة ، ذلك هو المقصد الأسمى منه ، وما وراء هذا من أحكام وآداب
 ونحوها وسيلة للوصول إليه ، وإن فيه من تهذيب النفوس ودعوة الأرواح إلى ما فيه
 سعادتها وإخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان . وإرشادها إلى نظام حياتها
 الاجتماعية مالا يستغنى عنه أحد من الناس ، وإن له من السلطان على نفوس الذين
 يفهمونه والتأثير في قلوب الذين يتدبرون آياته ما ليس لكلام سواه .

وهنا يبين للسامعين أنه ينبغي لكل إنسان لا فرق بين عالم وجاهل أن يتدبر
 آيات القرآن الحكيم وينظر في معانيها بقدر طاقته ، ويكفي العاى من فهم الآيات
 ما يعطيه ظاهرها كما تقدم لك . ولا شك أن فهم هذا القدر مما يسهل على المؤمن
 من أى طبقة كان . ومن الممكن أن يستفيد كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب
 نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر ، فإن الله عز وجل أنزله لهداية الخلق ، وهو يعلم
 كل ما هم عليه من الضعف قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته
 وليتذكر أولو الألباب » . وقال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . كان
 البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن خر له ساجداً لما فيه من حلوة ، ولما عليه من
 طلاوة . وهل خضعت العرب للحق إلا بحاذية القرآن — قال الأصمعي سمعت بنتا
 أعرابية في السادسة تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلتم إنساناً بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أنصحك . فقالت ويحك أبعد هذا فصاحة مع قول

الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافى

ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاءلوه من المرسلين » لجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين — وسمع بعض الأعراب قارئاً يقول : « والله غفور رحيم » بدل « والله عزيز حكيم » في آية : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فأنكره وقال : ليس هذا من كلام الله إذ الحكم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه . وروى ابن ماجه عن علي رضي الله عنه أنه قال : « أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأنا معه وأبو بكر ، فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن نعلبة . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه . فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعوننا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية . فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . ثم يبين لهم أن الله عز وجل أنزل القرآن لمقاصد خمس .

الأول : التوحيد وهو أهم ما جاء لأجله الدين الخفيف فإن الناس يومئذ كانوا في ظلمات الشرك والوثنية ، ولقد جاء في القرآن الحكيم من آيات التوحيد ومقارعة المشركين ما يكفي لاقتلاع جذور الوثنية والشرك ، وهدم منار الإلحاد في أي أمة وفي أي زمان . . . ويتلو على السامعين شيئاً من تلك الآيات التي قضت على الوثنية التي كانت فاشية في تلك الأمم ، وفتحت أمام العقول أبواب النظر في الكائنات لتَهتدى إلى أن لها صانعاً حكيماً قادراً علياً . كقوله تعالى « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يشون بها م لهم أيد يبطشون بها . أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

وكقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أغناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الثانى : وعد الطائعين الحافظين لحدود الله بجميل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العقوبة ترغيباً وترهيباً ، وأن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتتهما . والوعيد كذلك يشمل نعمهما وشقاءهما ، فقد وعد جل شأنه أهل الأستقامة بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأوعد المخالفين بالخزى والذل فى الدنيا ؛ كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة — وبالأول ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة ، ، والثانى أوقف العصاة عند حد الأدب ويتلو عليهم شيئاً من آيات الوعد والوعيد التى ذكرناها فى الترغيب والترهيب .

الثالث : العبادة التى تجلو القلوب وتهذب النفوس وتنمى فيها شجرة الإيمان . وتقوى فيها روح التوحيد . ويتلو شيئاً من آيات العبادة والإخلاص فيها ، كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا — ولله على الناس حج البيت — وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

الرابع : مكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين : وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنسانى ويوصل الناس إلى خير الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وعماليم . ويتلو عليهم ما فى ذلك من الآيات .

الخامس : العظة والاعتبار . والنظر فى الشؤون العامة التى كانت عليها الأمم

الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله في خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالى وخضع لأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم . ويتلو عليهم شيئاً من أخبار الأولين .

هذه هي المقاصد التي اشتمل عليها القرآن الحكيم . وفيها حياة الناس وسعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة . وإن الفاتحة قد اشتملت عليها إجمالاً — فأما التوحيد ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » فإنه تعالى استحق الثناء لأنه على الحقيقة مصدر كل نعمة وإحسان يستوجب الحمد . ومنه نعمة الإيجاد والتربية — وأما الوعد والوعيد ففي قوله تعالى : « مالك يوم الدين » فإن معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء — وأما العبادة مع الإخلاص فيها ففي قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وأما مكارم الأخلاق ونظام الاجتماع . ففي قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فإنه السبيل القويم الذي اختاره الله عز وجل لعباده . وجعل السعادة في الاستقامة عليه . والشقاء في الانحراف عنه ، ولا ريب أن الاستقامة ثمرة العبادة وسرها . وأنه ما من أمة انحرفت عن هذا الصراط سوى . ولم تراع سنة الله في خلقه إلا وحلّ بها من العدل الإلهي ما تستحق من الجزاء كالنقص والذل وفقد السلطة وسقوط الهيبة — وأما العظة والاعتبار بالأمم الماضية ففي قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فإنه يفيد أن هناك أقواماً تقدموا أنزل الله عليهم شرائع لهدايتهم « ففريق » أطاع الله ورسله ففازوا برضاه وهم الكاملون المخلصون من أهل الحق الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به « وفريق » جحد وعاند الدعاة إليه تعالى فاستحقوا المقت الإلهي والحزى في الحياة الدنيا « وفريق » أخلوا بالاعتقادات الصحيحة وضلوا عن الصراط سوى فباءوا بالفشل والخيبة — والقرآن الحكيم قد فصل لنا من أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يكفي للعبارة والانعاظ ، فشرح لنا حال الذين حافظوا على الحق وصبروا على ما أصابهم في سبيله ، وحال الذين قاوموا الحق عناداً وحال الذين ضلوا فيه ضلالاً بعيداً —

فاتضح بذلك أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على هذه المقاصد التي فصلها القرآن تفصيلاً لا خفاء معه ولذا سميت الفاتحة بأمر الكتاب .

ويجتم القول ببيان فضل القرآن مستشهداً بما ورد في ذلك من السنة ويحثهم على الاعتناء به تعلماً وحفظاً وترتيباً^(١) وعلى احترام مجلسه بالسكوت وعدم اللغط وشرب الدخان ويضرب لذلك الأمثال — كأن يقول نزل القرآن كغيره من الكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون ويهتدى بهديه المهتدون قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » نزل ليكون ترغيباً للطائع وترهيباً للعاصي . نزل لنهذب به نفوسنا ونصالح به شئوننا . فواجبنا أن نقبل عليه لنفعل ونسعد وإليكم شهادة ألد أعداء القرآن للقرآن . روى أن الوليد بن المغيرة مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة ، فلما وصل إلى قوله تعالى « فان أعرضوا قل أندرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، لعله أنه مقبول الدعاء صادق الالهجة ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه . فقالت قریش : صبا والله الوليد والله لتصبأن قریش كلها ، فقال ابن أخيه أبو جهل « أنا أ كفيكوه فقعده عنده حزينا وكله بما أحياه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جر بتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا سحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يأتريه عن أهل بابل ؟ فارتج النادی فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه .

ولا يخفى أن استعظامه للقرآن أولاً واعترافه بأنه ليس من كلام الإنس والجن يدل على أنه كان في ادعائه السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن وأنه كان يقول

(١) يرجع إلى « الإحياء » و « رياض الصالحين » في فضل القرآن وآداب تلاوته .

خلاف ما يعتقد ترضية لقومه وحرصاً على حياته — من كلامه إن كان محمد صادقاً
فما خلقت الجنة إلا لي . وكان من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب بالوحيد
وريحانة قريش — وأولاده عشرة كلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد وعماره
وهشام والعاصي وقيس وعبد شمس ، أسلم منهم أربعة : الوليد وله قصة — وخالد
وهشام وعماره .

نماذج في مواعظ السنة النبوية

الموعظة الأولى في الحث على الكسب من طريقه الحلال

في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به
عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه » . اعلم أن رب الأرباب وخالق
الأسباب ، جعل الآخرة دار العقاب والثواب ، والدنيا دار التشر والاكْتساب
وليس التشر في الدنيا مقصوداً على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة إلى المعاد
ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله
الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » . والناس
ثلاثة رجل : غله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين . ورجل شغله معاده
عن معاشه فهو من الغالين المسكروهن . والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي
شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المحبوبين . ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم
قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فأثروا ما يبقى
على ما يفنى » رواه أحمد وغيره أى لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة مولاه
فيخسر الآخرة ، والالتقاط للآخرة ينمعه عن الكسب فيصير حملاً ثقيلاً على كاهل
الامة . وفي الحكم للمأثورة « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ،
ولم يكن كلا على الناس » فأفضل الأمرين التزام حد الوسط .

وقد جاء الشرع الشريف بفضل الكسب والحث عليه من طريقه الحلال قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقال تعالى : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » أى وقتاً يلزم السعى فيه لتحصيل المعاش . وقال عز وجل : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ولما كسب جوانبها وطرقها وقال عز وجل : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » أى يسافرون فيها لطلب ما قدر لهم من الأرزاق والأرباح في تجارتهم وأسفارهم — وقال بعض السلف : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » متى صحت النية وكان صابراً محسناً فإن الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو يعول ذرية ضعافاً يصونهم عن الضياع . ويكفهم عن التطلع إلى ما في أيدي الناس فهو لاشك في سبيل الله تعالى . روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ماتنع ؟ قال : أتعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ قال : في مزرعته قال : أخوك أعبد منك — وقال لقمان لابنه : يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال « رقة في دينه » وهو كناية عن قلته فإن الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك « وضعف في عقله » وذلك لكثرة ما يمتريه من الهموم والأفكار . وهى لاشك تظم العقل وتفسد الرأي « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به . واحتقارهم له . وازدراؤهم لحاله . وقال حكيم : إن في صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض — وقال أحيحة بن الخلاج : أصالحوا أموالكم فإنكم لاتزالون ذوى مروءات ما استغنيتم عن عشيرتكم — وقال ابن عباس رضى الله عنهما : اطلبوا الفنى بإصلاح ما في أيديكم ، فإن الفقر مجمع العيوب . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى . فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : ما من موضع يأتي الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوّق فيه لأهلى أبيع وأشتري . وقال

أبو سليمان الفاراني سيد الزهاد : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك
يقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزها ثم تعبد .

وعلى الجملة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يتجرون
في البر والبحر . ويعملون في نخيلهم ومزارعهم . وكفى بهم قدوة . وأنه لا بد للعبد
من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش . ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه
وغيره ويعيش عزيزاً كريماً — ثم يشرح للسامعين مزايا التعب في كسب الحلال من
الاستغناء عن الناس وعن إظهار الحاجة إليهم . وإيصال النفع إلى الغير . والقيام
بوظائف المدنية وقضاء المصالح التي عليها نظام العمران والسلامة من فساد البطالة
واللهو والعبث وكسر النفس ليقبل طغيانها ويأمن من غوائلها . والتعفف عن ذل
السؤال فلا يريق به ماء وجهه . وفوق هذا كله نيل الثواب متى كان صادقاً في عمله
بعيداً عن الأذى . ويذكر لهم أنه يحرم على المؤمن أن يسأل وهو يستطيع العمل ،
روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه
أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة فقلّب فيهما البصر ورآهما
جلدين فقال لهما : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي » وكذا يحرم
الإعطاء لأنه تعاون على الإثم لا البر ، وما رواه الإمام مالك في الموطأ من أنه
صلى الله عليه وسلم قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » ففيه مقال ، وعلى
فرض صحته فهو محمول على تحقق عجزه وحاجته ، فالواجب التفرس في حال السائل كما
يرشد إليه حديث عبد الله بن عدى — ثم إن العاجز لا يسأل إلا بمقدار حاجته ،
روى أبو داود من حديث سهل بن الحنفلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جهر جهنم قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟
قال : ما يغنيه ويعشيه » — وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال
لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش
الرجل ؟ قال قد عشيت . فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال لست سائلاً

لكنك تاجر . ثم أخذ الخلالة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدارة وقال
لا تعد — ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضرب به ولا أخذ مخلاته .

ويبين لهم أن أحل أنواع الكسب وأفضلها ما كان من عمل يده إذا نصح
وعمل بإتقان وإحسان بعيداً عن الغش . وافيًا بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار
الأجر . فبذلك يحصل الخير والبركة ، وبضده يكون الشر والوبال . ففي صحيح
البخارى عن المقدم بن معديكرب الكندى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبي الله داود
عليه السلام كان يأكل من عمل يده في الدروع من الحديد ويبيعه لقومه » وخص
داود لأن اقتصاره في أكله على ما كان يعمل بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة
الله في الأرض ، وإما اختار الأكل من الطريق الأفضل . ولهذا أورد النبي صلى
الله عليه وسلم قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد
وأن في ذلك دليلاً على أن الاكتساب لا ينافي التوكل على الله متى كان الاعتماد
في حصول الرزق عليه تعالى لا على الأسباب .

ويبين لهم أن هذا كله في من طلب الكفاية لنفسه وعياله ، فأما من كان عنده
الكفاية ولكن يطلب الكسب لتحصيل الثروة والزيادة على الكفاية فإن كان
مقصوده استكثار المال وادخاره لا ليصرف في وجوه الخير ونافع الأعمال له ولأئمة
فذلك مذموم عند الله والناس أجمعين لأنه إقبال على الدنيا التي حبه رأس كل خطيئة
فإن كان مع ذلك ظالماً للناس خائناً غاشاً في المعاملات مقصراً في الواجبات فذلك
الذي خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكانت دنياه وبالا عليه ونعمة
لا نعمة — وإن كان يطلب الزيادة على الكفاية لإصلاح نفسه وعياله ، وصرفها
في أنواع البر والأعمال النافعة مع البعد عن مظالم العباد ، واجتناب الغش والخيانة ،
والقيام بما وجب عليه فذلك هو السعيد الموفق المحمود عند الله والناس .

ويبين لهم مضر البطالة ، وأن قعود الرجل فارغاً من غير شغل أو اشتغاله
بما لا يعنيه ؛ من سفه الرأي وسخافة العقل ، واستيلاء الغفلة وجهل بآداب الدين

القويم ، وأن العمل مهما كان حقيراً فهو أفضل من البطالة ، وسؤال أحد من ذوى المال إن أعطاه فقد حمله ثقل المنة مع ذل السؤال . وإن منعه فقد باء بذل الخيبة مع ذل السؤال — حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » ، وقال بعض الحكماء : « لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فالكريم محتال ، والدنيء عيال » حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملاً على كاهل المجتمع ثقيلاً مردولاً . يتكفف الناس فهذا أمر ممقوت محقر ، وخير منه أحقر أنواع السعى كالاخطاب من رهوس الجبال والفلوات فيبيمه ويمون نفسه وعياله منه كما أرشد إلى كل ذلك هذا الحديث الشريف سمع أحد الأدباء رجلاً فى الثلث الأخير من الليل يقول :

وأكرم نفسى أنى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدى
فأعجبه قوله فأتاه حتى وقف على رأسه فإذا به يقم الشارع (زبال) لبيع القمامة ويمون نفسه وعياله من ثمنها — فقال له أنت تقول أكرم نفسى ؟ فأى إكرام أنت فيه مع ما تصنع من جمع القمامة ؟ فقال له : إليك عنى لقد أكرمتها بهذه الحرفة عن ذل السؤال لمثلك . فقال : صدقت وقبله بين عينيه .

ويبين أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة والترفع عن صغير الأعمال النافعة طمعاً فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام ، فتضيع على المرء أوقاته ، ويزداد قعوده ، وتخور عزيمته ، وينتهى به الحال إلى الحق والرذيلة كان قس بن ساعدة الأيادى ينفذ على قيصر الروم ويؤمره فقال له القيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال معرفة المرء بنفسه . قال فما أفضل العلم ؟ قال وقوف الرجل عند علمه . قال فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه . قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق . وصفوة القول أن العمل على الحياة أس العمران وقوام حياة الفرد والجماعة ، وضمان الشرف ، وأمان من الذلة والمهانة ، وخير فى الدنيا والآخرة . لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على العمل ، والتحذير من البطالة والكسل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية علامات النفاق

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » متفق عليه . زاد في رواية لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم »

النفاق مخالفة الظاهر للباطن . والمنافق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن — وهو نوعان اعتقادى وعملى « فالأول » أن يظهر الإسلام وهو يخفى الكفر . وكان هذا حال المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخبث أنواع الكفر وأشدّها خطراً قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وقال تعالى « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » وفى القرآن الحكيم كثير من فظائع منافقي اليهود وفضائحهم — « والثانى » ترك المحافظة على أمور الدين سراً ومراعاتها علناً ، وهذا يسمى فى لسان الشرع نفاقاً ، كما جاء « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . وإما هو كفر دون كفر وفسوق دون فسوق . ونفاق دون نفاق . ومنه قول عمر الخديفة رضى الله عنهما « هل تعلم فى شيئاً من النفاق ؟ قال لا^(١) » وتفاوت مراتبه على قدر تفاوت آثاره فى الاجتماع . ومن البين أن أعمال الجوارح كلها مصدرها القلب . وأنها عنوان عليه ومعيار له صلاحاً وفساداً — لهذا جعل الشارع هذه الخصال الثلاث علامة على ما فى القلب من الخبث والفساد .

« الخصلة الأولى » الكذب فى القول . فإذا حدث غيره بشيء أخبر عنه بخلاف ما هو عليه قاصداً الكذب . ولا ريب أنه من قبائح الذنوب : وفواحش العيوب . معاقب عليه بالسقوط فى الدنيا والخزى فى الآخرة . فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر إلى الصدق يهدى إلى البر وإن البر إلى الصدق يهدى إلى البر »

(١) هذا عمر رضى الله عنه على جلالته وعلو منصبه هكذا كانت تهته لنفسه رضى الله عنه وكل من كان أوفر عقلاً وأقوى ديناً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه إلا أن هذا قد عرّف فى هذا الزمان وجوده

يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا . متفق عليه . وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اضمنوا لى ستا اضمن لكم الجنة . اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم . واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » . رواه أحمد وابن حبان والبيهقي ورجاله ثقات . وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما تنجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث الله عز وجل منها توبة » . رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات — وورد أن أعرابيا بايع النبي صلى الله عليه وسلم على تركه خصلة من الخصال المحرمة كالزنا والسرقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « دع الكذب » فصار كلامهم بسيئة قال كيف أصنع إن سألني النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فإن صدقته حدثني . وإن كذبتني فقد عاهدني على ترك الكذب . فكان سببا لترك الفواحش كلها وحسن توبته .

وهنا يبين للسامعين أن من أقبح أنواع الكذب والفجور فى الخصومات بالميل عن الحق ودعوى الباطل والدفاع عنه — والخلف الكاذب لا سيما فيما يتعلق بالمعاملات وشهادة الزور . فى البخارى عن أبى بكره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا ثلاثا . قالوا بلى يا رسول الله . قال : أكبر الكبائر . الإشراف بالله وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئا — ثم قال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » — وجملة القول أن من الخيانة أن تحدث أخاك بمحدث هو لك فيه مصدق وأنت له به كاذب — وإن اللسان الآخر حير من لسان ناطق بالكذب .

« الخصلة الثانية » إخلاف الوعد ، فكل من وعد إنساناً بخير في المستقبل ولم يف كان منافقاً . والإخلاف قد يكون فعلاً كما يكون قولاً ، وكله قبيح مذموم . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » هذا إذا وعد غيره وفي عزمه عدم الوفاء ، أما إذا كان عازماً حال الوعد على الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأى فلا يعد ذلك من النفاق . ففي حديث الطبراني : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف . وحديث أبي داود وإذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يف له فلم يف فلا إثم عليه — ثم يبين مضار الإخلاف وآثاره السيئة في الدين والدنيا ، ويحث على الوفاء بنحو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فدفعها إليه فخرج في البحر فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار فرمى بها في البحر ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه فإذا بالخشبة فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها وجد المال » . الحديث رواه البخاري بتمامه في باب الكفالة وقد تقدم في الفصل الثامن .

(الخصلة الثالثة) الخيانة في الأمانات بالتصرف فيها على خلاف ما يقتضيه الشرع الشريف ، وهي أيضاً قبيحة شرعاً وعقلاً ، ومن شر أنواع الخيانة الغدر في المعاهدات . وكل من تحالف مع إنسان على شيء ثم غدر كان منافقاً « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . فوبال ذلك عليه وحده قال تعالى : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تصنعون » . ومن الخيانة أيضاً إفشاء السرفانه حرام لما فيه من الإيذاء والتهاون بحقوق الإخوان والأصدقاء وإن خلا من الإيذاء فهو لؤم ودناءة — وهنا ينفر الناس من الغدر بأنه مما يعاقب عليه صاحبه في الدنيا قبل الآخرة ففي الحديث « خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغي والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر » . روى من عدة طرق — ويحث الناس على التخلق بالصدق والوفاء والأمانة بنحو قول الإمام على رضي الله عنه « إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون المرض ، وأداء الفرض

والوفاء بالعهد ، والإنجاز بالوعد . ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى ما يخافه وأبعد مما يرجو : »

وجملة القول أن للنفاق علامات كثيرة وهذه الخصال الثلاث تشمل جميعها . ذلك أن أصل الديانة منحصر في القول . والفعل . والنية . فنبه هذا الحديث الشريف على فساد القول بالكذب : وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فساد النية بالخلف ، وإن هذه الخصال الثلاث أمارات النفاق والخبث في الباطن ، وصاحبها شبيه بالمنافق في هذه الخصال ومتخلق بأخلاق المنافقين بإظهاره خلاف ما يبطن فكان منافقاً في حق من حدثه ووعدته وأثمنه ، وإن لم يكن منافقاً في الاعتقاد ، وأن كل خصلة يمكن أن يطبع عليها المؤمن إلا الكذب والخيانة ، فإنهما بالتطبيع والاعتقاد — قال على رضى الله عنه . من استحل رضاع الكذب عسر فطامه . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من التساهل في أمر هذه الخصال فتصبح لهم عادة خشية أن تفضي بهم إلى نفاق الكفر والعياذ بالله تعالى إذ كل من غلبت عليه وتهاون بها واستخف بأمرها كان فاسد الاعتقاد غالباً — أما من وقعت منه نادراً من غير اختيار أو اعتياد فلا ، متى تاب عنها وحسنت توبته . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

الموعظة الثالثة الزواج وعادات الناس

في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ، ولجمالها ولدينها ، فاطفر بذات الدين تربت يداك .

النكاح ركن عظيم من أركان الحياة الاجتماعية التي لأجلها خلق الله تعالى هذا النظام السكوني ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها ، فإنه السبب الأعظم في بقاء النوع الإنساني على أحسن وجه وأكمل نظام والوسيلة الشريفة لتكوين الأسر ؛ وسبيل إلى التآلف والتعاون بين أفراد الأمم ،

بل صلة الزواج أقوى صلة ، فإنه ينقل المودة بين أهل كل من الزوجين حتى يكون الكل ربطة واحدة وتصير كل عشيرة عوناً وعضداً للأخرى على درء المضار وجلب المنافع ، كما أنه موجب للعفة وحصن للنفس من الوقوع فى المناهى وصيانة للدرأة عن الهلاك بالنفقة والسكنى واللباس : فإنها عاجزة عن الكسب لا تقوى على ما يأتية الرجل من ضروب السعى وتحمل المشاق فى سبيل الحصول على الزاد ومرافق الحياة وصيانة للأولاد أيضاً عن الهلاك ؛ فإنه لولا النكاح لاختلطت المياه واشتبهت الأنساب وضاعت الأولاد لعدم من يدعيها وهذا هو الواد الخفى ، بل أشد أنواع القتل — وبالجملة أن فى النكاح فوائد جليلة ومصالح كثيرة من حفظ الفروج ودفع التباغض والتحاسد ، وقطع النزاع المفضى إلى حدوث الفتن والافتتال ، فقيه حفظ النوع البشرى عن الهلاك والإنقراض وتكثير عدد الموحدين لله تعالى فى أرضه على وجه يزيد فى عمرانها وصلاحها ، هذا وقد جرت عادات الناس بأنهم يرغبون فى زواج المرأة لواحد من الأغراض الآتية :

(لما لها) ولو كانت وضعية دميعة فاجزة ؛ لأنها إذا كانت ذات مال فقد تستغنى بما لها عن مطالبة بعلمها بما يحتاج إليه غيرها من النساء ، وقد يرزق منها بولد فيعود إليه ما لها بالإرث ، (وهنا) يشرح للناس ما فى ذلك من المتاعب وكدر العيش ، فإن ذات المال منهن طاغية ما لم يكن لها دين يمنعهما عن الرذائل وسوء الخلق ، وما فى ذلك من عكس الآية الإلهية ، فإنه تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام الولاية على الرعية ، وملك الرجل ناصية المرأة بأمرين . « أحدهما » وَهَبَ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : « بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » . من رجحان العقل وزيادة الدين والحظ فى الميراث والقوة على الأعمال والجهاد وإقامة الشماثر وأهلية الولايات والنبوة والتزوج بأربع من النساء وانتساب الولد إليه « والثانى » كسبى ذكره تعالى بقوله : « وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أى بسبب ما أخرجوا لنكاحهن من الأموال فى المهور والنفقات . وبذلك كانت للرجال عليهن درجة ، فأولئك الذين يطلبون المرأة لما لها حتى سفهاء ضعاف الثقة بالله ، رضوا لأنفسهم فى سبيل هذا الحطام .

القانى بالذل والإهانة إن تم لهم الانتفاع بما لها — وعلى الجملة : إن كان النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى إليه كان المال هو المنكوح فان اتفق معه أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وأن تجرد عن غير المال . فأخلق بالعقد أن ينحل وبالألفة أن تزول سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء .

« ولحسنها » أى شرفها والحسب فى الأصل الشرف بالآباء وبالأقارب : مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آئتهم وقومهم وحسبوها ، فيحكم لمن زاد عدده على غيره — وهنا يبين الحسب الممدوح والمذموم ويرغب فى الأول وينفر من الثانى كما يحذر من طلب الدينثة كبنت الزنا وبنت الفاسق واللقطة ومن لا يعرف لها أصل ، فانه مكروه . روى الحاكم « تحيروا لنطفكم فان العرق دساس » أى فلا تضعوها إلا فى أصل طاهر ، لأن العرق نزاع ينزع إلى أصل أمه وطبايعها ، وإجمالاً أنها سترى أولادها وتؤدبهم فاذا لم تكن من بيت شريف لم تحسن التأديب والتربية وكانت وبالا على بعلمها وعيالها .

« ولجمالها » لأن الجمال مطلوب فى كل شىء لا سيما فى المرأة التى تكون قرينة وعشيرة . روى الحاكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء من تسر إذا نظرت وتطيع إذا أسرت » فان كان النكاح رغبة فى الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ، فان سلم الجمال من الادلال المفضى إلى الملل دامت الألفة واستحكمت الوصلة ، لكنهم كرهوا الجمال الباهر لما يحدث عنه من الادلال المؤدى إلى الوقوع فى قبضة الادلال .

« ولدينها » وهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها عن الخسائس وفرجها عن المحارم أذرت بزوجها وسودت وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه . فإن سلك سبيل الحمية والغيرة بقى فى بلاء ومحنة ، وإن تساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسويًا إلى قلة الحمية والألفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاءها أشد وفتنتها عياء ودهيتها صماء : إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، فهو إذاً فى نارين مبتلى ببلاتين . وإن

كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه : ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين بقوله « فاذفر بذات الدين تربت يداك »

وهنا يذكر أن النساء على قسمين « صالحات » مطيعات لأزواجهن تصون عرضها وتحفظ مال زوجها في غيبته كما قال تعالى « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » . ثم تلا هذه الآية : فالدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة : فاذا رزق العبد امرأة كذلك فليعلم أنها نعمة من الله سيقت إليه « وفاسدات » بليات مائلات مميلات كما قال تعالى « واللاتي يخافون نشوزهن » عصيانهن . وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز للمكان المرتفع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » « كاسيات » تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه إظهاراً للجملها ونحوه أو تلبس ثوبا رقيقاً شفافا يصف لونهن « مائلات » يمشين متبخترات « مميلات » لاكتافهن وقيل مائلات يمتشطن المشطة الميلاء وهي مشطة البغايا ومميلات يمتشطن غيرهن تلك المشطة « كأسنمة البخت » أى يعظمها بلف عصاة ونحوها « لم أرهما » أى فى حياته صلى الله عليه وسلم . والحديث من علامات النبوة . فقد وجد الصنفان فى هذا الزمان بالمشاهدة .

وجلة القول أن اللائق بذوى المروءة وأرباب الديانة أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شئ لا سيما فيما يدوم ويعظم خطره ، فلهذا اختاره صلى الله عليه وسلم بأكبر وجه وأبلغه حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية ومنتهى الاختيار ، وبالطلب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة ، فإن ذات الدين تريح الرجل

وتعينه على خيري الدنيا والآخرة . روى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً « لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » تربت يدك « إن خالفت ما أمرتك به وهي كلمة جارية على ألسنتهم لا يريدون بها حقيقة الدعاء والمقصود منها هنا الحث على ذات الدين فيوافق قوله تعالى « وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » إذ الصالح هو صاحب الدين . وهنا يبين أن المقصود من الحديث النهي عن مراعاة الجمال وغيره مجرداً عن الدين فلا ينافي استحباب ذلك في المرأة بدليل أنه صلى الله عليه وسلم أمر من يريد التزوج بالنظر إلى المرأة قبل الخطبة ، وهو لا يفيد معرفة الدين وإنما يعرف به الجمال أو القبح ، فمن المغيرة رضى الله عنه « أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الترمذى وحسنه ويؤدم أن تدوم بينكما المودة والألفة — والسرفى كون ذلك قبل الخطبة أنه لو كان بعدها فلربما أعرض عنها فيؤذيها — وينظر الخاطب من الحرمة الوجه والكفين فقط لأن الوجه يدل على الجمال والكفين على خصب البدن — وتنامه فى كتاب الأبداع فى مضار الابتداع فى الفصل الحادى عشر فى بدع المعاشرة والعادات .

وينفر الناس من طلب المرأة لغير الدين ومن الغلو فى المهر بنحو قوله صلى الله عليه وسلم « من نكح المرأة لمالهها وجمالها حرم مالهها وجمالها ومن نكحها لدينها رزقه الله ماله وجمالها » وقوله صلى الله عليه وسلم « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لماله لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بآرك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . وقوله : « أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وقال عروة رضى الله عنه وأنا أقول من عندى : أول شؤمها أن يكثر صداقها .

ويبين أن على الولي أن يراعى خصال الزوج قال صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . فلا يزوج كريمته من يساء خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها . فإن النكاح رفق فلينظر الرجل أين يضع كريمته . فالاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة ولا مخلص لها منه إلا بسلطان الدين . ومن زوج ابنته فاسقاً أو سىء الخلق فقد جنى عليها . وأساء إليها . وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . قال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتق الله فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وفى الأثر من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وفى الحكم المأثورة لا تزوج كريمتك إلا من عاقل ذى دين إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

وهنا يبين ما لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية كأن يقول له عليها أن لاتعنه نفسها . وأن تطيع أمره . وأن لاتخرج إلا بإذنه . وإلا لعنها الله والملائكة حتى تتوب أو ترجع ، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه وإلا كان له الأجر وعليها الوزر . وأن لاتدخل فيه من يكره وأن لاتخونه فى نفسها أو ماله وأن تكون قانعة منه بما قسم الله قل أو كثر . قائمة بخدمة الأولاد وإصلاح البيت بالمعروف كاتمة لسره قليلة المراجعة له .

ولما عليه النفقة والكسوة بحسب حاله . والسكنى بين قوم صالحين . وأن يتعلم ويعلمها ما تحتاج إليه من أمر دينها

وهنا أيضاً يذكر أنه ينبغى للوالدين تعليم الأولاد حقوق الزوجية وآداب المعاشرة : فتفى عرف كل من الزوجين ماله وما عليه نحو صاحبه وقام كل منهما بواجبه كان ذلك بلاريب أدوم للألفة . وأبقى للهواء والصفاء .

وإليك وصية أب حكيم لابنته عند زفافها : روى صاحب القوت والبيهقى فى الشعب عن أسماء بن خارجة القزارى — وكان من حكماء العرب — أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها « يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت

باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى فافهمى عنى ما أقول : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت الى فراش لاتعرفينه . وقرين لاتألفينه . فكونى له أرضاً مطيعة أو ذليلة منقادة : أو هينة « يكن لك سماء » يظل عليك برأفته ورفقته أو يطر عليك بإحسانه ونعمه « وكونى له مهاداً » فراشاً « يكن لك عماداً » تستغدين إليه « وكونى له أمة يكن لك عبداً ولا تلحنى به » لاتلحنى عليه فى شئ « فيقلاك ولاتباعدى عنه » كناية عن امتناعها عنه فى الفراش « فينسأك » يفغل عنك . فان من بعد عن العين بعد عن القلب « إن دنا منك فادنى منه » بالمداعية والانبساط « وإن نأى عنك » بقبض وهيبة « فابعدى عنه » أى كونى من فلتاته على حذر « واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلاً ، زيننا . إشارة إلى حسن الهيئة « وكونى كما قلت لأملك ليلة ابتنائى بها »

خذ العفو منى تستدبى مودتى ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولا تنقربنى فقرة الدف مرة فانك لاتدرين أين المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب باله وى فيأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعما لم يلبث الحب يذهب
هكذا تسكون الآباء الرحاء والحكماء الأكياس .

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها :

أى بُنيّة إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال — أى بُنيّة : إنك فارقت الجوالذى منه خرجت ، وخلقت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك

رقيقاً ومليحاً — فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، يا بنية : احملني عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا : الصلابة بالقناعة ، والمعاذرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه . فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ ، وتنغيص النوم مَبْغَضَةٌ ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والأرعاء على نفسه وحشمه وعياله . فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والأرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشي له سرا ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان تَرَحُّواً ، والاكتئاب عنده إن كان فَرَحاً ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقةً يكن أطول ما تكونين له مرافقةً واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يُخَيِّرُ لك . فحَمِلْتُ فسلمتُ إليه فعظمُ موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا اليمن بعده — وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى التوفيق والهداية .

(نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية)

المحاضرة الأولى

سر مشروعية القتال في الإسلام

الحمد لله بين للناس سبل الاستقامة والهداية ، وأزال عن بصائر من أبواب إليه غشاوة الضلالة والغواية ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وداعياً إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأرواحهم صابرين مخلصين ، فكانوا هم السادة الغالبين ، الفائزين المنصورين « أما بعد » فإننا سنتحدث إليكم الليلة والليالي بعدها إن شاء الله تعالى في أمر خطير يهم كل غيور على دينه أن يكون منه على بينة . ألا وهو « سر مشروعية القتال » في الدين الحنيف ، وقبل أن نتناوله بالبيان نسمعكم كلمة لا غنى عنها فنقول :

لا ريب في أن الدين الإسلامي قام على الحجة والبرهان ، وظهر على كل الأدبان بقوة البيان وإيجاز القرآن . ولم يقم بالسيف والقوة ، والتهر والجبروت « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ولم يسئل دين الإسلام السيف من غمده إلا بعد اعتداء الأعداء ، وبغى الأشقياء على النبي وأصحابه ، ووقوفهم حجرة عثرة في طريق الدعوة إلى الحق ، وصدمهم عن سبيل الله ، وصراطه المستقيم . لقد علمت قريش وشاهدت وشهدت بأن سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين ، والطاهر المعصوم ، والمثل الكامل ، النقي السريرة ، الكريم التقية ، الحكم الحكيم ، والشجاع الحليم الرحيم ، ولقد رأوا من دلائل نبوته ورسالته ، وآيات صدقه في دعوته مالا يدع مجالاً للريب ولا يترك موضعاً للشك في أمره صلوات الله وسلامه عليه — يعرفون عنه ذلك كما

يعرفون أبناءهم ، وعلموا من كماله ما لم يعلمه سواهم ، فلما جاءهم بالحق من ربه ،
ودعاهم إلى الإسلام كبر عليهم ما دعاهم إليه ، وقابلوه بالسخرية والاستهزاء ،
والأنكار والإيذاء له ولمن آمن معه ، ظلما واعتداء ، وتكبرا وعناداً « وجحدوا
بها واستيقظتها أنفسهم ظلما وعلوا » وهذا دأب المبطلين ، وديدن المبهوتين ، مع
الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المصلحين في كل أمة « وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم
من أرضنا أولتعبدون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » « ولقد كذبت
رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات
الله ولقد جاءك من نبي المرسلين » رأى منهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه
عليه ما رأى من السخرية والإيذاء ، والتكذيب والإنكار فصبر كما صبر أولو
العزم من الرسل ، ومضى في نشر دعوته ، وتبليغ رسالة ربه غير هيّاب ولا وجل ،
ولم يبال بأذى ولا ضرر ولا وعد ولا وعيد ، يتلو عليهم القرآن ويقيم لهم الحجج
والبراهين ، وتتوالى عليه الآيات ، ويشاهدون منه المعجزات .

ولما غاب آلهتهم . وسفّه عقولهم - فإنهم كانوا إذا احتجوا في تماديهم على
الباطل ، واستمرارهم على عدم اتباع الحق - ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقه -
له . كما قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه
آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وكقوله تعالى : « وإذا قيل لهم
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » وقال لهم : « يا قوم والله لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم
لما غاب آلهتهم ثارت في رءوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كانوا
يعبدونها تقليداً لآبائهم بلا عقل ولا روية ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم
الذي أخذ على نفسه حمايته من أعدائه فطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عن سب
آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم ، أو يخلى بينهم وبينه . فردهم
أبو طالب رداً جميلاً . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريد لا يصدده عن
مراده شيء . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئا تذامروا وحض بعضهم بعضاً

عليه ، ثم رجعوا ثانياً إلى أبي طالب قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال وخيروهم بين أن يكفه عما يقول أو ينزلوه وإياه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال : يا بن أخى إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبقى على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيع . فظن الرسول أن عمه خاذله ومُسْلِمُهُ ، وأنه ضَعُف عن نصرته والقيام معه « فقال : والله يا عم لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ختى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ثم استعبر وبكى » فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلك شىء تكرهه أبداً .

ولما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة له ولأصحابه ، فأما هو فقد أغروا به سفهاءهم - وهم العُدَّة فى مثل هذه المواطن لكل من ضادَّ إصلاحاً - فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو ماض فى سبيله يصارحهم بما يكرهون : من عيب دينهم وترك أوثانهم ، لا يبالي بما يصنع سفهاؤهم معه - وأما أصحابه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام بأنواع التعذيب الذى يفزع من ذكرها قلب الحليم وهم يحملونها بصبر عجيب .

الإيذاء له صلوات الله وسلامه عليه

لقد رأى رسول الله من المشركين كثيراً من الأذى خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أكثرهم أذى له صلى الله عليه وسلم جماعة سُموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين : فأولهم وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة الخزومي القرشي . قال يوما : يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر لا أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلونى عند ذلك أو امنعنونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف

ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقريش في أنديتهم ينتظرون مايفعل أبوجهل ، فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه احتمل أبوجهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش قالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل ماقلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لي فخل من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بي أن يأكلني . فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذاك جبريل ولو دنا لأخذه » .

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي فقال أبوجهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القدر فرمته عنه فلما قام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال : اللهم عليك المأ من قريش وسمى أقواما قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر - وما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجمالا من رجل يقال له الأرائطي فطله بأثمانها ، فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله ، فدلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبي جهل ، استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول صلوات الله وسلامه عليه - فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد . فخرج منتقع اللون ، فقال له الرسول : أعط هذا حقه - فقال أبوجهل : لا تبرح حتى تأخذه . فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش : ويليك يا أبا الحكم ! ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي حتى سمعت صوتاً ملثت منه رعباً وأن فوق رأسي فخلاً من الإبل ما رأيت مثله .

ومن جملة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ، كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى بالقذر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطرحه ويقول : « يا بني عبد مناف أى جوار هذا ؟ » وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتكلم فيه بالتمائم ، خصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة اللمب .

ومن جملة المستهزئين عقبة بن أبي معيط كان الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعمل معه كأبى لهب : صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله وسلامه عليه : « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فتشهد فبلغ ذلك أبى بن خلف الجحى القرشى المشهور - وكان صديقاً له - فقال : ماشىء بلغنى عنك ؟ قال : لاشىء ، دخل منزلى رجل شريف فأنى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له . قال أبى : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبزق فى وجهه ، وتلطم عينه . فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك . فأنزل الله فى سورة الفرقان « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضانى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه قال : « بينما النبى يصلى فى حجرة الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وقال : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربه الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ »

وغيرهم كثيرون ؛ وكل هؤلاء قد انتقم الله منهم كما قال تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك بضيق .

صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقد وضع جل ثناؤه الوعد في صورة الماضي لتحقيق وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هؤلاء كان بعد الهجرة — فمنهم من قتل كالأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كالأبي لهب والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة .

وكما أودى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أودى أصحابه لاتباعهم له ، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد عنه كيد عدوه ، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين . ولقد أنجز لهم وعده في قوله جل ثناؤه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؛ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ومن أودى في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجحى القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يشغل ما هو فيه عن توحيد الله ، وكان أمية يخرج به وقت الظهيرة في الرمضاء الشديدة الحرارة ، لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد . مرة به أبو بكر يوماً فقال : يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين ، حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فاشتراه منه وأعتقه — ومنهم حمالة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول ومنهم امرأة تسمى زينة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً . ومنهم أم عنيس كانت أمة لبني زهرة ، وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث فاشترأها منهم أبو بكر رضي الله عنه وأعتقها .

ومن عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعذبون بالنار فربهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : « صبراً آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » . أما أبو عمار وأمه فماتتا تحت العذاب رحمهما الله — وأما هو فتغل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فإن أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها — فقال المسلمون : كفر عمار فقال عليه الصلاة والسلام : « عمار ملئ بالآيمان من فرقه إلى قدمه » . وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جل ثناؤه : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدره فعليهم غضب ولهم عذاب عظيم » . ومن أودى في الله خباب بن الأرت سبي في الجاهلية فاشتريته أم أنمار وكان حداداً وكان النبي يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تمذهبه بالنار ؛ فتأتى بالحديدة الحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً . وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ : « فعمد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من اللحم وعصب ، ويضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشقق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحالة الشديدة التي لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلية ، اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه . ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين في قوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذى لحقه ولكن كل ذلك ضاع سدى . تلقاء ثباتهم وقوة إيمانهم ، فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك الإيمان حقيقة فأروا كل شيء دونه سهلاً .

ولما اشتد الأذى بالمؤمنين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة فعملوا ، وتلك أول هجرة في الإسلام ، وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال وأربع نسوة ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، معهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار .

هل تظنون أنهم تركوا هؤلاء المهاجرين (لا والله) لم يتركهم ، بل أرسلوا في أثرهم رجلين إلى الحبشة هما عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بالهدايا للنجاشي ملك الحبشة ، ولبطارقه وطلبوا إليه رد هؤلاء إلى بلادهم ، لأنهم خطر عليه وعلى بلاده ، وبعد محاورة بينه وبينهما وبينه وبين المهاجرين لم يسمع لقولهما وأكرم وفادة المهاجرين واقتنع أنهم على الحق وإلى الحق يدعون .

وبعد ثلاثة أشهر رجع المهاجرون إلى مكة حيث لا يتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلوا العدد وفي الكثرة بعض الأنس ، وأضف إلى ذلك أنهم من أشرف قریش ومعهم نساؤهم . وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة . ثم هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة هم ومن استطاع الهجرة ممن آمنوا فراراً بدينهم من الفتنة ، لما يلاقونه من بغي المشركين .

وبقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه سائراً في طريق الدعوة صابراً على أذاهم غير مبال بما يضعونه أمام الدعوة من عقبات ، والله تعالى يعصمه منهم ويحرسه ، وهم يتفنونون معه في ضروب الشغل من نوع إلى نوع ، حتى لقد أجمعوا على مقاطعته ومقاطعة من آمن معه . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم شيئاً . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك . واستمروا على هذه المقاطعة سنتين لقي فيهما النبي وأصحابه صنوف الشدائد وأنواع العذاب .

ويدل على شدة ما لقيه الرسول والمؤمنون ونزل بهم من المشركين ما روته أم عبد الله بنت أبي خيثمة — قالت : والله إنا انزحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على — وهو يومئذ على شركه — فقال : إنه الإنطلاق

يا أم عبد الله . قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا ، وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً — وبعد ماضاقوا بالنبي وأصحابه ذرعا ولم تنجع فيهم هذه الأعمال ، ولم تؤثر فيهم تلك الفظائع ، اجتمع المشركون في دار الندوة بمكة فتشاوروا ماذا يصنعون للخلاص من محمد وأصحابه ، فقرّر الرأي على ما قال أبو جهل عدو الله ورسوله وهو أن يختار من كل قبيلة شاب جلد نسيب وسيط ثم يجتمعون على باب محمد حتى إذا خرج ضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلهم . فعينوا الفتيان والليلية واجتمعوا فأعلم الله رسوله بما يبتوآ له وأمره بالهجرة إلى المدينة ، وذلك في السنة الثانية عشر من البعثة وهي السنة الثانية والخمسون من عمره صلى الله عليه وسلم وسنة ٦٢٢ من الميلاد ، وعصمه الله من المشركين أعداء الحق والدين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلوا يلحقون الأذى بمن بقي من أصحابه بمكة من مستضعفي المؤمنين الذين كانوا يقولون من هول ما يلاقون . « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وبالجملة هذا قليل من كثير مما لقيه الرسول وأصحابه من أذى شديد ، ومعاملة قاسية من أهل مكة العتاة الجبابرة ، المردة الشياطين ، بعد مارأوا الآيات وشاهدوا المعجزات ، وسمعوا القرآن . فهل مثل هؤلاء يرجى منهم إيمان ، أو يؤمل فيهم خير (كلا) ، فما بعد هذا كله إلا السيف ، هو الذي يكسر شوكة كل شيطان سرمد ويقطع دابر كل كفار أثيم . لذلك وجب القتال وشرع الجهاد ، لاحقاً في دنيا ولا طمعاً في مال ولا رغبة في سيادة ، بل شرع دفاعاً عن الدين وأهله ، وحماية الدعوة إلى سبيل الله .

وقبل مشروعية القتال أسلم كثيرون من أعلام قريش ونسائها وشبابها ودخلوا في دين الله راضين مختارين موقنين بأنه الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده ، واختاروا لسعادة بني الإنسان ، فأى داع دعا هؤلاء إلى اعتناقه سوى ما سمعوا من القرآن ،

شاهدوا من المعجزات ، ولم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ قوة ولا سطوة ، ونذكر لك هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آثروا العقل على الهوى ، ولم يشتروا الضلالة بالهدى . فمنهم السيدة خديجة بنت خويلد وزيد بن حارثة ، أبو بكر الصديق ، علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، بلال بن رباح ، خباب بن الارت ، عثمان بن مظعون ، سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب .

ولا يزال كثير من ذوي الرأي والمفكرين يعتنقون الدين الإسلامي معتقدين أنه الدين الحق لاسواه ، لا خوفا ولا رهبة في زماننا هذا الذي ضعفت فيه الشوكة وفترت فيه الدعوة ، مما يدل على أن هذا الدين يقوم على الحجة والبرهان لا على السيف والاكراه

وإليكم ماجاء في مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم اتعلموا أن الأسباب التي لها شرع القتال ترجع إلى أمرين :

(الأول) الدفاع عن النفس عند الاعتداء (والثاني) الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة المؤمنين بالأذى والتعذيب ليعودوا في ملة الكفر أو بمنع الداعي من التبليغ ، أو بصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه .

قال الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على بصيرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله أقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » دلت هذه الآية الكريمة على أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أذن المؤمنين في القتل

وبينت السبب في الأذن وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير موجب إلا الإيمان بالله وحده . ثم بينت حكمة الأذن بالقتال ، أى أنه لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا لهم حتى يكون لهم السلطان وتخرب أما كن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . فكان من رحمة الله بالناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبعثة المعتدين — ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف المصلحين الذين ينصرهم الله ما نصره الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — صوامع للرهبان ، بيع : كنائس النصرى صلوات : كنائس اليهود — مساجد للمسلمين .

وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلوا حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه ، فإن قاتلكم فاقتلوا كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » بينت هذه الآيات الأذن بالقتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم ، وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن ولا يؤذى فيه . وبينت أن الفتنة في الدين بالتعذيب والإخراج من الوطن أشد قبحاً من القتل إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه على اعتقاده الذي تمكن من قلبه ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره . ونهت عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين

وهم الذين يبدون غيرهم بالشر وبيئت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي الزيادة فيه على ما فعله البادى به .

وقال تعالى « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بيئت هذه الآية سببين للحث على القتال (الأول) سبيل الله وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (الثاني) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص . فهو لا بد لهم من حماية ترفع عنهم إيذاء الظالمين وتجعلهم أحراراً فيما يدينون وما يمتدنون — وقال تعالى « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلا ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم وبلغوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » بيئت هذه الآية حكم الله في المنافقين وهو النهى عن قتالهم متى امتنعوا عن قتال المؤمنين وسالموهم ، والأمر بقتالهم إن اشتروا مع المشركين في فتنة المؤمنين في دينهم فالسبب في القتال دفع الفتنة في الدين .

وقال جل وعلا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » بيئت أن السبب في القتال هو فتنة المسلمين في دينهم والوقوف في طريق الدعوة — فأمرهم بالقتال إلى أن تزول الفتنة ، وتسير الدعوة في طريقها آمنة ، فيسلم الناس ويذهب الشرك ويصير الدين خالصاً لله وحده لا أثر فيه لخشية أحد ولا دهائه — وقال جل وعلا : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإذا تنقضتهم في الحرب فشردهم من خلفهم لعلمهم يذكرون » أفادت الآية أن السبب في القتال هو نقضهم العهد مرة بعد أخرى فأمر الله تعالى

نبيه أن يجاهدكم ويوقع بهم أشد النكال ليكونوا عبرة لغيرهم من المشركين فلا ينقضوا له عهداً ولا يعلنوا عليه حرباً — وقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » بينت الآية أن السبب في القتال هو ميل المشركين إلى الحرب فإن مالوا إلى المسالمة وجب ألا يقاتلوا ، وإن خيف من خداعهم بإظهار الجنوح إلى السلام يكف المسلمون عنهم فيأخذوهم على غرة فما النصر إلا من عند الله ، ولا يخفى المكر السيء إلا بأهله — فترون من هذا أن الكتاب الحكيم يأمر أهله بالسلم ولو خيفت عاقبته .

وقال جل وعلا : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أتخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » بينت هذه الآية أن سبب القتال تلك الجرائم — نقض العهد — الطعن في دين المسلمين — اللهم بإخراج الرسول حين تأمروا عليه بدار الندوة — بدؤهم بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناقضون عهدهم آخرأ ، وأنتم قد أبيح لكم مجازاة المعتدى بالمثل .

كان اليهود قد مالوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوهم في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه عهود مكتوبة فتنقضوها وأخلوا بموجبتها ، فأمر المسلمون بقتالهم . وفي ذلك جاء قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فانسبب في قتالهم هو نقضهم عهد الرسول بمعاونتهم لأعدائه ، ووقوفهم في سبيل الدعوة ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام — وقال تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » المراد بهم أيضاً اليهود حول المدينة وهم بنو قريظة وبنو النضير ويهود خيبر ، لأنهم نقضوا العهد وحرّضوا العرب وأعانوا على المسلمين في غزوة الأحزاب فالسبب هو نقض العهد .

كلن أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمالئونهم من يهود المدينة فلما انحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب الحكيم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » فاعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ . » متفق عليه فإن المراد بهم المشركون ومن على شاكلتهم كالجوس — وذلك أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الإسلام مالا يقاومها سواهم وكان استقرار الذين من غير دخول مشرك جزيرة العرب في الإسلام ضرباً من المحال — وإذا لم تغد العقاقير فأخر الدواء السكي — .

هذا ما جاء في الكتاب الحكيم خاصاً بأمر الجهاد ، وكله صريح في أنه لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس أو تأمينا للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها ، وأعلن أنه لم يجز معتدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سلمه . وما يؤيد تلك الروح السلمية ووضحها قوله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ » وبالله تعالى التوفيق والهداية .

المحاضرة الثانية

الرق في الإسلام

وقبل الكلام عليه نذكر معنى الحرية والمساواة في نظر الإسلام فنقول :
الحرية خلوص الإنسان من ضيق الجبر وتمتعه بكل حق إنساني قضى به الشرع
وسوّغه العقل ، وهي حق طّبيعي للإنسان إذا حرم منه فقد سلب إرادته وفقد
إنسانيته ، لهذا قررها الإسلام ورفع من شأنها ، وصانها من العبث بها وجعل الإنسان
حر النفس ، حر العقل .

حرية النفس

قرر الاسلام للناس حرية نفوسهم وصانهم من ذل العبودية إلا لله تعالى ،
ومن الخضوع إلا لشرعه القويم ، فلا سلطان لأحد من رؤساء الدين والدنيا على روح
المسلم : ولا سيطرة لهم على سريره . ولا واسطة بينه وبين ربه إلا العمل بكتابه ،
وما بينه رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يقدر أحد من هؤلاء على حرمانه من
ثواب الله ورحمته ما دام مستقيماً على طريقته ، ولا يملكون غفران خطيئته إذا خالف
أمر ربه ، بل ذلك كله لله وحده : يقول الله تعالى مبيّناً وظيفة الرسل صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين .

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فلا سيطرة لهم على سرائر الناس
وليس لهم حق إكراههم وإجبارهم ، بل أمرهم إلى الله بعد تبشيرهم وإنذارهم . ويقول
عز وجل لحمد صلوات الله وسلامه عليه « فذكّر إنما أنت مذكر است عليهم بمسيطر »
وقال له : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقال تعالى : « نحن أعلم بما يقولون »
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وقام صلوات الله وسلامه عليه
حين أنزل عليه : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يا معشر قريش اشتروا
أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ! لا أغني عنكم من الله

شيئاً ، يا عباس عمّ رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمّة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً « متفق عليه .

نعم تجب على المسلمين طاعة الرسول وأولى الأمر ولكن فيما ينفذون من شرع الله تعالى لأنها طاعة له جل وعلا ، أما في غير ذلك فقد كان للصحابة حرية الرأي مع الرسول في المصالح العامة التي لم ينزل فيها وحى ، وكان صلوات الله وسلامه عليه ينزل على رأى الواحد منهم إذا تبين له صوابه . يدل على هذا مشروعية المشاورة في الأمور الدنيوية فإنه لا تسكون مشاورة إلا مع حرية الرأي . وقد كانوا كذلك في عهد الخلفاء الراشدين : عليهم الطاعة فيما أمر الله تعالى ولهم الحرية فيما وراء ذلك ، وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول في أول خطبة له بعد الخلافة : أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، وفيها يقول : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . ومن خطبة لعمر رضى الله عنه : أيها الناس من رأى منكم فى أعوجاجاً فليقومه . فقام إليه رجل فقال : والله لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم أعوجاج عمر بسيفه . فانظر إلى أى حد بلغت حرية الضمائر فى المسلمين فى الصدر الأول وبها عزوا وسادوا .

حرية العقل : كما جعل الإسلام الناس أحرار النفوس أطلق لهم حرية العقول ، فأباح التفكير فى ملكوت السموات والأرض بل حث على ذلك وجعل النظر الصحيح أساس الاعتقاد الصحيح وأثنى القرآن الكريم على الذاكرين المتفكرين ونهى على الغافلين الضالين . فقال فى الأولين : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقت عذاب النار » وقال فى الآخرين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل ننته ما أتينا عليه آبائنا أولو كان آبائهم لابعقلون شيئاً ولا يهتمدون » والقرآن الكريم

كله يناشد العقل يُهيب به إلى التفكير والتأمل ويحفزه إلى البحث ليستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع جل وعلا ، وليتعلم ويبتكر وينتفع بما خلق الله في السموات والأرض وما أودع الكون من أسرار ومنافع — يُهيب يدعو . يحفز يدفع .

المساواة في نظر الدين

احترم الاسلام النفوس والعقول وكفل لها حريتها كما علمت . وبذلك تقرر مبدأ المساواة على أكل وجهه . فأصبح المسلمون به إخوانا متساوين في الحقوق والواجبات ، كلهم محترم النفس والعرض والمال وكلهم مسئول أمام القانون الإلهي العادل عما قدمت يداه « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً » لافرق في ذلك بين ذكر وأتى ولا غنى وفقير ولا ملك وسوقة ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أنكر الإسلام التمايز بين الشعوب والتفاخر بالأنساب والتكاثر بالأولياء والأنصار ، والتفاوت بالجاه أو المال . بل سوى الإسلام بين المسلم وغير المسلم إذا دخل في ذمة المسلمين . فإن له حينئذ ما لهم وعليه ما عليهم . وقد أثبت الكتاب الحكيم مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وتجلي في كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكلام أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وصدق فيه القول العمل قال صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لأدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » متفق عليه ، وقال صلوات الله وسلامه عليه حين جاءه أسامة بن زيد يشفع في المرأة الخنزومية التي وجب عليها حد السرقة : « أتشفع في حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » متفق عليه . وقال في حجة الوداع : « أيها الناس من أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن ضربته ضربة فليقتص منى قبل يوم القيامة » . متفق عليه . وقال في أهل الذمة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وقال أبو بكر رضى الله عنه من خطبة له : ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه — وكتب

عمر رضى الله عنه إلى عماله بالأمصار يقول : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبيهم كبعيديم ، وبعيديم كقريبيهم إياكم والرشا والحكم بالهوى - وقد أفاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من نفسه لما أصاب بطن رجل بزج الرمح فجرحه فقال له : « تعال فاقصص » . فعفا عنه - وكذلك فعل أبو بكر وعمر فقد جاء رجل إلى أبي بكر يستحممه فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر : إنه استحماني فحملته فبلغني أنه باعه . ثم قال للرجل : دونك فاقصص . فعفا عنه - وضرب عمر جارية لسعد بن أبي وقاص بالدرّة فساء ذلك سعداً فناولوه عمر الدرّة وقال له : استقد . فعفا عنه - هذا شيء يسير من أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه والخليفين من بعده وأعمالهم . يمثل لك مبلغ احترامهم للمساواة وعنايتهم بتقريرها بين الناس قبل أن يدب ديب الأثرة والاستبداد في النفوس ، وبتقرير الاسلام الحرية والمساواة شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها وظهرت مواهب كثير من المسلمين في العلم والحرب والسياسة واستروح الناس عبير العدل بسطع من ناحية الجزيرة العربية حتى عم الأقطار التي فتحها المسلمون وتمتع أهل تلك الأقطار - من أسلم منهم ومن لم يسلم ودخل في ذمة المسلمين - بحرية لم ينعم الناس بمثلا في عصر من العصور - هذا والآن نبين سرّ مشروعية الرق في الاسلام .

قد عرفت معنى الحرية والمساواة في نظر الدين ، وما لهما من منزلة : فإن قيل لك إذا كان الاسلام قد رفع من شأنهما وجعل الناس سواء في الحقوق فما باله أباح الرق وأن يكون آدمى عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، فلا يملك ولا يتصرف إلا بإذن سيده ، وهل الرق إلا قتل للحرية ، وأهدار للأدمية وهدم لمبدأ المساواة فنقول إن الاسترقاق كان عادة قاشية في الأمم السابقة على الإسلام ، فالفرس واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والمصريون كل هؤلاء كانوا يسترقون وكان الرق يضرب لأسباب كثيرة في قوانين تلك الأمم (منها) الأسر في الحرب أياً كان الغرض منها ، وكان اليونان والرومان يعدون الأمم المغلوبة عبيداً . وكان القانون الروماني يبيح ضرب الرق على بعض المذنبين ، كما كان الاسترقاق أيضاً يتخطف

النساء والأطفال. — وكانت معاملة الرقيق في غاية الفسوة والشدة يكلف أشق الأعمال ويعاقب أشد العقاب على الهفوة يهفوها ، ولسيده أن يبقية أو يقتله لا يسأل عما يفعل — وقد أمرت التوراة بالرق — ولم يحرمه الدين المسيحي ، وسكت عيسى عليه السلام عن الوصية بالأرقاء بل جاء في بعض رسائل الحواريين أمر العبيد بطاعة سادتهم في كل شيء جاء الإسلام والاسترقاق كما بينا عادة متمكنة في النفوس وبناء الجمعية البشرية قائم على سواعد الأرقاء في أكثر الأعمال . فلم يكن من الحكمة في التشريع إبطال الرق دفعة واحدة ولا إلزام من يُسلم وفي ملكه رقيق بإعتاقه ، لما في ذلك من الأضرار بالسادة والعبيد معا ، إذ فيه اختلال مصالح الأواوين وتضييع الآخرين (نعم) لم يُبطل الإسلام الرق ولكنه أوجب الرفق بالأرقاء والإحسان في معاملتهم مما لم يرد مثله ولا ما يدانيه في قانون ولا شريعة سابقة .

وإليك بعض ما جاء في ذلك من الكتاب الحكيم والسنة الشريفة قال الله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » وعن بعض الصحابة قال : رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الأرقاء وهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه متفق عليه . وعن ابن مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاما لي بالسوط فسمعت صوتا من خلفي يقول : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود ، فألقيت السوط من يدي . فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً » . رواه مسلم وغيره وقال صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة » . أخرجه في الجامع الصغير وابن عساكر عن ابن عمر — وقد توفي صلوات الله وسلامه عليه

وهو يقول : « اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم » . أخرجه الخطيب عن أم سلمة .

على أن الإسلام قد رغب في تحرير الرقاب وإزالة انزق عنها بطرق شتى (منها) أنه جعل للأرقاء من الزكاة نصيباً يفتدون به أنفسهم من سادتهم قال الله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين . وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (ومنها) أنه أمر بالاعتاق وجعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة لا يجزى غيره عنه عند القدرة عليه . فقال تعالى في كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » ثم يقول : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » فانظر كيف جعل الاعتاق هو الواجب الأول في تكفير ذنب القتل خطأ — وقال تعالى في كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا » وجعله أيضاً أحد المكفرات للحنث في اليمين بالله حيث قال جل وعلا : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » (ومنها) أنه جعل الاعتاق من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال تعالى ممتناً على الإنسان : « ألم يجعل له عيينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب اليمين » فجعل إعتاق الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم المرء بشكر نعم الله المتتالية . بل أمر السادة بإعانة العبيد والإماء بشيء من المال على أداء نجوم الكتابة إذا علموا فيهم أمانة وقدرة على الكسب فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » يستعينون به في أداء ما التزموه لكم وفي معنى الأداء حط شيء مما التزموه عنهم — والكتاب المكتوبة —

ورسول الله رغب كثيراً في تحرير الرقاب ، قال صلوات الله وسلامه عليه :
 « أيما رجل أعتق إمرأ مسلماً استنقذ الله تعالى بكل عضو منه عضواً من النار »
 رواه البخاري . استنقذ خلص . وعن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه قال : سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من
 النار » رواه أبو داود والنسائي . وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال : « أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلماً كان فكاه من النار ، يجزي
 كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاه
 من النار ، يجزي كل عضو منهما عضواً منه » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح —
 وكان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يتقربون إلى الله تعالى بعتق مواليتهم
 حتى لقد كان بعضهم يخرج عما يملك من العبيد ، وبعضهم يشتري الأرقاء
 ليحررهم لا يستخدمهم .

بما تقدم تعلم أن الإسلام شديد العناية بالرقيق . عظيم الرغبة في حريته (نعم)
 أباح الاسترقاق ولكن في حالة واحدة لا ثانية لها ، فإذا وقعت حرب شرعية بين
 المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعتدون عليهم ويفتنونهم في دينهم ويصدونهم عن
 سبيل الله ، وأسّر المسلمون من أعدائهم فإن للإمام أن يضرب الرق عليهم ، وله
 أن يمن عليهم ويخلى سبيلهم ، وله أن يفقدى بهم أسرى المسلمين ، يفعل من ذلك
 ما يرى فيه المصلحة . وإنما أبيع الرق في هذه الحال حياطة للدين . وكسراً لشوكة
 من يريد إيذاء المسلمين ، وإطفاء نور الإسلام ، وليستدرج الأرقاء إلى تعاليم الإسلام
 بما يكون من حياتهم بين المسلمين حتى إذا ما اعتنقوا الدين الإسلامي كان أحب
 شيء إلى الله تعالى ردهم إلى الحرية — ومن تدبر الأمر وجد أن الرق الشرعي قد
 بطل من زمان بعيد بزوال سببه وهو الأسر في قتال مشروع يراد به الدفاع عن
 الدين وحماية الدعوة إلى الإسلام فإن الإسلام قد توطدت دعائمه وثبتت تعاليمه ،
 فلم تقع حرب دينية من قرون مضت وإنما هي حروب سياسية تثيرها الأهواء
 والمطامع . وضرب الرق على أسراها لا يجوز بحال — كما لا يجوز استعباد الأحرار

بأى سبب آخر : فما كان يفعله النخاسون من بيع الأطفال والنساء المخطوفات قد حرمه الإسلام وتوعد عليه قبل أن تحرمه الحضارة الغربية بثلاثة عشر قرناً — قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنتُ خصمَهُ خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر . ورجل باع حراً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره » . رواه البخارى وابن ماجه .

وصفوة القول أن الإسلام لم يُبطل الرق الذى كان فاشياً فى الأمم وقت ظهوره رعاية المصلحة العامة ، ولكنه عطف على الأرقاء وأمر بالإحسان فى معاملتهم ، ورغب فى الاعتاق وأوجبه فى بعض الأحوال . وهو وإن أجاز الرق فى الحال التى ذكرناها لم يوجبه بل أباحه إذا كان فيه مصلحة . وحرم اختطاف الأحرار واستعبادهم والاتجار بهم . ومن تدبر هذه المبادئ علم أن الإسلام يكره الرق كراهة شديدة ولذا ضيق دائرته ولم يبيحه إلا بسبب واحد حيطةً للدين ، وأنه يجب الحرية ، ولهذا رغب فى الاعتاق وأثاب عليه وأوجبه فى أحوال كثيرة وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الثالثة

سر تعدد الزوجات

قد كثر طعن المخالفين فى الدين الإسلامى من أجل ما أباحته الشريعة من الزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون أسرار الشريعة الغراء وماحوتها من الحكم البالغة المعقولة ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما هو براء منه .

كان تعدد الزوجات عادة شائعة فى العرب وسائر الأمم الشرقية وكان شره فيهم مستطيراً ؛ فأنهم لم يكونوا يقيدون فيه بعدد ، ولا يراعون عدلا بين الزوجات ، فكان ذلك مما أصلحه الإسلام ، فلم يمنعه منعاً باتاً ، لما فى المنع من الحرج ، ولم

يتركه فوضى كما كان ، بل أباحه إلى أربع وشرط للحل شرطاً وثيقاً وهو العدل بين الزوجات في المعاملة ، قال الله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً في تحريم التعدد ، فمن لم يأنس من نفسه أن يقوم بالتقسط بين زوجاته لا يتاح له التعدد ويجب عليه الإقتصار على واحدة « نعم » إن الأصل في الزواج التوحد ، فيه يتم سكون كل من الزوجين إلى الآخر ، ويستقيم أمرهما ويهنأ عيشهما وتسعد أولادهما ولكن قد تدعوا الحاجة إلى التعدد وتقتضيه المصلحة . ولا يمكن لأحد أن ينكر كثيراً من الأحوال التي تقتضي ذلك واللائق بشريعة اجتماعية هي خاتمة الشرائع أن تبيح ما فيه تيسير للناس ومنفعة عظيمة لهم ، مع حياطه بما يمنع ضرره أو يخففه إن كان فيه شيء من المضار .

أما كون التعدد من حاجات الاجتماع في بعض الأحوال فيظهر في أمور كثيرة « منها » أن رجلاً تزوج امرأة فأصابها مرض غير مرجو الشفاء ماتت منه شهوتها وأصبح بعلمها تعاف نفسه أن يواقعها ، ، وليس لها من يعولها إذا فارقها زوجها ، ولا يرغب غيره في زواجها ، فلا يكون من الوفاء طلاقها ، ولا يكون من المصلحة منع الزوج من التزوج بغيرها مع بقائها لثلا يحرم النسل المقصود من الزواج « ومنها » رجل تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً أو استمر بها دم الإستحاضة معظم حياتها « ومنها » رجل تسكره امرأته المباشرة أو تتألم منها في كثير من أشهر الحمل — فأمثال هؤلاء إما أن يصبروا مع العنت والمشقة « وقليل الصابرون » وإما أن يأتوا الفاحشة — وأولئك هم العادون الخاطئون — وكل عاقل يرى أن تعدد الزوجات مهما كان فيه من الضرر الذي يظنه المخالف مهما كان فهو أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة التي تؤدي إلى خراب العالم وانتشار الأمراض الخبيثة في الأمة « ومنها » أن عدد النساء قد يزيد على عدد الرجال في الأمم ولا سيما في أعقاب الحروب التي تأتي على كثير من الرجال فإذا لم يبح للرجل أن يتزوج

بأكثر من واحدة أفضى ذلك إلى تعطيل عدد كثير من النساء ومنعهن من النسل ، وقد يصبح كثير منهن بغير كافل يقوم بشئونه ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المضار ، وفي أحوال الأمم التي زاد فيها عدد الأنثى على الذكور اليوم عبرة للمعتبر . فظهر مما تقدم أن التعدد قد أبيع لما فيه من المصلحة للرجال والنساء ، وأنه مضيق فيه جداً باشتراط العدل لأنه كلما يتحقق ، ومالم يتحقق العدل يكون التعدد حراماً — هذا . وإن كثيراً من المسلمين لم يرع هذا الشرط بل قد يقصد بعضهم إلى التزوج بثانية انتقاماً من الأولى أو ضرراً بها وإغاظة لها ، وبثالثة ورابعة كذلك حتى أدى ذلك إلى مفاسد كثيرة وهذا مادعا بعض من لم يفهم حقيقة الإسلام إلى الطعن فيه ويعنى عليه إباحة التعدد مع أن الدين من عمل هؤلاء المضارين برىء . ولكن الحق أبلغ يظهر ولو بعد حين ، فقد عرف فضل إباحة التعدد كثير ممن كانوا يعيبونه من الغربيين وقام من رجالهم ونسائهم من يدعوا إليه في صحفهم وغيرها وإليك ما كتبه فاضلة الإنجليزية ملخصاً .

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك وإذا كنت امرأة ترانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزناً وماذا عسى أن يفيدهن بئى وحزنى وتوجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لافائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ، والله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل للشفاء « وهو إباحة التزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الوسطة يزول البلاء لأحالة وتُصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ولا بد من تفاهم الشر إذا لم يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة . وصدق الله العظيم قال تعالى « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وصفوة القول أن تعدد الزوجات هو عين الرحمة بل عين الحكمة التى اهتدى بها قوم وضل بها آخرون — وأعجب من إنكار تعدد الزوجات أمر الرهبانية التى

ابتدعوها حتى قضت في الأعصر الخالية على كثير من العقول الزكية وحرمتهم
لذة الحياة من غير ما ذنب ، ولم يعد منها أدنى فائدة على عالم الحياة الدنيا - ومنشأ
تلك الرهبانية كان إما تقلداً للمسيح عليه السلام أو التفرغ المطلق إلى عبادة الحق
تعالى ،^(١) ولا يزال الكاثوليك يتمسكون بالرهبانية ويقبحون الزواج ويزدرون
المتزوج معتقدين أنه دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية ، وقالوا : إن المسيح
عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، وقارنوا بينه وبين محمد
صلوات الله وسلامه عليه القائل : « من رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه .
وبمثل هذا كانت منسوخة في شريعته فلا رهبانية في الإسلام . وانتهى بهم الأمر
إلى النيل من كرامة نبيينا الصادق الأمين قائلين شتان بين من غلب على نفسه
وبين من استرسل مع هواها فأرضاها - ولا يخفى بطلان هذه الدعوى فإنه لا تنافي
بين الصلاح والزواج ، وقد تزوجت الرسل قبله وهم أولوا النفوس الزكية والهيم العلية
بشهادة قوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » على
أن تقليد السيد المسيح في الرهبانية يفضي إلى خراب البيوت وفناء الأمم وانقراض
النوع الإنساني . ولا يخفى أن هذا يناقض مقتضيات الخلافة والعمران . وهادم النظام
الأكوان « من يهتدي الله فما له من مضل ومن يضلل الله فما له من هاد » .

المحاضرة الرابعة

سر تعدد زوجات المصطفى

كثيراً ما يتساءل الناس : لماذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع
نسوةً جمعاً ومنع الأمة من الزيادة على الأربع ؟ فإن قلتم : إن الله هو الذي عمل
ذلك بنص الكتاب والسنة وهذه خصوصية للنبي صلوات الله وسلامه عليه . قلنا :
نعم ولكن الخالف لا يصدق الكتاب والسنة ، ويقول الخالف : إن منزلة النبوة

(١) راجع كتاب الابداع في مبحث تقسيم البدعة إلى حقيقية وإضافية .

التي ادعاها محمد كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات . فنقول له :
إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم يكن فيما فعله بدعا من الرسل فذاذك داود
وسليمان عليهما السلام قد تزوجا كثيراً من النساء وهما ذانك الرسولان اللذان
لايسع عاقلاً إنكار نبوتهما أو احتقار شريعتهما وما أتيا به من الصحف السماوية .
ونذكر لك في زوجات المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ما لو تدره عاقل منصف
لرجع عن غيه واهتدى إلى الصواب فنقول :

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص ما ليس لأمته ،
وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه كما تقدم ،
وغير خاف أن هذا لا يكفي لاقناع المخالف الذي ندد بالنبي صلى الله عليه وسلم
فندكر لك من أسباب ذلك خلاصة عادلة من الكتب الصحيحة والتاريخ الصادق
توافق الواقع ويرضاها العقل السليم .

فاعلم أن أول أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه خديجة تزوجها قبل
البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان سنها أربعين سنة ، وكان صداقها
عشرين بكرة من الإبل . ولم يتزوج عليها النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفيت
رضى الله عنها ، وكانت متزوجة قبله بـ رجل اسمه (هند) وولدت منه ولداً اسمه (هالة)
فكان ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وسبب زواجها به أنه لما قدم غلامها
(ميسرة) إلى سيدته خديجة اللبية الحازمة وأخبرها بما شاهدته من بركات النبي
صلوات الله وسلامه عليه بعثت هي إليه فقالت له : يا بن عمي إني قد رغبت فيك
لقربانتك وأمانتك وصدق حديثك — وكانت خديجة مرغوباً فيها لشرف نسبها
ورفعة قدرها بين قومها — فعرض النبي صلوات الله وسلامه عليه الأمر على أعمامه
فوافقوه على زواجه بها وتوجهوا معه إليها وأنتموا عقد الزواج بينهما على ما هو معروف
في كتب السير .

وقد قضى النبي صلوات الله وسلامه عليه شبابه وطائفة من كهولته ولا زوج
له إلا خديجة . ماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت معه

خمساً وعشرين سنة ، ولدت له فيها جميع أولاده سوى إبراهيم فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو في أول عنفوان شبابه ، وقد كانت العرب يكثر من الزوجات ، حتى إن منهم من كان تحتة العشر والعشرون امرأة في وقت واحد فلو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لاتخذ من الزوجات من شاء خصوصاً من الأبنكار ، وهو في أول شبابه واستكمال قواه ، لاشرع يحول بينه وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه من قضاء مآربه وتمتعه بلذة الحياة — ولا سيما وقد كان مرغوباً فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم الأخلاق وحميد الخصال والجمال الذي فاق به يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(الثانية) بعد أن ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن جاوزت الخامسة والخمسين ، وقد كانت من السابقين إلى الإيمان وهاجرت مع زوجها السكران بن عمرو الأنصارى إلى الحبشة في المرة الثانية . مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة وقد كانت أسلمت قبل ذلك وخالفت قومها وأقاربها وبني عمها ، فما أجل ما فعله النبي صلوات الله وسلامه عليه من الرحمة بها وتعويضها خيراً مما ضاع منها ، بل هو عين الحكمة ومنتهى الشفقة والحنان ، فقد مات عنها زوجها وأصبحت لا حامى لها ولا مدافع عنها سوى أقاربها الذين خالفت دينهم وأسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بها حاية لها أن تصل إليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد بعلمها ، ولولا ذلك لارتدت على أعقابها خاسرة لتوالى المحن وكثرة الفتن التي كانت تحيط بها كما يشهد بذلك التاريخ العادل .

(الثالثة عائشة رضى الله عنها) مات أبو طالب لشهر من موت خديجة رضى الله عنها وبموته فقد النبي صلوات الله وسلامه عليه رجلاً كان يناضل عنه ويصد عنه هجمات الأعداء ما استطاع ، فبعد موته أخذ الأمر يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى أن يجعل بينه وبين قريش رابطة قوية فعقد على السيدة عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنه ، وهى بكر صغيرة بين السادسة والسابعة من عمرها — ذلك أن

أبأها الصديق رضى الله تعالى عنه كان صدرا وجيها معظما فى قريش ، واسع المال عزيز الجانب . يرشدك إلى ذلك مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع أنها قاصر ، وأنه لم يدخل بها إلا وهى بنت تسع سنين ، فلم تكن بالعقد عليها محلا لقضاء شئ . من المآرب الشهوية حتى يميل إليها نظر النبي صلوات الله وسلامه عليه أو غيره — ولكنه نظر الحكمة والسادد الذى أيد الله به رسوله الأكرم وحببيه الأمين الأعظم .

(الرابعة حفصة) وهذا الاعتبار هو الذى دعاه إلى التزوج بحفصة بنت عمر ، ومكانة عمر فى العرب معروفة ، فلم يتزوج النبي من حفصة لحب أولرغبة وإنما ليتمكن أواصر هذه الجماعة الإسلامية ، ولأنه قد استشهد زوجها الأنصارى خنيث ابن حذافة قى واقعة بدر ، وحفصة كانت مواسية للجرحى فى الميدان فكان ذلك الزواج مرضاة للشهيد وزوجته ووالدها أجمعين .

(الخامسة أم حبيبة) — ومن هذا القبيل تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب الأموى وتسمى « هنداً . أورملة » وهى التى نبذت دين أمها هند وأبيها أبى سفيان فخل قريش . زعيم القوم وكبير العشيرة . أبى معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة المهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها تسمى ، فتنصر زوجها هناك وثبتت هى على الإسلام ثم مات زوجها هناك أيضا ، فكتب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النجاشى ليزوجها إياها ، فابعها النجاشى ذلك فسر خاطرها سرورا لا يعرف مقداره إلا مولاهما الذى يعلم السر وأخفى ، فأكرمها ولطف بها . والذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة . وكل من اطعم على التاريخ واهتدى منه إلى الصواب يعلم مقدار ما كان بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين بنى أمية من العداوة ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان والد معاوية ألد بنى أمية عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فإنه لم يعتنق الدين الإسلامى إلا بعد أن فعل بالمسلمين كل ما قدر عليه من أنواع الإيذاء الشديد ،

فتزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه نسب ورابطة « تكون له في الجملة » وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه وعن المسلمين ، كما أنه اختارها لنفسه لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها خبا فيه وخوفا عليه ففي عدم حمايتها ووقايتها « وقد مات زوجها » تمرىض إلى مقاساة الشدائد والأهوال . واختارها لنفسه أيضاً لشرفها في قومها ، فلو أنها زوجت من غير كفء لا يتخذ بنو أمية ذلك سبيلا إلى إثارة الفتن بين القبائل وإيقاد نار الحرب بأغراء قومهم وحلفائهم بالمسلمين على قلة عددهم وضعف عددهم — فما أجملها من هداية ، وما أكرمها من حكمة .

(السادسة جويرية) كانت الأسرى من النساء يُتخذن إماء إما للبيع وإما للخدمة ، لا يسوى بينهما وبين الحرائر في شيء ، وقلما فزن بنعمة العتق فأراد النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يُعلمَ المسلمين بالعمل بنفسه ما ينبغي أن يصنعوا بما في أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يصون سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بجويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق واسمها (بُرّة) فقد كانت من سبايا بني المصطلق فتزوجها بعد أن أعتقها ليقتدى به المسلمون فأعتقوا من كان بأيديهم من نساء بني المصطلق إكراماً لمصاهرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم . فأسلم بنو المصطلق جميعاً فكانت (جويرية) رضى الله عنها أئمن امرأة على قومها — فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهماً ، فوُقت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس ، فجاءت إلى الرسول فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومهم ، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت ، وقد كاتبتني ثابت على تسع أواق فأعنى على فككا . فقال : أو خير من ذلك ؟ فقالت : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله : قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون ؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق ، فبلغ عتقهم

مائة بيت بتزوجه عليه الصلاة والسلام إياها « متفق عليه — فانظر إلى ما قصد الرسول من تزوجه بها فيأله من صنيع مليء رحمة وحكمة .

(السابعة صفية) ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ومن أشرف بيوت اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت ممن اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم . فعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : « لما دخلت صفية على النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لها رسول : اختارى فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعثقك فتلحقى بقومك . فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام فآله ورسوله أحب إلى من العتق وأن أرجع إلى قومي . قال : فأمسكها رسول الله لنفسه « رواه غير واحد . وقد رضيته بعلا مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق .

(الثامنة أم سلمة) البسمة (هنداً) زوج أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وهى (برة) بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع مات أبو سلمة ومعهما أربع بنات : برة وسلمة وعمرة ودرة . فأراها النبي صلوات الله وسلامه عليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت : إني امرأة مسنة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة ، فأجابها على لسان رسوله يقول : الأيتام أضهم إلى ، وأدعو الله أن يُذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهديات والعقيات من أقوى الدواعى للاسراع فى طلبها وعطفها عليها ورحمة بيناتها وصلة لرحمها ، ووفاء بحق أخيه من الرضاع ، وإيواء لصغاره من بعده — ولا ريب أن هذا الصنيع عين الحكمة ونهاية الكرم .

(التاسعة زينب ابنة جحش) ومما حوى من الحكم أعلاه ومن المصالح أغلاه تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزينب ابنة جحش امرأة مولاه زيد بن حارثة الذى

تبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد — ذلك أن زينب كانت بنت عمه النبي أميمة بنت عبد المطلب ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنات من والدها لأول الأمر ، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إباؤها وأخياها عبد الله بن جعش ، وعدّ هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها آية « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » فكأنه أرغمها على زواجه بما ألهه الله من المصلحة لها والمسلمين في ذلك — ولو كان للرجال سلطان على قلبه لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في رواه وجدته مع نقاء رحمها وطيب فمها ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه ، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعق والحريّة — لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصاً إذا كان معاشرراً له من صغره بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض متى تعاشرُوا فكيف يظن أو يتوهم أن النبي صلوات الله وسلامه عليه الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وخاطبه بقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ، أم كيف يخطر بالبال أن من عصمه الله ظاهراً وباطناً وحفظ قلبه من كل دنيسة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ، ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو الرؤوف الرحيم لم يبال بإباء زينب ونفورها من زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة ، فما كان يصح له وهو سيد المصلحين أن يكره امرأة على التزوج برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبي صلوات الله وسلامه عليه يجد من نفسه أن هذا التزوج مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي فيه رحمة للأمة ، وذلك أن

التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه بالشرف والحسب فكانوا يعطون الدّعى جميع حقوق الابن ويُجْزَوْنَ عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب ، وهي عادة جاهلية رديئة ، أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الحق الصريح ولا يجري من أحكامه إلا ما له أساس صحيح ، لهذا أنزل الله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل » . ثم قال : « ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » فهذا هو العدل الالهي ألا ينال حق الابن إلا من يكون ابناً . أما المتبنى فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين . فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدّعى لمن تبناه وأن يجعلوا له شيئاً من حقوق الابن ، وشدد الأمر حتى قال : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو عن الكلمة تصدر من غير قصد كأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني لا عن قصد التبنى ، ولكنه لا يعفو عن الذي يقصد منه الالتصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفاً من قبل ، وكان من عادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالاً صالحاً تتأسى به النفوس وتقتدى به الأمم ، وحتى يمحى أثر تلك العادة السخيفة التي كانت شر وبال على أهلها ، من ذلك مسألة الحلق في الحديبية وكيف خالفه جميع الصحابة حتى حلقوا فافتدوا به . وعلى هذه السنة كان تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزینب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط تلك العادة السيئة كما ألّنى حكمها بالقول الفصل — لهذا أرغم النبي صلوات الله وسلامه عليه — زینب أن تتزوج بزيد وهو مولاه ومتبناه . وبعد أن صارت زینب إلى زيد لم يذهب إياؤها الأول وجفوتها له ولم تحسن أخلاقها معه بل شمتت بأنفها خيلاء وكبراً إذ كانت من صميم قریش وهو مولاها ، وصارت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه أصلاً وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه . فاشتكى منها إلى النبي المرة بعد المرة

وهو عليه الصلاة والسلام مع علو مقامة يغلبه الحياء فيتمهل ويتأني في تنفيذ حكم الله ولا يجعل فكان يقول لزيد : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

ولامه الله على ما كتم في نفسه من أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال تعالى « وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » فكان عليك أن تبادر بتنفيذ كلمته وتقرر شرعه ، إلا أن زيدا لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة المرذولة ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقا دون مخالفتها كما قال « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناهما لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لأدعيائهم ، وأكد ذلك بالتصريح في نفس الشبهة بقوله « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا » وقد قالت العرب إذ ذاك : تزوج محمد حليمة ابنه . وأما قولهم إن النبي صلوات الله وسلامه عليه رأى زينب بعد أن تزوجت بزيد فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب فسمعت التسييحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها . إلى آخر ما حكموه : فقد قال الإمام أبو بكر بن العربي : إنه باطل لا يصح النظر إليه فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن هناك حجاب يمنعها منه فكيف تنشأ معه وينشأ معها وينظرها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد الهوى بعد العدم ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات ١٥ باختصار ..

(العاشره) — وتزوج صلوات الله وسلامه عليه وهو بمكة لعمره القضاء ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ولا يخفى ما فى ذلك من البر وحسن الصلة . وقصارى القول هكذا كانت سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه فى جميع تزوجاته فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أملاك لشهوته منه وقت كان فتياً لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن الله تعالى جعله سيد الصابرين أولى العزم وأن زواجه بهن لم يكن عن شهوة ، بل كان ذلك مواساة لهن وحفظاً لشرفهن وشرف أزواجهن الذين تركوهن وهم صرعى فى ميادين الجهاد — وكيف يظن عاقل أنه صلوات الله وسلامه عليه — وقد بلغ من السمو والعلو الغاية — يتزوج مثل سودة بنت زمعة التى تفوقه سناً إلا ليحفظ للمجاهدين والمجاهدات فضلهم وفضلهن ، فليت شعرى أى شهوة وأى غرام وإنما هو السكال والأباء والشرف وحسن الخلق والمكافأة بحسن الصنيع .

هذا كله على فرض أن النبي صلوات الله وسلامه عليه تزوج هؤلاء السيدات وهن سودة بنت زمعة . عائشة . أم حبيبة . حفصة . جويرية . صفية . أم سلمة . زينب . ميمونة . بعد تحريم ما زاد على الأربع بقوله تعالى « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما إذا كان قبل ذلك كما قال بعض المحققين فلا حاجة بنا إلى التماس شيء من تلك الأسباب . على أن ميمونة بنت الحارث الهلالية كانت آخر من تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد .

ولك أن تقول إن الله تعالى بعد ذلك كله حرم عليه أن يتزوج غيرهن ، وأن يستبدل بهن أزواجا فكان للمسلم بكل من الأربع غيرها بحيث يطلقها ويتزوج غيرها . والرسول محرم عليه ذلك . قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مَلَكَت يمينك وكان الله على كل شيء »

رقيقاً « أى لا يجوز لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له زواج أخرى ولا أن تبدل بهن من أزواج فتطلق واحدة وتزوج أخرى مكانها — وقال بن عباس : إن النبي لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكرهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن — فتبين من هذا أن القانون قد عامله بالشدة فجعل لمن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقاً ولا استبدالاً فكثرة العدد تقابل الحصر والمنع — وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالاً وطلاقاً فلئن ضيق عليهم في السك فقد ضيق عليه في الكيف . ولئن وسع عليه في السك فقد وسع عليهم في الكيف فالمساواة متعادلة ضيقاً وسعة — والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

المحاضرة الخامسة

الحث على الوفاء والتنفير من الأخلاف

الوفاء والإيفاء الأتيان بالشئ وافياً تاماً غير منقوص ، ومنه قوله تعالى « وأوفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » وقوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ويقال لمن لم يوف الكيل والميزان : أخسر الكيل والميزان . ولم يف بالعهد : غدر ونقض . فلكل كلمة موضع يليق بها — والعهد الذى أمرنا بالوفاء به عبارة عما يلتزم به الإنسان لغيره وهو بعمومه يتناول ما عاهد الله عليه العبد بمقتضى الإيمان من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به الدين الحنيف من الأوامر والنواهي ويتناول أيضاً كل ما يلتزمه العبد باختياره فيما بينه وبين العباد في عقود المعاوضات من الشرائط ، وكذا الوعود العامة بين الأفراد ، وأنواع التحالفات التى تبرم بين الأمم والشعوب ، وإجمالاً هو كل ما يعهد إليه لأجل احترامه والحفاظة عليه ويطلب منه القيام به ، ويراد به فى الغالب ما يعاهد الناس بعضهم عليه — وعهد الله كل ما عهد إلى عباده رعايته وحفظه والقيام به والتلبس به من جميع التكاليف

الشرعية ، اعتقادات ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاق فاضلة ، فهو مرادف لمطلق العهد — والعقد في الأصل ضد الحل وهو الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض — ويستعمل في الأجسام كمعقد الحبل وعقد البناء ، ثم يستعار للمعاني كمعقد البيع والعهد وغيرها ، ومنه عقدة النكاح — ويقال عقد الميمن وعقد النكاح أبرمه ، وعقد البيع أو الشركة مع فلان — ويقال عاقدته وعاهدته ، وتعاهدنا وتعاهدنا أبرمنا ذلك وأمضيناه فهو على هذا مرادف للعهد ، وبعضهم يفرق بينهما بأن في العقد معنى الاستيثاق والشد ولا يكون إلا بين اثنين — وأما العهد فقد ينفرد به الواحد ، والوعد في الأصل الخبر بالخير في المستقبل . وشاع استعماله في العهد —

فضله وأثره في الأفراد والأمم — ثم إن الوفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض وألزم الواجبات التي فرضها العليم الخبير حفظاً لنظام الميمنة وبقاء للعمران بدوام الثقة ورواج الصناعات والتجارات ، وتبادل المنافع الحيوية التي لاغنى عنها بين الأفراد والأمم ، وإن الغدر والأخلاف لمن الذنوب الهادمة للنظام المقوضة لدعائم العمران ، القاتلة للأمم والشعوب ، وما فقدت أمة الوفاء بالعهد الذي هو ركن الأمانة ، وقوام الصدق في المعاملات إلا وحل بها من أنواع العقاب الإلهي ما تستحق : ولا يجعل الله الانتقام من الأمم لسيئة من السيئات تفسو فيها مثل سيئة الأخلال بالعهد ، والأخلاف بالوعد ، الذي هو شر أنواع الكذب ، وأخس ضروب الخيانة .

أنظر حال أمة استهانت بالإيفاء بالعهود ولم تبال بالترام العقود ، تركيف حل بها عذاب الله بالأذلال والاهانة ، وفقد الاستقلال وضياع الثقة بينها حتى في أهل والعيال ، فهم يعيشون عيشة الأفراد متفرقين ضعفاء ، لاعيشة الأمم مجتمعين أقوياء ، وحوش مفترسة في صورة بني الانسان ، كل يخاف الآخر أن يقتله ، ويأكل ماله ، ولذا يضطر كل واحد منهم إذا تعاهد مع أي إنسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر عليه ، ويحترس من غدره بكل ما أمكن ، حتى قل فيهم التحاب والتعاضد والتعاون ، والتناصر والتآزر في المشاريع النافعة التي تعود عليهم

بالنفع العميم ، والخير العظيم ، بل استبدلوا هذه الفضائل السامية أضدادها الوضعية كالتحاسد والتباغض ، والتخاذل والتخاصم ، بأسمهم بينهم شديد ، ولكنهم أذلاء كالبيد ، ولو كان في الناس وفاء لسلخوا من كل هذه البلايا والمصائب وكانوا أسعد الناس وأرقى الأمم .

من أجل هذا جاء الحث عليه في الكتاب والسنة فقال تعالى ترغيباً في التحلى بفضيلة الوفاء ، وتنفيراً من الأخلاف « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » وقال جل شأنه « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعل الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون » وقال جل ثناؤه « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فأوجب على المؤمن أن يحترم الوفاء بما تعاقد عليه مع غيره وارتبط به ، وقال جل ذكره في صفات البررة الكاملين « وللفوفون بعهدهم إذا عاهدوا » وهم الذين إذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة إلى أهلها ، وإذا نذروا وفوا ، وإذا حلفوا لم يحنثوا ، وإذا تعاقدوا لم يغرروا . وما جاء في التنفير من خلف الوعد ونقض العهد قول العليم الحكيم « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » والمقت أشد البغض . وهذا يتناول نقض العهد كما يتناول الكذب في القول . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أومن خان » متفق عليه . فجعل خلف الوعد من أمارات النفاق العملى وهو التظاهر بالتدين مع تركه باطنياً — وهذا إذا وعد غيره وفي نيته عدم الوفاء ، أما إذا كان حال الوعد عازماً على الوفاء ولكن عرض له مانع منه أو بدا له رأى فلا يذم ، فقد روى الطبراني أنه صلوات الله وسلامه عليه قال : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخاف » . لأنه حينئذ يظهر خلاف ما يبطن وهذا كذب وغش وخيانة .

وحسبنا أن الله جل ثناؤه أثنى على إسماعيل عليه السلام بقوله « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » قدم صدق الوعد على

الرسالة والنبوة لأنه لا يمكن أن ينال الرسالة والنبوة من لم يتعمل بهذه الصفة الجليلية — صدق الوعد — فهي كالمقدمة لها ، فقد وعد إسماعيل أباه الخليل عليهما السلام أن يصبر على الذبح فوفى بوعده — ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى في الوفاء . روى « أنه وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحي بيدي . فذكر الرسول وعده لأبي الهيثم فجعل يقول : كيف بوعدي لأبي الهيثم ؟ فأثره بالخادم على ابنته فاطمة وفاء للوعد مع شدة حاجتها إليه إذ كانت تدير الرحي بيدها الكريمة » — وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع في قبضته الهرمزان فأمر بقتله ، فطلب إليه شربة ماء فأتى له بها فطلب الأمان حتى يشرب ، فلما : أعطاه أمير المؤمنين الأمان أراق الماء على الأرض وامتنع عن الشرب وقال : الوفاء نور أبلغ . فلم يسع عمر رضى الله عنه إلا أن يخلى سبيله . وبعد ذلك أسلم الهرمزان فقال له عمر : ويحك أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي كان جزعا — والأنصار رضى الله عنهم مثل أعلى في الوفاء أيضاً ، فقد بايعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على نصرته ، فلم ينكثوا وضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل نصرته — قال زيد بن ثابت : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال : إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له : كيف نجدك ؟ قال : فأتيته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم . فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : إني في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام وقل : إن سعد بن الربيع يقول جزاك الله فإنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل إني أجد ربح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه وفيكم عين تطرف . ثم لم يبرح أن مات ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره » .

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أعرابياً نصيبه وقال : قسمته لك . فقال ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى حلقه — فأموتَ وأدخل الجنة . ثم أتى بالرجل قد أصابه سهم حيث أشار وكفن في جبة النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه » — رواه البخارى ومسلم .

والوفاء في ذاته معقول الفائدة وحسن لدى العقول السليمة ، لذا كانت العرب في الجاهلية يقدرونه قدره ويرفعون من شأن من اشتهر به . حتى كانوا يضربون بهم الأمثال ويلهبون بذكرهم في الأندية والمجتمعات ، ويتزعمون بمدحهم وحسن الثناء عليهم ، وينقادون لأوامر الأوفياء انقياء العبيد للسادة . ومن اشتهر بينهم بالوفاء السموءل بن عدياء . وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر الرومان استودع السموءل دروعا له . فلما مات امرؤ القيس طلبها منه ملك من ملوك الشام وهو الحارث بن المنذر فأبى ، فعزاه من أجلها فتحرز منه السموءل فأخذ ذلك الملك ابنا له خارج الحصن وصاح قائلاً : يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إلى الدروع وإلا ذبحت ابنك . فقال السموءل : أجلتى . فأجله فجمع أهل بيته وشاورهم في الأمر فكل أشاروا بدفع الدروع إليه وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح أشرف عليه وقال : ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه — وكان يهوديا — وانصرف الملك ووافى السموءل الموسم بالدروع فدفعها إلى ورثة امرئ القيس — فانظر كيف فرط وتهان في فلذة كبده ومهجة قلبه وتركه لذلك الملك الجائر القاسى حتى فجعه فيه وذبحه أمامه ، ولم يفرط في تلك الدروع — فلا غرابة إذا طار صيته في الآفاق ، ولا عجب إذا كانوا يضربون به المثل فيقولون — أوفى من السموءل بن عدياء —

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم يؤسه — وكان له يومان يوم يؤس ويوم نعيم ، لم يلقه أحد في يوم يؤسه إلا قتله وأرداه ، ولا في يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه — فلقبه يوم يؤسه

أعرابي من طيء فقال : حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً ، وقد تركتهم على شفا تلف من الجوع ، وقد خرجت مبكراً في طلب صيد لهم ، ففتح الله على بهذا الأرنب آخر اليوم ، فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم وله على عهد الله أن أرجع إليه إذا أطعمتهم وأوصيت بهم حتى أضع يدي في يده . فرق له النعمان وقال له : لا إلا أن يضمّنك رجل ممن معنا ، فإن لم تأت قتلناه بدلا منك . وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل ، فنظر إليه الطائي وقال له : يا شريك بن عمرو وهل من الموت بحالة . يا أخا كل مضاف . يا أخا من لا أخا له ، يا أخا النعمان . فك اليوم عن شيخ غلاله . ابن شيبان قبيل أصلح الله فعاله . فقال شريك : هو على أصلح الله الملك ، فضى الطائي وأجل له أجلا يأتي فيه ، فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكا وجعل يقول له إن صدر النهار قد ولى ، وشريك يقول : ايس لك على سبيل حتى تمسى . فلما جاء المساء ظهر شبح من بعد والنعمان ينظر إلى شريك فقال شريك : ليس لك على سبيل حتى يدنوا ذلك الشخص فعله صاحبي ، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان للطائي . أما أنت يا أعرابي لم تدع لأحد في الوفاء سبيلا ، وأما أنت يا شريك فلم تترك لأحد في الجود سبيلا — وفي رواية : والله ما رأيت أكرم منكما وما أدري أيكما أكرم . أهذا الذي ضمنك وهو الموت ؟ أم أنت وقد رجعت إلى القتل ؟ والله لا أكون أنا الأم الثلاثة . ثم أطلقه وأمر برفع يوم بؤسه وأنشد الطائي :

ولقد دعيتي للخلاف عشيرتي فأبيتُ عند تجهم الأقوال
إني امرؤ منى الوفاء سجية وفعال كل مذهب مفضل
قال النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف مهجتك ؟ قال : ديني .

وقال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب لما أيقن بزوال ملكه : قد احتجبتُ إلى أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بي فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفَعني في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد مماتي . فقال عبد الحميد : إن الذي أمرت به أنفع

الأشياء لك ، وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فهذا من حسن الوفاء وصدق الايمان ، فإن عبد الحميد قد أثبت عليه مروءته ومنعه أدبه أن يتظاهر بالتعذر لأميره حتى لا يوصم بعار الغدر ، وإن كان فى ذلك وفاء لمولاه ، ولكنه رآه وفاء لا يصل إليه إلا من طريق الغدر المشين ، فأباه وعاهد أميره على أن يظل معه حتى يأتى الفرج أو يموت معه — فما أحسن هذا الأباء ، وما أجمل هذا الأدب والوفاء .

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد أن صالحه وكتب له بذلك كتاباً وأشهد عليه قال لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : مارأيك فى الذى كان منى ؟ قال : أمر قد فات دركه . قال : لتقولن . قال حزم لو قتلته وحييت : قال أولست بحى ؟ قال ليس بحى من وقف نفسه موقفاً لا يوثق له فيه بعهد ولا بعقد . قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت وهذا أيضاً مثل أعلى فى الوفاء — وفيه ثلاثة أمور (الأول) أن المستشار كان شجاعاً فى الحق ؛ مخلصاً للخليفة ، فقد جهر بالحق ولم يكتمه . (الثانى) أن الذى لا يوثق له بعهد ولا بعقد ميت ، وإن كان حياً ، لأن الحياة الصحيحة حياة النفس حياة الضمير لا حياة الجسم ، وناكث العهد لا ضمير له (الثالث) أن الخليفة خضع لسلطان الحق حين ظهر له ، وندم على ما كان منه ، ولم ير النصح مرأً على نفسه والفضل فى ذلك كله يرجع إلى الدين الحنيف وسلطانه على نفوس الأمراء والفضلاء ولئن تقوم للأمم الإسلامية قائمة إلا إذا رجعت إلى الدين ، وتمسكت به وعملت بأحكامه وتحلت بآدابه . اللهم وفق الأمة إلى طريق الهدى والرشد يارحمنا يارحيم .

المحاضرة السادسة

إعداد النشء ليكونوا رجالاً

الحمد لله خلقنا وسوانا ، وعلى موائد بره وكرمه ربانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه : « وإنك

لعلى خلق عظيم» وعلى آله وصحبه الذين صلحت قلوبهم وتهذبت أخلاقهم فدانتم لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وكانوا هم الفائزين الغالبين .

(و بعد) فإننا سنتحدث إليكم في موضوع له شأنه وخطره في حياتنا الاجتماعية ألا وهو « إعداد النشء ليكونوا رجالا كاملين ناهضين » فنقول : مقدمات :

١ — لا ريب في أن الإنسان محبوب على حب البقاء ، بل البقاء أحب شيء إليه ، وأشهى شيء لديه ، ولكنه يعلم أنه لا محالة هالك ، وأنه لا بد لوجوده من نهاية . من أجل هذا اقتضت إرادة الله عزت قدرته وجلت حكمته ، أن يجعل له في نسله بعض العوض عن ذلك ، فإنه يرى بقاءه مستمرا في نسله ، وذكره لم تنقطع بذريته ، فلا يندم على جهاده في معترك الحياة ، ولا يأسف على مفارقة ما جمعه من مال وعقار ، لعله أنه تركه لخلفه الذي هو جزء منه ، فكأنه هو الذي يستمتع به ، وكأنه باق لم يلحقه فناء ، وهذا كله مسلم لدى جميع العقلاء ، فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاء لذكره ، ويوقن أنه خليفته في هذه الحياة .

٢ — كل إنسان يشعر بالحاجة إلى معين مخلص ، ومساعد أمين يحمل عنه بعضاً من متاعب الحياة ، ويكون عُدته عند النوائب ، وردءاً له في الشدائد ، ولا أحد أجدر من الولد بثقة الوالدين في هذا المعنى . لهذا كان حب الذرية غريزة قوية في الإنسان « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » .

٣ — محبة الذرية كغيرها من المشتبهات نارة تكون ممدوحة ، وتارة تكون مذمومة . والأشياء بمآلها وآثارها ، فالممدوحة ما تؤول إلى الخير ، وتفضي إلى نفع المجتمع وبناء العمران ، ولهذا رغب صلوات الله وسلامه عليه في نكاح الولود ، وحذر من زواج العقيم ، روى أبو داود وغيره من حديث معقل بن بشار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لاتلد أفأتزوجها ؟ فنهأ ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الولود الودود فإنني مكاثر بكم الأمم »

والمذمومة ما تؤول إلى الشر ، وتفضى إلى ضرر الاجتماع وفساد العمران : بارتكاب المظالم ؛ وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات لأجلهم ، ومن سوء تربيتهم .

هذا وإن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض ، وألزم الواجبات التى لا يصح أصلاً التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وغيرهم من حديث على رضى الله عنه فى معنى الآية قال : « علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأدبواهم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومروا أولادكم بامثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار » . وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم » فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم أحسن الأدب . فعلى الأبوين أن يقوموا بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه : يحبيان إليه النافع من الأعمال ، والطيب من الأخلاق ، وينفرائه من الضار منها بقدر ما يسعه إدراكه . وروى البيهقي عن أبي رافع « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمية وأن لا يرزقه إلا طيباً » والصبي أمانة فى عنق والديه يُسلان عنها فى عرصات القيامة ، وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش وصورة ، فهو قابل لكل ما ينقش فيه ويغرس ، قبول العجينة فى يد الخباز ، ومستعد للتوجه به إلى أى جهة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإما أبواه يهودانه وينصرانه ، ويمجسانه » متفق عليه من حديث أبي هريرة . ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلية والطبع المنهى لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد بحكم البيئة — ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم فى اتباعهم لأناسهم والميل إلى أديانهم انحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة — فإن عود الخير

وعلمه نشأ عليه ، وكان سعيداً في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك في نفسه ، وكان شقاء وبلاء على أمته ، وكان الوزر في رقبة ولي أمره والقيم عليه .

وأول ما يجب العناية به من أمر الطفل أن يختار له حاضنة مهذبة ومرضعاً صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا خير فيه ولا بركة ، فإذا نشأ منه الطفل اعجبت طبيئته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث ، وهذا سر تحريم لحوم السباع والوحوش من الطير والبهائم ، فإذا فصل من الرضاع لوحظ في تربيته ما يأتي (١) من واجب الوالدين أن يُعوّداً الطفل على القليل من الغذاء . وبحولاً بينه وبين تناول كل ما يميل إليه من ألوان الأطعمة ، فإن أول ما يغلب على الصبي شهوة الطعام والشره في الأكل وذا مضرّ به . (٢) أن يمنعه من النوم نهائياً ، فإنه يورث الكسل . (٣) يمنعه من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بطريق الخيلة ، بل يُعلم أن الرفعة في الإعطاء ، والدناءة في الأخذ إن كان الأخذ من أولاد الأغنياء ، وإلا فهو لئوم وخسة . كما يمنع من الخلف رأساً صادقاً أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك من الصغر . (٤) يعلمانه آداب المجالس وإذا ظهر منه فعل حميد أو خلق جميل كالصدق والعفة والشجاعة مدح به وجوزى عليه بما يشجعه على المثابرة عليه ، وإن ظهر منه فعل ذميم أو خلق قبيح كالكذب والخيانة والجبن ، ذمه أمامه ، وأنبه عليه (٥) عندما يبلغ حد التمييز يحولان بينه وبين مخالطة الأشرار وفاسدى الأخلاق وغشيان الملامى وأما كن الخلعة والفسوق ، ويحببان إليه الاشتغال بما يفيد وينفعه في دينه ودنياه . من صناعة أو تجارة أو زراعة ، مع تعويده على القيام بالفرائض الدينية بعد تعليمه واجباتها وآدابها^(١) (٦) أن يترك له فرصة للرياضة حتى لا يسأم العمل وأن يتغاضى عما فرط منه من الهنات الهينة التي لا تؤدى إلى فساد نفسه وخلقه إذا فعلها خفية

(١) فقد روى الترمذى من حديث عمر وابن شعيب أنه النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مهروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » .

وكان ينجل من إظهارها ، وإلا وجب تأنيبه عليها كي لا ينشأ على الوقاحة ، وعدم المبالاة بارتكاب الخازي . (٧) أن يضرب له الأمثال بالأولاد العاملين المجدين ، والشجمان المهذبن وما وصلوا إليه من رقي وسعادة بفضل جدهم واستقامتهم ، وبالأولاد المهملين الكسالى ، والجبناء الأشرار ، مبيناً له سبب تأخرهم وشقايتهم .

(٨) اجتناب الضرب والتهديد ، فقد ينتجان عكس المطلوب . ويتركان أثراً سيئاً في نفس الولد ، فضلاً عما يحدثان فيها من الجبن والكذب ، والخيالات الفاسدة .

نعم ! إذا رأى المربي أنه لا يفيد في الغلام إلا الزجر ولا يصلحه إلا التخويف فلا بأس به لكن بقدر الحاجة من غير إفراط . وعلى الجلة فالمرجى كالطبيب الحاذق الذى يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها من الدواء . ولكن لابد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية ؛ التى يفيدها الحديث الآتى على أى حال . (٩) مما يجب التنبه له قيام الأبوين بتنفيذ الخطة التى رسمها للولد عملياً بملازمتهم له ملازمة تامة فى تنفيذها كما يشير إليه هذا الحديث الشريف : « الزموا أولادكم » . فلا يكفى مجرد الترغيب والترهيب بالقول وضرب الأمثال . (١٠) إذا بلغ الصبى جد الشهوة اشتدت المراقبة حرصاً على سلامة دينه وصحته وعقله ، ومحافظة على أخلاقه وحياته ومستقبله . وأهم ما تعالج به هذه الحالة هو شغله بعمل من أعمال الحياة ، وصرفه عن كل ما يثير الشهوة ويبعثها من مرقدها ، فإذا درج على ذلك وتعود سهل عليه قطع هذه المرحلة آمناً على نفسه ودينه وصحته ومستقبله ، والقول الجامع لكل ما ذكرنا قوله جل ثناؤه : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » . أى نارا شديدة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالخطب .

نعم احفظوا أنفسكم منها بأعمالكم الطيبة ، واحفظوا أزواجكم وأولادكم من شرها بوصيتكم وإرشادكم ، وإذا كان الأب يصون ولده من نار الدنيا ؛ فلأن يصونه عن نار الآخرة أحق وأولى بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق وجلائل الأعمال ، ويحفظه من القرناء السوء .

ومن حق الولد على أبيه أن يحسن أدبه على ما وصفنا ، ويحسن اسمه ويختار
أمه ، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر
الابن وأنبه على عقوقه لأبيه ، فقال هذا الابن : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق
على أبيه ؟ قال بلى ، قال : فاهى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يفتق أمه ، ويحسن
اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك
أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سماني جُعلاً [جعرانا] ، ولم يعلمنى
من الكتاب حرفاً واحداً . فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له أجتت إلى تشكو
عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسئ إليك ؟
(أى الشر بالشر والبادى أظلم) . وتلك عاقبة من فرط فى الحقوق والواجبات ،
ورحم الله والدأ أعان ولده على بره بتوفيقه ما له عليه من الحقوق ولم يحمله على العقوق
بسوء صنيعه ، لأن الوالد إذا كان عادياً جافياً جر الولد إلى العقوق . وقد قيل :
ولدىك ريمحاتك تشمها سبعا ، وخادملك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ؛ وقريب
من هذا قول بعض الحكماء : لالع ولدىك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ،
ثم اترك حبله على غاربه . وقال يزيد بن معاوية رضى الله عنه : أرسل أبى
إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بجر ما تقول فى الولد ؟ قال :
يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة ، وبهم
نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ،
ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ،
ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت على وأنا مملوء
غضباً وغيظاً على يزيد فلما خرج الأحنف ، رضى عن يزيد ، وبعث إليه
بمائتى ألف درهم ، ومثتى توب . فأرسل إلى الأحنف نصف ذلك ، مائة ألف
درهم ومائة توب .

هذا . والسعيد من كان أنسه بالله لا بالولد : لما خرج موسى فاراً من فرعون
وقومه انتهى إلى مدين على الحال التى ذكر الله تعالى ، وهو وحيد غريب خائف

جائع ، قال يا رب : وحيد مريض غريب ! فقيل له : يا موسى الوحيد من ليس له
مثلى أنيس ، والمريض من ليس له مثلى طيب ، والغريب من ليس يبنى وبينه
معاملة ، نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بهدايته ، وأن يستعمل جوارحنا فيما يرضيه ،
إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

المحاضرة السابعة

الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى وسلم على رسول الله :
الاستقامة جميلة المبنى ، جليلة المعنى ، قليلة العبارة ، كثيرة الإشارة ،
من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فذلك الشقى المخذول المحروم .
من عرف بها عظمت بين الناس حرمة ، وعلت فيهم درجته ، وحسنت سيرته ،
ووجبت محبته ودامت بينهم مودته ، وتبوأ من قلوبهم منزلة يغبط عليها ، ورجح
من نفوسهم مكانة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل فى كل أمة ، وكان مقبولا
لدى الله والناس أجمعين « ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »
فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتماها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ،
ومن خلا منها وتجرد من ثيابها ضل سميته وخاب جده .

« ماهى الاستقامة » الاستقامة فى وضعها ضد الاعوجاج والاستواء فى جهة
الاتصاف . يقال استقام العود أو العمود إذا اعتدل . أما فى العرف فلكل قوم
فيها ذوق خاص كل قال فيها بقدر استعداده وبحسب ما حباه الكريمة منها من حظ
على قدر جده وسعيه « وكل ميسر لما خلق له » .

قال بعض العارفين : الاستقامة توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص
بلا التفات ، ويقين بلا تردد ، وتفويض بلا تدبير . وهذا العمر الحق مقام عزيز
لا يحكه إلا من تصفى كالذهب الأبريز — وقال آخر : الاستقامة اتباع الحق والقيام

بالعدل ، ولزوم النهج القويم وهذا أيضاً خطب جسيم ، ومقام عظيم لا يكون إلا لمن أشرق قلبه بالأنوار القدسية ، وطهرت نفسه من الأدران البشرية والظلمات الطبيعية وأيده الله تعالى بروح من عنده — وقليل مأم — وقال ثالث : الاستقامة كقسام الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكل — وهى على هذا المشرب عزيمة المتال لا يطيقها إلا الأكابر الواصلون . والسابقون السابقون أولئك المقربون .

ومن أجل ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى . « فاستقم كما أمرت » منازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية — ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له : قد أسرع إليك الشيب يا رسول الله : « شيبتنى هود وأخواتها » وهى الواقعة والحاقة . وسأل سائل وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة . روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتاكن مع قصرهن على حكاية أحوال الآخرة وأهوالها وفظائنها وبيان أحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى له : « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيها فإذا سمع « كما أمرت » علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه .

والقول الجامع لهذه الأقوال كلها أن الاستقامة هى المتابعة للطريقة الحمديدية مع التخلق بالأخلاق المرضية . لا سير مع الهوى والابتداع فان السير مع الهوى يعنى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ولا يفرق بين الخير والشر بل ينكسه ويعكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة والضلالة هداية والهداية ضلالة « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

مدارج الاستقامة

لها ثلاث مدارج أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة . فالتقويم يكون من حيث تأديب النفس باصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة . والإقامة تكون من جهة تهذيب النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة ، كاللحقد والحسد ، والكبر والعجب والنفاق والرياء . والاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار الإلهية والأنوار القدسية من القلوب ، وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة . فالأول تمحيص والثاني تحقيق والثالث توفيق .

علامة المستقيم في الناس

أن يكون مثل الجبل لا يذيبه الحر ولا يضره البرد ، ولا يحركه الريح ، ولا يذهب به السيل العظيم . كذلك المستقيم في الناس لا يؤثر فيه مر المصائب ولا يحوله عن ثباته صدمة البلايا ، - وهذا الوصف الأول - والثاني إذا أساء إليه إنسان ببارد القول وقارص الشتم لا يتشوش منه بل يتجاوز عنه ويعده عدما ويهمله ، بل يقابل الإساءة بالإحسان « وإذا مروا باللغو مروا كراما » والثالث : هو نفسه الأمارة بالسوء لا يحوله عن أوامر سيده وطاعة مولاه . والرابع : أن متاع الدنيا وسيل زخارفها لا يشغله عن ربه ولا يلهيه عن طاعته . وصفوا الكلام أن علامة المستقيم الصبر في الشدائد ، والنبات عند البلايا ، والاعراض عن الجاهلين والصفح عن أساء إليه ، وأن لا يكون للهوى والشهوة سلطان على نفسه ، وأن زخارف الدنيا لا تأخذه من مولاه ولا تشغله عن سيده .

آثارها في صلاح الفرد والمجتمع

إذا كان المستقيم راعياً لاشك صلحت رعيته . وإذا كان مربيّاً سعدت على

يذيه تلاميذه . وإذا كان صانعاً تقدّمت صناعته . وإذا كان تاجراً ربحت تجارته .
وإذا كان زارعاً كثر خيره ، وبورك له في عمل يديه . وإذا كان رب منزل استقام
أهله وصلحت ذريته ، ولا ريب أنه متى استقامت الأفراد وصلح حالها استقامت
الأسر ، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمة بأجمعها . فإن من لا بيت له لا أمة له
وعى عن البيان أن كل أمة يكون حظها من الرقي والسعادة على قدر حظ أفرادها
من الاستقامة وسلوك المنهج القويم والسير على الصراط المستقيم .

حث الشارع على لزوم الاستقامة في كل حال

من رحمة الله تعالى بعباده أن أرشدهم إلى مافيه الخير والسعادة وما يضمن لهم
الفوز والفلاح في الآخرة والأولى . وقد عرفت مافى الاستقامة والتحلّى بها من الآثار
الحسنة والمزايا الجليلة ، وبقي لك أن تعرف شيئاً مما جاء عن الشرع في الترتيب
فيها والحث على التجلّج بها في عموم الأحوال . من ذلك قوله تعالى « إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فانه جل شأنه قد وعدهم على
توحيدهم له تعالى ومعرفتهم بجلاله واستقامتهم على الطريقة المرضية « وعدهم »
الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكروه في الدنيا وضمن لهم النعيم الدائم
في الآخرة ، ذلك بأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى الذي هو على الحقيقة خلاصة
العلم ورأس العلوم ورئيسها ، وبين الاستقامة على أمور الدين كلها من صحيح العقائد
وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق التي هي ثمرة الأعمال وأثرها
وعليها مدار المعاملات وانتظامها . لهذا كانوا لا خوف عليهم من حقوق مكروه ولا هم
يحزنون لفوات مطلوب وضياع محبوب . هذا ما لهم في الدنيا بمقتضى هذا الوعد
الكريم من الغنى الرحيم . وما لهم في الآخرة أغلى وأعلى « وأولئك أصحاب الجنة
خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » أى من صنوف البر وأنواع الحسنات العلمية
والعملية والمآثر النافعة لهم ولأمتهم التي خلدت لهم حسن الذكرى وجميل الأحداث
ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي عمر سفيان بن عبد الله رضى الله

عنه . قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » سأله رضى الله عنه أن يبين له فى دين الإسلام وشريعته قولاً جامعاً لأمره يكفيه بحيث لا يحتاج إلى أن يسأل عنه أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه واضحاً فى نفسه مبيناً لغيره ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بالاقرار بالتوحيد لله تعالى ومعرفته بربه أولاً . ثم الاستقامة على طريقة الدين أوامره ونواهيه ، عقائده وعباداته ، معاملاته وآدابه . وهذا من بدیع جوامع الكلم التى اختص بها صلى الله عليه وسلم فإنه جمع للسائل فى هاتين الجملتين جميع معانى الإسلام لأنه إجمالاً أمور أربعة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة .

فالعقائد مستفادة من الجملة الأولى وما عداها من الطاعات والمعاملات والأخلاق الحسنة فهو فى ضمن الجملة الثانية . إذ الاستقامة امتثال كل مأمور واجتناب كل منهى .

طريق الوصول إلى الاستقامة

· إن الحصول على الاستقامة بوجه عام ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها بل من السهل الهين والميسور القريب ، فإن المرء إذا عود نفسه أن يراقب الله تعالى عند كل عمل يعمل موقناً أن الله تعالى مطلع على جميع أعمال العباد ومعتقداً أنه تعالى يجازى من أطاعه برضوانه وإحسانه ، وأنه ينزل غضبه ومقته على من خالفه وعصاه — إذا عود نفسه ذلك سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهى الله عنه . فإذا سولت له نفسه أن يأتى معصية من معاصى الله ردّها وزجرها وذكّرّها بعزة الله تعالى وجلاله ، وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم » متى لاحظ المرء ذلك وعود نفسه عليه لا يُقدم

على منكر ولا يقصر في مطلوب منه ، فتصير الاستقامة له عادة ينتقل بها من وهدة الشقاء إلى ذروة العز والسعادة ، ويخرج بها من الظلمات إلى النور بإذنه سبحانه ، فنه التوفيق ومنه الهداية .

المحاضرة الثامنة

الإنسان في الشدة والرخاء

من نظر إلى الإنسان وفكر في أحواله وطبائعه وجدده كثير العجز قليل الصبر عند نزول الشدائد والبلاء ، كثير الغرور قليل الشكر عند حصول الرخاء والنعماء . فإذا أصابه نوع مكروه كضيق وعسر ومرض وفقر وغيرها من بلايا الدنيا وشدائدها استولى عليه اليأس وملكه الجزع وظهر ذلك على وجهه وجوارحه بالتغيز والاضطراب . ثم إذا تاب إلى رشد وعاد إليه صوابه أقبل على مولاه وأكثر من التضرع والدعاء له تعالى في جميع أحواله نائماً أو مضطجعاً ، قاعداً أو قائماً ، ساكناً أو متحركاً ، مجتهداً في التذلل والخضوع . طالباً منه تعالى إزالة تلك الشدة والحنة وتبديلها بالنعمة والمنحة . فإذا استجاب له ربه وكشف عنه ما نزل به من شدة وبلية مضى في سبيله وعاد إلى سيرته الأولى واستمر على طريقته التي كان ينتهجها قبل مساس الضر وإصابة المكروه . وسى حالة الشدة والبلاء وأعرض عن شكر مولاه ولم يعرف نعمته عليه ، وصار بمنزلة من لم يشعر بمكروه ولم يدع مولاه تعالى لكشف ضر كان قد نزل به . وهذا بلا ريب يدل على ضعف طبيعة الإنسان وقلة وفائه لمولاه وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه . وفي ذلك يقول الله تعالى « وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه كذلك زين للسرفين ما كانوا يعملون » والمسرف هو الذي ينفق المال الكثير في الغرض الخسيس . وإسراف هؤلاء لأن الله تعالى إنما منحهم القوى والحواس الظاهرة والباطنة لاستعمالها فيما خلقت له من التفكير والعمل النافع ، وأغدق عليهم صنوف

الخيرات أعطاهم نفائس الأموال ليصرفوها في مصارفها المعروفة ، ووجوهها المشروعة . وما إلى ذلك من كل ما يعود على المرء وأمنته بالخير والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة . فلما استعملوها فيما لا فائدة منه وصرفوها إلى مالا خير فيه — وهى رأس مالهم — فقد أساءوا التصرف فيها وأتلفوها وأضاعوها وأسرفوا إسرافاً ذمياً ، وكانوا من حزب الشيطان الرجيم الذى زين لهم ذلك بالتسويل وحسنه بالوسوسة .

ويقول أيضاً : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . فأفاد سبحانه أنه إذا تفضل على عبده بنعمة كعافية ورخاء أعرض عن شكره وطاعته وشغل بنعمته عنه واستطال بنعم الله على خلقه وثنى عطفه متبخرأ كبرياء وعظمة . وإذا عرض له نوع مكروه كمرض وعسر أكثر من التضرع والدعاء إليه تعالى لكشف ما عرض له من المكروه .

فهذا شأن الإنسان وهذا حاله فى الشدة والرخاء كما بينه الله تعالى لنا فى كتابه الحكيم تنبيها على أن هذه طريقة ممقوتة وأخلاق مذمومة . وأن واجب الإنسان العاقل المفكر أن يكون شجاعا فى الشدائد ثابتا عند نزول البلاء ، شاكرا عند الفوز بالنعاء ، وحقه أن يكون كثير الدعاء والتضرع إليه تعالى فى أوقات الراحة والرفاهية ، ليكون مجاب الدعوة فى وقت الألم والمحنة . فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : « تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » . رواه عبد بن حميد والإمام أحمد . وعنه صلوات الله وسلامه عليه « من سره أن يستجيب له عند الكُرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء » رواه غير واحد .

وصفة القول أن الإنسان جبل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر ، كما جبل على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو . فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد . وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان وغفل عن إحسان الله تعالى إليه ، ووقع

في التى والعدوان والجحود والنكران . وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته ومبادئ خلقته ، ولكنه معذور ولا عذره ، ومخلوق عاجز ضعيف في صورة جبار عنيد ، لا يصبر على اللأواء ولا يشكر عند النعماء ، إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنايا والنقائص — وقليل ما هم . وهم الذين يرجعون إليه تعالى في جميع الأحوال موقنين بأنه وحده هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرف لها وفق مشيئته وإرادته . فلا جرم إذا أصابتهم السراء شكروا ، وإن أصابتهم الضراء صبروا ، وأفنوا إرادتهم في إرادته ، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه . وفي أمثال هؤلاء يقول الله تعالى « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » فقد وصف الصابرين بأنهم عند المصيبة يقرون له تعالى بالعبودية ، وفي ذلك تفويض الأمور إليه والرضا بقضائه . وأخبر تعالى أن جزاءهم عنده ثناء ومغفرة ورفعة شأنهم عند الله والناس وإحسان عظيم — ومنه ما يجدونه في نفوسهم من برد الرضا وحسن العزاء — وأنهم يختصون بالاهتداء لكل حق وصواب . ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى .

ولقد أرشد الخلاق العليم عباده في كتابه الكريم إلى التغلب على هذه الطبايع والسلامة من تلك الأدواء بقوله تعالى « إن الإنسان خلق هلوعا » إذا أصابه المكروه لم يصبر ، وإذا جاءه الخير لم يشكر . وقد فسره أحسن تفسير وبينه أجل بيان ، قوله تعالى « إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا » فانه تعالى كشف لنا عن خبيثة الإنسان وأظهر ما فيه من علة وجبلة ، وأنه كثير الجزع وقت الشدة . كثير الأمساك والبخل وقت الرخاء . ثم عقبه بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مُشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون » فاستنتى هذه الأصناف الثمانية المتصفين بهذه النعوت الحميدة من

المولّئين بتلك القبايح الذميمة . لأن نعوّتهم الجليلة تنم عن اهتمامهم بطاعة الخالق . والرافة بالخلق بايتاء الحقوق المالية والعطف على البائسين والمحرومين ، وتنبيه عن إيمانهم بيوم الجزاء وما فيه من هول وحساب . وخوفهم من عذاب الله — مع ما لهم من عمل صالح — وقع شهوتهم واقتصارهم على ما أحل لهم من النساء ، وإيثار الآجل على العاجل بالاخلاص والصدق والوفاء في المعاملة ، وإقام الصلاة على أكل وجهه على خلاف القبايح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب العاجل والركون إليه والاعتقار به وقصر النظر عليه . فيمثل هذه الأدوية النافعة ينجو الإنسان من الشر ، وتسلم القلوب من الجزع عند عروض البلايا ورذيلة البخل في وقت الرخاء . واعلم أن من واجب المؤمن إذا ابتلى ببليّة ونزلت به محنة أن يراعى أموراً :

(منها) أن يكون راضياً بقضاء الله عز وجل غير معترض عليه بالقلب واللسان لأنه تعالى مالك على الإطلاق . وملك بالاستحقاق . ومن كان كذلك فله أن يفعل في ملكه وملكه ما شاء كما يشاء . ولأنه أيضاً حكيم على الإطلاق منزّه عن الباطل والعبث ، فكل ما فعله صواب وحكمة ، إن أبقى على عبده المحنة فهو عدل . وإن أزالها عنه فهو فضل . ومن آمن بهذا وجب عليه الصبر والسكون والرضا والتسليم وعدم القلق والاضطراب .

(ومنها) أن يصلح نفسه بالتوبة إلى الله تعالى والانابة إليه بما فرط منه فقد تكون البلية عقوبة معجلة لبعض ما اقترف من السيئات لعله يشوب إلى رشده ويرجع عن غيه . قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » وقال « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فالجذب وقلة الأمطار ونزول الأزمات والعاهات بالناس والدواب والزروع وبحق البركة من كل شيء ، كلها من شؤم المعاصي .

(ومنها) أن يشتغل في ذلك الوقت بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا من الدعاء له . لأن الاشتغال بالذكر والثناء اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس . ولا ريب أن الأول أحسن وأفضل . ومتى صدقت في ذلك ننته

وصحت عزيمته . أصلح الله باله وأجزل له في العطاء . ففي الحديث القدسي « من شغل ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

(ومنها) أن يبذل وسعه في شكره تعالى إذ أزال عنه تلك الحنة وأن لا ينقطع عن ذلك الشكر في عوم الأحوال من السراء والضراء والشدة والرخاء فإن أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل . ومما ينفع في تخفيف وطأة الشدائد وتهوين البلايا والكروب ملاحظة أمور سبعة :

(١) مقام التوحيد وأن الله تعالى هو الذي شاء ذلك وقدره ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (٢) العدل وأنه تعالى ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه (٣) الرحمة وأن رحمته تعالى في هذا المكروه غالبية غضبه وانتقامه (٤) الحكمة وأن حكمته تعالى البالغة اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاء عبثاً (٥) الحمد وأن له تعالى الحمد التام والثناء الحسن الجميل على ذلك من جميع الوجوه (٦) العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده بحكم كونه مالكة يتصرف فيه بما يشاء كما يشاء (٧) أن الأمور لها انتضاء وأن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً . وأن كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا البلايا فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر . وهذا من رحمة الله بعباده — وكل هذا لا يمنع العبد أن يستخدم مواهبه في تلمس الخلاص من بعض ما نزل به بالوسائل المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي يسلكه المرء عند نزول البلايا وعروض الشدائد .

ولأرباب البصائر النافذة هنا مقام أقوم وطريق أسلم مما سمعت . قالوا : إن من كان وقت إصابته النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم كان عند نزول البلية مشغولاً بالبلاء لا بالمبلى . ومثل هذا المرء يكون دائماً في نكد وبلاء . أما في وقت البلاء فواضح وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها بلاء عظيم ، وكلما كانت النعمة ألد وأكل كان تألمه لزوالها أشد وأعظم . فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبدأ في هم وبلية . وأما من كان وقت النعمة مشغولاً بالمنعم ، كان في وقت البلية مشغولاً

بالبلى . ومتى كان المنعم والمبلى واحداً كان نظره أبداً على مطلوب واحد لا يتغير ، ولا يقبل . ومن كان كذلك كان وقت الشدة والبلاء وفي وقت الرخاء والنعماء مطمئن النفس هادئ البال واصلاً إلى أقصى درج الكمال ، فائزاً إن شاء الله بغاية السعادة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة التاسعة

الاقتصاد — أثره في الفرد والجماعة

الحمد لله مستوجب الحمد ، خلق بنى الإنسان وسوام ، وعلى موأند كرمه وجوده رباهم ، ورزقهم من الطيبات ، وابتلام بتقلب الأحوال ، ورددهم بين اليسر والعسر والغنى والفقر ، والتبذير والتقتير ، ليلومهم أيهم أحسن عملاً ، وينظر أيهم أثر العاجلة على الآجلة وقدم الدنيا على الآخرة ، والصلاه والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة ومرشد الأمة الذى كانت حياته المثل الأعلى فى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله واهتدوا بهداه . (أما بعد) فانا سنتحدث الآن فى موضع له خطره وشأنه فى بناء قومية الأمة ، وحياتها عزيزه قوية ألا وهو « الاقتصاد » والبيان فيه يكون بأمور : (١) الكشف عن حقيقته وبيان معناه ليقوم البناء على مفهوم ويكون الحكم على معلوم ، ويتبع ذلك أو يتصل به اتصالاً وثيقاً الكشف عما يحيط به من طرفيه الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير . (٢) بيان أثر الاقتصاد فى سعادة الفرد والجموع . (٣) عناية الشارع به لما له من الأثر الحسن الجيد ، فى حياة الأمم والشعوب . (٤) الكلمة الختامية للوضوع . فنقول وبالله التوفيق ، ومنه تعالى الهداية :

الاقتصاد والقصد : التوسط والاعتدال : من قصد فى الأمر قصداً توسط وطلب الأسد ولم يجاوز الحد ، ومنه حديث : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من لا يسرف فى الانفاق ولا يقتر ، وحديث : « القصد القصد تبلتوا » أى عليكم

بالتوسط في الأمور تصلوا إلى غاياتكم — والاقتصاد في عرف الناس إدخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة إليه . وهو وسط بين طرفين كلاهما ذميم وقبيح عند الله والملائكة والناس أجمعين : إسراف وتبذير ، وشح وتقتير — فالإسراف كالسرف مجاوزة الحد ، وهو نتيجة الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير تفريق المال كما يفرق البذر . كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، فهو نتيجة الجهل بمواقع الحقوق ، أى أنه ينفق المال ولا يعرف أين ينفق ولا أن يحسن التصرف فيه بإضابته مواضعه — والإسراف والتبذير في نظر الدين معناهما واحد ، لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال في غير مواضعه ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « التبذير إنفاق المال في غير حقه » ومعناه أن المبدّر يجهل مواقع الحقوق التي تستحق إنفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلوها ، ولكن تدفعه شهوته الخبيثة إلى مجاوزتها .

وروى عن ابن عباس وغيره ، أن الإسراف كالتبذير إنفاق المال في مساخط الله تعالى — فهو ذميم وقبيح شرعاً وعقلاً لمجاوزته الحد الذي حده الحكيم العليم لعباده في إنفاق المال بوضعه في غير مآرسم له ، ولذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : التبذير إنفاق المال في غير حقه . ولا تبذير في عمل الخير — أما الشح والتقتير أو الاقتار فهو إمساك المال والضمن به عن الواجبات التي لا بد منها ، والبخل به على نفسه وعياله ، وهو أيضاً ذميم وقبيح ، وتفریط مهين ومشين — فتحصل من هذا البيان أن الاقتصاد الحسن الجميل وقع وسطاً بين كلاهما قبيح وذميم عند الله والملائكة والناس أجمعين . قال بعض الأدباء :

ولا تك فيها مَرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال : —

تسامح ولا تستوف حَقَّك كله وأبق فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصاد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

أثره في سعادة الفرد والجماعة

وأما أثره في ذلك فظاهر جلي وواضح لا خفاء فيه — فقد دل البحث الصحيح على أن المدنية الحاضرة قامت على أربعة أركان : العلم ، المال والنظام والأخلاق النافذة . وإن كل أمة تجردت من العلم والمال والنظام والأخلاق السكرية كان الشقاء حليفها والتأخر نصيبها — والمشاهدة أصدق شاهد . وليس بعد البيان بيان — وهل يكون مع الجهل والفقر والقوضى وسوء الأخلاق في الناس خير ؟ اللهم لا . فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم ونهوض الشعوب . وبه تكون الأمة عزيزة قوية ؛ جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم ، وبفقد المال تصبح الأمة ذليلة ضعيفة ، فاقدة الهيبة ساقطة الحرمه والكرامة ، مستعدة لأن تصير فريسة للأقوياء وعنيفة المستعمرين واقعة في أفواه الظالمين .

لهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم الرحيم بأمر الاقتصاد . وحمل الناس عليه ، ونهى على الإسراف والتبذير . وسقه أحلام المسرفين والمبذرين ، كما نعى على الشح والتقتير ، وقبح من شأن المقتيرين وأهل الشح ، قال تعالى في وصف أولى الحزم والكمال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وسطاً . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله — ومعناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام — فالآية كما ترى حث على الاقتصاد وسلوك حد الاعتدال في صرف المال وهو الوسط الممدوح .

وقال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » في الآية إرشاد إلى مواضع الانفاق وهو أن يكون في مواضع البر والخير وأداء الواجبات التي فرضها الله على الأغنياء ، فتجب صلة الأقارب بما تبلغ إليه القدرة ، وحسما يقتضيه الحال ،

ومساعدة المساكين وأبناء السبيل بالتصدق عليهم ، أو بمالهم من صدقة القرض ،
لأنهم من الأصناف الثمانية ، وفيها نهي على التبذير وأهله بجعلهم من إخوان الشياطين
والمراد المائة الثامنة في عمل الشر ، أو أنهم قرناؤهم في كفران أنعم الله التي أنعمها
الله عليهم . فبدلاً من أن يشكروه عليها بامتنال أمره في شأنها وضعوها في غير
مواضعها ، فانقلبت عليهم نقماً ، وكانوا في العذاب مع الشياطين « وكان الشيطان
لربه كفوراً » كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق لأنه مع كفره لا يفعل إلا
الشر ولا يدعو إلا إليه . ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه .

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
والمراد نهى الإنسان أن يُمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله وعياله ،
وأن يتوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يجاوز الحد المعقول فيه ، فهو
نهى عن جانبي الإفراط والتفريط ، وينتج منه مشروعية التوسط ، وهو العدل
الذي ندب الله إليه عباده : وقد مثل الله تعالى في هذه الآية حالة الشحيح بحال من
ربطت يده إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها — ومثل حال من يجاوز الحد
في الإنفاق بمن يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض عليه الأيدي ،
وهو تمثيل بليغ وتصوير شنيع . ثم بين عاقبة الطرفين المنهى عنهما فقال : « فتتعد
ملوماً » عند الله والناس بما أنت عليه من الشح والتقتير « محسوراً » بسبب ما كان
منك من الإسراف والتبذير منقطعاً عن المقاصد بسبب ما جلبته على نفسك من
الفقر والفاقة ، حتى أصبحت صفر اليدين ، والمحسور في الأصل المنقطع عن السير ،
من حسره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته ، فلا انبعاث به
ومنه « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أي كليل منقطع .

وجملة القول : فالمال عماد الحياة الأولى ، وقد يكون سعادة في الآخرة ، فإذا
جمعه العبد من طريق شريف حلال وحافظ عليه على حال ترضاه الشريعة الغراء ،
أنفقه كما جمعه في طريق حلال ، فهو ممدوح وصاحبه مأجور ومحبوب لدى الله

والناس أجمعين . وإن جمعه من طريق ضييع وحرام وأضاعه في لذاته وشهواته ،
أو حرم منه نفسه وعياله فهو مذموم وصاحبه مكروه لدى الله والناس ، والله الهادى
إلى سواء السبيل .

المحاضرة العاشرة

الحسد وآثاره السيئة في المجتمع

قال حفظه الله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى وسلم على رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه :

الكلام على الحسد من وجوه : (١) بيان حقيقته والكشف عن معناه ليكون
الحكم على معلوم ، والبناء على أساس واضح مفهوم (٢) بيان ما جاء في التحذير
منه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) الأسباب التي ينشأ عنها والآثار
السيئة التي تعود على بنى الإنسان منه .

وقبل الكلام عليه من هذه الوجوه نذكر مقدمات لها بالموضوع صلة :

الأولى — كلنا يعلم ويؤمن بأن الله جلت حكمته وعزت قدرته قد أنزل
الكتاب المبين هدى للناس ورحمة . نعم إنه يهدى من تمسك به ، ويوصل من
لم ينحرف عنه إلى السعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وفي ذلك رحمة منه تعالى
بخلقه وإحسان عظيم منه إليهم « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين
الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا
لهم عذاباً أليماً » أى شأنه الهداية إلى ذلك . وأقوم الطرق وأعد لها هى ملة الإسلام
والدين القويم .

جاء هذا الدين بالأوامر والنواهي ، ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن
الحال والمآل ، وتوعد الخالفين لها والمتمردين عليها بوخامة العقوبة في العاجل والآجل .
« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » كل هذا ليسوق الناس من طريق الترغيب إلى الخير فيختموا فيه بحوا ، ويمنعهم بطريق الترهيب عن الشر فيسلموا من مخاطر الشقاء ونكد العيش ، وهو في كل ذلك حكيم عليم ، وغنى عادل .

الثانية — لا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى وبرئت من الأمراض الاجتماعية كالكبر والحقد والحسد ، وحل محلها التواضع والمحبة والرحمة .

الثالثة — لا يجتمع في قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل . ولا شك أن المعجون المركب من الصبر والعسل نكرة مجهولة وحقيقة غير معروفة لأحد ، وذلك لأن الرضاء عن الله جل وعلا في قضائه وفعله جزء من الأجزاء التي لا يتم الإيمان بدونها ، ولا تكون حقيقة الإيمان إذا لم يوجد أى واحد منها ، كما جاء في حديث الإيمان . إذا عرفت هذا فنقول :

الوجه الأول في بيان حقيقة الحسد ومعناه

قال العلماء : الحسد كراهة نعمة الغير وتمنى زوالها عنه ، سواء أتمنى انتقامها إليه أم لا ، وهو قبيح بنوعيه إلا أن الثاني أقبح وأشد حرمة من الأول . وهو ألم في نفس الحاسد لا يسكن إلا إذا زالت نعمة المحسود . قال سيدنا معاوية رضى الله عنه : « كل أحد أقدر على رضاء إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم ، من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع » .

وأما الحسد في عرف العامة فهو عبارة عن نظرة العين إلى الشيء نظرة إعجاب واستحسان ، وقد يكون ذلك عن حسد في النفس وكراهة للنعمة . وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى واتسع الوقت .

هذا الحسد المذموم وذلك المرض المشؤم هو الداء العضال الذى ابتلى به كثير

من الناس اليوم ، فأوغر صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق وحدتهم ، ففشلوا وذهبت ريحهم وتلاشت قوتهم حتى ذلوا واستكانوا وطمعت فيهم أعداؤهم . وهو أول ذنب عُصى الله تعالى به ، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه السلام إلا الحسد ، كما أن قاييل لم يحمله على قتل أخيه هابيل سوى الحسد . وأى معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرّة..أو ينالك منه سوء .

الوجه الثانى فى تحذير الشارع منه

لمثل ما ذكرنا نفر الشارع منه وجعله الله تعالى من أوصاف المنافقين إذ قال تعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسوّم وإن نصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » الحسنه النعمة ، كالرخاء والخصب والنصرة والغنيمة . والسيئة المصيبة ، كالضيق والجذب والمزيمه ، والأول الحسد والثانى الشماتة . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهما لا يضران الحسود ولا المشموت به إذا اتقى ما حرم الله عليه وابتعد عما عنه نهاه ، وصبر على مشاق التكاليف وعداوة المنافقين ، ولم ينتقم منهم لنفسه بل فوض الأمر فيهم إلى الله تعالى . وقال أيضاً فى المنافقين و بيان ما تُكِنُّهُ نفوسهم القدرة وتحويه ضمائرهم الخبيثة من الكيد والمكر وأنواع الأذى للجماعة المسلمين « ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » أى تمنوا عنكم أى مشقتكم وشدة ضرركم قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم كانوا لا يتألمون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يفضح أمرهم ويعلم به بغضهم للمسلمين . فالحاسد مهما بالغ فى إخفاء ما انطوت عليه نفسه للحسود من الكراهة فهو لا محالة مفضوح ، ونار الحسد تتغلب عليه ويظهر حسده على وجهه وفى عينيه واسنانه . وقال تعالى فى وصف الأنصار المخلصين لله والرسول والناس أجمعين :

« والذين تَبَوَّأُوا الدارَ والِإِيمَانَ من قبلهم يُحِبُّونَ من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » أى لا تضيق صدورهم من رؤية النعمة عند إخوانهم ولا يفتخرون بها ، فأننى عليهم بسلامة قلوبهم من الأذى وصفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم من أدران الحسد .

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه وليست بثابتة في صحيفة عمله الصالح . ذلك أن الحسد في المعنى اعتراض على الله تعالى فيما لا عذر للعبد فيه ، لأنه لا تضره نعمة الله على أخيه والله تعالى حكيم في قسمة الحظوظ بين عبيده ولا يضع الشيء في غير محله ، فكأن الحاسد يعترض عليه تعالى في قسمة المعيشة بين خلقه ، وينسب ربه للجهل والسفه ، ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردت حسناته ولم تبق في ديوان عمله ، ومن ثم قال بعض العارفين « الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد » وقال صلى الله عليه وسلم « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » .

وقال في النهى عن الحسد وأسبابه وآثاره : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » . فإن التباغض من أسباب الحسد والمقاطعة والغيبة من آثاره السيئة ونتائجه المؤلمة . رواه البخارى ومسلم . وقال أنس رضى الله عنه : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج (الطريق في الجبل) رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تَنْطَفُ (تقطر) لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال . فلما كان من الغد قال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل . وقال في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم ، تبعه عمرو بن العاص فقال له إني لأحيت أبى (خاصته في أمر) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ،

فإن أردت أن تؤوييني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم فبات عنده ثلاث ليال — يرقب أحواله في حركاته وسكناته — فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال : غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هُجْرَةٌ ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عمالك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً ، يوجب تلك البشارة العظيمة فما الذي بلغ بك ذلك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله . فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطبق . رواه أحمد بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم . ولا حرج على فضل الله تعالى أن يمنح الخير الكثير على مثل طهارة القلب من درن الغش والحسد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه سيصيب أمتي داء الأثم » قالوا : وما داء الأثم ؟ قال الأثر « محرقة كفر النعمة » والبطر « محرقة الطغيان عند توفر النعمة » والتكاثر « من جمع المال » والتنافس في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى « مجاوزة الحد والاعتداء على خلق الله » ثم يكون الهرج « بفتح فسكون القتل . رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . وفيه تحذير شديد من التساحن في الدنيا ، والتحاسد عليها ، فإن ذلك أصل القتين ، وعنه تنشأ الشرور والبلايا .

وحسبكم في ذم الحسد وقبحه أنه يفسد الطاعات ، ويأكل كل الحسنات ويبعث على الخطايا والبلايا ، وأن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا ينال من الناس إلا بفضاً وذمًا . ومن الملائكة إلا لعنة . ولا ينال من الدنيا إلا جزءاً وغماً ، وعند النزاع إلا شدة وهولا وفي الموقف إلا فضيحة ونكالا .

الأسباب الداعية إلى الحسد

من أهمها العداوة والبغضاء . فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمته فيه ، وظنها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساء ذلك لأنها ضد مراده ومرغوبه ، وهذا مما وصف الله تعالى به المنافقين كما سبق . والحسد يسبب البغض ، وكثيراً ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى في إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة . وهو بغى شديد وظلم فاحش (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . تجد بعض العاطلين من الناس إذا وُصف عنده حال إنسان وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤلمه ، وإذا وُصف له بسوء وشر فرح به ، فهو أبداً يكره الخير للناس ويتألم منه ، ويجب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وخزائنه ، وهو من فضل الله وجوده « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ويقول العلماء الباحثون : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس . والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ، ومعالجة هذا شديدة عسرة ، لأن الحسد بسائر الأسباب أسبابه عارضة يمكن زوالها فيزول ، وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فلذا تعسر إزالته .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم وإن سميت باسمه فى لسان الشرع بل هى مباحة فى الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة فى الأمور الدينية قال تعالى فى مقام الحث على أسباب الوصول إلى النعيم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » أى وفى أحوال هؤلاء الأبرار وما صاروا إليه من أنواع النعيم المقيم فليغرب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى . وأصل التنافس التغالب فى الشيء النفيس الذى تحرص

عليه نفوس الناس ويحب كل واحد أن يستأثر به ويضن به على غيره . وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلا أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لافى النعيم الحقيقى الفانى — وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . أى بادروا إلى ما يوصلكم إلى المغفرة والجنة من أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المنهيات والتحلل بالفضائل والتخلل عن الرذائل . وإنما تكون المسابقة عند خوف القوت كالعبدین يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد ويؤله أن يسبقه صاحبه إلى مولاه فيحظى بمنزلة لا يحظى هو بها . والمنافسة أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يحب زواله عنه ، فهى فضيلة محمودة منشؤها علو الهمة .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة المعيون على ماصح فى السنة ، روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أو أمر — أن نسترقى من العين » . أى بسببها . وذلك أن المعيان (الحسود) إذا نظر إلى شىء أو إنسان أو حيوان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجراها الله تعالى — وهل هناك جواهر خفية تنبعث من عينه تصل إلى المعيون كإصابة السم من نظر الأفعى أولا ؟ . ذلك أمر لا يقطع بإثباته ولا بتفيه .

والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به ، إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة لا بالعرائم المحترقة والطلاسم المجهولة المعنى — وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصح إنكارها . وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سقمة فقال : « استرقوا لها فإن

بها النظرة « رواه البخارى — والسفعة بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين مهملة سواد أو حمرة يملوها سواد أو صفرة . والمآراد أن السفعة أدركتها بسبب النظرة وإصابة العين . و « استرقوا لها » اطلبوا من يرقبها . هذا هو الذى يصح اعتقاده والعمل به وغيره لا خير فيه . ومما ينفع لدفع شر العائن أن يقول المرء صباحا ومساء هذا الدعاء : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . كما صحح به الحديث . أو يقول : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . رواه أصحاب السنن . ومن رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره راجع الإبداع فى الفصل الثاوى عشر صفحة ٤٢٣ من الطبعة الرابعة .

المحاضرة الحادية عشرة

الغضب وسوء عاقبته

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوّه ورحمته إلا الراحون . يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى يسير تحت لوائه النبيون . وعلى آله وأصحابه الهداة الراشدين . وبعد . فإننا سنتحدث إليكم الآن فى موضوع خطير لما له من الصلة بالحياة الاجتماعية ، ألا وهو كيف يملك الإنسان نفسه عند الغضب .

حقيقة الغضب

إن الله عزت قدرته لما خلق الإنسان معرضاً للفساد والهلاك بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجية عنه ، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل مسمى — أما السبب الداخلى فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتبخرها حتى تصير أجزاءها بخاراً يتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها هلك الحيوان . فخلق الله الغذاء وخلق

فيه قوة تبعثه على تناول الغذاء لجبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب — وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسمان وما إلى ذلك من وسائل الهلاك التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمة تنور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وعجنه بطينة الإنسان ، فإذا توزع في غرض من أغراضه وصده عنه اشتعلت نار الغضب فيه وفارت فورانا بغلي منه دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعلى البدن ارتفاع الماء في القدر ، ثم ينصب في الوجه والعينين حتى يحمرأ منه ، إذ البشرة لصفائها كالزجاجة تحكي لون ما فيها . هذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن كان على من فوقه وأيس من الانتقام منه انقبض الدم إلى جوف القلب ، وكمن فيه وصار حزناً فاصفر اللون . فإن كان على من يساويه الذي يشك في القدرة عليه تردد الدم بين انبساط وانقباض ، فيحمر لونه تارة وبصفر أخرى . والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارجه إلى داخله . ولذلك يقتل الحزن ولا يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن . فصار أثر الغضب السطوة والانتقام ، وأثر الحزن المرض والأسقام وبالجملة ففوة الغضب محلها القلب ومنها وبها غليان دم القلب ، لدفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به .

درجات الغضب وحكمة خلقه في الإنسان

للغضب ثلاث درجات « الأولى » درجة الاعتدال بأن بغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم ، وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الغضب ، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران ، وطلبها نظام المجتمع الإنساني ، فان التنافس في هذه الحياة والتراحم على مرافقها يستدعي دفاعاً قوياً عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة ،

ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض نظام الاجتماع ، لأن من لا يغضب لنفسه كان معرضاً للزوال من هذا الوجود ، أو معرضاً لأن يسخره غيره تسخير الدواب التي لا تغضب لنفسها — ومن لا يغضب لدينه فإنه يكون عرضة لتقليد القوى في كل ما يراه ويستحسنه ، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى ، ومن لا يغضب ل عرضه لا يغار على نسائه وتختلط الأنساب وتشيع الفاحشة في طبقات الأمة ، ويصبح الإنسان كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حمية — ومن لا يغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيراً معدماً — وإذا فشا سلب المال تعطل نظام العمل ، بل بطلت الأعمال التجارية والصناعية والزراعية ، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضاً ، وذلك شر و وبال في العاجل والآجل — ومن لا يغار للحقوق العامة وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، وفي مثله يقول الإمام الشافعي رحمه الله « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » أى بليد الطبع فاقد الحمية . وإلى ذلك يشير قوله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » « الثانية » درجة التفريط ، وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف في الإنسان أو يفقد منه رأساً . وتلك الحالة مذمومة شرعاً وعقلاً ، لأن من لا يغضب لنفسه أو لدينه أو ل عرضه أو لماله أو لمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله في خلقه . وفي ذلك خطر عظيم على الاجتماع لأنه مشار الفوضى في جميع مرافق الحياة كما علمت « الثالثة » درجة الإفراط وهى أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال ويطغى على العقل والدين ويندفع في سبيل الشر اندفاعاً قد يؤدي إلى الهلاك من حيث لا يدري ، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم وشر الموبقات . ومعلوم أن الغضب في تلك الحالة مذموم شرعاً وعقلاً . وتتفاوت درجات الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً . فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر جرماً وأكثر ذمّاً .

أسباب الغضب

للغضب أسباب كثيرة : منها الجدال والمزاح والسخرية بالناس ، والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان : فلا يبالي بسب الغير أو غيبته أو النم عليه ، وما إلى ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والعجب ، فإن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستحق عقلمته ومنزاته في الناس ، فإذا طالبه أحد بحق اشتاط غضبه ، وكذا إذا نهاء عن رذيلة أو عارضه في أى أمر كان ، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات ، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهيه أو يقف في سبيله . وهو في الواقع ناقص من كل وجه ، يحاول أن يجبر نفسه بكبريائه — ومنها مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة ، وطفيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك ، وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعاراً .

تلك أهم الأسباب التي تثير الغضب وتهيج به . والغضب المترتب عليها كلها قبيح شرعاً وعقلاً ، بخلاف ما كان متعلقاً بالدفاع عن النفس والدين والعرض والمال أو الحقوق العامة وإنصاف المظلومين فإنه فضيلة لا يكون إلا ممن قويت عقولهم واعتدلت طباعهم ، فأصبحوا خاضعين لسلطان الدين والعقل . ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم حيث إنه وصفهم بالشدة واللين — ولكل موضع يليق به — فقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب ، وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم ، وكانوا المثل الأعلى لمن يناضل في سبيل الحقوق العامة .

ما جاء في التنفير من الغضب

قال الله تعالى « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة والثبات والوقار — وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم

أوصنى قال : لا تغضب فردد مراراً قال : لا تغضب » رواه البخارى فى الأدب . وهو من جوامع كلمه التى خُص بها — وعن عبد الله بن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يبعدنى من غضب الله ؟ قال لا تغضب » أخرجه أحمد فى المسند — وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الضَّرْعَةَ فيكم ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » رواه مسلم بلفظ ولكنه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالضَّرْعَةَ ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه — وقال سليمان بن داود عليهما السلام « يا بنى إياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم » رواه ابن أبى الدنيا . وقال أبو الدرداء : « قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال : لا تغضب » رواه الطبرانى وغيره باسناد حسن — وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال مجاهد قال إبليس : ما أعجزنى بنوا آدم فلن يُعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بجزامته فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، والثالثة نبخله بما فى يده ونمنّيه بما لا يقدر عليه » رواه ابن أبى الدنيا . وقيل الحكيم « ما أملك فلاناً لنفسه !! قال إذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب » رواه ابن أبى الدنيا . أى فهذه خواص من ملك نفسه — وقال بعضهم : إياك والغضب فانه يصيرك إلى ذلة الاعتذار — وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم وكيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتجمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وصبر فى شدة . لا يغلبه الغضب ، ولا تجمع به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تقضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . لا يبتذل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتل . يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء .

علاج الغضب

هو إما أن يكون طبيعة في المرء وإما أن يكون مكتسباً بالمخالطة ، فن كان الغضب له طبعاً فعلاجه باجتنب الأسباب المثيرة له كالتكبر والافتخار والتعير والمزاح والجدل ، فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروض نفسه دائماً على التواضع والحلم ، ويذكرها بعظمة الله وحده وأنه مخلوق من ماء مهين ، وأنه صائر إلى الفناء وسيكون عظماً نخرة وتراباً تطؤه الأقدام ، وأرجل الدواب ، ومن كان هذا شأنه لا يليق به أن يكون متكبراً خجوراً . كما قال الإمام على رضي الله عنه : مال ابن آدم والفخر ! وإنما أوله نقطة وآخره جيفة — ومن كان غضبه مكتسباً بالعادة والاختلاط فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب المذكورة آنفاً ، واحتجاب مصاحبة الأشرار والابتعاد عنهم ، وأن يعلم أن ليس للإنسان أن يغضب إلا لدينه أو نفسه أو عرضه أو ماله ، وما وراء هذا فالغضب فيه رذيلة يجب الاحتراس منها . وهذا طريق الوقاية من الوقوع في ثورة الغضب ، فإذا ثار غضبه كان العلاج شاقاً لأنه يذهل النفوس ويخرجها عن حد الصواب والرشد ، وينسيها ما لها وما عليها من الواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأعمال مالا يصدر عن العقل — فإذا حاج غضبه وجب عليه أن يذكر على الفور قوله تعالى « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ذكر ذلك في معرض المدح للمتقين . — والكظم هو الكف ، وذلك إما بضبط النفس ومنعها عن التشفي ، أو بالصفح عن المسمى . والمعنى والمتحملين الغيظ وهو الغضب الكامن في القلب . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » رواه ابن ماجه بأسناد جيد من حديث ابن عمر . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رهوس الخلاق ويخير

عن أى الحورشاء » رواه أبو داود والترمذى وغيرهما . وقول عمر رضى الله عنه :
« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة
لكان غير ما ترون » . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول محمد بن كعب القرظى :
ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله . إذا رضى لم يدخله رضاء فى باطل ، وإذا
غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . رواه ابن أبى الدنيا .
وقال لقمان لابنه : يا بني لاتذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك .
واعرف قدرك تنفعك معيشتك (٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول : قدرة الله
على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو نفذت غضبى عليه فما آمن أن يمضى
الله غضبه على يوم القيامة ، أحوج ماأكون إلى العفو (٣) يحذر نفسه عاقبة
العداوة والانتقام وتشر العدو لمقابله والسعى فى إيذائه (٤) أن يتفكر فى قبح
صورته عند الغضب ، بأن يتمثل بصورة غيره فى حالة غضبه ومشابهة الغضب
للكلب الضارى والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء
والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع ، وبين أن يتشبه
بالأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، كى تميل نفسه إلى الاقتداء بهؤلاء . هذا هو العلاج
العلمى — وأما العملى فيقول : أعوذ بالله من الشيطان . هكذا « أمر رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه أن يقال عند الغضب » متفق عليه . فإن لم يزل بذلك
فليجلس إن كان قائماً ، ويضطجع إن كان جالساً . قال صلوات الله وسلامه عليه :
« إن الغضب جرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرارة عينيه ، وإذا
وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم » رواه
الترمذى — والأوداج عروق العنق — فإن لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل .
قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود .
والمقصود من هذا أن ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة ليتفكر فى قبح الغضب
وجمال الحلم ، ومتى اتجه عقله إلى هذه الناحية سكن غضبه روى أن أبا ذر

قال لرجل : يا ابن الحمراء — في خصومة بينهما — فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال « يا أباذر بلغني أنك اليوم غيرت أخاك بأمة . فقال : نعم فانطلق أبوذر يُرضي صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أباذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاتكىء ، وإن كنت متكئاً فاضطجع » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح والله الهادي إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثانية عشرة

الإنسان هو المقصود من العالم — إيجاد كل ما عده لأجله — الحكمة التي من أجلها خلق .

اعلم أن الله تعالى جعل الإنسان سلالة العالم وزبدته . واختصه بأنواع التكريم من اعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق وتناول الطعام بيده لا بجمه . والممكن من الصناعات . قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » على الدواب والسفن ونحوها من المخترعات الحديثة « ورزقناهم من الطيبات » المستلذات « وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً » بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة . والمستثنى جنس الملائكة أو خواصهم — فليس فضله على غيره بقوة الجسم ، فالقيل والبهر أقوى جسماً منه . ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول منه عمراً . ولا بشدة البطش فالأسد والتمر أشد منه بشطاً . ولا بحسن الالباس فالطاووس والدراج أحسن منه لباساً . ولا بالقوة على الوقاع فالجمار والمصفور أقوى منه وقاعاً . ولا بكثرة الذهب والفضة . فالملادن والجبال أكثر منه ذهباً وفضة . ولا بمنصره الذي تكون منه كما وهم إبليس لعنه الله حيث قال : « أنا خير منه خالقني من نار . وخلقته من طين » وإنما فضله على غيره بما خصه الله عز وجل من السر الذي أبدعه فيه ، والمعنى الذي رشحه له ، وأشار إليه تعالى بقوله : « فإذا سويته ونبخت

فيه من روحى فقموا له ساجدين » أى إذا عدلت خلقته وهيائته لنفخ الروح فيه .
وأصل النفخ إجرء الريح فى تجويف جسم آخر . والمراد منه إجرء الروح فيه
وتعليقها به . وما أحسن قول بعضهم :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدى السكاة عوالى المران

المران بالضم الرماح واحده مرانة كرمانة — فهذا الجسم الطينى غلاف لسرمكنون
إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره ذلك السر هو معنى الإنسانية ، وبسكنى
هذا المعنى الغريب فى ذلك الجسم المادى كان ملكا لجميع الكائنات الأرضية
يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه — والملائكة عليهم السلام لما
نهبهم الله عز وجل لفضل آدم عليه السلام تنبهوا فأذعنوا وسجدوا كما أمر —
وإبليس اللعين لما وقف عند ظاهر آدم وبدنه وتعالى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل
المعنى الذى ضمنه الله آدم والعاقبة التى جعلها له ، أبى واستكبر وكان من الكافرين —
وقد اقتدى به الكفار فى إنكار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حيث
قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم * وقالوا مال هذا الرسول
ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وقد نبه الله تعالى على أن فضلهم ليس بظاهر
أبدانهم وإنما ذلك لمعان فى نفوسهم عى عنها الكفار فقال تعالى : « أنظر كيف
ضربوا لك الأمثال » وقالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة ،
إذ مثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون « فضلوا » بذلك عن الطريق الموصل
إلى معرفة خواص النبو والمميز بينه وبين غيره « فلا يستطيعون سبيلا » إلى الهدى
والرشد — وهنا ينبه السامعين إلى أن الإنسان بنفسه لا يجسمه ، ويحذرهم من
الاعترار بالمظاهر الكاذبة ، لما تقدم ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم
واسكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم

وقد أوجد الله تعالى ما سوى الإنسان معونة له كما نبه عليه بقوله عز وجل :
 « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » أى أوجده لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم
 باستخدامكم له فى مصالح أبدانكم ودينكم ، بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمه
 من لذت الآخرة وآلامها ، فالآية تصور لنا قدرته التامة ونعمه الشاملة . وأى قدرة
 أكبر من قدرة الخالق ، وأى نعمة أعظم من جعل كل مافى الأرض مهياً لنا ومعداً
 للانتفاع به فى الحياة الجسدية ، والاعتبار به فى الحياة العقلية . فسبحانه من إله جواد
 كريم عليم حكيم — وقوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » صيرها
 متوسطة بين الصلابة والرخاوة ، حتى صارت مهياً لأن يقدعوا ويناموا عليها
 كالفرش المبسوط « والسماء بناء » قبة مضروبة عليكم « وأنزل من السماء ماء
 فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقال تعالى : « وسخر لكم مافى السموات ومافى
 الأرض جميعاً منه » . وقال تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب
 ومنه شجر فيه تشيمون . يثبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
 الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » وقال تعالى : « الله الذى خلق السموات
 والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك
 لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر
 لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
 الإنسان لظلم لظلوم كفار » كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكفر لنعمة ربه بإغفال شكرها
 خلق كل ذلك للإنسان وأباح جميعه له ، فله أن ينتفع بكل هذا على وجهه : إما
 فى عدائه أو فى دوائه أو فى ملابسه ومشوماته ومركوباته وزينته . والتلذذ بصوته
 وصورته والاعتبار برؤيته . وباستفادة علم منه والاقتداء بفعله ، فيل يستحسن منه ،
 والاجتناب عنه فيما يستقبح منه . فمثلا نتعلم التعاون من النمل والنحل ، والوفاء من
 الكلب ، والنشاط من القراب . فقد نبه الله عز وجل على منافع الموجودات وأطلع
 الخلائق عليها تارة على السنة الأنبياء وتارة بالوحى والإلهام .
 وهما يذكر لم أنه كما أن حق الإنسان أن يعرف منافع الحيوانات فى ذواتها

فينتفع بها في المطاعم والملابس والأدوية مثلاً ، فحقه أن يعرف أخلاقها وأفعالها كي ينتفع بها في اجتناء الحسن واجتناب القبيح ، فقد أحسن من قال : تعلمت من كل شيء أحسن ما فيه . حتى من الكلب حمايته على أهله . ومن الغراب بكوره في حاجته — وقد أشار تعالى إلى ذلك في وصف النحل فقال : وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً » فنبه سبحانه على أن من حق الإنسان أن يقتدى بالنحل في مزاياه لوحي الله وإلهامه ، فكما أنها لا تخطئ وحي الله في تحرى المصالح طبعاً ، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختياراً .

ولا ريب أن الله تعالى أوجد الإنسان « وهو الغنى » ليعرف له تعالى كمال الألوهية . ويعبده . وينصره . ويعمر أرضه ، كما نبه جل شأنه على ذلك بآيات في مواضع مختلفة حسبما اقتضت الحكمة ذكره ، قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ^(١) » أى أنه تعالى خلقهم مستعدين لها أتم استعداد ومتكئين منها أكل تمكن ، مع كونها مطلوبة منهم . واللام للغاية والثمرة . ولا نزاع أن أفعاله تعالى تستمع غايات جليلة وثمرات عظيمة ، كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وهو عنهم غنى « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أى أن شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم . وقال تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » وهو من يخلف غيره وينوب منابه . والمراد آدم عليه السلام ، لأنه كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجته تعالى إلى من ينيبه ، بل لقصور المستخلف

(١) جوز كثير من أهل السنة تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى الدباد وعلى رأى المانين (الممتزلة) يترتب العاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له — فإن استنباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متفنة جليلة من غير أن تكون هي علة غائية لها بحيث لولاها أقدم عليها مما لا نزاع فيه .

عليه عن قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسيط ، ولذا لم يستنبيء ملكا ، وقال تعالى « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى يعلم علم مشاهدة من يجاهد لنصر دينه وإعلاء كلمته وتأييد دعوة الرسل . وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا ألبصار لله » وقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » أقدركم على عمارتها وأمركم بها — وكل ذلك إشارة إلى تولية النوع البشرى أموراً لم يستصلح لها سواء كما نبه عليه تعالى بقوله للملائكة « إني أعلم ما لا تعلمون » .

وفى هذا المقام يذكر أن الناس فيما أمروا به أقسام ثلاثة « قسم » أدخل بالأمر وانسلخ عما خلق لأجله واتبع خطوات الشيطان وسلك سبيله واثم به واقتنى أثره وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً . إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » إلى غروراً « وقسم » أذعن للأمر وجد فى وظائف العبودية حتى وقف بغاية جهده حيثما وقف كالموصوفين بقوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً » الآيات « وقسم » تردد بين الطريقين كما قال تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو موعود بالإحسان إليه — وعلى الأقسام الثلاثة دل قوله تعالى « وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » ثم ذكر مآل كل فريق إجمالاً فى آخر السورة فقال : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان » استراحة ورزق طيب « وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم » .

وجملة القول أن من وفق لفضل ما وهبه الله تعالى وهدى لما أعده له وعرف نفسه وربه ثم استقام فقد أوتى خيراً كثيراً . والله الهادى إلى سواء السبيل

المحاضرة الثالثة عشرة

من الإنسان ؟ — ضرورة الشرع لسعادة البشر — فضيلة الشرع — من لم يتقيد به فليس بإنسان .

مقدمات

١ — لا ريب أن الإنسان إنما صار إنساناً بالعقل ، الذى لو فرضناه خلواً منه لخرج عن كونه إنساناً ، ولم يكن — إذا قطعنا النظر عن الشبح المائل — إلا بهيمة مهملّة أو صورة إنسان وليس به ، والعقل لا يكمل بل لا يكون عقلاً حقيقة إلا بعد تقييده بالشرع واهتدائه به — ذلك أن العقل البشرى كثيراً ما يخطئ فى تقدير الأشياء والحكم عليها كما تخطئ الحواس والمشاعر . فالعين مثلاً ترى الكبير على البعد صغيراً ، واللسان حالة المرض يذوق الحلوى مرّاً ، وقد يهمل الإنسان استخدام جوارحه وعقله فيما فيه سعادته وفلاحه ، ويسلك بهذه المواهب العظيمة مسالك الفنى والضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته ، منقاداً لسيطانته وهواه ، حتى يورده موارد الهلاك والخسران ، ومنشأ ذلك الخطأ وهذا الإهمال ، وقوع العقل فى قبضة الهوى والشهوة وخضوعه لسلطانها ، ولا سلامة له من خطرهما إلا بتسليم نفسه لقيادة الشرع وتحصنه منهما بحصنه المنيع ، ووقوفه عند حدوده واهتدائه بهديه ولذا نفى العقل عن الكفار لما تجردوا عن الاهتداء بالشرع فى مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم .

٢ — الإنسان مهما أوتى من قوة فليس فى استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج ؛ ومسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم لتبادل المنافع التى لا بد منها ، إذن فاجتماع بنى الإنسان ضرورى لابد منه لسعادتهم ورفاهيتهم فى هذه الحياة ، ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينظم لهم أمراً أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل يردع الظالم عن ظلمه و ينصف المظلوم من ظلمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال فى جميع مرافق الحياة ،

وإلا فكيف يتسنى للإنسان أن يعيش سعيداً هادئ البال إذا خلى وعقله وهو عرضة للخطأ ومنازعة الهوى والشهوة وحفظ النفس التي لا حد لها ، وكثيراً ما تتناول به تلك الحظوظ إلى ما في يد غيره ، وإذا يفضى إلى أن ينبغي بعض الناس على بعض فيتنازعوا ويتدافعوا ، ويتواثبوا ويتناهبوا حتى يفنى بعضهم بعضاً . فكان من رحمة الله تعالى ببنى الإنسان أن حمام بنور الشرع من السقوط في ظلمات الأهواء والشهوات ، وأنقذهم منها إذا هم رجعوا إليه ، وبين لهم بالدين حدود الأعمال ليقفوا عندها ويكفوا عما وراءها .

٣ — إن مما جعل في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية ، لها السلطان الأعلى على سائر الأكوان ، وإليها وحدها يرجع كل ما لا يعرف له سبباً ، وإن لهم حياة وراء هذه الحياة المحدودة يلقي فيها كل إنسان جزءاً ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهل يستطيع العقل وحده أن يصل إلى تحديد ما يجب عليه من أنواع العبادة والخضوع لصاحب تلك السلطة الذي خلقه في أحسن تقويم ، ووجهه من القوى والمشاعر ما يكفي لسعادته في العاجل والآجل ؟ وهل يستطيع العقل وحده — بدون هداية الشرع — أن يعرف أحوال هذه الحياة الثانية وما أعد للإنسان فيها من سعادة أو شقاء ؟ كلا ! إنه في أشد الحاجة إلى هداية الدين في ذلك ، كما أنه في أشد الحاجة إليه في بيان ما ينبغي له أن يعمل ، وما ينبغي له أن يتركه . فالعقل وحده قليل الفناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كلييات الأشياء دون جزئياتها ، كأن يعلم إجمالاً حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، واستعمال العدل ، والتزام العفة ، وقبح أضدادها من غير أن يعلم ذلك في كل شيء تفصيلاً — والشرع يعرف كلييات الأشياء ، ويبين ما الذي يجب أن يعتقد ، وما الذي ينبغي أن يفعل ، وما الذي ينبغي أن يترك تفصيلاً في كل شيء — فالعقل لا يعرفنا مثلاً أن لحم الخنزير والدم والخمر والميسر محرّمات لمضارها ، وأن لا تنكح المحارم لإفضائه إلى الامتنان وانقراض النسل ، وأن لا تتجمع النساء في حال الحيض لما في ذلك من الأذى بالرجل والمرأة معاً . فهذه الأشياء وأشباهها لا سبيل إليها إلا بالشرع — فالشرع نظام الأعمال القويمة والأخلاق

السكريمة . والدال على مصالح الدنيا والآخرة . من تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن انحرف عنه وركب هواء فقد ضل سواء السبيل : « ومن أضل ممن اتبع هواءه بغير هدى من الله . إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . ومن أجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك وحده قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقال : « ولو أنا أهلكنهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

واعلم أن الشرع من وجه هو دواء مفروغ منه تولى عمله الحكيم العليم الذى له الخلق والأمر « حقا » إنه لدواء مفيد لحفظ الحياة الأبدية ، والسلامة للأئمة كما قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه » أى ضالا فهديناه . وقال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » فجعل ذلك روحا لإفادة الحياة السرمدية وقال تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . دواء لهم من الشكوك ، وسوء الاعتقاد — ومن وجه هو سراج مزيل لظلمة الحيرة والجهالة كما قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ومن وجه هو الصراط القويم : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » — ومن وجه هو النعمة التى لا تقاس بها نعمة . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . أى جمع بين قلوبكم بالإسلام فصرتم بنعمة الإسلام إخوانا متحابين .

وبعد : فلما نريد من الإنسان ذلك الحيوان الناطق ، إذ كثيراً ما تحسبه إنسانا — بنى آدم — يؤنس به أو يركن إليه ويعول عليه ، فإذا عاملته أو عاشرتة وجدته ذئبا أو ثعلبا أو عقربا أو حرباء ، بل قرداً وشيطانا رجيا تزيى إنسان وظهر لك فى صورة بنى آدم — وإنما يريد الإنسان الكامل وهو الذى عرف الله جل وعلا معرفة صحيحة فآمن به إيمانا صادقا . ظهرت آثاره فى استقامة العمل

وتهذيب النفس . كما روى البخارى من حديث أنس مرفوعاً . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في النفس وصدقه العمل ، وإن قوماً غرهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن بحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . فالإنسان في الحقيقة هو ذلك الطاهر المهدب الذي عبده ربه وقام بالمعنى الذي لأجله خلق . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . خلقه ليعرفه ويخضع لجلاله ويحس المعاملة مع الله والناس أجمعين .

الإنسان الكامل هو الذي يتقى الله في سره وعلايته وفي شدته ورحائه ، هو ذو الشفقة والرحمة إن زاده سعة في الرزق عرف الله تعالى فضله وشكر له نعمته ، في عطف على مسكين ، وإغاثة ملهوف وإعانة مكروب — الإنسان الكامل هو المخلص في المعاملة إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أوتى أدى وإذا ولى عدل هو الذى يوقن أن الدنيا مزرعة الآخرة يغرس فيها أصول الخير ليبنى ثماره في الدار الباقية جنة ونعما وملكا كبيراً كريماً .

ومعلوم أن كل شيء أوجد لغاية فلم تحصل عنه تلك الغاية كان في حكم المعلوم ولذا كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد نفعه أو فعله ناقصاً ، كقولهم للفرس الردىء هذا ليس بفرس ، وللإنسان البذىء : هذا ليس بإنسان ، ويقال : فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل نفع عينه وأذنه ، وإن كان شبيهماً بآقياً . وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عى » . فيمن لم ينتفع بهذه الأعضاء . فالإنسان يحصل من الإنسانية بقدر ما يكون منه من المعاني التي لأجلها خلق ، فمن قام بها حق القيام فقد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ منها وصار حيواناً أو دون الحيوان كما قال تعالى في وصف الكفار : « إن هم إلا كالإنعام بل هم أضل سبيلاً » وقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . فلم يرض عز وعلا أن يجعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل من الأنعام وأشر من الدواب . وإنما كانوا أضل سبيلاً من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدا وتحميه ، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، تطلب ما ينفعها . وتنفر مما يضرها . وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه

من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون رضاه وهو أعظم المنافع . ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار . ولأن الأنعام إن لم تعتقد حقاً ، ولم تكسب خيراً لم تعتقد باطلاً ، ولم تكسب شراً . بخلاف هؤلاء . ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذنب لها ، وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم . ولأن جهالتها لا تضر بأحد ، وجهالة هؤلاء تفضي إلى إثارة الفتن ، وصد الناس عن الحق وكانوا شر الدواب لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من نعمة العقل والتمييز .

لا يقال : فعلى هذا لا يصح أن يقال للكافر إنسان مع أن الله تعالى سماه بذلك في عامة القرآن — لأننا لم نقل لا يسمى به عرفاً ، بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضي أن لا يسمى به إلا مجازاً ما لم يكن فيه العقل المختص به — أما إذا سمي به في عرف العامة ؛ فليس ذلك بمنكر — فكثير من الأسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع أن ليس على ما استعملوه ، كالغنى فإنهم استعملوه في كثرة المال ، وبين الشرع أنه ليس به ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس » . رواه البخاري من حديث أبي هريرة ، ولكن مشدداً ومخففاً — وإنما كان الغنى الحقيقي غنى النفس لأن من ملكه الطمع ، واستولى عليه الجشع بعيد أن يكون في راحة ؛ فهو في كل وقت مفتقر للمزيد ، كلما حصل على مرغوب تطلعت نفسه لسواه ، فلا يهنأ بما جمع ، ولا يكف عن طلب المزيد مما فيه عناؤه وبلاؤه — وجملة الأمر أن الحكيم إذا أطلق اسماً على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » . وقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » . وإن كان الذكر يقال للمدوح والمذموم .

وما أحسن قول بعضهم في هذا المقام : الإنسان هو الناطق الحى الميت . فإنه كلام صحيح وليس معناه ما يبدو منه من أنه من الحياة الحيوانية ؛ والموت الحيوانى والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ؛ وإنما المراد بالحي من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » . وبالتطيق البيان المذكور فى قوله : « علمه البيان » وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين لسلطان الشرع ،

كما قال الإمام على رضى الله عنه : « من أ مات نفسه فى الدنيا فقد أ حياها فى الآخرة »
 فعنى الآية الكريمة : « لينذر » القرآن أو الرسول من كان مؤمناً مهذباً ، فإن
 الحياة الحقيقية إنما هى بالإيمان الصادق الذى وقر فى النفس وصدقه العمل الصالح
 الذى تقوم به أخلاقه وتهذب به نفسه « ويحق القول » وتجب كلمة العذاب :
 « على الكافرين » . وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وعدم
 تأملهم أموات بالحقيقة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الرابعة عشرة

عبرة خلقية من سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه

وهى المحاضرة الحكيمة القيمة الناطقة بالحق التى ألقاها بدار جمعية مكارم
 الأخلاق حضرة صاحب الفضيلة والأدب الأستاذ العظيم الشيخ عبد الوهاب خلاف
 بك مدير عموم المساجد بوزارة الأوقاف سابقاً ، فاسترعت الأسماع وأخذت بمجامع
 القلوب — جعلناها ختام المحاضرات لنفاستها وعظيم نفعها فى الدعوة إلى الله تعالى
 وحث الأمة على التعلق بهذه الرحمة المهداة والتأسى به فى أفعاله وأخلاقه — . وإن
 الناظر إليها يرى منها مبلغ رقة شعوره ، وسلامة ذوقه . فى جزالة معانيها . وحرصه
 مبانيها ، ومقدار توخيه الحق فى ذكر سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتجرى به
 فى نشر شمائله ما أقره الشرع وصدقه الحس . قال أحياء الله حياة طيبة للعلم والفضيلة
 بهذا العنوان السابق .

أحمد الله الذى أتاح لى هذه الفرصة ، ووفقنى أن أقوم فى اليوم التالى ليوم
 ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم أذكر مثلاً من مكارم أخلاقه ، ومحاسن شمائله وما
 أحوجنا — وقد أصبحت حالنا الخلقية من أشد أمراضنا الاجتماعية — أن نرجع إلى
 إلى سيرة العظماء من الرجال نتعرف أخلاقهم التى كونت عظمتهم ، وشمائلهم التى
 يرجع إليها نجاحهم ، أولئك الذين هدام الله وهدى بهم ، وأولئك الذين يجب أن
 يكون لنا فيهم أسوة حسنة وعبرة بالغة — وإن فى سيرة الصادق الأمين صلى الله

عليه وسلم من آيات الأخلاق الكريمة والفضائل النفسية ما فيه عظة وذكري —
ونحن موجزون القول في أمثلة من هذه الخلال الحميدة ليكون لنا في رسول الله أحسن
أسوة . وإن الذكري تنفع المؤمنين .

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة : قضى منها أربعين قبل
أن يُبعث رسولا ، وقضى الباقيات نبياً ورسولا وداعياً إلى الله يآذنه وسراجاً منيراً .
وهذا العمر المبارك لم يبلغ سن العشرين ولكنه كان أطول الأعمار أثراً باقياً وحركة
مباركة ، وأعمار الرجال لا تقاس بعدد السنين . وإنما تقاس بما تثمر من جليل الأعمال
وحيد الآثار . ورب ابن أربعين كان في نظر التاريخ أطول عمراً من كثير من
المعمرين . وقد كانت هذه الحياة في كل أطوارها عامرة بالخير والهدى . وكان
الرسول في كل سنه مثالا حسناً للفضائل والكمالات . وكان في حربه وسله وفي
دعوته وعبادته وفي أسرته وبين صحابته . وفي فصله الخصومات وقسمته الغنائم وفي
كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ولقوله
صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله : « أدبني ربي
فأحسن تأديبي » .

رحمة كله حزم وعزم ووقار وعصمة وخياء
لا تحل البأساء منه عرى الصبر ر ولا تستخفه السراء
كرمت نفسه فما يخطر السو على قلبه ولا الفحشاء

مُثل من أخلاقه قبل البعثة : ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشاغل الطيبة ، وكذلك كل ناشئ كتب الله أن
يترقبه المستقبل السعيد تلمح في نشأته دلائل سعادته وتقرأ في مقدمة حياته ما ينم عن
نتائجه . وكان أظهر شواغل الرسول قبل البعثة ثلاث خصال تحلت بها نفسه الكريمة
وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه ، ورسولا بينه وبين خلقه « فأولى »
تلك الخصال تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها ، وكل ملاهى

السوء التي كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : « لما نشأت
بغضت إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر ، وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية
يعملون به غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت
بسوء حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لفلان كان يرعى معي : « لو أبصرت
لى غنمى حتى أدخل مكة فأتمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى إذا
جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر ،
فضرب على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني
مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أتم بعد ذلك بسوء . وكما بغضت إلى الأوثان والشعر
وملاهم أهل الجاهلية حجب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير » وكذلك الإنسان
الكامل ، إذا نشأ في بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبلة لا يرضاها ولا سبيل له
إلى تحويلهم يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم ويؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كمال النفس
ينأى بها عن مظان السوء وجلسائه

ألف النسك والعبادة والخلوة
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

الخلاصة الثانية : صدقه صلى الله عليه وسلم : شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه
ففى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه أباسفيان
ابن حرب قبل أن يسلم أبوسفيان : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول
ما قال ؟ قال لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،
ولقى رجل أباجهل ألد أعداء الرسول فسأله : يا أبا الحكم ! ليس هنا غيرى وغيرك
يسمع كلامنا . فخيرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبوجهل : والله إن محمداً لصديق
وما كذب محمد قط . وفى هذا يقول الله تعالى لرسوله : « فإيهام لا يكذبونك ولكن
الظالمين بآيات الله يمحذون » ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم
غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم
فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به . قلتم ساحر والله ما هو بساحر .

الخصلة الثالثة : أمانته صلى الله عليه وسلم . كان لقبه في الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه أماناتهم ويودعونه ودائعهم . قال ابن إسحاق : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته . ولما اختلفت قريش في الجاهلية عند بناء الكعبة في من يضع الحجر الأسود اتفقت كلمتهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا محمد أول داخل ، فقالوا : هذا محمد هذا الأمين . قد رضىناه حكماً . وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته ، يتحاكمون إليه في الجاهلية يفصل في خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ، ويرضون بحكمه وعدله ، ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته . وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل ، أفضل منبت طيب لنمو الفضائل والكمالات . ولذلك صادف منه التأديب الإلهي نفساً كريمة تكلمت بما أدبها الله به من الأدب الحسن . فقال صلى الله عليه وسلم من كال الخلق وشرف الفضيلة ، حتى رأى الناس من حلمه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله ، واستحق ثناء الله عليه في كتابه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

مثل من أخلاقه في الدعوة : لما بعث صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو الناس إلى التوحيد ، تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله في سبيل الدعوة من الشدائد ، وما عامل به المدعوين من صبر على أذام وإحسان في مقابلة إساءاتهم بما كان طريقاً لهداهم وعلاجاً لقوتهم . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام في مكة — وهي حصن الأصنام ومهد الوثنيين — يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان . قام وهو يتيم لا يعتمد في دعوته على جاه أو عصبية ، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة ، وهو وحيد يخذله أدنى الأفريين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين . قام يدعو قوماً أشداء أخذتهم العزة بالإثم ، وألقوا ما وجدوا عليه آباءهم واستعزوا بما لهم من حول وسلطان . فوضعوا في سبيله كل عقبة ، وسدوا في وجه دعوته كل طريق ، وآذوه ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هذا ورسول الله

لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكاً بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ، ولا الفتور إلى عزيمته . حتى غلب الحقُّ الباطل وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وأبدل وحدته أمةً قوية ، ويتمه أفضل عصبية .

قام هذا النبي يدعو إلى الله ه وفي الكفر بحجة وإباء
أما أشربت قلوبهم الكفة ر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا وإذا الحق جاء زال المراء
رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاء

ولنا في هذا النجاح عبرتان (الأولى) أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتمل في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد ، وصنوفاً من الأذى . وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته ، أو يبسطه عن دعوته . وكذلك الداعي إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ، ويواصل السير في سبيله ، مهما لاقى من صعاب ونال من أذى : استهزؤوا بالرسول فكان إذا مر عليهم يقولون — سخيرة منه — هذا ابن أبي كبشة يُكَلِّم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء . وكان عمه أبو لهب جاراً له ويتمد رمى القذر على بابه ، فكان رسول الله يلقى القذر ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ وعقبة بن أبي معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله وهو في صلاته ساجداً ، ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت بنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره . وبينما كان يصلي في الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ووضع ثوبه في عنقه واشتد في خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ وما زالوا يتلونه ومن تبعه بضروب الكيد والخن حتى ائتمروا على قتله ، واضطُرَّ فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده . ولم تزل هذه الشدائد من إيمانه ولم تزد إلا ثباتاً على دعوته . وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصدّه عن سبيله ، ويحاول إطفاء نور الحق الذي يدعو إليه . واسكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحبب إلى النفس المكاره . والفوز للحق والعاقبة

للمحققين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

العبارة الثانية : من نجاح رسول الله في دعوته أن الفضل الأكبر في هذا النجاح يرجع إلى أخلاقه وشمائله لأنه أقام من صفاته براهين عدة على صدقه وأن ما يدعوا إليه حق ، وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفي طعنهم ويرد كيدهم * ولما اجتمعوا في دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمداً في موسم الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة ، وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه ، كانوا كلما افترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من خلال الرسول التي تفضح مقترياته وتنتج نقيض قصده . وهذا هرقل لما قال له أبو سفيان : إنا لم نتهم محمداً بالكذب قط . قال : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وكثيراً ما كان حمله عند الغضب وغفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسيء سبباً في الإيمان به ، وإجابة دعوته ، واجتماع القلوب حوله : جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله يتقاضاه ديناً فحذب الرسول من ثوبه وأغلظ في القول وقال : يا بني عبد المطلب أنتم قوم مطل . فهمم عمر بالانتقام منه ومقابلة النظطة بالغلظة ، فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر « إنا وهو كنا أحوج منك إلى خير من هذا يا عمر : تأمره بحسن النقاضى وتأمرنى بحسن القضاء » . ثم قضى للدائن دينه وطيب خاطره على ما روعه عمر . وكان هذا سبباً في إسلام اليهودى . ولما جاء نصر الله والفتح ودخل رسول الله المسجد الحرام جاءه أشراف قريش وسادتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم فقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قلوا : خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم . قال أقول لكم ما قل أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

جهلت قومه فأغضى عليهم وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وكان عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : بأى أنت وأمى يا رسول الله ؟
لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »

ولو دعوت علينا لملكنا ، ولقد وُطئ ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك
فما زدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وهكذا كان رسول الله
داعياً بأخلاقه وأعماله ، كما كان داعياً بأقواله . وكذلك فليكن الدعاة فإن القول لب
يبلغ في تأثيره مبلغ العمل ، والداعى إذا لم يكن عمله برهاناً على قوله لا يستجيب
الناس لدعوته ، ويرتابون في صدق مقالته . وكانوا قديماً يقولون :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى
ولكن أثبت التجارب أن هذا سبيل للإرشاد غير قويم ، وأن المدعو
لا يمكنه أن يفض النظر عما عليه الداعى ، والمريض إذا وجد الطبيب عليلاً بذات
مرضه يشك في نفع علاجه . ولهذا ترى القدوة الحسنة أبلغ في التدكير من أى
مقال . قال شعيب لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا
الإصلاح ما استطعت » .

عبرة من الهجرة

لما أسرفت قريش في محاربة الدعوة إلى الإسلام . والكيد للداعى ،
واستحجرت قلوبهم وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه
وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » أراد صلى الله عليه وسلم أن يولى وجهه
بلداً غير مكة وقوماً غير قريش ، عله يجد أرضاً خصبة صالحة لنمو دعوته ، وقلوباً
سليمة تتقبل الحق وتعمل على نصرته ، فأخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ،
يكلم كبارهم ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، وإنما أريد أن تمنعوا عني من
يؤذيني حتى أبلغ رسالات ربي ، وما كان يجاب من هؤلاء إلا بالرفض ، وأقبح
أنواع الرد ، ولكن الله جعل من العسر يسراً ، ومن الشدة فرجاً : فعرض نفسه
على نفر من الخزرج أتوا من يثرب لزيارة البيت الحرام فأسلمهم كلام الله ودعاهم إلى
عبادته وحده ، فاستجابوا لدعوته ، واستشارهم في أن يهاجر إليهم حتى يفتح طريقاً

للدعوة ويؤدي رسالة ربه . فقالوا : يا رسول الله دعنا حتى نرجع إلى عشاثرنا ندعوم
إلى ما دعوتنا إليه ، فحسى الله أن يجمعهم عليك ، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك ،
واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعذك الموسم القابل . وأراد الله أن يظهر دين الحق
على الدين كله ، فباعه في الموسم من العام التالي نفر من أهل المدينة ، وخرج من
أهله وداره ، ومن بين عشيرته وأهله . فخرج خفية يسير في طريق وعر يخوف ليس
معه إلا صاحبه أبو بكر والله ثالثهما ، ينتابه الحزن على فراق وطنه ؛ والخوف من
هؤلاء الأعداء الجدين في طلبه ، وما هو إلا أن فرج الله كربه ، وشد بالأنصار
والمهاجرين أزره . وأشرق نور الحق على القلوب ، وفتحت السبل للدعوة « يريدون
أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .
والعبرة من هذه الهجرة في مظاهر عديدة أبلغها أن الدعوة إذا كانت للحق
والحق فإن اضطهادها يكون في الغالب من وسائل نشرها وإعلاء شأنها ، لأن
الداعى ما دام موقفاً أنه على الحق لا يرجع عن دعوته ، واضطهاده يحمله على إمعان
النظر وتقليب وجهه في كل جهة ، وهذا قد يوجد لنجاح الدعوة أسباباً ووسائل
ما كانت تيسر لولا الشدة في محاربتة والإسراف في إيذائه . (وثانيها) : أن
الداعى كالغارس يتخير أطيب الأرض لنمو غرسه وإذا صادفته صخرة لا يمنعه ذلك
أن يتطلب الأرض الخصبة ، لأنه موقن بمجودة غرسه وطيب بذره ، وأنه إذا وجد
المنبت الطيب نما وآتى أكله كل حين بإذن ربه . فالدعوة إلى الحق إذا صادفت
قلوباً غلفاً وآذاناً صماً لا يمنع ذلك الداعى أن يتلمس قلوباً غير هذه القلوب ، وآذاناً
غير هذه الآذان . والحق لا بد أن يظهر والخير لا يعدم نصيراً . وجلة القول أن الرسول
قبل مبعته وفي دعوته وفي هجرته أظهر آيات بينات من كرم النفس وأسمى الفضائل
وكان من أظهر شمائله صلى الله عليه وسلم اليسر والقصد والاعتدال في كل شيء .
قالت عائشة رضي الله عنها : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من
مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محرم الله شيء ، فإذا انتهك من محرم الله شيء
كان أشده في ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً »

« ودخل على عائشة فوجد عندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تقوم الليل ما تنام . فقال عليه السلام : عليكم من العمل بما تطيقون » . وقال لمن قام الليل حتى غارت عيناه : « فأوغل فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله وصحابته متواضعاً لين الجانب يقدر آراءهم . ولا يستبد بالأمر دونهم ، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم . وبهذا لانت له القلوب . ونوه الله بشأنه فقال عز من قائل : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وإن في سيرة الرسول لعبرة وذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نماذج من أشهر مواعظ السلف

وفاء بما وعدناك أول الكتاب نسمعك شيئاً من مواعظ السلف الصالح فاستمع لما قالوا فإن فيه الخير الكثير فاغتنم به فقد قال الفضيل : نعمت الهداية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه . وقال حكيم : اجعل ما في الكتب بيت مال وما في قلبك للنفقة . وقال آخر : يكتب الرجل أحسن ما سمع ويحفظ أحسن ما كتب .

فمن المأثور أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ، يا ليتني كنت مثلك ، والله لوددت أني شجرة إلى جنب طريق فرى على أمير فأخذني فلا كني ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً ولم أك بشراً * وقدم عليه وفد من أهل اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال أبو بكر : هكذا كنا حتى قست القلوب . ثم قال : طوبى لمن مات في نأنة الإسلام — أى في بدئه حين كان ضعيفاً قبل أن تسكث أنصاره والداخلون فيه ، تقول نأنة عن الأمر نأنة إذا ضعفت عنه وعجزت . وقال لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة : احرص على الموت تهرب لك الحياة . وهى من بدائع الحكم وجوامع الكلم . عمل عليها المجاهدون في سبيل الله فظفروا بحياة سعيدة ليس وراءها حياة . وقال : إياكم والعمل بالمعاصي

وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزم وسلط عليهم عدوهم — وروى الحسن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فإرفضوها في نحره ، فأنه ربما أدرك الذى طلب منها فهلك بما أصاب منها ، وربما فاتته الذى طلب منها فهلك بما فاتته منها . وطالب يطلب الآخرة فإذا رآتم طالب الآخرة فنافسوه . وعنه أيضاً أنه قال : أيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإننا كنا نعرفكم إذا الوحي ينزل وإذا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإما أعرفكم بما أقول لكم ، ألا فن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه . اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلعة وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقیل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً . اقدعوا : امنعوا . يقال قدع نفسه إذا قمعها وقهرها . وطُلعة . كهُمَزَة كثيرة التطلع إلى الأمور . ومرىء محمود العاقبة . والوبىء المهلك . وعالج الشيء حاوله — وقال يوماً لرجل : لا يهلك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يصير إليك دونهم ، ولا تقطع الهار سادراً فإنه محفوظ عليك ما علمت ، وإذا أسأت فأحسن فإنى لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة حديثة الذنب قديم — سادراً لاهياً ، والسادر أيضاً التحجير ، والذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع — وقال ابن عمر : لما حضرت الوفاة عمر غشي عليه فأخذت رأسه فوضعتها في حجرى فقال : ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى . فسح خديه بالتراب وقال : ولم أعر إن لم يغفر له . فقلت : وهل فخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ، فقال : بضع رأسى بالأرض لأمر لك كما أمرك ، فإذا قضيت فأمرعوا بى في حفرتى ، وإنما هو خير تقدموى إليه أو شر تضعونه عن رقابكم . ثم بكى فقبل له : ما يبكيك ؟ قال خبر

السماء لا أدرى إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار — وكتب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص : يا سعد سعد بنى وهيب إن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل الذى لله عندك . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : إن لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله — يعنى المصحف — وكان رضى الله عنه حافظاً وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف ف قيل له فى ذلك ، فقال : إنه مبارك جاء به مبارك .

ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت . فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى — ومن كلامه : ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم ، وتزل عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم وولّاه من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل نكد — والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد — ولما ضربه ابن ملجم دخل منزله فاعتزته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقال : أوصيكا بتقوى الله ، والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها ، اعمالا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال بلى . قال فإني أوصيك به عليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكا به خيراً فإنه أخوكا وابن أبيكما ، وأتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحياه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعدو ، والعدل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء : يا بنى ياشر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية : يا بنى من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاتة ، ومن سل سيف البنى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيه ، ومن هتك

حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ، ومن سى خطيئته استعظم خطيئته غيره ،
ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن
خالط الأنذال احتقر ، ومن جالس العلماء وقّر ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم
ومن يصحب صاحباً صالحاً يغم ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن لا يملك
نفسه ندم ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر
كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن
قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . — يا بنى الأدب خير ميراث ،
وحسن الخلق خير قرين . يا بنى العافية عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت إلا عن
ذكر الله تعالى ، والواحدة فى ترك مجالسة السفهاء . يا بنى لا شرف أعلى من الإسلام
ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أجمع من التوبة
لا لباس أجمل من العافية — الحرص مفتاح التعب ، ومطية النصب . التدبير قبل
العمل يؤمنك من الندم . بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، فطوبى لمن أخلص
له علمه وعمله ، وحببه وبغضه ، وأخذته وتركه ، وكلامه وصمته ، وقوله وفعله .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك ترجعها جميعاً ، ولا تبع
آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم
فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تفتبطهم فيه . الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ،
أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فإذا تنظرون ؟ المعاينة
فكان قد ، هيهات هيهات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق
بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة — أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم
ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم .
وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً
ورائماً لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . رفع له علم فشمّر إليه ، فالوحاء الوحاء
والنجاء النجاء . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل
يوم تنظرون . إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه ، اختاره

انفسه ، و بعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه . وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتاً وبلغه . ثم قال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه فأبعدهم الله وسحقهم — يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر فتنسكرك ، وتفكر فاعتبر فأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم اذكر قوله : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا وادروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدراً ، ولا الكدر ما عاد صفواً . دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وغفت السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور . ولقد رأيت أقواماً كانوا الحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم مفكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهدي منكم فيما حرم الله عليكم منها . ما لي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً ؟ ذهب الناس ، وبقي النسناس . لو تكاشفتهم ما تدافتم ، تهاديتهم الأطباق ولم تهادوا النصاصح . قال ابن الخطاب : « رحم الله امرءاً أهدي إلينا مساوينا » . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه واسكنه أخذه عن ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، واسكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل . وكان إذا قرأ : « أهاكم التكاثر » . ل : عم أهاكم ؟ عن دار الخلود وجنة لا تبعد ؟ هذا والله فضح القوم وهتك السر . أبدى العوار ، تنفق دينارك في شهواتك سرفاً ، وتمتع في حق الله درهما ، ستعلم بالكسع أن الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجأ الخوف وقومه ذكر

العرض . وأما الكافر فقد قمه السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالقسرية . وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة . ويلاك قنلت وليه ثم تتمنى عليه جنته . وكان يقول : رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأناب ورجع من قريب رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال : يا أهلي صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم حيرانكم حيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » يا ابن آدم كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس . وكان يقول : لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإليك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر ، فإنك إن رأيتك سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إن رأيتك ساءك مكانه — وكان يقول : رحم الله عبداً كسب طيباً وأنفق قصداً ، وقدم فضلا . وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضموها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا . فأياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفتشون خدودهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكك رقابهم . إذا عماوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عماوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يجزيهمها لهم — يا ابن آدم ان كان لا يغنيك ما يكفيك غلبت ههنا شيء يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك يا ابن آدم لا تعمل شيئا من الحق رياء ولا تتركه حياء .

وكان يقول : إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضى أهل الدنيا بدنياتهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة في علمهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم وزهدوا في علمهم لما رأوه من سوء موضعه عندهم — وكان يقول : لا أذهب إلى من يورى عني غناه ويبدى لي فقره ويعلق دوني بابه ، ويمنعني ما عنده ، وأدع من يفتح لي بابه ، ويبدى لي غناه ، ويدعوني إلى ما عنده . وكان يقول : يا ابن آدم لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مهمم وعلج أغتم ، وأعرابي لا فقه له ، ومنافق مكذب ، ودنياوي مترف . نطق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار وذباب طمع . والذي نفس الحسن بيده ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله . الناس ما داموا في عافية مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه — أي قوم إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم فإنه ليس للمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه . وقال في يوم فطر — وقد رأى الناس وهيباتهم — إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق أقوام فغازوا ، وتخلف آخرون فخسروا ، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبتلون . أما والله أن لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته عن ترجيل شعر أو تجديد ثوب — وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه — ودخل يوماً على رجل يعود فقال : كيف تجددك ؟ قال : أفرق من الموت . قال : فمن أصبت الخير كله ؟ قال من الله . قال : فلم تفرق ممن لم تصب الخير كله إلا منه ؟ — وكان يقول : أبغض الناس إلى أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا بالله — وكان يقول : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها

وعظ العلماء للأمرء

لا ينبغي للمرشد أن يتهاون مع ذوى السلطان فيما يخالف الدين ويضاد الحق ، موافقة لأمرهم ومتابعة لهوامهم ، وربما زلت أقدام المترلقين فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوها وأضلوها مع سوء العاقبة ، وقبيح الأحداث . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلاحها فجارها ، ولم يمار أخيارها أشرارها ، فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبارتهم فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفقر والفاقة ، وملأ قلوبهم رعباً » . علم هذا علماء السلف وأردفوا العلم بالعمل ، فكان لهم مع الأمرء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن الذكرى وأجل الآثار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمرء وذوى السلطان . وإليك شيئاً من آثارهم فى ذلك ينفعك فى حياتك ومهمتك .

قال الزهرى : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين اسمع منى أربع كلمات فىمن صلاح دينك ومليكك وأخرتك ودنياك . قال لا تعد أحداً عدة وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهل إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات فكن على حذر — وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصرى والشعبي ، وجعل يحادثهم فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال منه ، وجاراه من معه تقر بآله ، وأمننا من شره ، إلا الحسن البصرى فصمت على مضض وعض على إبهامه إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد مالى أراك ساكتاً ؟ قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب . قال : سمعت الله حل ذكره يقول : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت أكبرة إلا على الذين هدى

الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، إن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول : إن كانت لعل هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا . فبسر وجه الحاج وتغير وقام عن السرير مضطرباً فدخل بيتاً خلفه ، وخرج الجمع . فقال عامر الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره . فقال : إليك عني يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصذقت أو سكت فسلمت . قال الشعبي : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التبعة . وبعث الحاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذي تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم . قال : ما حالك على هذا ؟ قال : ما أخذه الله على العلماء من الموائيق « لِيُذَيِّنَهُ » للناس ولا يكتمونه » ، قال : يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عمك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك — هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا تكون الثقة بالله وهكذا تكون الشجاعة في نصرته الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب . فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلاً . فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اثرب هناك الله ، فلما شرب قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال بملكى كله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن ملكاً تروى عليه شربة ماء خلقي ألا ينافس فيه ، فبكي هارون حتى ابتلت لحيته . فقال الفضل ابن الربيع — وكان واقفاً بين يدي الأمير — مهلاً يا ابن السماك فأمر المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله ببدله في ملكه وحسن قيامه بحق ربه . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين والله إن هذا ليس معك في قهرك غداً ، فانظر لنفسك فأنت بها أخير

وعليها أبصر ، وأما أنت يا فضل فمن حق أمير المؤمنين عليك في تقريره إليك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفأ ما تؤدي به حقه عليك والسلام — وقدم هشام بن عبد الملك حاجا أيام خلافته فقال : إيتوني برجل من الصحابة . فقليل قد تفانوا . قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، بل قال : السلام عليك . ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضباً وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطي ، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ، ولم تكنني وجلست بإزائي . فقال طاووس : أما خلع نعلي بحاشية بساطك فأني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب علي لذلك ، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكنني فإن الله تعالى سمي أوليائه فقال : يا داود يا يحيى ، يا عيسى . وكنى أعداءه فقال : « تبت يدا أبي لهب وتب » . وأما قولك جلست بإزائي فأني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظمي . فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن في جهنم حيات كالللال وعقارب كالبلغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ، ثم قام عنه وانصرف .

حلم أمير وثبات امرأة

في العقد الفريد عن سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال : حج معاوية رضي الله عنه فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجاء بها فقال : ما جاء بك يا بنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتني ، أنا إمراة من

كفانة . قال : صدقت ، أتدريين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني ، وواليتي وعاديتيني ؟ قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا . قالت : أما وقد أبيت فإني أحببت علياً على عدله ، و الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبك ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضاء ؛ وحكمتك بالهوى . قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ، قلت : بهند أمك والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي . قال معاوية . يا هذه أربى على نفسك ، فإننا لا نعى إلا خيراً ، أنه إذا انتفخ بطن المرأة فقد تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها . فسكتت وسكت . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله قال فكيف رأيته ؟ قالت . رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتتك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتنك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يحلو القلوب من العسى كلها يحلو الزيت صدأ الطسوت . قال : صدقت . فهل لك حاجة ؟ قالت : أفأت قاضياً ؟ قال : نعم قالت : أريد منك مائة ناقة جراء ، فيها خلوص وراعيها . قال : ماذا تصنعين بها ؟ قالت : أغذوا بألبانها الصغار ، وأستحيى بها الكبار وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قل فإن أعطيتك إياها فهل أحل عندك محل على ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ؟ فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان على ثحيا ما أعطاك منها شيئاً . قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من بيت مال المسلمين . فقال أعطوها ما سألت ، وردوها إلى أهلها مكرمة . وقال القطبي في تاريخ مكة المكرمة : إنه لما حيج المنصور كان يخرج من

دار الندوة — وكانت خلف المسكان الذى أعد لصلاة الإمام الحنفى ، وكان ينزل فيها الخلفاء والملوك — إلى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلى ، ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ، ويسلمون عليه ويؤذنون للفجر ويقومون الصلاة ، فيخرج يصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة فى السَّحَر ، وشرع يطوف إذ سمع رجلاً عند الملنزم يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ سامعيه من كلامه ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه ، فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور ، فقال له المنصور : ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى وأشغل خاطرى . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن آمنتى على نفسى وأصغيت إلى بأذن واعية أنبأتك بالأمر بأصلها ، والا احتجبت بقدرة الله تعالى فلا تصل إلى ، واقتصرت على نفسى ففيها لى شغلٌ شاغلٌ عن غيرى . فقال : أنت آمن على نفسك فقل فإنى ألقى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب . فقال : إن الذى داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت . فقال : أيها الرجل ، كيف يداخلى الطمع والصفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض فى قبضتى ؟ ومن يحول بينى وما أريد من ذلك ؟ فقال : هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك ؟ يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأنفسهم وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الحجر والطين ، وأبواباً من الخشب والحديد ، وحجائباً معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعواناً ظلمة ، إذا نسيت لا يذكرونك ، وإذا أحسنت لا يمينونك ، وقويتهم على ظلم الناس بالسلاح والأموال والرجال ، وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإبصال المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال المهوف عليك ، وحجبت الفقير والجائع والمحتاج عنك ، وما أحد منهم

ذوله حق في هذا المال ، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأترتهم على
 رعيتك وأمرتهم أن لا ينحجبوا عنك يقولون في أنفسهم : هذا قد خان الله فما لنا
 لا نخونه فاتفقوا ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوه ، ولا يخالف
 أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس
 وهاجمهم وأكرمهم وهاذوهم ، وكان أول من دارهم عمالتك بالأموال والهدايا والرشا ،
 فتقووا بها على ظلم رعيتك ، وتبعهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيتك ليظلموا
 من دونهم ، فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم والغشيم ، وزاد بقيهم وطعمهم ، وكثر
 فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك
 متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين
 يديك ضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم
 بقلبك ، فإن سألتهم عنه قالوا : أساء الأدب فأدبناه ، أو جهل مقامك فضررناه ،
 فما بقاء الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ، وإني سأفرت إلى أرض الصين
 فقد منها ، وقد أصابت ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكي ، فقال له وزرائه :
 مالك تبكي لا تبكت عينك ؟ فقال : إني لا أبكي على فقد سمعي ، ولكن أبكي
 على المظالم بصرخ يبابي يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته ، وحيث ذهب سمعي
 فإن بصري لم يذهب ، فنادوا في الناس أن لا يلبس أحمر إلا مظلوم لآميزه بالنظر
 فأعينته ، وكان يركب كل يوم يرى المظلومين ، ويستدنيهم ويرفع ظلمهم . أنظر
 بأمسكين ، هذا مشرك بالله غلبت رافته بالمشركين على رافتك بالمسلمين . أنت
 مؤمن بالله وابن عم نبيه صلى الله عليه وسلم وإن الأموال لا تجمع إلا لواحد من
 ثلاثة أمور : فإن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبدا في الطمأنينة يخرج من بطن
 أمه غريانا ما له على وجه الأرض مال ولا مال إلا دونه يدسحيجة به تحويه وتصونه
 عن كل أحد ، فما يزال الله تعالى يلفظ بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدره له
 من المال ، فسيمسكه ويحويه كما حواه غيره ، ولست الذي يعطى ، بل الله
 يعطى من يشاء ؛ لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع — وإن قلت أجمع المال

ليشد به سلطاني فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما شرك ما كنت فيه أنت وولد أهلك من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أعلى مما أنت فيه ؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك إلا بالعمل الصالح — واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، وإن الله يعاقب بالخلود في العذاب الأليم : « والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . فكيف يكون وقوفك غداً بين يدي الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، فهل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً ؟ قال : فبكى المنصور بكاء شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال : كيف إحساني فيما خولت ولم أر من الناس إلا خائناً ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الراشدين قل : ومن هم . قال العلماء العالمون . قال : فإيهم فروا مني . قال : نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك ، فإذا فتحت الأبواب وسهلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ، ومنعت الظالم ، وظهرت بالعدل ، ونشرت الفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك . وجاء المؤذنون وسلموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا فقام المنصور وصلى بالناس ، وإذا بالرجل غاب من بين أيديهم .

وروى أن الخليفة المنصور العباسي كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعاً ، وأن الأوزاعي دخل عليه يوماً فقال له : عظمي . فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله . يا أمير المؤمنين إن الله لا يدوم لخلق ، وإنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك . يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه دعا للقصاص من نفسه في خدش خدشه أعرايا وهو غير متمعد ؛ فقال لأعرابي : بأبي وأمي قد أحلك ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً . يا أمير المؤمنين إن خير السكرم عند الله التقوى ، ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمعصية الله وضعه وأذله . فلما انتهى من عظته أمر له المنصور أن فاعتذر واستعفى من قبوله وقال يا مولاي ما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا

فأحرم نوابها ، وأقلل من نفعها ، ومادام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل فنحن في خير الله ثم في خيره . — هكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم ، ويرون أن الدنيا مزرعة الآخرة وسبيل إليها ، فلم يجعلوها أكبر همهم ، وجل مقصودهم ، فقالوا الحق ولو كان مُراً ، فقبله منهم الكبير والصغير ، والأمير والحقير ، وكيفما تكونوا يول عليكم .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ، ويدودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويحميها من أذى البرد والحر . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسمى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتقطعه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويريههم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرذ العيال ، فأفقر أهله وبدد ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاه من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه . يطول فيه ثوائك ، ويفارقك عنده أحيائك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه

وصاحبته وبنيه . واذكرا يا أمير المؤمنين إذا بعث مافي القبور وحُصِّل ما في الصدور
فالأسرار ظاهرة ، والكتابات لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فلأن
يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لا تهجم
يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط
المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فتنوء بأوزارك
وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون
بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر
إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ،
وموقوف بين يدي الله في جمع من الملائكة والنبين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه
للحي القيوم . إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولوا النهى من قبلي
فلم آلك شفقة ونصحا ، فأزل كتابي إليك كداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة
لما يرجوه في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليكم ورحمة الله .

وعظ الفضيل بن عياض لهارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع : حجج هارون الرشيد فينا أنا نأثم إذ سمعت قرع الباب
فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فإذا أنا به
أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك . فقال : وبحك ،
قد حاك في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم ، انظر لي رجلا أسأله . فقلت : ها هنا
الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه وإذا هو قائم يصلي في غرفته ،
يتلو آية من كتاب الله ويردها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب
أمير المؤمنين . فقال : مالي ولأمير المؤمنين . فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟
فقال : أوليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن
أن يذل نفسه » . ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى العرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ
إلى زاوية من زوايا العرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسمعت كيف الرشيد كفي

إليه . فقال : أوّاه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى . قال : فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي . فقال : جدّ لنا ما جئنا له ، يرحمك الله . قال : وفيهم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف العطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا ، ولكن أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك . ثم قال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي . فعد الخلافة بلاء وعدتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولداً . فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأسرك بمثل هذا ! . فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه . فقلت أرفق بأمر المؤمنين . فقال : يا بن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق فقال : زدني . فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله أمرني على إمارة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عباس عم النبي نفس تحميها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال : زدني يرحمك الله . قال : يا حسن الوجه أنت الذي بسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتسمى وفي قلبك غش لرعيته فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي لم يحاسبني

عليه ، قالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتي .
 إنما أعنى دين العباد قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع
 أمره فقال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من
 رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . فقال له : هذه
 ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقربها على عبادة ربك . فقال : سبحان الله أنا
 أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت . فلم يكلمنا
 فخرجنا من عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم
 ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس في مجلس
 وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هودج هارون فكف الصبيان عن العبث
 به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين . فكشف هارون السجاف
 — الستر — بيده وقال : لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن
 نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمشى
 على جبل وتحتة رحل رث » فلم يكن ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك . وتواضعك
 في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك . فبكى هارون حتى سقطت دموعه
 على الأرض وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله . فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طراً وأن لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبر ويمحو التراب هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين
 رجل آتاه الله مالا وجمالاً فأنفق من ماله وعف في جماله كُتب في خالص ديوان
 الله من الأبرار . فقال هارون له : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة فقال بهلول :
 أرددُ الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لى فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك
 دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله ؛
 واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يا بهلول فنجرى عليك مايكفيك

فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فحال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى إلى شأنه — والمقصود من هذا بيان استماع هارون لعظة العلماء وقبوله الحق ، لطهارة قلبه وعلو همته ؛ وقلب كهذا لا يخرج منه إلا الأخلاق السكرية ؛ شأن القلوب الحية والنفوس الطيبة وقال سفيان الثوري : لما حج المهدي قال : لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال : لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا ، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت في سفرك هذا ؟ قال : لا أدري ، لي أمناء ووكلاء قلت : فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ لكن عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما حج قال لعلامه : كم أنفقت في سفرنا هذا ؟ قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً . قال : ويحك أجبنا بيت مال المسلمين — ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال له : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك ، فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ، فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يُعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها يركون منه إليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجاييه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك وأنت لا تُقدم إلا على نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مقتونا مغروراً ، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران ظعن .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتتك يا أمير المؤمنين ؟ قال : في الخروج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا في أهلها قال : ومن

يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من الأمر ما قلده . قال : عظمى يا أبا حازم
قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو
خارج عنك بمثل ما صار إليك . ثم قال : يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن
أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . قال : يا أبا حازم أشر على . قال :
يا أمير المؤمنين إنما أنت سوق فما نَقَّ عندك حل إليك من خير أو شر ، فاعتبر
لنفسك أيهما شئت . قال : فإلك لا تأتينا ؟ قال . وما أصنع بأتيانك ؟ إن أدنيتني
فتنتني ، وإن أقصيتني أحرزتنني ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك
له . قال : فارفع إلينا حوائجك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضيت . يقول الله تعالى : « نحن قسمنا
بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فمن ذا الذي يستطيع أن يَنْقُصَ من كثير ما قسم الله
ويزيد في قليل ما قسم الله ؟ . فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه :
أسأت إلى أمير المؤمنين قال أبو حازم : أسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء
« لَيبيننَّه للناس ولا يكتمونه » ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال
فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما أَرْضاه لك فكيف أَرْضاه لنفسى ؟ .
ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقراً « والفجر وإيال عشر » حتى بلغ « إن ربك
لبالمرصاد » لمن فعل مثل فعلهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن بيا بك نيرانا تأجج ، لا بُعِلَ
فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسئول عما اجتروا ، وليسوا مسئولين
عما اجتروا ، فلا تصلح دنياهم إلا بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عمالك أنه
لا يرضيك منهم إلا العدل لتقرب به إليك من لا يريده ، فقال له سلمان بن مجالد :
اسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : ويلك يا ابن مجالد ! أما كفاك أنك
خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه ؟
اتق الله أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سُلماً إلى شهواتهم ، فأنت كالملاسك
بالقرون وغيرك يحلب وإن هؤلاء لن يُقْنُوا عنك من الله شيئاً . ويروى أن الحسن
ابن محمد بن الحسين رضى الله عنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا عمر ثلاث

من كن فيه فقد استكمل الإيمان . فقال له عمر : إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وجثا على ركبتيه ، فقال الحسن : من إذا رضى لم يدخله رضا في باطل ، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له . ولما رلى عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام — وكان حديث السن — فقال له عمر : لينطق من هو أسن منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لا فظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام . وعرف فضله من سمع خطابه . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال : صدقت قل ما بدالك . فقال الغلام : أصلح الله الأمير نحن وفد تهنته لا وفد مرزاة ، وقد أتيناك إيماناً بالله الذي من علينا بك ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بذلك . فقال له عمر عطى يا غلام . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار ، فلا يفرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحى هذه الأمة . ثم سكث . فسأل عمر الغلام عن سنه فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم . فتمثل عمر عند ذلك فقال :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

وفي مثل هذا قيل للمعتابي — وكان لا يبالي ما لبس — مالك لا تجيد الملبوس ؟ فقال : إنما يرفع الرجل أدبه وعقله لا حليته وحلته ، الحى الله أمراً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله . لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ، ويعاوبه أكبراه همته ولبه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أما بعد ، فلو كان لك عمر نوح وملك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، فإن أمامك هول الموت

ومن ورائه داران إن أخطأتك هذه صرت إلى هذه — ودخل عليه محمد بن كعب القرظي وهو مكتئب حزين ، فأقبل عليه وقال : عظمي . فقال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ، واجعل الناس أصنافاً ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب ، والأوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد ، فبر أباك وصل أخاك واعطف على ولدك ، واعلم أنك أول خليفة يموت — ومن شجاعة عمر بن عبد العزيز في قول الحق عند الخلفاء قبله : أن الوليد بن عبد الملك راوده على أن يخلع سليمان فقال : يا أمير المؤمنين إنا بآبائنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ — ودخل على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : يا غلام اذهب فأنتي بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ؟ قال أيوب والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه . فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه ، لأبى حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حملنا عنه — ومن كلامه : ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه — ولما حج هارون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رضى الله عنه بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه ودخل المدينة بعث إلى مالك : إن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام . فقال للرسول : قل له إن الكيس بخاتمه . وقال : الرسول عليه الصلاة والسلام والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون — ودخل محمد بن صبيح بن السماك البغدادي الواعظ على هارون الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن امراً :

أتاه الله جلالاً في خلقته وموضعاً في حسبه ، وبسط له في ذات يده فعف في جماله ،
 وواسى في ماله ، وتواضع في حسبه ، كتب في ديوان الله من خالص عباد الله . فدعا
 هارون بدواة وقرطاس وكتب له بيده — وروى صاحب الحلية قصة أخرى لابن
 السماك مع الرشيد تشبهاً . قال : بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك فدخل وعنده
 يحيى بن خالد البرمكي فقال يحيى : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح
 عنك في نفسك ، وكثرة ذكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للعامة . فقال بن
 السماك : أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عفا في أنفسنا ، فذلك بستر الله علينا ،
 فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة ، ولا جرى لسان
 لنا بمدح ، وإنى لأخاف أن أكون بالستر معروفاً ، وبمدح الناس مفتوناً وإنى
 لأخاف أن أهلك بها وبقلة الشكر عليها . فدعا بدواة وقرطاس فكتبه الرشيد
 — ولما دخل محمد بن واسع سيد العبادة في زمانه على بلال بن أبي بردة أمير
 البصرة — وكان ثوبه إلى نصف ساقه — فقال بلال : ما هذه الشهرة يا بن
 واسع ؟ فقال له بن واسع : أنتم شهرتونا . هكذا كان لباس من مضى ، وأنتم
 طولتم ذبولكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة ، وأما أنا فلما دخلت على ملك
 مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد
 السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه
 وأمرني بالجلوس فيه . فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً
 شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكت طائفة من ملكه ، وأشركت في
 حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى
 بالشكر منك . وإن الله تعالى قد ألزم الوري طاعتك ، فلا يكون أحد أطوع لله
 منك ، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال
 والإحسان . قال الله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) واعلم أن هذا الملك الذي
 أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمنزل ما صار
 إليك . فائق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن التقير والقطمير

والقتيل . قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بمخذا فيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الأانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها . ولا حسبها كرامة كما حسبتموها : بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر » فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك ، وجعل لك كهفا للملأهوف وأمانا للخائف .

ما يجب أن يراعى في وضع خطب المنابر

لما كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق وإحياء الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد القلوب وتطهيرها من الأمراض ، كانت الخطب الجملة لا تفيد الجمهور شيئا ، لأنها لم تلمس مواضع الداء ولم تهتد إلى الدواء — فمثل من يقول إن المعاصي تزيل النعم ، وإن التعلق بالدنيا مبعث من الله تعالى وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد في البر والبحر ، ولو استقمنا ما انتقمنا ، مال المساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت . مال القلوب قست . مال العيون لا تبكي ، مال النفوس لا تتألم . قد انتهكتم الحرمات وتعدتكم الحدود ، وأغضبتم الجبار ، فإن الله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما إلى ذلك من مجمل القول ، مثل الطبيب الذي يخاطب الجمهور في قواعد الصحة العامة وفيهم المسلول والحميم والمجدوم والمبطون ، وذو الرمد الصديدي والبول الدموي ، والمصاب بالسيلان أو الزهري ، وما شاكل ذلك من الأمراض الخبيثة المعدية ، التي تحتاج إلى دواء خاص . وعلاج خاص ، وحماية خاصة ، ويقول : نظفوا غزف النوم ، قلوا من الغذاء . احتسوا من الرطوبة ، لا تأكلوا المخلطات . لا تبصقوا في أماكن الاجتماع . وما أشبه ذلك أيضا من السكليات العامة التي تصلح للإسلام كما تصلح

للمريض . فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت لديهم في حكم المعلوم بالضرورة ،
لاتؤثر فيهم أدنى تأثير ، لأنها لم تلمس موضع الألم فيحس المريض ، ولم تصف دواء
فيعلق عليه الأمل وينشط في العمل — لذلك يجب على الخطيب الديني أن يتكلم
على الموضوع الخاص ويحلله تحليلًا دينيًا خلقيًا اجتماعيًا ، فيتكلم مثلاً على قتل
النفس ظلمًا ، مبيّنًا مافيه من الأضرار المادية والاجتماعية كتولد الأحقاد
والضغائن ، وبقائها بين الأسر ، وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى ، وانتقال
ذلك الشر من الأصول إلى الفروع . وكالاخلاق بالأمن والراحة : هذا إلى مافي
هذه الجناية الشنيعة الأثيمة من تعريض النفس للاعدام ، والأموال للاتلاف ،
والأولاد للضياع ، فضلا عن غضب الله ومقته . ذاكرًا الآيات والأحاديث الواردة
في التحذير من جناية القتل . ويقبح أيضًا جريمة الانتحار مبيّنًا أنه نتيجة السفه
وقلة الإيمان ، وعدم الثقة بالله تعالى والرضا عنه في قضائه وقدره . وأن المنتحر
قد باء بائمته ولقى الله وهو عليه غضبان ، تاركًا وراءه الخزي والعار وسوء
الذكرى وقبيح الأحداث — ثم يأتي بما يناسب المقام محذرًا من هذه البدعة
السيئة غاية التحذير .

ومن يخطب في الزنا يذكر أضراره البدنية والخلقية والمالية والاجتماعية ،
من اختلاط الأنساب وتمزيق الوحدة ، وأن زوج الزانية يضيع ماله على أولاد
الأجانب . وأن الزانية والزاني قد هتكا حرمة الزوج ، واعتديا على حقه الشرعي
وهتكا حرمة الأسرة ، وسجلا عليها عارًا لا يمحي ، وخزيًا لا يزول ، وتشبهًا
بالحيوان الأعجم الذي ينزو ذكره على أنثاه بلا قيد ولا شرط ، وأن من اجترأ
على الله بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء يجترأ في سبيل شهوته على ضرر العباد ،
والسعى في الأرض بالفساد ، فضلا عما في الزنا من التعرض لغضب الله ومقته . ثم
يأتي بآيات وأحاديث الزنا وفظاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلا — وينفر
الناس من الزاني والزانية بأنهما وباء على المجتمع لأن من استحكم فيه مرض بود
أن يكون الناس مثله ، والتنفير باب عام ينبغي دخوله في كل المهلكات . ومثل

لزننا اللواط ، وقريب من الزنا السفور وتبرج النساء في الأسواق والطرق ، واختلاط الجنسين — ومن يخطب في التحذير من الربا يذكر مافيه من الأضرار المالية والاقتصادية والأدبية ، وأنه ما انتشر في أمة إلا ذلت بعد عزها ، وافترقت بعد غناها ، وفقدت قوتها واستقلالها ، ووقعت في قبضة الاستعباد . هذا إلى مافي الربا من الحق وذهاب البركة ، ومحاربة الله والتعرض لغضبه وعقوبته في العاجل والآجل . ويستدل على هذا كله بالأدلة العقلية والمشاهدات الحسية — وإذا خطب في التحذير من تناول المسكرات وتعاطى المخدرات ذكر مافيه من الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية ، وأردف ذلك بما جاء فيها من الوعيد الشديد — وبالجملة إذا تكلم في المنكرات يحللها على هذا النحو مبتدئاً بأشدّها خطراً وأكثرها وقوعاً في الأمة التي يخطب فيها . وإذا خطب في باب الأوامر الإلهية والفضائل النفسية عمد إلى شعب الإيمان شعبة شعبة ، وتكلم على كل شعبة منها على حدة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء والأمانة والحياء ، مبيّناً حكمة مشروعيتها وآثارها التي تعود على صاحبها وعلى الجمعية البشرية ، ومافي تركها والانصاف بأضدادها من الخسارة عليه وعلى الحياة الاجتماعية ، مشفوعاً بذلك بالأدلة العقلية والعلمية والحسية ، مراعيّاً أيضاً أكبرها خطراً وأكثرها شيوعاً في الناس . ويخطب في المواسم الشرعية بما يناسب الحال فيتكلم في رمضان مثلاً على وجوب الصوم حتى على الأم السابقة ، مبيّناً سر مشروعيته من ضبط النفس وإضعاف شهوتها ، وكونه وسيلة إلى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها على الإرادة ، فإنها إذا انقادت للامتناع عما لاغنى لها عنه من الغذاء ، فأولى أن تنقاد للامتناع عما لا حاجة لها فيه من الحرام . فكان سبباً في قوة العزيمة واتقاء المحارم ، وأنه يبعث في الإنسان فضيلة الرحمة بالضعفاء والعطف على البائسين ، وأنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ، وما إلى ذلك من المزايا الصحية والخلقية والاجتماعية . ثم يبين ما للصائم عند الله من عظيم المثوبة على هذا الجهاد العظيم ، ذاكراماً ورد في الصوم من الأحاديث الترغيب . ويتكلم في العيدين على الأعمال المطلوبة شرعاً من صدقة

وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم . وعطف على بائس وأرملة وإكرام يتيم ،
مرغبا في العفو عن المفوات والصفح عن الزلات ، وترك الخوصومات ، وإصلاح
ذات اليبين — ويحذر الناس من العادات المحرمة والبدع السيئة التي تقع في العيدين —
وينبغي أن يتكلم على صدقة الفطر في الجمعة التي قبل العيد ليحسن الناس أداؤها
في الوقت الأفضل على الوجه المطلوب . ويتكلم في ربيع الأول على سيرة رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه بذكر نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته ، وأخبار
مولده وتربيته وصفة معيشته في نفسه ، وزواجه وسيرته في أهله ، تمهيدا لبیان
المقصد الأعظم وهو نبأ بعثته التي كانت رحمة للعالمين ، مبينا ما كان عليه من
الأخلاق الكريمة ، والآداب العالية ، وما تم على يديه من الإصلاح وجلال
الأعمال ، وما قاساه من الأهوال والمتاعب الشديدة في سبيل الدعوة إلى الله
تعالى ، مستمدا ذلك كله من الكتاب المبين ، وصحيح السنة ، وما تمس الحاجة
إليه مما أثبتته ثقات المؤرخين ، محتنباً كل ما لم تثبت صحته مما يتعلق بسيرته
الشريفة ، مبينا أن الفائدة المقصودة من ذلك هي تذكير الناس بمخلاصة تاريخ
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ليتذكر المسلمون منة الله تعالى عليهم
ببعثته ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به وكال محبته ، ويزداد تعلقهم بهذا
الرسول العظيم ، ويحرصوا على اتباعه والافتداء به وإحياء سنته والتحلل بأدابه
— ولا يكفي ذكر نسبه الشريف مجردا عن ذكر مآثر آبائه ، ولا ذكر أوصافه
الجسمية كما يفعله بعض خطباء اليوم فذلك لا يفي بالغاية المقصودة من ذكر حياته
الشريفة . وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة عن بيان ما فيها من العبر ،
وإنما يتكلم عمالاً قاه من الشدائد في مرض الموت وسكراته مع الصبر والرضا ،
وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذا كان قد لقي مثل تلك الأهوال وهو
المغفور له والمعصوم ، فكيف بنا ونحن المذنبون المقصرون ؟ ولا ندرى ما يفعل
بنا — ثم ينبه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته وتعظيمه ومحبته ، والعمل على إحياء
سنته ، وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى ، ويحث الناس على

الإكثار من الصلاة والسلام عليه ، لتكوز قلوبهم دائماً معبورة بمحبته . ويبين لهم أن المحبة دائماً تقتضى الجري على ما يهوى المحبوب ، وأن العاصي كاذب في دعواه حب الله ورسوله . ويبين أيضاً حقه على أمته ، وأن هذا الخير العظيم وتلك السعادة التى فيها العالم كانت كلها على يديه صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك شرعت الصلاة والسلام عليه قياماً له ببعض حقه على الناس . وهكذا يتكلم فى كل وقت بما يناسبه مراعيًا حال السامعين وأمراضهم واستعدادهم ، ويتكلم على القرآن الحكيم مبيناً شيئاً من هدايته وفضائله . وأنه رحمة وشفاء ، وما يجب على التالى والسامع له ، وأن القارئ نائب عن الله تعالى فى إسماع الناس ما شرع لهم فيه ، وأن من أعرض عن القارئ فقد أعرض عن الله ، وأن من أخل بالأدب عند سماعه فقد أخل بالأدب بين يدي ملك الملوك ورب الأرباب . وإجمالاً يذكر للناس ما فى القرآن من المقاصد وأنواع الهداية التى تكفل لمن سلكها سعادة الدين والدنيا ، وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة ، عندها تنزل الرحمت ، وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله ولجلاله ، وآية الفلاح والهداية . ويحض الناس على احترام مجلس القرآن ^(١) وتدبره لتتسع عقولهم وتستنير بصائرهم ، فإن من فتح قلبه لهدايته وكان على استعداد تام للتأثر به كفاه فى الرجوع إلى الله تعالى استماعه له بسلامة ذوقه وفطرته ، فسليم الفطرة والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة ، شأن الإنسان الحى فكيف بأعظم هادٍ وأكبر مؤثر « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وصفوة القول أن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ، ملائماً لما تدعو إليه حاجة السامعين . وقد جرت عادة الخطباء بالتزام صورة واحدة فى الخطبة الثانية للجمعة سموها « خطبة النعت » وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح ، فهى محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعى ، بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى ، وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح ، وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه شتى ، فلا يصعب

(١) راجع كتاب الابداع ص ٢٤٠ من الطبعة الرابعة -

على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات أو الأحاديث أو الآثار أو الحكم البالغة ما يناسب موضوع الخطبة الأولى كما سترى ذلك في أكثر النماذج الآتية إن شاء الله تعالى . هذا ما يجب أن يراعى في وضع الخطب المنبرية ، وقد سبقت الإشارة إليه إجمالاً أول الفصل الثاني عشر ، وهذا داؤها ودواؤها ، كما هدتنا إليه التجربة وكثرة المران والممارسة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — وإليك نماذج تطبيقية من الخطب العصرية لتكون لك نبراساً تهتدى به ، ومثالاً حسناً تنسج على منواله . والله الهادي إلى سواء السبيل .

نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية

في أهم حوادث الوقت الحاضر

أدى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله فريضة الجمعة في الجامع الأزهر يومى ١١ شوال سنة ١٣٥٥ و ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ فخطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراعى شيخ الجامع الأزهر فيهما خطبة الجمعة فكانت خطبته الأولى في ورائة الأرض بالعمل الصالح ، وخطبته الأخرى في الحكم الصالح . ولما تضمنته الخطبتان من عظات قيمة وإرشاد حكيم ، رأينا تسجيلهما في هذا الكتاب ليكونا نبراساً تهتدى به الطلبة فيما يضعونه من الخطب المنبرية .

خطبة يوم ١١ شوال سنة ١٣٥٥ بالجامع الأزهر الشريف

أحمد اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك ، وابتغاء رضوانك العميم . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله رحمة للإنسان . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار ، وصحبه الطيبين الأخيار . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

ولم يكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . هذا وعد الله الصادق ، ولن يخلف الله وعده . أمور ثلاثة أيها المؤمنون هي أسى ما يتصوره الإنسان ، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الإيمان : استخلاف العالمين في الأرض ، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف أمنا وطمأنينة — والاستخلاف في الأرض خلافة عن الله في عمارة الكون ، وتوزيع العدل والإحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة ، وهو مطلب تتفانى الأمم في سبيله ، وتضحى بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه . وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان ، ولا وُجد مجد وسُودد ، ولا شُعرت أمة بالعزة إلا إذا حتمت القوة وبسطت عليها أجنحتها ، وهذه المثل قائمة ، وشواهد الماضي حاضرة في ذهن ماثلة . وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصد رفيع ، يتبعه استقرار النفوس ، وراحة الضمائر ، والشعور بالعزة والكرامة ، ليس أشهى إلى النفس ، ولا أمتع للقلب ، ولا أهنأ للروح ، من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ في نفوس الناس أجمعين . والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة ، وللخوف آثار تفسد العقل ، وتذهب بالتفكير ، وتجعل العيش مريرا ، والحياة مضطربة . وما أجلي الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذبه يتدفق بعد القلق ! عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافي القلب متجهاً إلى الله ملتصقاً بالخير والنفع للعباد . وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجري عباراتها على اللسان ، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » . ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس ، والاستهانة في سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدي بالحركات ، أو صيام يؤدي بالحرمان من اللذات ، أو ذكر يجري على اللسان ألفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة . إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الإسعاد : من إخلاص لله ، ومحبة لخير الفرد

والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله . « وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهد ، والصدق في القول ، والشجاعة في الحق ، والصبر على احتمال المكاره ، والعدل مع الأفراد ، بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم ، وإرشادهم إلى الخير ومعاونتهم فيه ، ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة ، وما يفرضه الحاكم ، مما ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية ، والدأب والسهر على مصالحها وحياطتها من الانزلاق في الشرور والتهاون في الدين ، وإن قوام العمل الصالح ههنا تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب من الحكام ، ومطلوب من الرعية ، والعدل هو اتباع السنن الإلهية ، والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التي لا تتنافى والدين إن الأمة الصالحة التي تستحق الخلافة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العدل يجب أيضاً أن تؤدي للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج ما فيها وما حولها من قوى ومنافع ، لتحقيق الإرادة الإلهية من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . عباد الله : لا تسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصيب شيعاً وأحزاباً ، رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة ، لا تسعد أمة لا تعصم بحبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الداهيين الأولين ، لا تسعد أمة تحتكم إلى الشهوات ، وتعاضى عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعصى عن العبر ، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين ورائها ظهرياً ، وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حباً في الاستمتاع بالشهوات ، وما في الحياة من لذات ، لا تسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها في الترف ، ويستعذبون الراحة ، ويأنفون العمل ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أيها المؤمنون ، نحن بين أمرين . إما أن نستضيء بمور

العقل ونهتدى بهدى الشرع فنصير فى الدنيا إلى عزة نعلوبها فى أجواز الفضاء ، ونخترق بها أطباق الأرض ، ثم فى الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إلى مغفرة الله ورضوانه ، وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونغمض عما حل بالأمم السابقة أعيننا ، ونغلى مراجل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير فى الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة ، إلى خزي من الله وخذلان . « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ؛ وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة ، وهدانا إلى ما يرضيه ويقر بنا من عفوه ورحمته . روى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد جلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

خطبة يوم ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ بالجامع الأزهر الشريف

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا ينسى ، سبحانه هو الكبير المتعال ، نحمده حمداً به نستأهل غفرانه ؛ ونستمتع عطفه ورضوانه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله توحيد بالربوبية المطلقة ، وتفرد بالجلال والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدهم بإحسانه ورعايته ؛ ونصلى أفضل الصلوات وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ؛ الذين حلوا من بعده علم الهداية ، فدانت لهم الأمم ، وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيماً ؛ أما بعد فيقول الله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل كريماً لا يقبل الضيم ، وحله كرام بررة ، رفعوا لواء عزه وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به في الآفاق نافذ السلطان ، رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتتوا بعرض الحياة الأدنى واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغاير تقسم ، وأسلاًباً توزع ، ودنيا مملوءة باللذات فيها دعة وسكون ، وترف ومجون وطال عليهم الأمد في ذلك ففقت قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهي ، فسات حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه . تحلوا من أصول الإسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يتمسك بها الرجل المتمدين الذي عرف معنى الحياة وما فيها من لذة وممتة سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الخمر والميسر والاسترسال في الشهوات والانغماس في الإباحية نوع من الحرية ، خاصة من خواص المدنية . سول لهم أن التدين عار فتركوا دينهم ، ونبدوا كتبهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح والخلق الفاضل فصاروا نهياً للأمر ومثلاً للذلة ، توالى عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابع أمامهم العبر فلم يعتبروا فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . بهذا أصبح الإسلام في ناحية والمسلمون في ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : « إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله في ذلك قوانين تنظمها ، وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيع الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى في النظام ، والجور في الأحكام . دين يتفنن

في الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والإلحاد .
 بهذا ونحوه من الآثام والرزائل التي صارت بين المسلمين معروفة مألوفة — وهي عند
 العقلاء وفي دين الإسلام منكرة ممقوتة — يصور الإسلام أخذاً من حالة جمهور
 يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام . أليس هذا أيها المسلمون
 جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضاً لا يحمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ؟
 ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟ « إن هي إلا فتنتك
 تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
 الغافرين » . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق ،
 ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم
 وكثير منهم فاسقون » أيها المسلمون ، اسمعوا في دينكم قول الله الحق وقول رسوله
 الكريم . يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم
 ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ويقول : « وإذا قيل
 لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »
 يقرر القرآن نفي الإيمان ممن لم يرض بأحكام الله ، رضا يزيل الحرج عن صدره ،
 ويملاً قلبه استسلاماً وطمأنينة ، ويصف بالنفاق من يصد عن الداعي إلى الله
 ورسول الله . ويقول في آية أخرى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده
 والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة .
 كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها
 وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن
 تقولوا على الله ما لا تعلمون » . إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه ،
 وتأول فيه التأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه
 الإباحية الجاحدة ، ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حد ، وإنما يحتمل مدنية
 فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة
 الله وما هيأ لعباده من طيبات : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات

ويحرم عليهم الخبائث . هذا هو الإسلام أيها المؤمنون ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة ، واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام . خطوا للفضيلة طريقاً واضحاً ، وضعوا لها نهجاً مستقيماً ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . أيها المسلمون إن الله وضع قواعد الحكم الصالح في هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » والأمانة ما تجب المحافظة عليه فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ، وقول الحق في الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة والعدل في الأحكام والأفعال والأقوال أمانة . كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصاً في الكتاب ولا في السنة قانون ، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون ، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم في محكم كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . أيها المسلمون ؛ اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمته « شرما في الرجل شح هالع وجبن خالع » ، — الهالع : الحزن ، والخالع الذي يخلع القلب من الخوف — « لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ومن كتم شهادة دعى إليها كان كمن شهد الزور ، الدين النصيحة ، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا » — يشير إلى صدره — « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمس عليهم أحدًا بمحاباة فعلية لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى لا يدخله النار . اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم : حلهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم . وإياكم والخيانة فإنها بُئست البطانة . من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وقفتى الله وإياكم إلى التمسك بدينه والعمل على مرضاته والتخلق بأخلاق نبيه الكريم .

الدين وأثره في تهذيب النفس

الحمد لله شرع الدين هداية للمؤمنين ، ووفق من شاء للتمسك به والتجلى بأدابه ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله كتب رحمته للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله — أما بعد فقد قال الله تعالى : « وما أُمِرُوا إِلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » أيها الناس — الدين يأمرنا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أن واجب الوجود إله واحد قادر مريد عليم حكيم ، سميع بصير ، متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص أبدع الكائنات بقدرته ، ودبرها بحكمته وعلمه ، فهو الذى يحى ويميت ، والذى يعطى ويمنع ، والذى يضر وينفع ؛ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . هذا هو الاعتقاد الحق الذى يُخرج النفس من ظلمة الجهل ، ويرفعها من وهدة الشرك ، ويُطهرها من دنس الخرافات والأوهام ، فلا تنحط إلى عبادة جماد أو إنسان أو حيوان ، ولا تخضع إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام : الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين : والدين بعد ذلك قد فرض على الناس عبادات كلها ذو أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب

النفوس : فرض الصلاة خساً في اليوم والليلة ، وجعل مفتاحها طهارة البدن والثوب
 والمكان فيقف العبدُ فيها فارغاً من الشواغل ، موجّهاً قلبه إلى مولاه نظيفاً
 الظاهر طاهر الباطن ، يُناجي ربّه ويُنثني عليه بما هو أهله ، خائفاً من عذابه
 طامعاً في رحمته ، طالباً منه العون والهداية ، فيؤثّر في نفسه ، ويُؤدّه مراقبة الله
 وخشيته ، فيجتنب ما يُغضب مولاه ، ويمتنع عما حرم الله عليه : إن الصلاة تنهى
 عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ، وفرض الزكاة
 في أموال الأغنياء سداً لحاجة الفقراء ، وتفريجاً لكربة الغارمين وتيسيراً لأبناء
 السبيل ، وعوناً على المصالح العامة ، كذلك تفرّس في المؤمن فضيلة السخاء ، وتظهر
 نفسه من رذيلة الشح ، وتخرج الأضغان من قلوب البائسين ، وحِقدّم على الأغنياء
 المترفين ، وتملأ قلوبهم بحببتهم ، وتمنعهم من الإساءة إليهم ، وبذلك يسود الأمن ،
 وبذلك تكون الألفة والأخاء . قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
 وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » وفرض الصيام
 ليُزَيّن في الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والصبر عند الشدائد وقوة الإرادة وضبط
 النفس عندهيجان الشهوة والعفة والقناعة والأمانة والعطف على الجائعين ، ويُعرفه
 مقدار النعمة ليُشكر مولاه على التفضل بها « وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
 عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . وأما الحج فالناس فيه أشبه بالموتى يفارقون
 أموالهم وعيالهم ، وينتقلون إلى غير ديارهم مُتجردين عن زينة الحياة الدنيا ،
 ليس على الواحد منهم إلا إزارٌ ورداء ، والكل خاضع لعظمة الله ، خاشعٌ لجلاله ،
 لا فرق بين صغير وكبير ، وغنى وفقير ، هنالك تتطامن النفوس وتعلم أن زخرف
 الحياة باطل ، وهناك تشعرُ بالتواضع والمساواة ، وأنه لا يليق الاستعلاء والاستكبار
 بجاه ولا مال ، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب « إن أكرمكم عند الله أتقاكم
 إن الله عليم خبير » . كذلك الدين حرم ما يُفرض بالناس إلى الفناء ، ويوقع بينهم
 العداوة والبغضاء ، أو يفسد العقل ويحيط من كرامة المرء ويذهب بحيائه وماله :
 كالقتل والزنا والقذف ، وشرب الخمر والمقامرة ، والربا والرشا وأكل أموال الناس

بالباطل ، والغيبة والنميمة والخيانة والغدر ، والضعفينة والحسد ، وكل ما فيه إيذاء للناس . قال صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه »
أيها الناس — الاعتصام بالدين يهذب النفس ويطهرها من الرذيلة وسوء الخلق ، ويظهر أثر ذلك في المعاشرة والمعاملة ، فمن كان متمسكاً بدينه واقفاً عند حدوده حسنت معاشرته ، واعتدلت معاملته ، فببرّ بوالديه وأقاربه ، ويواسي إخوانه ، ويقوم بحقوق أهله ، ويربي أولاده ، يتقف عقولهم ، ويهذب أخلاقهم ، لا يؤذى جاراً ولا أحداً في نفس أو عرض أو مال ، ولا يكون لعاناً ولا سبباً ، ولا نماماً ولا مفتاباً ، ولا حقوداً ولا حسوداً — والمسلم المتدين لا يغش إذا باع أو اشترى ، ولا ينقص مكيالاً ولا ميزاناً ، ولا يكذب إذا حدث ، ولا يخلف إذا وعد ، ولا يخون إذا أوتمن ، ولا يكون مختالاً ولا فخوراً ، ولا جباراً ولا عنيداً ، ولا يماطل في حقوق الناس — والمسلم المتدين إذا وكل إليه عمل أتقنه وأداه على الوجه الأكمل من غير تسويف ولا تأخير ، وإذا ولي على الناس عدل فيهم ونظر في مصالحهم ، ليس لتغير الحق سلطان على نفسه فلا يجابي قوياً ، ولا يضيع حق ضعيف ، فهو ملك كريم في صورة إنسان رحيم » والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » . روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

ويقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس اعلوا أنه لا ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا إلا الاستقامة وصالح العمل مع صدق الإيمان . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وفى الحديث القدسى عن رب العزة : ما أقلّ حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتي » فالذين يهملون طاعة الله تعالى انكساراً على كرمه وسعة رحمته قد لعب الشيطان بمقولهم

وغيرم بالله . نعم إنه كريم واسع الرحمة ، ولكنه حكيم جعل كرمه ورحمته لمن امثّل الأوامر واجتنب النواهي . قال تعالى : « ورخصتي وسعت كل شيء . فساد كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » الآية .

أهملنا ديننا فساءت حالنا

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » فهذب بالكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهادانا إلى وسائل الرقي والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، والداعي إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بأداب الدين ، ووقفوا عند حدوده خضعت لهم رقاب الجبابرة ، وأسقطوا عروش الأكاسرة ، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين . أما بعد : فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أيها الناس : لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها ، صحيحة في عقائدها ، صالحة في أعمالها ، حسنة في معاملاتها وعاداتها ، كريمة في أخلاقها ، بصيرة في دينها ودنياها ، راقية في آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها . واليوم تنير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تدهورت أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت في علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الكرامة ، فاقدة الهيبة ، مغلوبة على أمرها ، متأخرة في مرافق حياتها ،

تتخبط في ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها ، وانحرفت عن طريق الهدى نبيها ، وسارت وراء هواها ، وفُتنت بزخارف الحضارة المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظلت الإباحية حرية ، والخلاعة رقياً ، فتعدت حدود العقل والدين ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فساءت حالها ، وسلط عليها عدوها « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » أيها الناس : لقد ذاقتم الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذلة والهوان ، والتفرق والاحلال . كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نفيق من سكرتنا ، ولا ننتبه من غفلتنا ، ولا ننزجر بالحن والبلايا ، ولا نعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لنا نفوس حية وقلوب يقظة . لو كان لنا شعور حي وإحساس قوى ، لنبهتنا البلايا ، وأيقظتنا المؤلمات . أيها المسلم : الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويمه ، ومعاملات حسنة عادلة ، وأخلاق كريمة . فهل أنت صحيح العقيدة ، قويم العبادة ، حسن المعاملة ، كريم الأخلاق ؟ هل أنت سائر في كل أعمالك وأحوالك في طريق الدين ؟ أم أنت تسير منحرفاً عن الطريق القويم ؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالاً ، أو مرأثياً محتالاً ، أو مدهاناً منافقاً ؟ هل من الدين أن يكون المرء نماماً أو مقتاباً ؟ أو لعاناً أو سباباً ، أو غاشياً أو خائناً ؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد ، مخلفاً للوعد ، متكبراً جباراً عنهداً ، ماطلاً في حقوق الناس ؟ هل من الدين أن يكون مهملاً لأولاده ، عاقاً لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئاً لزوجه ، مؤذياً لجيرانه ؟ هل من الدين أن يكون قاسى القلب : لا يرحم مسكيناً ، ولا يكرم يتيماً ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآية . كلا ! أين هذا من قول رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أيها الناس : ما هذا الفساد في أمة شعارها الإسلام ، وأساس دينها القرآن ؟ ما هذا التدهور الخلقي في أمة رسولها سيد ولد عدنان ؟ أتحمكت الشهوات في النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » رأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقي والسعادة . فاتبعتم ديناً غيره ينهض بكم ويُسعدكم ؟ كلا والله ، لا رقي إلا به ، ولا سعادة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء في الدنيا والآخرة إلا به « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » قال صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » رواه أبو داود — واشرح في الخطبة الثانية قوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشفه » ثم تحتتمها بقولك : أيها الناس لا خلاص للأمة من هذا الشقاء ، ولا نجاة لها من هذه البلايا ، إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال ، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله وسنة رسوله »

بدعة خروج النساء إلى المقابر في المواسم

الحمد لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الطريق القويم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ومن تمسك بالدين ووقف عند حدوده . (أما بعد) فيأيها المسلمون إن الله تعالى قد جعل علامة محبة العبد له اتباع نبيه الكريم ، وطاعة رسوله الصادق الأمين حيث قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم

ذنوبكم والله غفور رحيم » . فمن لم يتبع الرسول فيما جاء به وادعى أنه يحب الله تعالى فهو كذاب ، وكتاب الله يكذبه ، إذ لو كان صادقاً في دعوى محبته لأطاع رسوله ، فإن طاعة الرسول طاعة لمولاه ، وعصيانه عصيان لله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . وإن الله تعالى جعل محبته ورضاه ورحمته وإحسانه في اتباع نبيه والاهتداء بهديه . فالخير كله والهدى في الاتباع ، والشر والضلالة في المخالفة والابتداع ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن من يعيش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وإن من البدع القبيحة والعادات السيئة زيارة النساء للقبور في المواسم والأعياد على الحال المعروفة : من تهتك النساء واختلاطن بالرجال ، مع فساد الأخلاق وانتشار الفساد في هذا الزمان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل — وأى بدعة أكبر قبحاً وأعظم وزراً من بدعة جمعت مفاسد جمّة وشروراً كثيرة ؛ من انتهاك الحرمات وابتذال الأعراس ، وإضاعة الأموال ، وإيذاء الموتى ، وغضب الله المنتقم الجبار . أيها الناس : لقد أصبحت نساء اليوم من أشد الأمراض الاجتماعية التي أعيت الأطباء الناصحين ، وكلت منها أسنة الخطباء المرشدين ، وصرن أكبر عون للشيطان على تنفيذ كل ما يأمرهن به من عادات الجاهلية ؛ في النذب والنياحة وشق الجيوب وإعلم الحدود وصبغ الوجوه والأيدى بالسواد ، ورسول الله صلوات الله عليه يقول : « ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . يحجى رجب أو عيد الفطر أو الأضحى فتصبح النساء ولا همّ لهن إلا ما يُعدّونه للقرافة من ألوان الأطعمة والفواكه المتنوعة ، فالغنى ينفق عن سعة والفقر يضيق ما فيه حاجة عياله ، وقد يقترض لذلك أو يرهن متاع بيته لدى المرابين . ويكثر النزاع ويشتد الخلاف بين المرء وزجه ، وقد يؤدي الأمر إلى الفراق ، أو دوام النكد والشقاق ، وإذا جاءوا إلى المقابر رفعت النساء أصواتهن بالبكاء ، وأظهرن الحزن والجزع ، ووقعن في كلاب الكفر بالتسخط على القدر ، والاعتراض على الله تعالى في حكمه وقضائه ، وهو الفاعل

الختار ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . هذا : وبعد قليل توضع الموائد فوق المقابر ، وعلى رؤوس الموتى ، ومنها يأكلون وبها يتنعمون ، ناسين الموت وسكراته غافلين عن الموتى وما هم فيه من ظلمة ووحشة وكروب وأهوال . فإذا طعموا انتشروا في الصحراء يتبادلون الزيارات كأنهم في منازل الأحياء لا في مقابر الأموات أما كن الخشية والاعتبار : « ذلك هو الضلال البعيد » . أيها الناس ! أعن هذا يرضى الرب أبهذا ترحم الموتى ؟ أبهذا تؤدى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ هل جاء في كتاب الله أو في سنة رسول الله أن أول جمعة من رجب أو أيام الفطر والأضحى جعلت لزيارة المقابر ؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة أو الأئمة الأربعة كان يخرج هو أو نساؤه في هذه المواسم لزيارة الموتى ؟ نعم ! كان السلف الصالح يفتسلون ويتطيبون يوم الجمعة ويطعمون الطعام في رمضان ، ويكثر من الصدقات في أيام الأعياد . أما زيارة الموتى فلم يكن لها في عهدهم جمعة أولى من جمعة ، ولا يوم أفضل من يوم — ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخرج مع الصحابة إلى الصحراء لصلاة العيد ، وكان يذهب من طريق ويرجع من طريق أخرى ، ولم يثبت أنه زار قبراً في ذهابه أو إيايه ، مع وقوع المقابر في طريقه ، بل قال في عيد الأضحى : « أول ما نبداً به في يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، من فعل ذلك فقد أصاب سنتنا » . أما حمل الأطعمة إلى المقابر فلم يعرف عن رسول الله ، ولا عن أحد من الصحابة ، بل هو شاغل عن العبرة والاتعاظ ، مبطل لثواب الصدقة ، لما فيه من الرياء وإيذاء الفقراء ، وإهانة القرآن . ولو تصدقتم بها في البيوت على العجزة والمصابين والأرامل واليتامى لكان أرجى للقبول ، وأقرب إلى الوصول ، ولكفتم حملها وحمل أوزارها معها : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلوالدين والأقرب بين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والشُرُج » . رواه أبو داود والترمذى وحسنه . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس

على قبر » . رواه مسلم — وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس إن رفع الصوت بالبكاء والنياحة يضر بالأحياء ويؤذي الأموات ، روى البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول : واجبلأه وا كذا وا كذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لى : كفت كذا ؟ فلما مات لم تبك عليه » . وهذا توبيخ شديد ، وإيذاء عظيم ، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم في قبورهم ، توبوا إليه وسلوه لهم الرحمة والعافية عسى ربكم أن يتقبل منكم ويرحمهم : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

سبب الشقاء مخالفة الدين

الحمد لله الذى جعل السعادة للسالكين سبل الهداية ، وقضى بالذلة والشقاء على من مال عن طريق الرشء إلى القواية . لا إله إلا هو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين وأشهد ألا إله إلا الله نبه بالقرآن كل غافل ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أظهر الحق من الباطل . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أى لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية ، إلى نقمة وبلاء ، حتى يغيروا ما بأنفسهم : من طاعة وشكران ، إلى عصيان وكفران . تلك سنة الله فى خلقه ، وإن تجد لسنة الله تبديلاً . أيها المسلم ، تراكت عليك الكروب من الذنوب ، وأنت فى غمك تسرح وتمرح . أحاطت بك البلايا من كل جانب . ولست لإصلاح نفسك تجنح ، كلما أوضح لك المرشدون طرق الهداية تعاميت وفى جسم الإسلام بالخازى تجرح . فلا أنت بالكروب معتبر ، ولا من البلايا منزجر . أما سمعت قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين » قلب نظرك فى نفسك هل تجدها عاملة بمقتضى الدين ؟ . فتش قلبك هل تجد فيه حياة من الله ييقين ؟ تأمل فى الناس هل تجد إخلاصاً بين اثنين من إخوانك المسلمين . إذا قلت أبى رابطة الإسلام لا تجد إلا متفرقين مختلفين ، وهل تصلح حال الأمة

والعالمُ بينهم عن غير الطلاق ورؤيا المنام لا يُسأل ؟ وهل ترقى الأمة والشرير عن شروره لا يتحول . والتاجرُ والصانعُ عن غير جمع المال لا يُسأل ، والغيور على الدين مُتَأَلِّمٌ مسكين ؟ نحن في مستقبل أمرنا لا نتدبر . نحن في تأخرنا وتقدم أسلافنا لا نتفكر . نحن من ضياع حاصلاتنا وسوء أحوالنا لا نتأثر . نحن في اللذات والشهوات أصبحنا هائمين . نحن من غيبة مسلم إلى احتقار فقير ، إلى ظلم أجير ، إلى مخالفة القرآن . نحن من موضع لهو إلى حانة خمر إلى بيت فاحشة إلى إهمال دين الديان . نحن من تهتك نساء إلى تطرف شبان إلى فساد أخلاق إلى ضياع حق الإيمان . نحن من نقص ميزان ومكيال إلى نصب واحتيال . إلى مكر وخداع . إلى تجسس على عورات المسلمين . نحن تنفك في المجالس بحسد زيدٍ وانتقادٍ على عمرو . ونسعى بين بعضنا بالأذى والفساد وتعامل بالغش والخيانة والقدور . الغنى فينا جبار شحيح . والفقير منا متكبر قبيح . حتى عم البلاء وزاد الشقاء وفسد الأمر . نحن إذا اتفقنا افترقنا في أقرب حين . شهدنا الزور بلا خجل . أكلنا الربا بلا مبالاة . في الأسراف والتبذير أضعنا الأموال * الحق أضعفناه ، الباطل قويناه ، الصدق تركناه ، الكذب روجناه ، لا يخطر لنا الحساب على بال . خاصمنا القريب ، وهجرنا البعيد ، كل منا على الآخر شديد ، قلوبنا أصلب من الحديد ، ولسنا بعيوبنا عن عيوب غيرنا مشتغلين . أضعنا الصلاة بلا خشية ، منعنا الزكاة بلا رحمة ، أسأنا الجوار بلا حياء ، لسنا من بطش الجبار خائفين . وإذا نهى عن المكر غيور سمعناه وخالفناه ، وإذا عاهدنا عهداً نبذناه ، وإذا جاء المسلم خير حسدناه ، وإذا حلفنا يميناً كنا كاذبين . أهكذا تكون أمة يتلى بينها القرآن ، أهكذا تكون أمة رسولها المصطفى سيد ولد عدنان ، أهكذا تفعل أمة سيحاسبها الملك الديان ، أهكذا الدين ، أهكذا العقل ، أهكذا المروءة ، أهكذا يكون عمل المسلمين ؟ فيأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، اتقوا الله وتمسكوا بالكتاب والسنة ، فلا حياة لكم إلا بالرجوع إلى كتاب الله ، ولا سعادة إلا بإحياء سنة رسول الله ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ

المبين * عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه » — ومعناه ينتقم ممن عصاه — متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » رواه البخارى .

التحذير من الربا

الحمد لله أعز من أطاعه ، وأذل من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله شديد البطش بالظالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه فعاشوا أعزة أقوياء (أما بعد) : فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أيها الناس ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم بين لهم النافع والضار ، والحلال والحرام ، فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، وأباح لهم التوسع فى كسب المال من طريق حلال ، وحرم عليهم الربا لأنه من أكبر أسباب الفقر والدمار ، وأقوى عوامل الذل والاستعباد للأمم والشعوب ، لهذا شدد الله الوعيد عليه ، وجعله من أخفش الخبائث ، وأكبر الكبائر ، ونفراً للناس من تعاطيه بأبلغ الزواجر . فقال تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وأى زاجر أبلغ من جعل المرابى محارباً من الله ورسوله ، لأنه شؤء وجه المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله بغير حق ، وقطع يد التعاون الذى أمر الله به فى قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فوا عجباً كيف يُقدم المرء على معاملة من يُصيرُهُ عرضة للفقر والحراب والذل والهوان ، حيث يسلب ماله شيئاً فشيئاً حتى ينتزع منه جميع أملاكه ، ويصبح

ذليلاً محزوناً ، ملوماً محسوراً . فيأيها المقرض بالربا ! أما تدري أنك أوقعت نفسك في يد ذلك الكفار الأثيم ، الظالم الذي لا يرحم ، الذي يأكل مالك وهو مادة حياتك ، وقوام عيشك ، فإن كنت تظن أنه بالإعطاء قضى حاجتك ، وفرج كرتك ، فقد أوقعك في ضيق شديد تسوء مغبته ولا تُحمد عقباه ، قل لى بربك أى ضرورة تدعوك إلى الاقتراض بهذه الزيادة المشئومة ، والرزق عند الله مضمون ، وأبوابه كثيرة ؛ وما دام الإنسان حياً لا يعدم قوته — أيها الناس : إن ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا . فذل الربا أشنع عند تعذر القضاء وحجى الدائن مطالباً أيها المقرض بالربا ، إن كنت ممن يرضى بما قسم الله له كفافك في دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة ، وإن كنت تحب المظاهر الكاذبة والتفاخر بكثير المال ، فاعلم أن الربا يوقعك في دين ثقیل ، وهم دائم ، وذلل مهين ، وعذاب عظيم ، وفقر أليم . قال لقمان لابنه : يا بني إياك والدين فإنه هم بالليل وذلل بالنهار . أترضى لنفسك أن تشقى في جمع مالك ، وتنصب في تحصيل ثمرات أرضك وعقارك ، ويقوز به المرابي وهو هادىء البال مستريح الضمير ، بين أهله وعشيرته ، وتعينه على أكل الربا فتشاركه في اللعنة وتعرض نفسك لمقت الله وغضبه . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فينة أو يصيبهم عذاب أليم » . يا هذا : السعيد من اعطى بغيره واعتبر بمحادث الأيام ، وإن كثيراً من أمثالك تعاملوا بالربا فماد عليهم بالضرر والوبال ، وعما قليل قد أحاط بهم الخطر وصاروا فقراء أذلاء ساقطين ، لا يعطف عليهم قريب ؛ ولا يواسيهم بعيد ، وتقطعت بهم الأسباب ، وأصبحوا حملاً ثقيلاً على كاهل الأمة ، هذا يحقرهم ، وذاك يتألم منهم ، وآخر يشمت فيهم ، ويرميهم بالسفه وسوء التصرف « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فاتقوا الله أيها المسلمون في أنفسكم وأولادكم وأموالكم وأمتكم ، خافوا الله وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكتبه وشاهديه وقال هم سواء »

رواه مسلم وغيره — وآكله هو الآخذ للزيادة ؛ وموكله هو الدافع لها ، وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس — إن المال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم والشعوب ؛ به تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم فإذا خالطه الربا ذهب من يدها فصارت ضعيفة ذليلة فاقدة الهيبة ، ساقطة الكرامة وأصبحت فريسة للأقوياء ، وعرضة لطمع الطامعين وجشع المستعمرين . وذلك جزاء الظالمين ، ومآل المسرفين الذين يتعرضون لحرب الله ورسوله . يا قوم يكفي لقبح الربا والتنفير منه أن الله تعالى يجعل من علامات المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون من قبورهم على هيئة المصروعين المجانين ، الذين تسلط عليهم الشيطان فضر بهم في عقولهم . قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . المس الجنون . نسأله تعالى السلامة من جميع المكار والعاقة من كل بلية ، إن ربى لسميع الدعاء ، قريب مجيب .

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها

الحمد لله الذى أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة . وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين . والشكر له تعالى هداً للإسلام وفضلنا على جميع الأمم . وأشهد ألا إله إلا الله أعز الطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين وإمام الخاشعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحفاظين لحدود الله (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » . عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام . من حافظ عليها فهو السعيد الراجح ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقي . وإن الخشوع فيها مع الإخلاص لله آية الإيمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فإن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدي مولاه في اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله . انفرست في نفسه خشية مولاه في جميع أعماله ، وحضرته هيبة خالقه في عموم أحواله . فإذا سولت له نفسه أمراً ، أو زين

له الشيطان سوءاً تبرأ منهما قائلاً : إني أخاف الله رب العالمين . فكن في صلاتك خاشعاً ، وفي مناجاة ربك صادقاً . فلا تقل الله أكبر وأنت تظن أن هناك من يساويه أو يدانيه في عظمته . لا تقل الحمد لله رب العالمين وأنت بالخلال لا تقنع . ومن الحرام لا تشيع . لا تقل الرحمن الرحيم وأنت شديد البطش قاسى القلب على الضعفاء والمساكين . لا تقل مالك يوم الدين وأنت لا تذكر الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين . لا تقل إياك نعبد وإياك نستعين . لا تقل وإياك نستعين . وأنت تلتجئ في الشدائد إلى الخلق وتترك باب مولاك . لا تقل اهدنا الصراط المستقيم وأنت منحرف عن طريق المهتدين . لا تقل صراط الذين أنعمت عليهم غير المنغضوب عليهم وأنت سى الأخلاق حقود حسود ، تمام مغتاب ، غشاش كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين . لا تقل ولا الضالين . وأنت فاسد الاعتقاد شر في الأعمال ، تدبر الأذى وتكيد لإخوانك المسلمين — يا هذا — إن من حافظ على الصلوات في الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته ، وحيل بينه وبين المحرمات ، وكان على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحماً ، وأفلح في دينه ودنياه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليضل المرء عن سواء السبيل ، ويقذف به في مهاوى الشقاء والخسران . والسيوف القاطع ، والدواء النافع ، الذى جعله الله تعالى لوقاية الإنسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » . أيها الناس الله تعالى يقول : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يسرعون في أدائها وهم عنها غافلون . لا يعرفون لها معنى ، ولا يعقلون لها سرّاً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوسواس ، وامتألت قلوبهم بشواغل الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له

شيطاناً فهو له قرين » . ومن الناس من عميت بصائرهم وتنجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته ، ولا سوء الحساب ، ولا نار العذاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . فيأيتها المسلمون اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله بإحسانه ، وغفرهم في بحار رحمته . « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » في الحديث القدسي عن رب العزة — « ما أقلّ حياءَ من يطعم في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي » . وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحسن الرجل الصلاة فآتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة حفظك الله كما حفظتني فترفع ، وإذا أساء الرجل الصلاة فلم يُتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة ضيعك الله كما ضيعتني . فتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه » .

الحث على تأليف الجمعيات التعاونية والزراعية

الحمد لله الذي أمر بالتضامن والتعاون ، ونهى عن التفرق والتخاذل ، وهو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا إلى سبل السعادة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله بين لنا وسائل الرقي والسيادة . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين صفت نفوسهم ، واتحدت كلمتهم . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » أيها المسلمون إن التعاون على طرق الخير ، والتآزر في الأعمال النافعة ، أساس الرقي ، وأصل الفلاح والنجاح . فما من أمة جعلت التعاون شعارها ، والتآزر عنوانها ، إلا أعما الخصب والرخاء ، وشملها اليسر والهناء . ففي التعاون والتضامن التقدم والرقي ، وفي التخاذل والتفرق الالمحطاط والتأخر . لهذا أمر جل وعلا عباده المؤمنين

بالتعاون والتضامن ، وحذرهم أن يكونوا كالذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فأذاهم في الدنيا ذلاً وهواناً ، وفي الآخرة أنكالا وجحماً ذا غصة وعذاباً أليماً . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وهامى مضار التفرق بيننا حتى أصبحت جلية ، وآثاره السيئة فينا صارت بيّنة واضحة . فما تأخرنا بعد تقدمنا ، وضعفنا بعد قوتنا ، وذلنا بعد عزنا إلا من تفرقنا وتخاذلنا — حتى تحك الأجنبي في موارد حياتنا ، وأساس ثروتنا . فاشتري محصولاتنا بأبخس الأثمان ، وباع لنا بضاعة بلاده بأفخس الأسعار — فأصبحنا كما تعلمون لا مالا جمعنا ، ولا ديناً اتبعنا : التاجر منا مهتد بالإفلاس ، والصانع فينا خائف من بوار صناعته ، والزارع أمسى في ضيق مستحكم ، ونكد مستمر — وصرنا إلى حال سيئة تذوب منها الأفئدة ، وتنفطر لها القلوب : كل ذلك من سوء تصرفنا ، وعدم التعاون والتضامن في أعمالنا ، فجلبنا على أنفسنا البلاء ، وأغضبنا بتفرقنا رب الأرض والسماء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أيها الناس — إن الأجانب قد أدركوا مزايا التعاون الذي أمر به ديننا فتمسكوا به ، واتخذوه أساساً لهم في سائر الأعمال الحيوية النافعة ، فسعدوا وسعدت بهم بلادهم — ونحن أهملنا نصائح ديننا ، واتخاذنا في شئون حياتنا ، فشقينا وشقيت بنا بلادنا ، وأصبحنا وراء الأمم قوة ومدنية — عباد الله أنظنون أن تنالوا السعادة والرق بغير التعاون والتضامن في الأعمال النافعة للأمة ؟ إن كنتم تظنون ذلك فاعلموا أنكم تبغون محالاً ، وتطلبون بعيداً — انظروا إلى ذلك الزارع المسكين وما يعانيه في حياته من ضروب الشقاء ، وما يقاسيه من أنواع الشدائد والمتاعب ، حتى يظهر زرعه . انظروا إليه وهو يمد يده إلى المربين للإئفاق على أرضه وعياله ، فلا يقرضونه إلا بالربا الفاحش ، فإذا ظهرت الثمرة أتاه الدائنون من كل مكان ، واستولوا على محصول تعب فيه طول العام ، وكأنه لم يشق إلا لسعادة هؤلاء المربين ، ولم يتعب إلا لراحة أولئك الفجرة الآبسين . وباليتمهم يتركونه يبيع حاصلاته عند تحسين الأسعار . بل يأخذونه أخذ القوى الجبار . وإذا لم يف

الحصولُ المطلوب باعوا متقولاته ، وحيواناته ، وعقاره ، فيُصبح في ضيق شديد وذل أليم . وعند ذلك ينظر إلى الأغنياء نظر الحقود الحسود ، ويصير وبلاً على نفسه وبلاء على أمته . فياقوم أرايتم لو أن كبار الزارعين رحوا ذلك الزارع الصغير فآلفوا جمعيات تعاونية وزراعية تضمه وتضم أمثاله ، ويكون مقصود تلك الجمعيات مدد يد المساعدة للمحتاج من الزارعين — أرايتم لو تم هذا أما كان يستطيع الزارع حفظ محصوله إلى الوقت المناسب فيبيعه ويسدد ما عليه من ديون ، وينفق ما فضل له بقية عامه ، ويُتقدّم من هم الدين وذل المرابين ، ويعيش في سعة ورخاء ، بعد أن كان في ضنك وبلاء . فأيها المساهون اتقوا الله في أمتكم ، وبادروا إلى ما فيه عزم وريقكم ، وآلفوا الجمعيات التعاونية والزراعية تسمدوا وترتقوا ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

مواساة البؤساء

الحمد لله الذى أمر بالإحسان ونهى عن الامتنان ، الكريم الذى جازى الإحسان بالإحسان ، لا إله إلا هو أرحم الراحمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ذو فضل على العالمين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الحسين وملجأ البائسين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الرحماء المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . أيها الأغنياء . إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقكم من الطيبات ، وأغناكم عن الحاجة ، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال ، فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم ، وأعزكم وأغناكم ، وبذلك يحفظ عليكم نعمتكم ، ويتفضل عليكم بالمزيد منها ، والبركة فيها « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم

إن عذابي شديد » وليس الشكر قولاً باللسان ، وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة والإحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة ، والفقراء المحتاجين من أرباب العيال . ومن القسوة أن تمنعوا المعونة ، وتقبضوا أيديكم شحاً وبخلًا ، (والشدائد) تمت البائسين ، والضيقة يقتل إخوانكم المحتاجين . أَمِنْ الرخمة أن تكونوا في رغد من العيش ، وسعة من الرزق ، ومن أخنى عليهم الزمان في شدة من الضيق ، وألم من الإعسار ؟ أَمِنْ المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع في الصباح والمساء ؟ أَمِنْ المروءة أن تتمتعوا بملابس الزينة وأخوكم في الإنسانية يُحرقه الصيف ، ويقرصه برد الشتاء ؟ اللهم إن الغني الذي لا يُحس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقاً وواجبات ، لقاسى القلب ، خال من الشفقة ، بعيد من رحمة الله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أيها الناس ! إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، قد وعد من أنفق شيئاً في سبيل الله أن يخلفه عوضاً ، إما عاجلاً وإما آجلاً ، فقال جل شأنه « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » وهو خير الرازقين « فليس البخل والإمساك بعد هذا الوعد الكريم إلا من ضعف الإيمان ، أو سوء الظن بالله الغني الحميد . إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، ولو كانوا هم في أشد الحاجة ، حيث قال عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم ، فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم ، وإن هذا لهين على من عنده أدنى رأفة ورحمة منكم ، إن هذا لهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » أيها الناس . صنائع المعروف من علامة الإيمان وعلو الهمة ، وعنوان الشهامة والمروءة ، وإنها تقي صاحبها مصارع السوء ، وتحفظه من المحن والبلايا ، وتجلب رضا الله وإحسانه . لا تكلفكم الإنسانية من الإحسان إلا اليسير ، ولا تطالبكم المروءة إلا بالشيء القليل ، فاصنعوا المعروف في أهله ما استطعتم ، وافعلوا الخير لعلكم

تفلقحون ، وإن ما يُضِيعه الواحد منكم في الكماليات لكثير ، ولقد يُنفق الغنى منكم في جلسة قصيرة ما يكفي البائسَ الفقيرَ زمنا طويلا ، فأدخلوا السرور على المساكين بالبر والإحسان ، لعل الله يرحمنا ويكشف عنا ما نحن فيه من ضيق وشدة وذل وبلاء . اسألوا عن المحتاجين في بيوتهم ، وعن المصابين في أماناتهم ادخلوا عليهم . وهونوا عليهم الشدائد والآلام ، وخففوا عنهم ما هم فيه من الأسقام والأحزان ، وتصوروا أنكم مثلهم فإذا كنتم تحبون أن يُصنعَ بكم ؟ اتقوا الله وأعظموهم من مال الله الذي أعطاكم وجعلكم نوابا عنه ، ووكلاء فيه ، يعطكم أجراً عظيما ، وثوابا جزيلا « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » أعطوهم بعض ما يفضل عنكم ، فبذلك تملكون قلوبهم ، وتكتسبون محبتهم ، وبذلك تتحد القلوب ، وتكون الألفة والإخاء ، فتنصرون على أعدائكم ، وتبلغون غايتكم ، وتعيشون في بلادكم آمنين مطمئنين ، ويعممكم الله برحمته ، ويشملكم بإحسانه « وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » في الحديث القدسي عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « انفق يا بن آدم يُنفق عليك » متفق عليه من حديث أبي هريرة — وروى مسلم عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » . وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس — فينا من لا يؤمن لمتألم ، ولا يتوجع لمستصرخ ، ولا يحزن لبائس . فتجردوا من العاطفة الانسانية ، وحنان الأخاء الإسلامي ، وفقدوا الرابطة الدينية . وقد قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ ، وَإِذَا اشْتَكَى رَأْسَهُ اشْتَكَى كُلُّهُ » رواه مسلم . فينا من يقع أمامه من الحوادث ما يؤلم القلب ويديهي العيون ، فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجذبه كالصخرة الصماء : كالحجارة أو أشدَّ

قسوة . . . والذي نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم ، وخبث أرواحهم . المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفسهم لعياله ، ومالك الملك وخالق الخلق قادر على أن ينزع عن الغنى لباس غناه ، ويعطى البائس الفقير كل ما يرضيه من متاع الحياة « قل اللهم مالك الملك . . . » الآية . فاللهم أصلح أحوالنا . وهبنا قلوباً رحيمة ونفوساً عالية وأرواحاً طاهرة يارحمن .

المحافظة على الصلاة وآثارها في الفرد والمجتمع

الحمد لله الذي جعل رضاه ورحمته لمن أطاعه ، وغضبه وعذابه لمن عصاه ، وهو الغنى القوى الكبير المتعال . وأشهد ألا إله إلا الله فرض على المؤمنين خمس صلوات في اليوم والليلة ، وجعلها في خمسة أوقات رافعةً لعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل العابدين ، وإمام المخلصين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الراكعين الساجدين . الخاشعين الصادقين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » أيها الناس : أمرنا الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، والقيام فيها خاشعين لجلاله ، خاضعين لعظمته ، وجعلها طريق الفوز والسعادة في العاجل والآجل بقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » ذلك أن الصلاة الكاملة تنير القلب ، وتهذب النفس ، وتعلم العبد آداب العبودية ، وواجبات الربوبية ، بما تفرسه في قلبه من جلال الله وعظمته ، والتعلى بمكارم الأخلاق : كالصدق والأمانة ، والقناعة والوفاء والحلم والتواضع ، والعدل والإحسان ، وتوجهه إلى مولاه : فتكثر له مراقبته وخشيته ، حتى تعلو بذلك همته ، وتزكو نفسه ، فيبتعد عن الكذب والخيانة ، والشره والغدر ، والغضب والكبر ، ويرتفع عن البغى والعدوان ، ودناءة الفسوق والعصيان « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » بالمحافظة على الصلاة تقوى النفس على احتمال الشدائد ، وتثبت عند نزول البلايا

والحن ، ويسهل عليها البذل حالة الغنى واليسار « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (أيها الناس) ماذا كان من آثار ترك الصلاة في المدن والقرى ؟ كان من آثاره في المدن انتشار الفواحش والمنكرات : ترى حانات الخمر والميسر ، وبيوت الدعارة والبغاء ، ودور الملاحى والخلاعة ، مملوءة بخاصة الناس وعامتهم ، حتى في ايمالى رمضان ، شهر الطاعة والقرآن . عبد الناسُ المال فلا يبالون من حلال أكلوا ، أم من حرام أكلوا ، وشغلوا بنعم الله عن الله . وهو تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » قلّ فيهم الصدقُ والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، فقالت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض ، فلا يكاد المسلم يثق إلا بالأجنبي ، وانحلت الروابط الدينية ، والوحدة الاسلامية ، فزال منهم التضامن في المصالح الاجتماعية ، والتعاون على المشروعات الاقتصادية التي تحفظ وحدة الأمة واستقلالها ، وتضمن رقيّها وعزتها « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وأما آثار ترك الصلاة في القرى فاستباحة أهلها لارتكاب المزروعات والآلات ، وسرقة الحاصلات والبهائم ، ونقل الحدود ، وإساءة الجوار ، بل انتهاك الأعراض وإزهاق الأرواح . حتى كثرت بينهم القضايا والمنازعات . ولوأن المسلمين حافظوا على الصلوات في الأوقات ، وأقاموها على وجهها كما أمر الله ، لانتَهَوْا عن الفحشاء والمنكر ، واستراحوا من هذا البلاء والشقاء ، وعاشوا آمنين مطمئنين « ولوأنهم فعلوا ما يوعدون به لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتا ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » المحافظ على الصلاة لا يكون زانيا ولا سرايبا ، ولا حقودا ولا حسودا ، ولا ماطلا في حقوق الناس . المحافظ على الصلاة لا يُضيع حقوق أهله وعياله ، وأقاربه وجيرانه ، ولا يَتَهَرُّ اليَتيمَ ، ولا يَتَسَو على المسكين . ولا يمنع الماعون عن إخوانه ، الذي يقيم الصلاة على وجهها يحب الحق وأهله ، ويكره الباطل وحزبه . ولا يرضى بالذلة

والهوان لنفسه وأمته ، ولا يركن لأهل البغى والعدوان ، ولا يطفى عند النعمة ، ولا ييأس عند النعمة ، ولا تعبت به الخرافات والأوهام ، فهذا هو الإنسان الكامل الذى يؤمن شره ، ويرجى فى الناس خيره . فاتقوا الله أيها المسلمون واشكروا نعمه عليكم بالطاعة والاستقامة . حافظوا على الصلاة فى الأوقات تحفظوا من بلايا الدنيا ، وتأمينوا من فزع الآخرة . وأحسنوا أداءها يحسن الله حالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم . قال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « يابن آدم خلقتك ييدى ، وريبتك بنعمتى ، وأنت تخالفنى وتعصينى ، وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجدد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم » ؟ وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم . وتقول فى الثانية : أيها الناس . الصلاة رياضة بدنية ، وصلة بين العبد وربّه ، وإقامتها من أكبر علامات الإيمان ، وأعظم شعائر الدين ، وأجلى مظاهر العبودية لله ، وأظهر آيات الشكر له على نعمه التى لا تحصى . فأضاعها انقطاع عن الله تعالى وحرمان من رحمته ، وإهمالها من ضعف الإيمان وهدم الدين ، وتكبر على الله وكفران بنعمته . وقد قال تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الصلاة الصحيحة هى الدواء الشافى من أمراض القلوب ، وفساد النفوس ، والنور المزيل لظلمات الذنوب والآثام . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرايتم لو أن نهرا يباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . متفق عليه — اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا أرحم الراحمين .

الاعتبار بالموت والاستعداد له

الحمد لله المبدىء المعيد . المحيى المميت . الفعال لما يريد . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وأشهد ألا إله إلا الله سبق بالآجال علمه ، ونفذت فيها إرادته ، « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كانت حياته المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق ، وجلائل الأعمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين أيقنوا بالموت فعملوا ، وخافوا الحساب فأمّنوا العذاب (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » أيها الناس — إن أكبر واعظ هو الموت الذى قدره الله على خلقه : وكتبه على عباده ، وانفرد جل شأنه بالبقاء والدوام ، فما من مخلوق مهما امتد أجله ، وطال عمره ، إلا وهو نازل به ، وخاضع لسلطانه . « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » ولو جعل الله الخلود لأحد من خلقه لكان ذلك لأنبيائه المطهرين ، ورسله المقربين ، وكان أولاهم بذلك صفوة أصفياه . وخيرته من خلقه ، سيد ولد آدم على الإطلاق ، محمد صلوات الله وسلامه عليه — كيف وقد نعاه إلى نفسه ، وأخبره بأنه سيموت كسائر الناس ، فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فالموت حتم لا محيص عنه ، ولا مفر منه ، يصل إلينا فى بطون الأودية ، وعلى رؤوس الجبال ، وفوق الهواء ، وتحت الماء ، وبين القلاع المنيعه . والحصون المتينة « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ولو نجا أحد من الموت لبسطة فى جسمه ، وقوة فى بدنه ، أو وفرة فى ماله ، أو سعة فى سلطانه وملكه . لنجا من الموت كثير من الناس . وإلا فآين عاد وثمود وفرعون ذوالأوتاد ؟ أين الأكاسرة والقيصرة ، أين الجبابرة والصناديد الأبطال .. فالموت لا يخشى أحداً

ولا يُبْقَى على أحد : يفتزع الطفل من حضن أمه . ويهجم على الشاب الفتي ،
والفارس القوى ، ويأخذ الشيخ الهرم ، والشيخة الفانية . أيها الناس : الموت على
وضوح شأنه ، وظهور آثاره ، سر من الأسرار التي حيرت الألباب ، وأذهلت
العقول ، وترك الفلاسفة مهوتين ، والأطباء مدهوشين ، فهو يتعلق بالروح التي
قد استأثر الله بعلمه » ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً » ترى الشاب الممتلئ صحة وعافية ، والشجاع الذي يضرع الأبطال ،
في لحظة يسيرة قد استحال جثة هامدة ، وصار جسماً لا حراك به . فذهب ذلك
الشباب ، وتلاشت تلك القوة ، وتعطلت حواسه : تعطل سمعه وبصره وشمه ،
وخرس لسانه . وقد يكون عالماً ضليعاً . أو أديباً بليغاً ، أو طبيباً ماهراً ، أو مخترعاً
بارعاً . ولكن هيهات أن يمنع ذلك قبض أرواحنا ، إذا انقضت الأعمار وحضرت
الآجال : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ما أقرب الموت !
ما أقرب الموت . . كل يوم يدنو منا ونحن ندنو منه ، وليس بيننا وبينه إلا أن يبلغ
الكتاب أجله ، فإذا نحن في عداد الموتى : فما الأعمار في الحقيقة إلا أزهار تتفتح
ثم تذبل . أو مصباح ينير ثم يطفأ . أو شهاب يضيء ثم يصير رماداً . . . أيها
الناس . الموت كلمة ترجع لها القلوب ، وتقشع منها الجلود ، ما ذكر في قوم إلا
ملكتهم الخشية ، وأخذتهم العبرة ، وأحسوا بالتفريط ، وشعروا بالتقصير .
فندموا على ماضي ، وأنبأوا إلى ربهم : « ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم
يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » . فنسيان الموت ضلال مبين ، وبلاء عظيم ،
مانسيه أحد إلا طنى . وما غفل عنه إنسان إلا غوى . وإن لنا في السلف الصالح
أسوة حسنة . وقدوة طيبة فقد كانوا يُكثرون من ذكر الموت حتى في أوقات
الصفاء ، وأيام السرور . وكان ذلك يبعثهم دائماً على الجد في طاعة الله ، والبعد عن
مساخط الله ، استعداداً للموت وما بعد الموت . وإذا كنت موقفاً بأنك ستموت
وتلقى مولاك . فكن على تمام الاستعداد له ، فإنك لا تدري متى ينزل بك ، ولا
تعلم في أي ساعة تقبض ، حتى تتفرغ للعمل قبله ولو مدة قصيرة : « ولو كنت أعلم

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»
 ولكن الغفلة قد استحوذت علينا، واشتغلنا بمطام الدنيا، حتى نسينا الموت
 وأحوال يوم القيامة، وغرنا بالله الغرور. والله تعالى يقول: «يا أيها الناس اتقوا
 ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً؛
 إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور» وليس أدلّ
 على الغفلة وقصر النظر من أن الانسان يحدّ وينهمك في جمع المال، من حلال
 أو حرام، ليمتع به أياماً معدودة، لاهياً بذلك عن الحياة الباقية، والنعيم الأبدي:
 «في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء
 والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» ولو أنا إذا
 متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي، ولكننا إذا متنا بعثنا. ونسأل بعد ذا عن
 كل شيء، لم يخلق الناس في هذه الدنيا هملاً، ولم تنزل الشرائع وتبعث الرسل إلا
 لحكمة: «أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» ووجدنا في هذه
 الحياة لتزود منها، ثم نموت لنستأنف حياة ثانية هي أعلى من هذه الحياة: «وإن
 الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»؛ فاتقوا الله ربكم واعلموا أن الدنيا
 غرارة غرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ ما عليها، كما حكم عليها ربها بقوله: «كل من
 عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»؛ اعملوا للحياة الباقية، واخلدوا
 الأبد. واعلموا أنكم ميتون، وأنكم على رب العزة ستعرضون: «ليجزى الذين
 أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى»؛ في الحديث القدسي عن رب
 العزة يقول الله تبارك وتعالى: «وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدى خوفين
 ولا أجمع له أمين. إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا
 آمنته يوم القيامة». رواه الحاكم وغيره. وروى الطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما
 قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عاشر فقال رجل من الأنصار
 من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: أكثرهم ذكرًا للموت
 وأشدّهم استمداً له.. أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة».

وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس ، إن السعادة والشقاء في الآخرة منوطان بأعمال المرء في الحياة الدنيا — وإن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وكل ما عمل المرء مسطور في صحيفته . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومئذ تحدث أخبارها ، ثم قال : أتدرون ما أخبرها ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

التحذير من التبرج

الحمد لله جعل السعادة لمن أطاعه ، والنزلة والشقاء على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا بالإسلام إلى طرق الأدب والكمال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من ظلمات البدع والضلالات ، وينقذهم من سيئ الأخلاق ، وقبائح العادات . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقرار في البيوت ، ونهاهن عن التبرج وإظهار الزينة للرجال الأجانب ، كتبرج النساء في جاهلية الكفر قبل الإسلام — أمرهن بلزوم البيوت ، ونهاهن عن ذلك التبرج ، ليزيل عنهن ما يدنس العرض ، ويطهرهن من أدران الخزي والعار ، صوناً للشرف ، ومحافظة على العفاف والكرامة . وإذا كان ذلك في أمهات المؤمنين — وهن على ما تعلمون من العفاف والصيانة والتقوى والاستقامة — فنساء المسلمين بهذا أحق وأولى . أيها الناس : من أقبح المنكرات وأكبر البلايا تبرج المرأة وإظهار زينتها للرجال الأجانب ، في الطرقات والأسواق ، وبيوت التجارة وأما كن اللهو والفسوق . فيراها الكبير والصغير ،

والفقير والغنى ، والمسلم والنصراني ، لا دين يردعها ، ولا حياء يمنعها ، ولا قَانُون يقيها عند حدها . . فهي كل يوم تزداد في تبرجها ، تنفغن في أشكال ملابسها ، حتى خشي أهل الدين سوء المغبة ، وخاف العقلاء وخامة العاقبة . إن تهتك المرأة وإظهارها مواضع الزينة منها واختلاط الشبان بالفتيات لَمِن السيئات المقوتة ، والبدع القبيحة . التي لا يصح التغاضي عنها ، ولا يجوز السكوت عليها ، بعد ما بين رجال الدين سوء عاقبتها ، وأدرك ذوو العقول السليمة خطر التهاون فيها ، وضرر التساهل في مقاومتها . فإن الساكت على الجريمة شريك الجاني . وإذا نزل العقابُ أصاب الصالح والطالح ، وعمّ البريء والمسيء ، قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » أيها الناس : إن صفائر المعاصي تجر إلى كبائرهما ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، فمعصية التبرج والاختلاط تؤدي إلى افتتان الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وتجري إلى الزنا والأذى واختلاط الأنساب ، وانتشار الفاحشة في أفراد الأمة ، وكل هذا وبالٌ علينا وشرٌّ في العاجل والآجل » إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فلا يليق بمسلم يغار على الآداب والأعراض أن يستصغر هذه المعصية ، ويتهاون بتلك البدعة ، فيترك النهي عنها ، وينام عن القضاء عليها ، وزجر المفتونين والمفتونات بها ، بعد أن علم ما فيها من المفسد الجمة ، ورأى ما يترتب عليها من الشرور الكثيرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ؛ ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم » بهذا التبرج الذميم قد خرجت المرأة المسلمة من السنن الإسلامية ، والآداب الدينية ، ودخلت في عادات الكافرين ، وبدع المتفرجين ، وأتت بنفسها في وهدة التهلكة والخلاعة ، وطرحت عنها ثياب الحشمة والصيانة ، وخلعت عن وجهها برقع الحياء ، وصارت لا تراعى حرمة الآداب ولا تبالي بهتك الحجاب ، وأصبحت حال المرأة اليوم أسوأ من حالها أيام الجاهلية ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل . أيها الناس : كل هذا كان من تقليد المرأة الشرفية للمرأة الغربية ، واستحسان عاداتها ، والافتتان بزيتها ، والتشبه بالأجانب في عاداتهم القبيحة ، من غير عقل ولا روية . وبذلك ضاعت الأموال ، وبذلك فسدت الأخلاق ، وبذلك ساءت الظنون ، وبذلك انعدمت ثقة الشبان بعفاف الفتيات ، فأعرضوا عن الزواج الشرعي ، وأقبلوا على بيوت البغاء والدعارة ، وأوقعوا أنفسهم في الأذى وغضب الله المنتقم الجبار . نعم قلدت المرأة المسلمة المرأة الكافرة في تلك العادات القبيحة ، والبدع السيئة ، فحسرت نفسها ، وأضاعت كرامتها ، ولوثت سمعتها ، وأزالت الثقة منها ، وصارت حملاً ثقيلاً ، وعاراً على أهلها وذويها ، وكانت من أقوى العاملين على رواج البضائع الأجنبية ، وإمالة المصنوعات الوطنية وبذلك صارت شراً على البلاد ، ووبالاً على العباد . وأنتم يا معشر الرجال المسئولون أمام الله عز وجل عن فساد المرأة ، وأن العذاب واقع على من قدّر على منعها ، وتهاون في زجرها وردعها ، أو قصر في تربيتها وتهذيبها « لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما تركت بعدى فتنة أضمر على الرجال من النساء) وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صفنان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) ، وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس . كنّ القوم في هذا الزمان قد قدوا الأباة والشم ، والحجة والغيرة . ترى الرجل على ما به من الوجهة وجمال المظهر يتقهقر ضعفاً وجبناً في مثل هذه المواقف التي تتطلب رجولة وثباتاً ، فليس فينا من يغار على الآداب والأعراض ، ليس فينا من يتألم لسير النساء والفتيات في الشوارع والطرق : كاسيات عاريات متبرجات متهتكات ، فلا أب تحرّكه نحوه رجولة

فيهذب زوجته أو ابنته ويراقبها ، ولا أخ يهتم لصون عفاف أخته ، وحفظ شرف أسرته ، ولا زوج تدفعه الغيرة فيكبح جماح أسرته . حتى عم الفساد وساء الحال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

التحذير من تقليد الأجانب في عاداتهم السيئة

الحمد لله أمر بالتجلى بالفضائل ، ونهى عن الوقوع في مهابى النقائص والذائل لا إله إلا هو الحكيم العليم . نشكره تعالى ميز لنا القبيح من الحسن . ونلجأ إليه سبحانه مما نزل بنا من البلايا والفتن . ونعوذ بالله من التقليد في سيء الأخلاق وقبائح البدع والعادات . وأشهد ألا إله إلا الله هدانا بالإسلام إلى خير وسائل السعادة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله فتح لنا بسنته أبواب الرقى والسيادة ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين تأدبوا بآداب الدين فبلغوا ذروة العزة والكمال (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » المعنى : دين الإسلام هو طريقى الذى أسلكه . فأسلكوه مثلى ، ولا تسلكوا الطرق المخالفة له ، وهى طرق البدع والضلالات ، فإنها تبعدكم عن الدين القيم الذى اختاره الله طريقاً لسعادة الدنيا والآخرة أيها الناس : أما منا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أما منا سبيل الرقى والفلاح واضح ، فلماذا نعدل عنه ونتركه ، ونسلك طريق التأخر والشقاء والخسران . أرايتم أن دينكم قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح فعادتكم عنه ؟ أم قرأتم فى تعاليمه ما يصدكم عن جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق فهجرتموه ؟ كلا ! إنه دين الله الذى يبقى طريقاً للسعادة والرقى إلى يوم تبعثون : إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا حذر من قبورها وبين سوء عاقبتها . فما لنا نسير على غير هدى ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ولا يتفق مع آداب المسلمين . أيها المسلمون . لقد جلب علينا تقليدنا للأجانب شراً وبلياً ، فقد أهمل كثير من كبارنا أمر الدين ، واستهانوا بحقوقه ، وعيّنوا بواجباته ، بل صار الكثير من الشبان إباحياً لا دين له ، جريئاً

على انتهاك حرمت الله ، لا يُبالي بارتكاب مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبايح . سائر أكل واحد منهم وراء شهوته وهواه « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ويا ليتنا قلنا الأجانب فيما يفيد وينفع من الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة . كالصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والاقتصاد وعدم الإسراف ، وكل ما يرقى شئوننا من الفنون والصنائع ، ولكننا قلدناهم فيما يضر ولا ينفع : قلدناهم في الربا ولعب القمار ، ولم نبال بما يلحقنا من المضار المالية . قلدناهم في تناول المسكرات والمخدرات ، ولم نبال بمضارها البدنية والعقلية ، قلدناهم في التبرج والتهتك وقلنا حرية . أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا إننا بذلك نكون متمدين : ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل . جاهلات بأمور الدين . طرحن ثياب الحشمة ، وخلعن برقع الحياء ، وبرزن في الشوارع بالأزياء الأفرنجية . فإذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأة أفرنجية في ملابسها وحرركاتها وسكناتها ، وهى ابنة أو زوجة من بعدة نفسه من جماعة المسلمين وأقبح من هذا أن يذهب المسلم بأهله وأولاده إلى أما كن اللهو ، وبيوت الخلاعة والفجور ، وبدل أن ينفق أمواله في الأعمال النافعة يضيعها في النقائص والذائل . والله يعلم أن هذه الأما كن ما أقيمت إلا لسلب ماله ، وإفساد أخلاقه ، والقضاء على البقية الباقية من دينه . وبذلك يجنى على نفسه ، وعلى أولاده وعلى أمته . ويكون لبناء الدين والفضيلة من الهادمين . أيها الناس : إن لكل أمة محاسن وقبايح يعرفها الأعمى والبصير ، وإن لنا ديننا قويمًا كله آداب وفضائل . فمن العار بل من الحرام أن نترك محاسن ديننا ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين . ويفض بل علينا الله رب العالمين . أندررون ما عاقبة تقليدنا الأجانب في بدعهم السيئة ، وعاداتهم القبيحة ؟ تالله إنها لعاقبة وخيمة : فإننا بهذا التقليد ندمج في غيرنا ، ونهدم بناء ديننا . إننا بهذا التقليد نقضى على آدابنا وقوميتنا وعاداتنا ، ونمحو معالم حياتنا ، ونصبح بين الأمم ضائعين أذلاء مستضعفين . كفى هذا التقليد قبحاً أنه يسلب صاحبه فضيلة الإنسان ، كفاه ذماً أنه يقطع الصلة بيننا وبين الخلفاء الراشدين ،

يقطع الصلة بيننا وبين الأئمة الأربعة المجتهدين . أولئك الذين سادوا العالم ونشروا
لواء العلم والدين . أيها المسلمون : إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم
كالخمر والميسر والزار ، فنبهوا شعوبهم وأممهم فأقلعوا عنها . وإن دينكم والحمد لله
ما ترك التنبيه على ضررها . واطلما حذر من شرها وخطرها ، فارجعوا إلى دينكم
وكونوا بهديهم متمسكين . اتقوا الله يا قوم واحذروا هذا التقليد الأعمى ، فإنه يضر
ولا ينفع ، وأمامكم كتاب الله وسنة رسوله فقيهما كل خير وسعادة « وأطيعوا الله
وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .
في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب
لتبعتموهم » . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فن غيهم ؟ . وتقول
في الخطبة الثانية : أيها الناس : مما ابتلى به المسلمون وفشا بين الخاصة والعامة في هذا
الزمان تقليد الأجانب في كثير من عاداتهم ، من غير تمييز بين النافع منها والضار .
وسبب هذا ما يرونه من قوة الأجنبي وضعفهم ، وتلك سنة الله تعالى في أمة أهملت
أمر دينها ، واتبعت أهواءها حتى ذهبت ريحها وضعفت قوتها ، فذلت واستكانت
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره موافقة الأجانب في كل أحوالهم حتى
قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه وكان يقول : « من
تشبه بقوم فهو منهم » رواه أبو داود من حديث ابن عمر . وكان أيضا يقول :
« ليس منا من تشبه بغيرنا » رواه الترمذي . وبإويل من تبرأ منه الحبيب المصطفى
وذلك لا شك يفيد حرمة تقليد المسلمين الأجانب فيما هو من خصائصهم . ولذا كان
عمر رضي الله عنه يوصي قواده الفاتحين لبلاد الأعاجم وعماله فيها بالمحافظة على عادات
العرب وزياها ، وينهاهم عن التشبه بالأعاجم في عاداتهم وملابسهم ، لتبقى الأمة
العربية متميزة عن الأجانب بعاداتها وأزيائها ، وكل ما يحفظ قوميتها . وفق الله
الأمة الإسلامية إلى ما فيه الخير والسعادة إنه الجواد الكريم الرحيم الرحمن .

أثر الدين في سعادة الفرد والمجموع

الحمد لله شرع الدين هدى للناس ورحمة . وجعل العزة والسعادة لمن تمسك به وتحلى بأدابه . وأشهد ألا إله إلا الله العزيز الحكيم ، الديان الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه . أولئك هم المفلحون . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أيها الناس — إن لدين الإسلام أثراً عظيماً في حياة الفرد وحياة الأمم ، بما يامر به من صالح الأعمال والفضائل ، وما ينهى عنه من الآثام والردائل . فإذا تمسك كل فرد بدينه ، وتحلى بأدابه ، فإنه يحيا حياة طيبة ، حياة سعادة وهناءة . فيعيش صحيح الجسم ، سليم العقل ، مصون العرض ، موفور الكرامة ، غير كل على الناس . يسعى في طلب الرزق من طريقه الحلال « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » يعيش المتمسك بدينه صادقاً في قوله وعمله ، وفياً بعهده ووعدده ، أميناً فيما يؤتمن عليه من الأسرار والأموال ، وما يوكل إليه من الوظائف والأعمال . متوسطاً في الانفاق على نفسه و عياله . فلا يسرف ولا يقتصر شاكراً عند الرخاء ، صابراً على البلاء ، راضياً بالقضاء ، شريف النفس ، على الهمة ، شجاعاً في الحق ، لا يبالي ما يصيبه في سبيله ، ولا يخاف إلا الله . قال أبوذر الغفارى صاحب رسول الله : « أوصانى خليلي بخصال من الخير : أوصانى ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرأى » يعيش المتدين براً بوالديه وأقاربه ، قائماً بحقوق زوجته وأولاده ، حسن الجوار ، عطوفاً على المرضى ، رحيماً بالضعفاء لا جباراً ولا عنيداً ، ولا مختالاً ولا فخوراً ، ولا حقوداً ولا حسوداً ، ولا ماطلاً في حقوق الناس . يرضى الله ويغضب الله ، وينفق ماله فيما ينفع نفسه و عياله ويفيد أمته . — هكذا يكون أثر

الدين في نفوس المتسكين به ، وهكذا تكون حياة المؤمنين المخلصين — أيها الناس : هذا أثر الدين في سعادة الفرد وجعله إنساناً كاملاً مهذباً . وإن أثره في سعادة المجموع لظاهر جلي إذ من الفرد تكون الأسرة . وقد أوجب الدين على كل فرد منها حقوقاً للآخر : أوجب على الزوج احترام الزوجة والرفق بها . والاتفاق عليها بحسب حاله غنى وقرراً . وحمايتها من الاعتداء عليها ، وإجمالاً معاشرتها بالمعروف . كما قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فسي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وأوجب عليها أن تحترمه ، وأن تطيعه إذا أمر ، وأن تصون عرضها ، وتحفظ ماله في غيبته ، وأن تقوم بتدبير المنزل . وعليهما أن يعتنيا بتربية الأولاد تربية حسنة لينشؤا على الصحة والكمال . وعلى الأولاد أن يحسنوا بالوالدين . فإذا أدى كل فرد من الأسرة ما عليه للآخر اجتمع شملها ، وانتظم أمرها ، وحسن حالها ، وعاشت عيشة راضية . والدين كما أوجب على فرد حقوقاً لأهله وعشيرته ، أوجب عليه أن يحترم أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم : فلا ينتهك حرمة عرض ، ولا ينال أحداً بأذى في نفسه ، ولا يتعدى على ماله . كذلك الدين أمر بالتعاطف والتراحم : فجعل للفقراء والضعفاء ، حقاً في مال الأغنياء ، وجاه الأقوياء . قال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ولا ريب أنه إذا قام كل إنسان بواجبه نحو أخيه وكانت الأفراد والأسر مستقيمة مهذبة تكون من ذلك مجموع صالح راقٍ مهذب هو الأمة . وكان الفضل في تهذيبها ورقيتها لهذا الدين القويم . فلا يكون بين أبنائها تباعد ولا تحاسد ، ولا تفرق ، ولا تنازع ، وحل بينهم الوثام محل الخصام ، والاتحاد مكان التفرق ، والتعاون على الخير محل التخاذل . فارتقت وقويت ، وعزت وسادت ، وكانت أمة جديرة بالبقاء . فيأبى المسلمون اتقوا الله في دينكم : تمسكوا به ، واعتصموا بحبله ، وتحملوا بآدابه . ليعود للإسلام عزه وللمسلمين مجدهم . « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله . ثم استقم »

رواه مسلم . وتقول في الخطبة الثانية . أيها الناس : إن حال العرب قبل الإسلام وما وصلوا إليه بعده أصدق شاهد على ما قلنا من تهذيب الدين للنفوس ، وإصلاحه حال الفرد والجماعات ، فقد كانوا قبائل تعبد الأصنام ، وكانوا في خصام دائم وتنازع مستمر ، فلما جاء الإسلام وجه قلوبهم إلى عبادة الله خالق الخلق ومدبر الكائنات ونزع ما في صدورهم من العداوة والبغضاء ، وصاروا بفضل الإسلام إخواناً متحابين متحدين . قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » — اللهم وفق الأمة للتمسك بالدين ، والتحلي بأدابه يا رحمن يا رحيم

التحذير من المسكرات والمخدرات

الحمد لله حبب الإيمان إلى نفوس اللواقين ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفرَ والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله جعل السعادة في الطاعة ، والنيل والشفاء في العصيان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين خافوا فأمنوا ، وأحسنوا فجازوا — أما بعد — فقد قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » — أيها الناس : إن الدين الإسلامي لم يدع سبيلاً إلى الخير إلا أرشد إليه ، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركت شيئاً يُقرَّبكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه » ؛ وبذلك قد وضع الأمر ، وتبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ولم يبق بعد ذلك حاجة لطالب الرشد ؛ ولا عذر لمن وقع في الغواية ، ولكن فريقاً من الناس قد أعرضوا عن هدى الدين ، واتخذوه وراءهم ظهرياً ؛ ووضعوا عقولهم تحت أقدامهم ؛ واتبعوا الشهوات فعميت بصائرهم وأسقطوا أنفسهم من درجة الكمال الذي أعدهم الله له وأنزلوا أرواحهم إلى مرتبة الحيوان ،

فكانوا بذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، ذلك بأنهم رضوا بأن يكونوا معاول في هدم بنيان الفضيلة ، ويدأ عاملة في إقامة الشر والذيلة ، وهؤلاء التعساء قد استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . نعم ! قد لعب الشيطان بعقولهم : زين لهم تناول المسكرات ، وتعاطى المخدرات ، وأوقعهم في وهدة الذل والدمار ، وليأس ما كانوا يصنعون فقد أضعفت هذه المخدرات أبدانهم ، وأفسدت تلك السموم عقولهم ، وأضاععت عليهم أموالهم ، وعيأهم في أشد الحاجة إليها ، وأقعدتهم عن العمل في مرافق الحياة والسعى في وسائل العيش . وبذلك قصوا على حياتهم وعقولهم ، وجنوا على أولادهم وأهلهم ، وبذلك أوقعوا أنفسهم في الذلة والمهانة ، وعار التسول وجريمة السرقة . وبذلك كانوا وبالاً على أنفسهم ، وشرأ على ذريهم ؛ وعالة على كاهل الأمة « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » . أيها الناس : عجبا أن يبيع الإنسان حياته وماله ، ويضيع شرفه وكرامته ، ليربح موته وفقره ، واحتقاره وإهانته . عجبا لعائل يسعى في جنونه ، وقوى بعمل على إضعاف جسمه ، والقضاء على حياته . وذى مال يعمل على إضاعته وموت عياله . كل ذلك بمحض اختياره ورضاه ، بلا فكر ولا روية ، ولاشفقة ولا رحمة . عجبا لمن يضع الأغلال في عنقه بيده ، وينقل نروة بلاده إلى جيوب الأعداء ، فيستعبد أمته التي يغني بغناها ، ويقوى بقوتها ، ويسعد بسعادتها . ولكن « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » أما يدرى ذلك السفية الأحمق أنه بعمله هذا قد جنى على ذريته ، وأساء إلى نفسه وإلى أمته ، فهو بضعة جسمه وفساد عقله وأخلاقه لا يعقب إلا ذرية ضعفا ، جبناء فاسدى العقول سبي الأخلاق ، عالة على المجتمع ، وعارا على الأمة . « قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » ألقى خش الله هؤلاء في أنفسهم وذريتهم ، وأزواجهم وأمتهم ، وليقارنوا بين حالهم قبل تناول هذه السموم وحالهم بعد الوقوع في خطرهما ، عسى أن يشوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عزمهم . فقد كانوا

في قوة وعافية ، وبسار ورخاء ، وشرف وكرامة ، وهناء وسعادة . فأصبحوا في ضعف وبلية ، وضيق وشدة ، وضعة وإهانة ، وكدر وشقاء « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أيها الناس — إن الأمة هي جماعة تتكون من الأفراد ، فإذا تكونت أمة من الأقوياء الأصحاء ، سليمى العقول ، مهذبى الأخلاق كانوا خيراً لأنفسهم ، وسعادة لأمتهم . كانوا أساس عزها ومجدها ، وأركان رقيها ونهوضها — أما إذا تكونت أمة من أمثال هؤلاء السفهاء المرضى ، ضعاف العقول ، فاسدى الأخلاق ، كانوا شراً على أنفسهم ، وشقاء على أمتهم . كانوا سبب ذلها ومهانتها وعلة تأخرها وانحطاطها « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » روى أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مُسكرٍ ومُفترٍ : والمفتر كل شراب يورث الفتور والضعف في الأعضاء — وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الظالم لنفسه ، المسىء إلى عشيرته وأمته ، إن كانت بلایا الدنيا وعقوباتها هيئةً في نظرك لا تَرَدُّكَ عن ضلالك وغيك . فاعلم أن الله تعالى محاسبك على عملك ، وسائلك عن عُمرِكَ فيم أفنيته ، وعن شبابك فيم أضعته ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته . فإذا يكون الجواب وأنت في كل ذلك قد أسأت ، وفي كل ذلك قد أسرفت ، ماذا يكون الحال والحساب عسير ، واللسان معقود ، والموقف رهيب ، يوم بعض الظالم على يديه نادما على ما جناه « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

التحذير من خروج النساء إلى المقابر وخلف الجنائز

الحمد لله الذى جعل لحفظ الشريعة أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ووفق أوليائه للتمسك بالدين ، وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، فكانوا يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى طريق الصواب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أمر بالتمسك بالسنة

والكتاب . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، فكانوا هم الفائزين الغالبين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أيها الناس : إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وإن من أطاع نفسه في شهواتها ذل ، ومن اتبع هواه في أعماله ضل « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » فمن لم يزن عمله بميزان الشرع وسار فيه على مقتضى العادات ، وجعلها عذراً لهفواته وزلاته ، فقد خدع نفسه ، وتقرب إلى الله بما يبعده عن الله ، وحاول أن يتخلص من سخط مولاه بالباطل ، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » أيها الناس : ما عذرکم في التماذي على عادات سيئة ، وبدع ممقوتة يأبأها العقل السليم ، ويحرمها الدين الحنيف . أنسيتم أن من راقب الله صانه الله وهابته العيون ، ومن ارتكب البدع وترك السنن سُلط عليه من لا يعرف الله ، ووقع في الذل وعذاب الهون ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه لابن عمه العباس : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك » خلق الله اكمل العقول لتمييزوا بين النافع والضار ، وتكونوا على بصيرة من أعمالكم ، وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة ، فعطلم العقل ، وخالفتم أمر الدين ، ونبتتم الفضيلة ، وتمسكتم بالرديلة ، حتى ساءت الحال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم — ألم تعلموا أن الشارع الحكيم قد حرم على النساء زيارة القبور والخروج خلف الجنائز ؟ إذ قال صلوات الله وسلامه عليه : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وقال لنساء خرجن في جنازة « أَتَحْمِلُنَّه فِيمَنْ يَحْمِلُهُ ؟ قلن : لا . قال : أَفَتَنْزِلُنَّه قَبْرَهُ فِيمَنْ يُنْزِلُهُ ؟ قلن : لا . قال : أَفَتَحْشَيْنَ عَلَيْهِ التُّرَابَ فِيمَنْ يَحْشِي ؟ قلن : لا . قال فارجن مأزورات غير مأجورات » وهذا منع لنساء الصحابة فما ظنكم بزيارة نساء اليوم التي اشتملت على التبرج والتهتك وأنواع المفاصد والمنكرات ؟ ألم تسلموا أن دينكم ينهى عن اختلاط النساء بالرجال ، فكيف استبحتم من دينكم

وأعراضكم أن تحشر النساء مع الرجال الأجانب في صعيد واحد ، وقد أرخى عليهم الليل سدوله ، وسترهم بظلامه ، وليس بين النساء والفساق من الحوائل ما يمنع من الوقوع في الفحشاء . « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : إن الشرع لم يُبَحِّز زيارة القبور إلا للعظة والاعتبار به ، رتد كرم الموت وشدته ، والقبر ووحشته ، فتخشع القلوب ، وترجع عن غيها النفوس ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » فكيف جعلتم مواضع العبرة والخشية مكانا للهو واللعب ، وارتكاب البدع والمنكرات ؛ فانتقوا الله أيها المسلمون وارجعوا عما أنتم عليه ، واعلموا أن الشارع الحكيم أجاز للرجال فقط زيارة القبور ، وحرمها على النساء . وأن السنة في زيارة الموتى أن يقول الزائر : « السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ويستغفر لهم ، ويسأل الله تعالى أن يرحمهم ويفرج كرب المكروبين منهم ، ويشعر قلبه بأنه عما قريب يكون في عدادهم ، ويذهب عنه أهله وماله وولده ، ويبقى وحيدا فريدا ليس معه سوى عمله ، وهو الآن يُسأل فماذا يجيب ، وماذا يكون حاله ، ويملا قلبه بهذا الاعتبار ، ويتعلق بمولاه في الخلاص من هذه الأمور الخطيرة ، التي لا يُخلص منها إلا الاستقامة مع إحسان الله ورحمته . هذه سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في زيارة الموتى وما عداها فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار — في الحديث القدسي عن رب العزة : « من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي فليطلب له ربا سواي » — وعن رسول صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث : « اعلم . قال أعلم يا رسول الله . قال اعلم يا بلال : قال أعلم يا رسول الله . قال : من أحيأ سنة من سنتي قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل من عمل بها لا ينقص ذلك من آثام

الناس شيئا » رواه الترمذى وحسنه . وتقول فى الثانية : أيها الناس : الله تعالى يقول « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ومحبته العبد لمولاه رغبته فى طاعته ، واختصاصه بالعبادة دون سواه ، ومحبته الله عباده أن يرضى عنهم ، ويحسن إليهم .. فعنى الآية الكريمة أن الله تعالى أسر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للناس : إن كنتم تريدون طاعة الله تعالى وعبادته حقاً ، فاتبعونى فيما جئتُ به ، حتى يصح ما تدعونه من محبتكم له تعالى ؛ وحينئذ يرضى عنكم ويحسنُ إليكم ويتجاوز لكم عما فرط منكم ، والله كثير الغفران ، واسع الرحمة لمن يتحجب إليه بطاعته ، ويتقرب إليه باتباع نبيه ، نسأله سبحانه التوفيق والهداية بمنه وكرمه .

ذم الكبر والتحذير منه

الحمد لله الذى خضع لعظمته كل شيء ، وهو الكبير المتعال . أحده حمد من عرف نفسه فتواضع لله فرفعه . وأشهد ألا إله إلا الله تفرد بالكبرياء والعظمة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كان فى تواضعه خير مثال . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، ففازوا بجميل العقبى وحسن المآل . أما بعد : فقد قال الله تعالى : ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . عباد الله . إن الكبر داء منشؤه جهل المرء بنفسه ، وحكمة الله فى أمره ، والكفرُ بنعمة ربه — فما عرف فرعون حينما قال : أنا ربكم الأعلى قدر نفسه . وما عقل إبليس اللعين حينما قال : أنا خير منه سرّاً حكته ، وما أدى قارون حينما قال : إنما أوتيته على علم عندى ، شكر نعمته . فيامن يتقلب فى ظلماته ، ويرتع فى شهواته ؛ إن الكبرياء لمن فطر السموات والسلطانُ الأعظم لمدير الكائنات ، من شاركه فيه غلبه ، ومن نازعه فيه قصمه ، فإن كنت ملكاً فسلطانك لا يعلو سلطان ربك ، وإن كنت ذا مال فإنما هو من مواهب مولاك ، أغرك من ربك أيها المتكبر أن خولك ملكاً تجول فيه ؟

أو غرك منه أن منحك مالاً تفصل به ؟ أو الذى حلاك على بغيرك هذا نبأ
المستكبرين . تالله ما جاء نبؤهم إلا بسلطان الله ، فطرد إبليس من رحمته ،
وأهلك فرعون على جرأته ، وخسف الأرض بقارون لكفره بنعمته ، فباءوا
بالنكال وبئس مثوى المتكبرين — ابن آدم . مالك والكبر وأنى يكون لك .
ألم تقم بك مراسم العبودية ؟ ألم تقم بك مبادئ الطفولية ؟ أم أنت فى غشيتك
وسكرتك لا تفتيق . انظر بقلبك قبل بصرك ، إذ أنت لم تُدرك حكمة خلقك ،
فهل أبصرت عيوب نفسك التى بين جنبيك ، وهلاً شمتت تنّ إبطيك .
أولا تزيل بيدل خبث فرجيك ، فما أجلك بنفسك وما أظلمك . والله لا يجب
كل كفار أنيم ، اتضع أيها المتكبر ولا ترتفع ، فإنت إلا عبد أخرجك ربك
من العدم ، وركاك فى ظلمات الأرحام وقوّمك فى أحسن الصور ، والنظفة المذرة
بدايتك ، والجيفة القدرة نهايتك ، وأنت بينهما مورد الأدران ، ومجمع الأقدار ،
يماورك الطيب فيستحيل خبثاء فما أقدر من أحكمك ، والله على كل شىء قدير .
عجبا لك أيها المتكبر ، ما أنت بنافع الحكم اهتديت ، ولا بمراسم العبودية
اقتديت ، وفى جهلك وظلمك تماديت ، فما أفلح الظالمون وخاب كل جبار عنيد —
فيا من يجر ذيل الكبرياء وأنخيلاء ، ويكفر بنعمة الله ويزدرى الضعفاء ،
قد وضع أمرك ، وتمّ نصحك ، فالك لا تبالى بمهاوى الوبال ، ولا ترجع
عن سيئات الأعمال وأنت على نفسك بصير . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » — روى مسلم عن ابن مسعود
رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه
منقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله
حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » .
بطر الحق رده على قائله ، وغمط الناس احتقارهم — وروى أيضاً عن أبى هريرة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : العز إزارى ، والكبرياء
ردائى ، فمن ينازعنى فى واحدٍ منهما فقد عذّبته » .

مضار شهادة الزور

الحمد لله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، السميع البصير الذي يطلع على ما تكنه القومس وتخفى الصدور : لا إله إلا هو أعز الصادقين ، وأذل الكاذبين . وأشهد ألا إله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الصدق والاخلاص في الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد المهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه القويم (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد اختار لكم الاسلام ديناً ، ووعدكم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين ، واهتديتم بنوره المبين . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائحهم العالية ، وإرشاداتهم الحكيمة ، واتبعتم أهواءكم ، ولم تراقبوا الله تعالى في أقوالكم وأعمالكم ، ولم تخافوا شدة غضبه ، وأليم عذابه ، منع عنكم معونته ، وسأط عليكم من لا يرحمكم وخسرتم الدنيا والآخرة : « وما ربك بظلام للعبيد » وإن الله تعالى جل شأنه قد حرم في هذا الدين قول الكذب وشهادة الزور ، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان ، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدة قبحه . قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » والرجس : النجس القذر . والأوثان : الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله سبحانه . وعبادة الأصنام شرك ، وقول الزور مسمه من أكبر الكبائر — أيها الناس : أيدري شاهد الزور إلى من أساء ، أساء إلى نفسه ، أسقط مروءته ، أضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عاراً لا يزول ، وخزياً لا يمحي ، وألقى بنفسه في نار حرها شديد ، وعذابها أليم : « ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله

يفعل ما يشاء . وأساء ؛ إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه . وقطع صلة الإخاء التي تجب بين المسلم والمسلم . وظلمه وخذله ، وخالف فيه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وأساء إلى من شهد له وأضر به ، حيث يريد أن ينفعه . أعانه على الظلم ، وأوقعه في الحرام ، وعرضه لمقت الله وغضبه ، وصيره ذليلاً بين يدي المنتقم الجبار ، الحكيم العادل ، الذي يأخذ من القوى للضعيف ، وينصر المظلوم من ظالمه ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، يوم الفرع الأكبر والهول الأعظم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « يوم ترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » وأساء إلى القاضي : أتعبه وأضاع عليه وقته ، وطمس عليه معالم الحق ، ولو صدقه لأراحه وأراح الناس أجمعين . بل أساء إلى الأمة كلها : لوث سمعتها ، وأضاع الثقة بها . وكل أمة فشا فيها الزور والكذب سقطت من عيون الأمم ، وأصبحت في عداد الهالكين . أيها الناس : ما الذي يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميم ، وذلك الموقف الخجل المعيب . إن كان مالا يأخذه ممن شهد له فهو سحت لا بركة فيه ، بل هو وبال عليه في الدنيا ، وعذاب له في الآخرة ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به — وإن كان الحامل له على الزور صحبته للمشهود له أو طاب رضاه ، فبئست هذه الصحبة التي تؤدي إلى سقوطه وخسرانه ، وتوقعه في سخط الله وغضبه . قالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس » وشاهد الزور قد أَرْضَى صاحبه وأغضب مولاه ، فخذله وقطع عنه رحمته وإحسانه — وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق ، فالصدق ينجيهِ ، وتقوى الله تحميهِ : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . قالت عائشة رضي الله عنها لمعاذ : « اتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً . فاتق الله أيها المسلم في نفسك وفي أمتك

اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق ، وانصر الحق ، واشهد بما رأيت ، بلا فرق بين القريب والبعيد والصديق والعدو : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » — عن أبي بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ! قال : الإشرak بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس — فقال : ألا وقول وقول الزور ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ايته سكت » متفق عليه .

وتقول في الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل في كل شيء ، وأن ينصر الحق أينما كان . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » الآية . أى كونوا مواظبين على العدل في جميع الأمور ، مجتهدين في إقامته ، لا يصرفكم عنه صارف ، شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوى ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، إن يكن كل من المشهود له أو عليه غنياً يربحى خيره ويخشى ضره ، أو فقيراً يترحم ويحنى عليه ، فلا تحوروا فيها ميلاً أو ترحماً ، ولا تشهدوا للغنى طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفاً منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغنى والفقير وبالنظر لهما منكم ، فلم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لما شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

التحذير من إيذاء المسلمين

الحمد لله العليم بما كان وما يكون ؛ المدبر الحكيم فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . واشهد ألا إله إلا الله انكبير المتعال ؛ واشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صفوة الخلق وعين الكمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيل الهدى إلى يوم يبعث الله فيه الخلائق ليجزى الذين أساءوا بما عملوا

ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » أيها الناس . اقتضت حكمة الله عز وجل أن يخلق هذا العالم على أكل نظام وأبدع إحكام ، واختار من بينه هذا النوع الإنساني للخلافة في الأرض ، والقيام بالعدل ، ليكمل العمران ويتم النظام — خلق الإنسان فسواه وعدله وأبدع خلقه ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين . — أودع فيه العقل ليميز بين النافع والضار ، ويفرق بين الحق والباطل ، والتبيح والحسن ، وركب فيه من القوى والحواس ما يستعين به على أمور دينه ودنياه ، ونصب له من دلائل وحدانيته ، وآيات علمه وقدرته ما يخضعه لعظيم سلطانه وجلال ربوبيته ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ليقوم بشكر نعمته ، ويمتلىء قلبه بمحبتته ، وسخر العوالم كلها لمنافعه وخدمته « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فمن امتاز بهذا التكريم العظيم يجد ربه أن يكون مصدر الخير ، ومثال الكمال ، وعنوان الرحمة . من خص بهذا الفضل العظيم يجب عليه أن يكون كالملائكة في طهارة النفس ، والوقوف عند حدود الله ، والبعد عن مساخط الله . والتبلى بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق ، يجب عليه أن يتباعد عن مظاهر الجبروت والكبرياء ، والانتقام والاعتداء ، والشر والفساد ، والأضرار بالناس . اللائق بمن عامله الله بعدله ورحمته ، ووسمه بكرمه وحلمه ، أن يكون في معاملة الناس عادلاً رحيماً ، وحكماً حليماً ، ومتسامحاً كريماً : فيعدل يكبح جماح الظالمين ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وبرحمته وشفقته تقل ويلات الأراذل واليتامى ، وتخف آلام البؤساء والمساكين . وبحكمته وحزمه يدبر أمر نفسه ونظام عشيرته وأمته . وبحلمه وتسامحه يملك القلوب وتخضع له النفوس ، وبه

وبأمثاله يعيش الناس آمنين مطمئنين أيها الناس : إن من تخلق بهذه الأخلاق
الكريمة وتجمل بهذه الشبائل السامية ، وسلك سبيل الهدى والاستقامة ، وسلمت
الناس من يده ولسانه ، كان عند الله وجيهاً ، وصار ملكاً كريماً في صورة إنسان
رحيم — أما من خبث نفسه ، وتجرد من الأخلاق الفاضلة وعثا في الأرض فساداً
وكان مصدراً للأذى والشر ، وداعية للتفرق والتنازع ، فهو لاشك شيطان رجيم ،
وبلاء عظيم . فما أتمسه في الدنيا وما أشقاه في الآخرة : « والذين يؤذون المؤمنين
والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » فيا خبيث النفس أى
حظ لك في أن تكون كالأفعى لا تنفث إلا السموم ، ويا مؤذياً لعباد الله ماذا تجنى
من الإيذاء لخلق الله ، وما حظك في أن تكون شيطاناً رجيماً ، وقد خلقت إنساناً
كريماً . ويا من لا يخاف الله ولا يخشى غضبه وانتقامه ما أشقى الناس بك ، إنك
على الأمة بلاء وأى بلاء ، ويا من اغتر بالدنيا وزينتها واعتمد على قوته وعشيرته ،
اتق الله واجعل حظك من الدنيا نيل مرضاة الله ، وقدم لنفسك خيراً تجده عند الله ،
فإنك إن عشت تعيش عزيزاً سعيداً ، وإذا مت لم يمت ذكرك وكنت عند الله
والناس محموداً ، ولقيت من الله خير الجزاء بما قدمت من صالح الأعمال : « إنه من
يأت به مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات
فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك
جزاء من تركى » — أيها الإنسان — سبيل الهدى واضح فاسلكه ، وطريق
الفلاح بين فلا تعدل عنه ، فإنك إن سلكت سبيل الهدى فأنت الراجح السعيد ،
وإن عدلت عن طريق الفلاح كنت الخاسر الشقي ، فما أسعد الموفقين الفائزين ،
وما أشقى الخذوليين المحرومين : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع
هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون » . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :
« اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه
الترمذي وقال حسن صحيح — وروى مسلم من حديث النعمان بن بشير أنه صلى الله
عليه وسلم قال : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عيفه اشتكى كله ، وإذا اشتكى

رأسه اشتكى كله . وتقول في الخطبة الثانية الحديث الآتي : روى الإمام المقدسي عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه قال : « أوصاني خليلي بأربع كلمات من إلى أحب من الدنيا وما فيها . قال لى : يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

الدين والاجتماع

الحمد لله الذى رضى الإسلام ديناً لعباده وجعل السعادة فى التمسك به ، والتحلى بأدابه . وأشهد ألا إله إلا الله الملك الديان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة . وعلى آله وصحبه ومن تمسك بالدين ، واهتدى بهديه (أما بعد) ؛ فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . عباد الله : إن لدين الإسلام محاسن كثيرة ، وفضائل جمة ، تحمل ذوى القلوب السليمة ، والعقول الصحيحة ، على التمسك به ، والتحلى بأدابه . وكلما كان المرء سليم العقل نير البصيرة اشتد تعلقه به ، لما فيه من جيل الحاسن ، وجيل الفضائل . فإنه دين قرر من عقائد التوحيد ما اتفقت العقول على صحته ، واستعدت الفطر السليمة لقبوله . فأنبت لخالق العالم أنه إله واحد ، قادر عليم ، عزيز حكيم ، جواد كريم : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وشرع من العبادات ما يهذب النفوس ، ويبعث فيها روح الألفة والأخاء . ففرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وطلب منا أن نؤديها فى جماعة ليكثر تلاقينا ، فتنأكد بيننا روابط المحبة ، وأوجب الزكاة لتطهر النفوس من رذيلة الشح ، وتتحلى بفضيلة السخاء ، وتكون المحبة بين الأغنياء والفقراء ، وسمى الصدقة قرصاً يردّه بأضعاف كثيرة : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . كتب الصيام ليزوق المرء ألم الجوع فيعطف على الضعفاء والجائعين ، وتعمود النفوس قوة الإرادة ، وتحمل الشدائد وكبح

جاحها ، إذا هاجت عليها شهوة من شهواتها الرديئة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . أوجب الحج ليجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في صعيد واحد ، فيتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا على إصلاح شئونهم ، وتبدير أمورهم ، ويظهر خضوع العبد لأوامر مولاه ، وشكره لنعمائه . قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . وشرع من المعاملات ما يضمن سعادة المجتمع الإنساني ، ويحفظ نظام العالم من الفوضى والاضطراب . فأحل البيع والشراء ، والشركة والإجارة ، والقرض والحوالة ، والرهن والعارية . تيسيراً لتبادل المنافع ، وتسهيلاً لقضاء الحاجات على أحسن وجه وأكمله . كتب القصاص ، وفرض العقوبات على الجنایات والاعتداءات ، لئلا يجر النفوس عن ارتكاب الجرائم ، وردعها عن الشرور والآثام . فحكم بقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، محافظة على الأرواح والأموال ، ليعيش الناس آمنين مطمئنين : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله والله عزيز حكيم » . أحل النكاح وحرّم الزنا ومقدماته كالخلوة بالأجنبية والنظر إليها ، وحكم بجلد العزب مائة جلدة ونفيه سنة عن وطنه الذي فسق فيه . وقضى برجم الزاني المتزوج بالحجارة حتى يموت ميتة الكلاب ، حفظاً للأنسب وصوناً للأمة عن الفناء « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . حافظاً على العقول والأعراض فحرّم الخمر والقذف ، وحكم على من يتناول جرعة من المسكر أو يطعم في عرض أخيه بئانين جلدة وسقوطه عن درجة الإنسان . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » أيها الناس — ذلكم هو دين الإسلام الذي أخرج من العرب الأميين المتوحشين

أمة شديدة البأس ، عظيمة القوة ، واسعة السلطان ، فأبدلهم بالخوف أمنا ، وبالجهل علماً ، وبالعداوة محبة ، وبالتفرق وحدة وبالضعف قوة ، وبالذل عزا ، وبجفاء الطباع وغلظ الألباب رأفة ورحمة ، وبالتوحش والمهجنة مدنية وحضارة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » دين أنجب من العلماء والعظماء ما لم ينجمه دين من الأديان . أنجب مثل أبى بكر فى وقاره وحلمه ، وعمر فى عدله وغيثه ، وعثمان فى نسكه وإخلاصه ، وعلى فى شجاعته وحكمته ، دين يكيد له حساده من يوم ظهر وهو كما ترى لم يطفأ له نورٌ ولم يَضَعُفْ له برهان « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ولو كره الكافرون » . محاسن الدين كثيرة ، وما سمعته قطرة من بحر ، وقليل من كثير — وكفاه فضلاً أنه ما من فضيلة إلا حث على التخلق بهاء ، وما من رذيلة إلا نهر من قبها وبين سوء عاقبتها . فاتق الله أيها المسلم واعتمص بمجمله المتين ، واحرص على العمل بأحكامه والتحلل بآدابه ، نصل إلى ما وصل إليه السلف الصالح ، من عزة وقوة ، ونصر وفلاح ، ورق وسعادة . روى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمجة » .

حقوق الأبناء على الآباء

الحمد لله الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وهو الخلاق العليم ، القادر العظيم . وأشهد ألا إله إلا الله المدبر الحكيم ، الحنان المنان الرحمن الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، وأثنى عليه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » قال ابن عباس رضى الله عنهما ما تفسيرا : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصى الله .

ومرُّوا أولادكم بامثال الأوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقايةٌ لكم ولم من النار ، وقال سيدنا على رضي الله عنه : علموا أنفسكم وأهلكم الخير وأدبواهم . أيها الناس : مَنْ شَبَّ على شيء شاب عليه ، ومن أدب ولده صغيراً سرَّ به كبيراً ، ومن لم يتدبر العواقب كان لا شك من النادمين . ينشأ الإنسان في أول أمره وأيام طفولته ، على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة . فإذا وجد في هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والكمال . شَبَّ حسنَ الأخلاق ، طيب النفس ، متعلّقاً بأهداب الفضيلة ، مستمسكاً بحبل الهدى والرشد . فيحيا حياة طيبة ، يكون بها سعيداً في نفسه وناجحاً في أمته . أما إذا أُهمل أمره فلم ينل حظه من التربية والتأديب ، ولم يأخذ نصيبه من الإرشاد والتهذيب . نشأ سىء الأخلاق ، خبيث النفس ، قاعد الهمة ، ساقط المروءة ، محباً للشر ، كارهاً للخير ، كلاً على أهله وعشيرته . وكان شقاءً على نفسه وبلاء على الناس أجمعين — وكان على ولي أمره كفل عظيم من تبعات شروره وجرائمه . لإهماله في تربيته وتأديبه ، وتهاونه في إرشاده وتهذيبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . أيها الناس : إن تربية الأولاد في صغرهم على مبادئ الدين الحنيف ، وتعميدهم على مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التي يجب على الآباء أن يتنبهوا لها ، والمصلحين أن يُعَنِّتُوا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة في مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها في مدارج الرفعة والكمال . فإلى الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، وإنكم لو تأملتم في جميع ما نشكوا منه اليوم من فساد الأخلاق ، وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وزيف في العقائد ، وتهاون في تنفيذ أوامر الدين ، وتهتك النساء في الطرقات والأسواق — لو تأملتم لوجدتم أن السبب في هذا كله هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب في وقته . الولد قطعة من أبيه ، وأمانة في عنقه ، فاقبوا

الله يا قوم في ثمرات قلوبكم ، وأفلاذ أ كبادكم . ولا تَلَقُوا بأيديكم في نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة . يا قوم اتقوا الله في أبنائكم وذريبتكم ، والأطفال الذين ألقىت إليكم مقاليد أمورهم ، وصارت رعاية شئونهم في أيديكم . هذبوا أخلاقهم . ثقفوا عقولهم . علموهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم . اغرسوا في قلوبهم حب الدين وآدابه ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، مُرُوهم بأداء الصلوات في الأوقات ، وشهود الجمعة والجماعات ، وعودوهم الأخلاق الحسنة ، وجنبوهم الأخلاق السيئة ، وباعدوا بينهم وبين قرناء السوء وفاسدى الأخلاق . قال صلوات الله وسلامه عليه : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » أدبهم بالرفق واللين ، وإياكم والعنف والشدة . ففي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شئ إلا زانه ، ولا ينزع من شئ إلا شانه » . أيها الناس : إنكم إن فعلتم ذلك بأولادكم والأولاد اليتامى منكم . فقد قتم بما وجب عليكم من الحق لهم ، فإن أحسنوا بعد ذلك أحسنوا لأنفسهم . وإن أساءوا أساءوا على أنفسهم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » : روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته » — وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وشرح في الخطبة الثانية قول الإمام على رضى الله عنه : ثلاثة هي أفضل ما يورثه الآباء الأبناء : الثناء الحسن ، والأدب الصالح ، والأخوانُ الثقات ، وحديث الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم .

وإذا مرضت باتت ليلها ساهرة جائعة ، حزينة باكية ، متأللة لأملك ، خائفة عليك مما ألم بك ، تسأل الله الكريم أن يمن عليها بشفائك ، ويكشف عنك ما نزل بك ، ويسرها بتمام صحتك ، ودوام عافيتك ، ويمتدحها بطول عمرها في هناء وصفاء — فكيف بعد هذا تؤثر غيرها عليها في البر ، وتقدم عليها سواها في الخير ، والإحسان ؟ وهي التي تعبت كثيراً في تربيتك . وباخلاص خدمتك زمناً طويلاً ولم تطلب على الخدمة جزاء ولا أجراً ، سوى أن تقر عينها بك ، وينشرح صدرها لرؤيتك ، هذا شأن الأم ، وهذا حالها مع الولد . . ثم من أحق بالحنان والعطف ، والرحمة والإحسان ، من أمييك العطوف الرحيم ، الذي أحسن إليك في ضعفك ، ومن نفائس أمواله أنفق عليك ورباك ، وأرشدك إلى ما ينفعك في دينك ودنياك أيها الناس — إن عقوق الوالدين من أخش السيئات . وأكبر الذنوب التي يعجل الله عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة ؛ ومقابلة الإحسان بالإساءة . قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل المات » . وإن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات وطاعتها من أفضل الطاعات . لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » . فمن حقوقهما عليك أن تكرمهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك في سبيل مصلحتهما ، وتسعى جهدك في كسب رضاها ، وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما ، ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما في حال الضعف والكبر ، كما أحسننا إليك في حال العجز ، والصغر ، وكن بهما رءوفاً رحيماً ، وعليهما عطوفاً حلماً ، قال تعالى : « إنا نبليهم عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » واعلم أنك مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما ، فلست قائماً بواجبهما ولا بوفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بوسع الرحمة ، وجزيل

الرضوان . قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » . فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة في العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء في الدنيا ووبال في الآخرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « رضا الله في رضا الوالد ، وسخط الله في سخط الوالد » أخرجه الترمذى . والمراد بالوالد : الأب والأم . وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما بأسناد حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبارككم أبناءكم . وعفوا تعف نساؤكم » . وتقول في الخطبة الثانية : روى أن ولداً اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنى ، ويبخل علىَّ بماله . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما من حजर ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك » مرتين . وشكى إليه آخر سوء خلق أمه ، فقال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت ليلها وأظلمات نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حَجَجْتُ بِهَا عَلَى عَاتِقِي — قال : ما جزيتهما ولو طلقةً » .

إرشاد الصائم

الحمد لله الذى أذاق الطائعين حلاوة الطاعة ، وعلّق قلوب الموقنين بالمساجد والجماعة . لا إله إلا الله جعل السعادة للصائمين القائمين الخاشعين — وأشهد ألا إله إلا الله وفق من شاء للتجارة معه فكانوا هم الراجين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله

وأصحابه الذين صانوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين . أما بعد :
 فقد قال الله تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
 سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور
 شكور » أيها الصائمون : إن التجار ينتظرون المواسم لعظيم الرواج فيها ،
 فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن مساعد الجد في أعمال التجارة ، واستحضروا
 من الأصناف أجودها وأعلاها ، واختاروا من الألوان أجملها وأحسنها ، يسوقهم
 إلى هذا رجاء الربح ، وقد تحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ، ومفارقة
 أهليهم وأوطانهم ، ويركبون البحار ويتعرضون للأخطار والمخاوف ، ويقطعون
 وعر المفاوز ، وليس فيها إلا سبع مفترس ، أو قاطع طريق أو لصٌ محتال ،
 يرتكبون ذلك غير مباليين بما ينالهم من مشقة وعناء ، بل يستسهلون في سبيل الربح
 جميع الصعاب ، مواصلين في ذلك الأيام والليالي . ولا عجب في تحمل التجار هذه
 المشاق ، فإن من ذاق لذة الربح هانت لديه جميع الشدائد ، وسهلت عليه
 كل المتاعب . هذه يا قوم حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون .
 فقد يكون ، وقد لا يكون — وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلهم ،
 والزوال مصير ما يربحون ، وكما أن للدنيا تجاراً مُجِدِّين منهمكين ، فإن للآخرة تجاراً
 أمناء صادقين ، أوفياء رحماء مخلصين « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله
 أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .
 فلا تُهمُّ بتجارة الدنيا يَفْتَنُونَ ، ولا هم عليها وحدها يُعْوَلُونَ ، وإنما عولوا
 على التجارة بخالص الأعمال مع الغنى الكريم ، الجواد الرحيم الذي لا غش
 في التجارة معه ولا خسارة ولا كساد . بل هي تجارة مأمونة رابحة رابحة
 لن تبور . أيها الناس : هل سمعتم أو رأيتم أن المشتري يعطى التاجر أكثر من الثمن ؟
 لا ، ولكن الله الغنى الكريم البر الرحيم يأخذ عمل العبد ويعطيه على الحسنة
 عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى عداد « والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ

« علم . ومن واسع كرمه أنه يكافئ من انتباهه في التجارة معه ، وأحسن المعاملة مع خلقه ، بدار لا يفتي نعيمها ، ولا ينقص عيشها ، بجنة » عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ومن رحمته أن حفظ أهل الاستقامة في التجارة معه من خطر السقوط والخسارة . وكتب لهم الأمن من كل المخاوف ، والسلامة من جميع المكار ، في هذه الحياة وفي تلك الحياة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فاتق الله أيها الصائم ولا تنهك في تجارة الدنيا وتقتصر في تجارة الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق . اتق الله ولا تضيع العظيم الباقي بالحقير الفاني « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . واعلم أيها الصائم أنك الآن في موسم ربح عظيم ، لا يتيسر لتجار الآخرة في العام إلا مرة واحدة . موسم من اتجر فيه مع مولاه الكريم كان ربحه أن يعتق رقبة من النار ، ويغفر له ما تقدم من ذنبه — موسم من تقرب فيه من ربه بالبر والطاعات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، فاز بعظيم الخير وعميم الرحمة . موسم من صدقت فيه نيته ، وطابت فيه سريرته ، وصان عن اللغو والفحش صيامه ، وكف عن الحرام عينيه وأذنيه ولسانه ، وتهذبت بالصيام نفسه فكان صابراً متواضعاً تقياً ، صادقاً أميناً وفياً ، على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحماً ، نال من الله جزيل الاحسان وجميل الرضوان ، وكان من المحبوبين لدى الله والملائكة والناس أجمعين . فشمّر في هذا الموسم عن ساعد الجد واجعل صالح الأعمال بضاعتك ، والتواضع شعارك ، والحم واللين شيمتك ، والرافة والرحمة حليتك فالسعيد المرحوم من اتجر فيه بمرضاة المنان والشقي المحروم من خرج منه بالخيبة والخسران . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجرى به ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » متفق عليه أي أن الصيام سر بين العبد

وربه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . رواه البخارى — أى فلا ثواب له .

سر مشروعية الصوم

الحمد لله أعظم المنة على عباده بما دفع عنهم من غوائل النفس والشيطان . جعل الصيام حصناً للمخلصين وجنة . وفتح المتواضعين فيه أبواب الجنة . وأشهد ألا إله إلا الله عرّف الطائعين أن الشهوات وسيلة الشيطان إلى القلوب . وبقمعها تطمئن النفس وتقوى على قهر الشيطان الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله قائد الخلق إلى الحق ، والمهادى إلى طريق السعادة . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وذوى البصائر الثاقبة ، والعقول الراجحة (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات » أيها الناس : إن الله تعالى فرض الصيام في شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، لما له من آثار حسنة ، ومنافع جمة ، وفوائد عظيمة في الدنيا والآخرة . فهو يضبط النفس ويطفىء شهوتها ، فإنها إذا شبت تمردت وسمت وراء شهواتها ، وإذا جاعت خضعت وامتنت عما تهوى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ذلك أنه يكثر من شهوة الشباب حتى لا تطغى عليه الشهوة ، فيصير إلى العنت والفاحشة . فكان الصوم ذريعة إلى كف النفس عن المعاصي ، فسيحانه من إله عليم حكيم ، وإن الصيام وسيلة إلى إصلاح النفوس وتهذيبها : يربى في الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والصبر عند الشدائد ، لأنها إذا انتادت للامتناع عن الحلال من الغذاء الذى لا غنى لها عنه طلباً لمرضاة الله تعالى ، وخوفاً من أليم عذابه ، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام الفانية عنه . فلا يكذب الصائم ولا يغدر ، ولا ينقض عهداً ولا يخلف وعداً ، ولا يكون

مهرائياً ولا خائفاً . فكان الصومُ سبباً في اتِّقاء الحارم ، وقوة العزيمة ، والتخلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، وإلى هذا أشار جل وعلا بقوله : « لعلكم تتقون » أيها الصائم : الصوم يدعو العبد إلى شكر النعمة : إذ هو كف النفس عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، وكل هذا من جلائل نعم الله على خلقه . والامتناع عن هذه النعم من أول اليوم إلى آخره يُعرِّف الإنسان قدرها ، إذ لا يُعرف فضلُ النعمة إلا بعد فقدانها . فَيُبْعِثُهُ ذلك على القيام بشكرها ، وشكر النعمة واجب . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » وإن الصيام يبعثُ في الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء ، والعطف على البائسين . فإن الإنسان إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ، تذكر من هو جائع في جميع الأوقات . فيسارعُ إلى رحمته والإحسان إليه . قيل ليوסף عليه السلام — وكان كثير الجوع — لم تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : « إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » أيها الصائم : الصوم ينقي الجسم من الفضلات الرديئة ورطوبات الأمعاء ، ويشفي كثيراً من الأمراض ، وفيه من المزايا الصحية ما شهد به العدو قبل الصديق . فسبحانه من إله عليم حكيم ، وبخلقه رءوف رحيم . وعلى الجلة فإن إمساك الإنسان عن الطعام والشراب ، وكف نفسه عن شهواتها ، ومخالفتَه لعاداته في ذلك يوماً كاملاً مع صَوْن الجوارح عن اللغو ومساخط الله ، فيه كسرٌ لغائلة شهواته النفسية ، وتذليلٌ لجاحها عن ميلها إلى غاياتها البهيمية ، والقربُ بها إلى ألقها الأعلى ، والأخذ بزمامها إلى سُموها ورفعها ، والبعدُ بها عن طبيعتها الأرضية إلى عالم الملائكة . وإن جسم الإنسان عُرِضَ للنمو والزيادة ، فكان في حاجة إلى تخفيف شيء منه في كل سنة حتى يقوى وَيَنْشَطَ وَيَسْلَمَ من الأذى ، ولا يكونُ ذلك إلا بمنع الغذاء عنه جزءاً من الزمن . والصومُ بإجماع الأطباء حِمِيَّةٌ منظمَةٌ ، والطبيبُ الحاذق يأمرُ المريضَ بالاحتماء لُتَصَقَّ عروقه ، وتنفع فيه الأدوية . كذلك الصوم تُصَقِّ فيه عروقُ الإنسان من المعصية فتتفع فيها الرحمة .

فسبحانه من إله عليم بخلقه ، حكيم في شرعه وصنعه . قال صلوات الله وسلامه عليه عن رب العزة : يقول الله تعالى : « كلُّ حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْفٍ إِلَّا الصَّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ » وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس : إن الله تعالى قد رفع منزلة الصيام وميّزه على سائر العبادات بالانتساب إليه . وعدم تحديد ثواب الصائمين حيث قال : « إِلَّا الصَّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ » وحسبك في الإيمان بفضله قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسى بيده خلُوفُ فمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لِأَجْلِ الْوَصُومِ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ » . فيأيها المسلمون هذا شهر الإخلاص والصبر ، والصبر ثوابه الجنة . شهر التوبة والإجابة ورجوع العبد الآبق إلى مولاه . فتوبوا إلى الله وكفوا جوارحكم عن المعاصي تفوزوا برضوان الله « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين » .

سر مشروعية الصلاة والجماعة فيها

الحمد لله فرض الصلاة وجعلها أفضل الطاعات وأعظم القربات ، وأشهد ألا إله إلا الله العلي الكبير ، اللطيف الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمام الطائعين وأفضل الخاشعين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والذين هم على صلواتهم يحافظون (أما بعد) فقد قال الله تعالى « إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » أيها الناس الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام ، ومدار السعادتين ، وأساس الفوز في الدارين « وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » فرضها الله على عباده المؤمنين لتكون صلةً بحضرته ، وتذكيراً بعظمته وجلاله ، وشكراً له على جلائل نعمائه . ومن رحمته بعباده جعلها في خمسة أوقات تيسيراً عليهم ، وتذكيراً لمن ينسى ، وتركياً لمن يخشى . تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقنين يقيناً ، والمؤمنين إيماناً ، فسبحانه من إله حكيم عليم ، رؤوف رحيم . تعلم المرء بما فيها من الركوع والسجود ، والثناء والتعظيم ، كيف يتواضع لخلق الله ، وكيف يشكر من أحسن إليه ، ويكافئ من أسدى إليه معروفاً ، تورثه

من الرحمة والقناعة ما يجعله رحيماً بالضعفاء ، راضياً عن الله في الشدة والرخاء .
وتغرس في نفسه من هيبة الله وخشيته ما يحول بينه وبين ما يُغضب مولاه من الذنوب
والآثام ، وكيف لا يقنع بما قسم الله ، أو يقسوعلى بئس ، أو يكسب إنما ، بعد ما قال
في كل ركعات الصلاة : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ؟ كيف
يعبد دنياه أو يسأل غير مولاه بعد ما قال وهو بين يديه : إياك نعبد وإياك نستعين ؟
كيف يطلب منه أن يهديه الصراط المستقيم من يسعى في الأرض فساداً أو يكيد
لأخوانه المسلمين ؟ كيف يجترأ على ارتكاب ما يغضب الله من امتلاء قلبه خوفاً
أن يكون من المغضوب عليهم المطرودين أو من الضالين الخاسرين ؟ (أيها الناس) :
إن من أقام الصلاة في وقتها واستنار بها قلبه وتأثرت نفسه بما فيها من جلال وكمال ،
سارع إلى الخيرات ، وصبر في البأساء والضراء ، وتباعد عن كبائر السيئات وصغائر
الحرمات ، وكان بَرّاً نقياً ، متواضعاً تقياً « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » أيها الناس : عليكم بتأديتها في جماعة فإنها
تزيد عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كل درجة منها لا يعلم قدرها إلا علام
الغيوب . قال صلوات الله وسلامه عليه : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد
بسبع وعشرين درجة » . فبالاجتماع فيها تذهب الضغائن وتزول الأحقاد ، وتتآلف
القلوب وتتحد الكلمة ، وتظهر عظمة ملك الملوك ورب الأرباب ، ويعم الفيض
وتنزل الرحمة — نادى منادى الصلاة ودعا داعي الفلاح ، فأجابه الفقير والغني ،
والكبير والصغير ، والأمير والحقير . فإذا اجتمعوا في صعيد واحد وراء إمام واحد ،
إلى قبلة واحدة ، يعبدون رباً واحداً خاشعين خاضعين ، خائفين من عذابه ، طامعين
في رحمته . فلا جرم أن تنزل عليهم البركات ، وتحيط بهم الرحمت « وادعوه خوفاً
وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين » فاتقوا الله أيها المسلمون وبادروا إلى الصلاة
في أوقاتها تكونوا من المفلحين ، وفرغوا قلوبكم من الشواغل فيها تصيروا من
الفائزين . « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » في الحديث

القدمى عن رب العزة « عبدى أخذك الشيطان منى لا اعجزى ولكن لضعفك أنت » وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » . وتقول فى الثانية : أيها الناس : يقول الله جل وعلا : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » فهو تعالى غنى عن العبد وعن عمله ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية . وإنما العبد هو المحتاج إليه تعالى فى جميع أحواله . أليس هو الفائز بالأجر إذا أحسن الصلاة ، أليس هو الظافر بالقبول إذا أخلص فيها لمولاه — ماعذر تارك الصلاة إلا الكسل أو التكبر على طاعة الله ، والتشبه بالكافرين المالكين ، والله تعالى يقول : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » تارك الصلاة يحق الله البركة من عمره ورزقه ، وماله وولده ، ويذهب نور وجهه ، ويحرم من نعمة التوفيق للخيرات ، ويجترى على جميع الحرمات . هذا فى الدنيا ، ويوم القيامة لا يجيب الله له سؤالا ، ولا يتقبل منه أعمالا ، وتعلق فى وجهه جميع أبواب الرحمة ، ويذوق أنواع الذل والهوان — اللهم إنا نعوذ بك من غضبك وعذابك ، ونسألك رضاك ورحمتك ، بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين .

وداع رمضان .

الحمد لله الدائم فلا يزول ، الباقى فلا يتغير ، وأشهد ألا إله إلا الله أجزل الخير للطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل الصائمين الراكعين الساجدين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » الذين اتقوا هم الذين عظموا أمر الله بامثال الأوامر واجتناب النواهي ، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته ، والذين هم محسنون هم أهل الشفقة على خلق الله : باحترام الحقوق وحسن المعاملة . ومعنى أنه سبحانه مع هؤلاء أنه يتولاهم بالحماية والرعاية ،

والإحسان والهداية . ومن كان الله معه فقد ربح كل شيء . ومن طرده الله من
معيته فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

أيها الصائم — ها هو رمضان قد مضى ولم يبق منه إلا القليل ، فهل اتقيت
الله فيه وقت بحقوقه ، وحافظت على آدابه ؟ هل أحسنت فيه المعاملة مع خلق الله ،
واحترمت حقوقهم ؟ الصيام يُنور القلب ، ويهذب النفس ، ويقوى العزيمة ،
ويُعرفُ العبد مقدار النعمة ، ويملأ قلبه رحمة بالضعفاء . فهل استنار قلبك في رمضان
بعد ظلمة العصيان ؟ هل تهذبت بالصيام نفسك وقويت عزيمتك ؟ هل عرفت
مقدار النعمة بفقدائها فشكرت عليها مولاك ؟ هل امتلأ قلبك رحمة فعطفت على
الأرامل واليتامى ؟ تالله لو كان قد استنار قلبك وتهذبت نفسك ، لظهر ذلك
في أقوالك وأفعالك ومعاملاتك للناس أجمعين — وكيف يتهذب إنسان كانت
نفسه وقت الصيام في ملل وسامة ، وهذا شأن من لم يذق حلاوة الطاعة ، ولم
يخلص في العمل لمولاه . أما كان البعض منا ينتظر انقضاء الشهر باليوم والساعة ،
وذلك من علامات الغافلين ؟ وكيف يرجو أجر الصيام من يضجر منه لطول اليوم
أم كيف يطعم في الاعتناق من النار من يستكثر عليه صيام شهر في السنة ؟ كيف
يفوز بالعتق والغفران من كان فظا بذىء اللسان غليظ القلب قاسياً ، لم يرأف
بالضعفاء والبائسين ؟ يا هذا كيف تستطيل أيامه وهو يصلح القلب ويهذب النفس
كيف تستنقل صيامه وهو يصحح الأبدان ، ويجلبُ الغفران والرضوان ، أم كيف
تسام من شهر أنزل فيه القرآن شقاء ورحمة للمؤمنين — أيها الصائم : انقضى شهر
العبادة فهل أحيينته بالعبادة ؟ انقضى شهر القرآن فهل اشتغلت فيه بتلاوته ؟ انقضى
شهر البر والإحسان فهل أكرمت فيه يتيماً أو أرملة أو سائلاً محروماً ؟ انقضى شهر
صلة الأرحام فهل وصلت فيه قريباً أو جبرت بعيداً ؟ انقضى شهر العفو والصفح ،
فهل عفوت فيه عن ظلمك أو صفحت عن أساء إليك ؟ انقضى شهر التوبة والقبول
فهل صرت من التائبين المقبولين ؟ وكيف يُحسب من المقبولين من أطلق لسانه
بالكذب والقيبة والنميمة ولم يستح من خالق الأرض والسماء ؟ كيف يُحسب من

للمرحومين من إذا جن عليه الليل اشتغل باللعب عن الطاعة واستماع القرآن ،
 أو أمضاه في بيوت اللهو وأما كن الفسوق ؟ وكيف يرجو القبول من ساءت أخلاقه
 في الصيام ولم يكن من الخاضعين المتواضعين . أيها الصائم : هذا يوم الوداع فبأى
 شيء تودعه وأنت لم تحسن إليه مدة الإقامة ؟ وبأى وجه تقول الوداع ، وأنت تودعه
 بالكرهية والسامة ، وكيف تفرح بالرحيل وهو عليك من الشاهدين بين يدي
 أحكم الحاكمين — فيا أيها الصائمون : اتقوا الله وتداركوا ما فرط منكم بالتوبة
 وصالح العمل ، وصلوا الأرحام وواسوا الأرحام واليتامى « إن الحسنات يذهبن
 السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » وأحيوا ليلة القدر بالطاعة والعطف على البائسين
 والضعفاء ، وأخرجوا صدقة الفطر فإن الله أوجبها عليكم جبراً لخاطر المساكين ،
 وكفأ لهم عن السؤال والذل في هذه الأيام ، ووسيلة لقبول الصيام ، واسعوا في إصلاح
 ذات البين ، وليستحل كل منكم من ظلمه ، ويستعطف من أساء إليه ، وطهروا
 قلوبكم من الغل والحسد ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات
 والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ
 والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله
 عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه
 ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن
 مسلم كربة فرّج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره
 الله يوم القيامة » — وتقول في الخطبة الثانية — « أيها الناس » إن عزة الأمم
 وسعادتها منوطان بأخلاقها وآدابها ، واعتناقها للفضيلة ، وابتعادها عن الرذيلة ،
 فالأخلاق الفاضلة روح الأمم والشعوب لا حياة لها إلا بها ، ولا رقي لها إلا معها ،
 وعلى مقدار اعتناء الأمة بالترقية الصحيحة ، وتمسكها بالأدب والفضيلة يكون رقيها
 وفلاحها ، وهنارها وصفاء عيشها ، « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
 فلنجينه حية طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — الله أكبر
 (تسماً) الله أكبر وهو الكبير الذى غَمَّت الوجوه لكبريائه وعظمته . الله
 أكبر وهو الحى القيوم الذى دبر الكائنات بحكمته . الله أكبر وهو القادر الذى
 أبدع الموجودات وعمها بإحسانه ورحمته . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ،
 وسبحان الله على الدوام . وأشهد ألا إله إلا الله جمل فى تعاقب الأعياد عبرة
 لأولى الأبواب . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الهدى والصواب .
 اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله ، العاملين
 بأحكام الدين « أما بعد فيا أيها المسلمون » إن يومكم هذا يوم سرور لمن صحت
 نيته ، وقبل صيامه وقيامه . يوم فرح وتهانٍ لمن طابت سريرته وحَسُنَ فى رمضان
 خلقه وكلامه . يوم غفو وإحسان لمن عفا عن هفا وأحسن إلى من أسأ وأصلح
 بين الأنام . هذا يوم عيد ولكن العيد فى الحقيقة لمن تمسك بالدين . هذا يوم
 الفلاح والنجاح لو كان المسلمون فيه مؤتلفين متحدين . هذا يوم سعيد لو كنا
 لمستقبلنا عاملين . فى هذا اليوم المبارك يتجلى المولى على المخلصين بمزيد الإلغام .
 ينظر فيه إلى أهل الصدق والوفاء والمودة والحبة . ينظر فيه إلى من تاب وراقب فى السر
 والعلاية ربه . ينظر فيه إلى من تغافل عن عيوب الناس وعليوب نفسه تنبه . يعز
 فيه من طهر قلبه من الحقد والحسد وتأدب بأداب الإسلام . فليس العيد لمن تمتع
 بالشهوات ولبس الثوب الجديد . ليس العيد لمن عقى والدهيه فخرم الرضا فى هذا اليوم
 المبارك السعيد . ليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم مولاهم من فضله العميم
 المزيد . ليس العيد لخائن غشاش كذاب يسمى بالأذى والفساد بين الأنام . وكيف
 يسعد بالعيد من تجمل بالجديد وقلبه على أخيه المسلم أسود . كيف يهنا بالعيد من
 استقام فى رمضان وبعده عدل عن الطريق القويم الأحمد . كيف يفرح بالعيد من
 أضاع أمواله فى الملاهى وبيوت القسوق والفجور ، ويمنع حق الفقراء والضعفاء ولا
 يخاف يوم البعث والنشور . هيهات هيهات أن يحظى بالفلاح والقبول من أصه

على العداوة والخصام . إنما العيد لمن خاف يوم التناد . إنما العيد لمن اتقى مظالم العباد
 إنما العيد لمن فاز بالقبول وحسن الختام . أيها الناس : كم أموال في هذه الأيام تضيع
 على الملامى والملاعب . كم تتعدى فيها أهل الغرور حدود الأدب بأفعال المميج
 وتقليد الأجانب . كم تخرج فيها أهل البدع عن الشرع القويم فيكونون في جانب
 والدين في جانب . كم تنهرج فيها أبناء الشهوات بما اكتسبوه من الشبه والحرام
 أين من كان لا يفرح بعيد ولا بسواه إلا بما قدمه من الخير أمامه ، أين من كان
 يزجر نفسه عن اللذات خوفاً من ألم العتاب والملامة . أين من كانت عيناه تبيض
 عند ذكر أهوال يوم القيامة . أين أهل الشفقة والرحمة على الأرامل واليتامى في هذه
 الأيام . أولئك قوم كانت قلوبهم مملوءة بالتقوى عامرة بالهدى ، أخلاقهم كريمة ،
 وقلوبهم سليمة ، قانعون صابرون لا يجزعون لحال من الأحوال . تعرفهم بسيماهم .
 وأثنى عليهم مولاهم بقوله « من المؤمنين رجال » . علموا أن الدنيا وزخرفها ظل
 زائل كأنها أضغاث أحلام . فأتقوا الله أيها المسلمون وتباعدوا عن النفاق والشفاق
 فإنه يقع في الوبال والبلاء . وطهروا قلوبكم من الحقد والحسد وكونوا عباد الله إخوانا
 في صفاء . وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، واعطفوا على الأرامل واليتامى ، تناولوا
 غاية القبول والإكرام . في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن
 ينظر إلى قلوبكم » . وروى مسلم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من
 صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

في التحذير من العودة إلى المعاصي بعد رمضان

الحمد لله الدائم الباقي فلا يزول ولا يتغير . الحكيم الذي جعل في انقضاء
 الشهور وتقلب الليل والنهار عبرة لمن تفكر . لا إله إلا هو جعل الفلاح لمن عمل
 بأحكام الدين . وأشهد ألا إله إلا الله فتح أبواب رحمته لمن داوم على طاعته .
 وحجب أنوار هدايته عن انقاد لشهوته . وانغمس في حمأة رذيلته . وأشهد أن

بميدنا محمدًا رسول الله إمام المتقين . وسيد الأنبياء والمرسلين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه « أما بعد فيأيها المسلمون) إن كان رمضان قد مضى كأنه طيف خيال . وعزمتهم على العود إلى التفریط والتقصير في شوال . فالله حتى أبدى سرمدى لا يدركه زوال . ولا يقنيه تداول الأوقات وتعاقب الأهلة هلالا بعد هلال . فلا تقولوا الآن ذهب رمضان وتستهلوا شوالا بالفسوق والعصيان . فإن الله تعالى يرضى عن أطاعه في أى شهر كان . ويفضبه على من عصاه في كل وقت وأوان . أيها المسلم : عهدناك في شهر رمضان منيبًا إلى ربك ، تائبًا من ذنبك ، راغبًا في رحمته وثوابه ، خائفًا من نعمته وعذابه . عهدناك في رمضان محافظًا على أداء الصلوات في الأوقات . حريصًا على شهود الجمعة والجماعات . مقبلًا على مجالس العلم ومستعدًا لقبول النصائح والعاتات . عهدناك في رمضان مهذبًا نقيًا ، متواضعًا نقيًا . فعلى أى شيء عزمت بعد انقضاء شهر الصيام . أنراك بعد ما ذقت حلاوة الطاعة تعود إلى مرارة العصيان ؟ أنراك بعد ما صرت من حزب الرحمن تنقلب على عقبيك فتتضم إلى حزب الشيطان ؟ أنراك بعد ما حُسبت في عداد المصلين تترك الصلاة وهي عماد الدين وشعار الإيمان ؟ وهل يليق بك بعد ما كتبت في جملة الطائعين المحرومين ، أن تصير في زمرة العاصين المحرومين ؟ أيليق بك بعد ما كنت في رمضان برًا نقيًا ، أن تصير في الإفطار جبارًا شقيًا ؟ أيليق بك بعد ما كنت في رمضان ملكًا كريمًا ، أن تصير بعده شيطانًا رجيًا ؟ « كلا » ما هكذا تكون المؤمنون . بل ما هكذا تكون العقلاء المتبصرون ، ولا السعداء الموفقون . أيها الناس : الصلاة نور للقلب ، وشكر للنعمة ، وصلة بين العبد وربّه ، فما الذى يستفيدة ذلك الشقى من ترك الصلاة سوى ظلمة القلب ، وكفران النعمة ، وقطع الصلة بينه وبين مولاه . بل ما الذى يجنيه العاصى من وراء معصيته غير إتلاف ماله والإضرار بعقله وصحته ، وضياح شرفه وسقوط كرامته ، وإغضاب ربه واستحقاق مقتته وعقوبته ؟ « تالله » إن المعاصى لشهوة قصيرة عاجلة ، تعقبها حسرة طويلة

دائمة وشقوة ملازمة ونار حامية . وذل شديد . وعذاب أليم في الدنيا والآخرة .
 فيأيتها المسلم : اعلم هداك الله أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا عمل ولا حساب ،
 والآخرة حساب ولا عمل . فاتق الله وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك
 لموتك ، ومن صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك . وتزود لسفر طويل ، واستعد
 لحساب عسير ، وهول عظيم . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . يوم يعرض الظالم
 على يديه نادماً على ما جنه . « يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات
 وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد سرايلهم
 من قطران وتنشئ وجوههم النار ، ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع
 الحساب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر
 أولوا الألباب » — في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب
 الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وروى الحاكم عن ابن عباس . قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ،
 وصحتك قبل سقمك . وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك . وغناك قبل
 فقرك » . الهرم كبير السن . وبابه طرب .

الحث على الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق والتنازع

الحمد لله الذى جعل الدين رباطاً متيناً بين قلوب ناؤمنين . وأمر بالاتحاد
 والتعاون ، ونهى عن التفرق والتنازع في كتابه المبين . لا إله إلا الله الحكيم العليم
 وأشهد ألا إله إلا الله القوى المتين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ذو القاب
 الرحيم ، والخلق الكريم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين طابت
 نفوسهم وصفت قلوبهم فكانوا هم السادة الغالبين ؛ (أما بعد) فقد قال الله تعالى :
 « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف
 بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أيها المسلمون : إن دين الإسلام هو حبل الله
 المتين ، والحق المبين ، من وقف عند حدوده نجا ، ومن نحلى بأدابه سعد ، ومن

تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد أوجب عليكم فيه أسراً عظيماً ، إن أنتم أطعتم الله فيه نلتهم من الخير ما تحبون ، وبلغتم من الفلاح والرقى الغاية التي تطلبون ، ذلكم هو أن تتحد قلوبكم ، وتتألف نفوسكم ، وتعاونوا على الخير فيما بينكم . فإن الاتحاد والتعاون أساس كل خير وسعادة وعمار كل تقدم ورقى ، فما نالت أمة من الأمم نصيبها من رغد العيش ، ولا فاز شعب من الشعوب بحظه من التقدم والرقى ، إلا باتحاد القلوب واجتماع الكلمة ، والتعاون على الأمور النافعة ، والتضامن في تنفيذ كل عمل مفيد . وشمور كل فرد بأنه عضو من جسم أمته ، عليه واجب يؤديه ، وله وظيفة يقوم بها لخير المجموع بأمانة وإخلاص . أيها الناس — إن التفرق والشقاق والتنازع والاختلاف لمن الجنايات العامة والجرائم الكبرى ، التي تهدم بنيان الأمم وتضعف قوتها : حتى لا تقوى على الثبات أمام أعدائها ، وتغلق في وجهها أبواب كل خير ، وتندرها بوخامة العقوبة وسوء المصير . لهذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التنازع والاختلاف ، وحذرهم من عواقبه السيئة ونتائجها المؤلمة . قال تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . تفشلوا : تجبنوا — تذهب ريحكم : تضعف قوتكم ولا تنصروا على أعدائكم — إننا إذا قلنا لكم إن الاتحاد والتعاون يشمران كل خير وسعادة ، فلا نشهد على هذا إلا بما كان للسلف الصالح والخلفاء الراشدين من الشرف الرفيع ، والعز المنيع ، والقوة التي قهروا بها الجبابرة ، وأسقطوا عروش الظلم والاستعباد ، ونشروا لواء العدل والمساواة بين الناس في كل مكان ، والله يعلم أنهم ما نالوا ذلك بكثرة عددهم ، ولا بتوفر عددهم . ولكنهم نالوه بفضل الاتحاد والتعاون والصدق والوفاء ، والإخلاص والإخاء . قال تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » . أيها الناس : إن في حوادث الأيام لعباً جمة ، وعظات كثيرة ، يستفيد منها الرجل الرشيد أكثر مما يستفيدة من خطب الوعاظ ونصائح المرشدين — وهما هي الحوادث تمر بنا في كل يوم فهل آن لنا أن نعتبر ونتعظ . هل آن لنا أن نفيق

من سكرتنا وتنبه من غفلتنا ، ونعلم أن فلاحنا موقوف على اتحادنا وتعاوننا ، وصفاء قلوبنا وإخلاص بعضنا لبعض ؟ أم نحن سنظل في التفرق والتخاذل والشقاق والنفاق والنفل والحسد والضلال القديم ؟ أيها الناس : اتقوا ربكم وتمسكوا بدينكم ، واعملوا بهدى نبيكم ، واقتدوا بأسلافكم الصالحين ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وتعاونوا على الخير وخير العمل ، يشملكم الله برحمته ويعمكم بإحسانه ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . رواه البخارى .

أخرى في الاتحاد وأثره في نجاح السلف

الحمد لله الذى أَلَفَ بالإسلام بين قلوب المؤمنين . وأوجب الاتحاد وحرّم التفرق في كتابه المبين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير داع إلى الطريق القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تهذب نفوسهم واتحدت قلوبهم ، فكانوا السادة المنصورين (أما بعد فيا أيها المسلمون) لا ريب أن أقوى عامل على رفع منار الأمم ، وأفضل معين على نهوضها ونيلها منتهى المجد والشرف . هو اجتماع القلوب ، واتحاد الكلمة فاستمكت به أمةٌ إلا ظهر سلطانها ، وقويت شوكتها ، ودامت دولتها ، وبلغت في الرقي ورغد العيش أقصى الغايات ، وأرفع الدرجات . وما تفرقت أمةٌ واختلت كلمتها ، وتنازعت في أمرها إلا اضمحل سلطانها ، وضعفت قوتها ، ودالت دولتها وتبدل عزّها ذلاً ، ورفعتها ضعةً وانحطاطاً . وكان من نصيبها الفشل والخسران المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ، ونهى عن التفرق والتنازع . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقال تعالى . « ولا تنازعوا فتفشلوا ،

وتذهب ربحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . أيها الناس : إن العاقل من غيره اعظ . وإن التاريخ لعبرة وعظة ، أنظروا إلى ما كانت الأمة العربية أيام الجاهلية ، تروها كانت على أسوأ حال : حرب متواصل ، وتفرق دائم ، وعداء مستحكم ، وهمجية ممقوتة . يعتدى بعضهم على بعض ، ويبطش القوى بالضعيف ، لا دين يمنعه ، ولا قانون يردعه ، ولا إنسانية تحجزه ، ولا منتصف يقفه عند حده ، إلى أن سطع نور الإسلام فأضاء بلاد العرب ، واستنارت به أرجاء نجد وتهامة ، وارتجت لأجله بلاد فارس والروم . ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره على يدي هذا الرسول الكريم ، والسيد الصادق الأمين ، فانضم إليه العقلاء ، والتف حوله السعداء ، فنزع الله من قلوبهم داء العداوة والبغضاء ، وطهرها بدواء الإخلاص ، والمحبة ، وألف بينهم فصاروا روحاً واحدة في جسم واحد ، فجازوا بريح جسيم ، وظفروا بخير عميم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكفتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » . وكان لدولة الإسلام العز الذي لا يداني ، والسلطان الذي لا يضاهي . فقهروا الجبابرة ، ودوخوا الأكاسرة ، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها ، وأدركوا باتحادهم على قلة عددهم ، وضعف عددهم ، ما لم تدركه الجيوش على كثرتها وقوة عدتها ، فلقد التف الناس حول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واتحدت كلمتهم ، وخلصت نيتهم . فقهروا دولة الفرس والرومان ، وفتحوا الشام ومصر ، وانتصروا في كل الوقائع ، ولم تنكس لهم راية ، ولم ينهزم لهم جيش ، وكان كل واحد منهم يعمل بإخلاص لإعلاء الدين ورفع شأنه ، ناسياً حظ نفسه وكل مأرب شخصي . لما بويع عمر بالخلافة بادر بعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش . فعل ذلك عمر لأمر أدركه ، ومصلحة رآها . فحينما بلغ خالد أمر العزل سلم عن طيب نفس قيادة الجيش إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، ولم يجد في نفسه حرجاً مما رآه أمير المؤمنين ، ودخل في صفوف المجاهدين كجندى عادى ، وأصبح مرءوساً بعد أن كان رئيساً . وكل ذلك لم يثن من عزيمته ، ولم يصرفه عن الإقبال على العمل

بصدق وإخلاص (هذا) وقد أصبح كل منا يعمل لحظ نفسه ، ويسعى وراء مصلحته ، ولو كان في ذلك مضرة لأخيه . حتى وقع الكل في قبضة الذل والهوان وعم الجميع طوفان البلاء . ولو أنهم ثابروا إلى رشدهم ، وعملوا بتعاليم دينهم ، واتحدوا وكانوا على قلب رجل واحد ، لرجعوا إلى مجدهم ، وعادوا إلى عزهم ، ولكن الله في خلقه شئون ، وللشقاء قوم وللسعادة قوم آخرون . روى الجماعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحلمى والسهر » .

في التحذير من الغش في المعاملات وسوء عاقبته

الحمد لله الذى كرّم الإنسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ، ونهاه عن الكذب والغش والخيانة ، لا إله إلا هو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله . الشديد البطش بالخائنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله تبرا من الغش وحذّر منه جماعة المسلمين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحفاظين لحدود الله . أما بعد فيا أيها المسلمون : إن الأرزاق لا تكون بالخداع ولا بالمقدرة ، وإنما هي كالأجال مقررة عند الله ومقدرة ، فلا يقوت العاجز برزقه ، ولا يُحصّل فوق ما قُسم له القادر القوى ، فيا أيها الغاشُّ هل يأتيك الغش برزق غير المقسوم ؟ ويا أيها الخائف بالآيمان الكاذبة هل يأتيك الحلف المكذوب بشيء سوى ما أَراده لك الحى القيوم ؟ « كلا » والله لا يصيبك في الدنيا إلا ما قضاه الله عليك ، ولا يفالك منها إلا ما قسمه الله لك . فما هذا التدليس الذى لا يكسبك إلا شكاً في قضاء الله تعالى ، وما ذاك الغش الذى لا يفيدك إلا الوزر والخزى والعار ، وما عاقبة ذلك كله إلا ضياع الثقة وغمّ المصائب وهمّ الخسائر — فوالله ما تقدم عامل خان في عمله ، ولا نجح صانع دلس في صناعته ، ولا ربح تاجر غش في تجارته ، وما هي إلا أيام معدودة ثم تنصرف الناس عنه وتغلق في وجهه أبواب الرّيح ، وتذهب البركة من عمل يديه ، وربما دارت عليه أو على ذريته الدوائر

أيها الناس : إن الغش لذنوب كبير ، ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية ، وإن الأيمان الكاذبة لا تصدر إلا عن قلوب مظلمة قاسية . وكلاهما تغريز بالناس وتلاعب بالدين ، وخسران مبين . لقد أغضبت ربك أيها الخالف كذباً لترويج الصنعة أو البيع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى لكلك أموال الناس بالباطل ، وإهمالك لدينه ، وخروجك على ملته . برغت في ضروب النصب والاحتيال ، وتفننت في أنواع الغش والخداع ، لا تراعى مخلوقاً ولا تخشى خالقاً . فلا حول ولا قوة إلا بالله — يدخل الإنسان على الصانع ، أو يقف المشتري أمام البائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبة ما يخدعه به ، ويوهمه أن هذا الشيء لا نظير له ، وأنه أجود من صناعة أو بضاعة فلان وفلان ، وأرخص مما يباع في جميع الحوانيت ، والله يعلم إنه لسكاذب « ويخلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولقد صار الغش في كل شيء حتى اللبن في ضرع الحيوان ، ولو أمكنهم أن يبيعوا التراب ذهباً لفعلوا بلا مبالاة ولا حياء . ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام ، وأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وليعلم الخالف كذباً أن حقوق الذي خدعه محفوظة يستوفونها من حسناته في يوم لا درهم فيه ولا دينار . أيها الناس : إن الصنائع والتجار من أكثر الناس اعتماداً على الله ، يفتحون محلاتهم كل يوم ينتفون من فضل الله ، لا يعتمدون على وظيفة ولا مرتب ، فما أحسنهم إذا كانوا أمناء صادقين . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وما أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله والناس ، ولم تشغلهم أعمالهم عن الله « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » فيا أيها المسلم اتق الله وارض بما قسم الله لك ، واحفظ نفسك من الإفلاس في الدنيا ومن خزي يوم القيامة ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » . في الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« عبدى إن رضىت بما قسمته لك أرخت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، ولا يبال لك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندى مذموماً » . وفى صحيح مسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ قال : من غشنا فليس منا » . وفيه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم وكثرة الحلف فى البيع فإنه يُنفق ثم يُمَحَق » . أى بروج السلعة ثم يُذهب البركة من كسب البائع .

فى مضار الزنا — مسجوعة

الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . الحكيم الذى أعز من حاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى والفجور . لا إله إلا هو له الملك وإليه مرجع الخلق أجمعين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن محمداً رسول الله جاء بالحق الواضح والشرع القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » (ابن آدم) عمرك فى الدنيا وإن طال فأيامه قصيرة . لذاتك مهما حلت لك فى الحال فستورثك فى المآل حسرات كثيرة . ارتكابك للزنا بلا حياء دليلٌ منك على انطماس البصيرة إذ لو كنت من الراشدين ماسكت مسالك الزناة الفاجرين . وكيف تقرب الزنا وقد أباح الله لك أربعاً من النساء ؟ كيف تنسب لنفسك فى الذل والمرض وأنواع البلاء . مالك تفنقُ مالك فيما يغضب ربك ويرضى الشيطان وهولك عدو مبين . الشيطان يُزين لك الفحشاء ويجرك إلى الأذى والفساد . والله يدعوك إلى الفلاح والهدى والرشاد . فلماذا تركت الرشاد إلى الفساد . وهجرت الهدى إلى الضلال المبين . أيليق بك أن تطيع من يدعوك إلى ما فيه ضياع المال وخيبة الآمال ، وتعصى من يأمر بك بما فيه لك العز فى الحال

والسعادة في المال ؟ أما تستحي من يراك وأنت لاتراه قبل أن تصبح من النادمين .
يا هذا : كيف تُمزقُ العفاف وتكشف عن عورة أختك المسلمة ، وكيف تخون
أخاك وتعصى مولاك بهذه الجريمة الشنيعة المحرمة ؟ ويليك أيها الزاني فقد تجرأت
على هتك الأعراض وكنت من الفاسقين . ألم تعلم أن الزنا يعود عليك في الدنيا
بالفقر والوبال . ويوقعك في الحسرة والندامة يوم لا ينفع أهل ولا مال . ويورث
العداوة والبغضاء والتفرق بين المسلمين . أما تدري أن الله مطلع عليك وأنت على
هذه الحالة الشنعاء . أما تخشى أن تنزل عليك وأنت تزني صاعقة من السماء .
أما سمعت قوله تعالى : « وأملئ لهم إن كيدى متين » فالزنا ياقوم عين الهلاك ورأس
كل فساد . ومضيق الأموال والأعراض والأولاد . ومخل بالشرف والمروءة وموّد
إلى المرض والخزي والعذاب المهيّن . فهلا زجرك عنه الحياء إن لم يزجرك عنه باعث
الدين . هلا منعك منه شرفك الذي تدعيه إن لم يمنعك الخوف من رب العالمين .
أم رضيت أن تكون في الدنيا من الفاسقين وفي الآخرة من الخاسرين . فالخبيّة
كل الخبيّة لمن استعبدته شهوته لامرأة زانية . والندامة كل الندامة لمن أضاع نصيبه
من الجنة واستبدل به ناراً حامية . والدّل كل الدّل لمن جاء يوم القيامة والصديد
يسيل من فرجه كما ورد عن سيد المرسلين . فيا أيها المؤمنون اتقوا الله وغضوا
أبصاركم واحفظوا فروجكم . راقبوا الله ولا تضيّعوا بالزنا أولادكم وأنسابكم . وتوبوا
إلى الله واستغفروه إن ربكم كريم يقبل التائبين . في الصحيحين عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها
وهو مؤمن » . (وفي رواية) : « فإذا فعل ذلك خلع ربة الإسلام من عنقه . فإن
تاب تاب الله عليه » . وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » .

التحذير من الزنا وعواقبه الوخيمة — رسالة

الحمد لله الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد ألا إله إلا الله جعل الإحسان للطائعين والذل والعقاب للفاستقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى الخير والصلاح وحذر من الشر والفساد ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين غصوا أبصارهم عن الحرام ، وحفظوا فروجهم عن الفحشاء ، فعاشوا فى صفاء وماتوا سعداء .

(أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » أيها الناس : نهانا الله العليم الحكيم عن الاقتراب من الزنا وما يدعو إليه من النظر واللمس ، والاختلاط والخلوة بالأجنبية ، لأنها تؤدي إلى الزنا ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإذا كان الله تعالى قد حذرنا من مقدمات الزنا ودواعيه فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد . لم يحرم الله علينا الزنا عبثاً ، ولم ينهنا عنه إلا لحكمة وفائدة تعود علينا ، فإن الزنا من أخش الفواحش ، وأكبر القبائح ، وأعظمها خطراً على المجتمع الإنسانى : يبدد الأموال ، ويهتك الأعراض ويقتل الذرية ، ويؤدي إلى اختلاط الأنساب ، ويُفضى بالأمة إلى الفناء . والزنا يُفسد الأخلاق ويدعو إلى الشقاق والفساد ، ويوقع فى البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة ، وما الزهرى (التشویش) والسيلان والسل الرئوى إلا من آثاره السيئة ، وعواقبه الوخيمة « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . عجبا للزاني يتفضل عليه مولاه بالمال الحلال ، فيضيعة فى مبارزته بالتمرد والعصيان ، فكان مثله مع سيده مثل من أنعم عليه السلطان بسيف فخار به . وهذا لؤم لا وفاء ، ودناءة لا مروءة ، وكفران لا شكران . أما كان ينبغي أن يُنفقه على أهله وعياله ؟ أما كان الأولى أن يبذله فيما يرق أمته التى يعز بعزها ويسعد بسعادتها ؟ أيها الناس : يستقر الزانى عن الأعين عند ارتكاب هذه الفاحشة ، ويخاف أن يراه الناس على تلك الجريمة الشنيعة ، أفلا يخاف الله المنتقم

لجبار ؟ أولا يَسْتَحْي من علام الغيوب » يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » يا هذا أترضى أن يعتدى أحدٌ على حرمة أمك أو ابنتك ، أو اختك أو زوجتك ؟ إذا كنت لا ترضى ذلك لنفسك فكيف ترضاه لأخيك المسلم ، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فهل انحلت الروابط الاجتماعية بين الناس ؟ هل انقطعت الصلة الدينية بين جماعة المسلمين حتى صار المسلم لا يشعر بألم أخيه ، ولا يبالي بحقه وحرمة ؟ « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : لقد جاب الزانى الأذى لنفسه ، وحنى على أبنائه وبناته وزوجه ، فقد سنَّ لهم سنة سيئة ، وجرائم على الفاحشة ، فسرت عذواهُ إليهم ، وكان عليهم وبالاً وشرّاً مستطيراً ، ألا فليتق الله الزناة وليعلموا أن من زنى زنى به : ومن هتك أعراض الناس لا بد من هتك عرضه ، ألا فليتقوا الله وليعلموا أن الزنا وبالٌ عليهم فى هذه الحياة وفى تلك الحياة ، وبالٌ على أسرهم ، وبالٌ على أمتهم . وأن الزانى مطرود من رحمة الله ، ممقوت لدى الله والناس أجمعين « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » روى مسلم عن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه » . وتشرح فى الثانية ما يأتى : روى البخارى عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَضْمَنْ لى ما بينَ لَحْيَيْهِ وما بينَ رجليه تضمنت له الجنة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولا ينظر إليهم ولم يغفر لهم عذابٌ أليم : شيخ زان ، ومَلِكٌ كذاب ، وعائلٌ مستكبر » والعائل : الفقير . رواه مسلم .

خطبة عيد النحر

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . الله أكبر (تسعاً) الله أكبر ما لا تحت إمارات الفلاح على من

قصد بيته الحرام . الله أكبر ما تجلّت عليهم أنوار الهداية لإقامة شعائر الإسلام .
الله أكبر ما ساروا في البر والبحر تحرسهم غناية الملك العلام . الله أكبر
ما فارقوا أموالهم وديارهم لينالوا الرضوان الأكبر . الله أكبر (ثلاثاً)
الله أكبر ما جدّوا في المسير حتى شاهدوا الكعبة البهية . الله أكبر ما علت
أصواتهم بالتلبية إجابة لنداء الخليل في البرية . الله أكبر ما صلّوا في مقام
إبراهيم ونالوا المواهب السنية . الله أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم
المطهر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات .
الله أكبر ما ابتلوا فيه إلى الله وغفرت لهم جميع السيئات . الله أكبر ما وقفوا
بالمشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السعادات . الله أكبر ما وصلوا
منى ونحروا هداياهم وخلق كل أو قصر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان من أغدق
عليهم سحاب الرحمة والغفران ، سبحان من مّتهم بزيارة الحبيب سيد ولد عدنان ،
سبحان من أسعدهم بالسلام على المختار وصاحبيه وأجزل لهم الإحسان ، سبحان
من هنام بنيل المأمول ، وبلوغ المقصود وتم لهم الحظ الأوفر . الله أكبر (ثلاثاً)
سبحان الله والحمد لله وهو أهل التنزيه والثناء . سبحان الله والشكر لله ، وهو
ذو الفضل العظيم واسع الكرم والعطاء . لا إله إلا الله لا رب غيره ولا معبود سواه
وأشهد ألا إله إلا الله جمل الأعياد مواسم الإحسان والرضوان . وأشهد أن سيدنا
محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه
الصادقين المخلصين (أما بعد فيأيها الناس) هذا يوم العيد الأكبر لمن وقف بالأمس
بعرفات فحيت سيئاته وغفرت ذنوبه . هذا يوم السعد وبلوغ القصد لمن كرمت
سجايه وخسنت نواياه . هذا يوم الفرح لمن تعلّى بأنوار حبيب الله وخاتم أنبياءه .
هذا يوم الهنا لمن بلغ المنى وصلى بالروضة بين القبر الشريف والمنبر . كان هذا يوم
الوفاء وصدق الاخاء بين جماعة المسلمين ، كان يوم تلاقى الإخوان بنفوس صافية
وقلوب سليمة . كان يوم صلة الأرحام والسعى في إصلاح ذات البين . لكنا جعلناه
يوم لهو ولعب وإسراف في اللذات والشهوات ، وإضاعة الأوقات في كل عمل غير

نفيد ولا حميد . تركنا فيه محاسن الآداب إلى بدع وعادات لا يقرها دين ولا يقبلها عقل سليم . لو كان لنا قلوب لذابت أسفاً على حال المسلمين من بين العباد . لو كان لنا شعور حتى لتألمنا لما حل بالإسلام من إذلال واضطهاد واستعباد . والله لو استقمنا كما أمرنا ما نزلت بنا المصائب ولا تحكمت فينا يد الأجانب . لو تمسكنا بديننا لنصرنا على أعدائنا وعاد لنا عزنا ، لو تحلينا بالصدق والوفاء والإخلاص والأمانة لتقدمنا على جميع الأمم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ما أجل هذا اليوم لو كان المسلمون فيه متحدين ، ما أحسنه لو كانوا فيه أوفياء أمناء صادقين . ما أسعده لو كانوا إلى إصلاح القلوب ملتفتين . ما أهناه لو كانوا فيما يرقى الأمة متضامنين متعاونين . فاتق الله أيها المفتون واسرع إلى حسن المكآب ، اتق الله أيها المغرور ولا تفرح بزينة الظاهر والباطن من الحياء خراب : « ذلك يوعظ به من كان منك يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

في الحديث القدسي : يا ابن آدم خلقتك يدي وريبتك بنعمتي وأنت تمصيني وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجدل رباً مثلي وأنا الغفور الرحيم ؟ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا زلت منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم ، فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتي)

وفي الخطبة الثانية بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله والتكبير سبعاً تقول : في هذا اليوم تذبح الضحايا فمن الذي يطعم منها المساكين ويهدي أرحامه وجيرانه ؟ في هذا اليوم يكثر الخير فمن الذي يمنح المحتاجين بعض ما تشتهى أنفسهم وعيالهم ؟ من الذي يعطف على الأرمال واليتامى بقليل من مال الله الذي عنده ؟ من الذي اعتبر بمجواث الأيام وتقلبات الزمان ؟ من الذي أيقن بالموت وفي وحشة القبر وأحوال القيامة تفكر . فاتقوا الله وتقرّبوا إليه بالضحايا ، وتوددوا إلى بعضكم بالهدايا ، وأسعوا في إصلاح ذات البين ، وليعفف كل منكم عن أساء إليه ، وصلوا الأرحام وأكرموا الأيتام ، ومن جاء من طريق فليرجع من آخر لشكر لكم

الشهادات ، وكبروا الله أيام التشريق عقب الصلوات « واذكروه كما هداكم ولذكروا الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » . روى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ضحى طيبةً بها نفسه محتسباً لأضحيتها كانت له حجاباً من النار) .

في الاقتصاد والتبذير من الإسراف والتبذير

الحمد لله الذي دبر شئون خلقه وأرشدنا إلى ما فيه الخير والسعادة ، وأشهد ألا إله إلا الله الرحيم بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الفضيلة ، الناهي عن الرذيلة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن سلك طريق الحزم والكمال . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » . أيها الناس : مالنا يأمرنا الله بالتوسط في أمورنا ، والاعتدال في قضاء مآربنا ، ونحن عن ذلك معرضون ، وفي الإسراف والتبذير واقعون ، وإلى الفقر والذلة صائر ، مالنا يرشدنا المدين إلى السعادة فلا نهتدي بهديه ، وينصح لنا فلا نعمل بنصحه ، مالنا أخطأنا الصواب وضللنا سبل النجاح ، فأصبحنا من الإفراط في صرف الأموال والتماذي في رهن المتاع والمقار على شفا جُرْفٍ هار ، فانهار بنا في نار الفقر وعذاب الهون . تركنا ديننا فجعلنا نظام حياتنا وتبذير شئوننا والروية في أعمالنا . فلا يعرف أحدنا لنفسه ميزاناً يزن به عمله ، ولا حساباً يضبط به موارده ومصرفه ، كي يتسنى له أن يقتصد بمض ماله ، ليسد به عوزه إذا ألت به ملة ، أو نزلت به نازلة . فهل فينا من تنبه لذلك وتدبر عواقب الإسراف ؟ هل فينا من سلك طريق الاقتصاد فنفع نفسه وأمنته ؟ هل منا من اعتبر بمن أوقعهم سوء التصرف في ذل الدين ، وساقهم التبذير إلى هوة الفقر فأصبحوا نادمين ، وعلى ما جنت أيديهم ملومين محسورين ؟ أيها العامل أو الموظف المسرف ! ويا أيها الزارع المبذر ، ماذا تصنع إذا استندت اعتماداً على عملك أو وظيفتك ، أو حاصلاتك ، فانقطعت عن العمل ، أو نزلت جيوش الامهات والآفات بالحاصلات فأهلكتها ؟ قل لي ماذا تصنع ؟ أنرهن متاعك

ولباسك ، أم تبيع عقارك ودارك ، أم ناطل دانتك ؟ أم تعلن بين الناس إفلاسك ؟ كل هذا شر عليك في العاجل والآجل ، ووبال عليك في الدنيا والآخرة ، فانهض بشيرك أيها العاقل ، واعتبر بحوادث الأيام . فالتسعيد من بغيره انقض ، والشقى من كان عبرة للناس . أيها المسلمون : قبيح بنا أن نتفاد لهوانا ، ونركن إلى الطيش ، والغرور فنستدين لتتطاول في البنيان ، ونتفاخر بتشديد الدور . وقبيح بنا أن نضيع أموالنا في حانات الخمر وبيوت الملاحى والفجور ، وحرام علينا والله أن نمد أيدينا إلى المصارف الأجنبية ، ونحمل أنفسنا مالا طاقة لها به ، ونوقعها في ذل وهم لا خلاص لها منه ، ولا نبالى بجرمة الربا وعواقبه الوخيمة . ونتأججه السيئة . قبيح بنا أن تكون أعمالنا كعاول الهدم ننقض بها ما بنى الآباء والأجداد من الثروة ، وجمعوا لنا من الأموال . لم يكفنا جهلنا بوسائل الثروة ، بل أضعنا ما في أيدينا ، ومكنا المرابين من أساس حياتنا وموارد أرزاقنا ، وجعلنا للأجانب يداً علينا ، كل هذا من إسرافنا وسوء تصرفنا ، « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . هذه أفرأحنا ، هل وقفنا فيها عند حدود الشريعة الغراء ، وكلها حكمة ورحمة ؟ هل وقفنا فيها عندما يرضاه العقل السليم والرأى السديد ! هل تركنا فيها الإسراف والتبذير رياء وافتخاراً ! هل تركنا نصب السراقات وتعليق الرايات ، والمصاييح وإحضار المغنين والمغنيات والمطربين والمطربات ؟ وتلك مآتمنا هل اتبعنا فيها سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وسنة الساف الصالح من بعده ؟ . هل منعنا منها نوح النائمات وندب الناديات ، « كلا » بل ضللنا سواء السبيل ، وتجاوزنا حد الاعتدال في جميع أمورنا ، واستحوذ الشيطان من ضعفنا على عقولنا ، وكل هذا وبال علينا ، وعلة ضعفنا ، وسبب تأخرنا « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » . فلا تستسلموا يا قوم لهواكم . ولا تنقادوا لشهواتكم فتضيعوا الأموال فيما لا يجدى نفعا ، ولا يجلب خيراً ؛ وأمامكم المشروعات النافعة ، والأعمال المفيدة فذلك خير لأمتكم ، وأبقى لذكراكم . اتقوا الله واحذروا الإسراف والتبذير فإنه شر عليكم في دنياكم ، ووبال عليكم في آخرتكم . اتقوا الله والزمو التوسط المأمور به

في كتابكم ، وسيروا في أعمالكم سيرة سلفكم ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » رواه مسلم . ويقول في الثانية . روى البيهقي والطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الاقتصاد نصف المعيشة » . ومعنى كونه نصف المعيشة أنها لا تقوم إلا بأمرين : الكسب والاعتدال في الانفاق فإذا انعدم أحد الركنين انهدمت المعيشة وساء حالها . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والدين فإنه هم بالليل وذل بالنهار .

الدين ضرورى للحياة الاجتماعية

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، ورفع قدر من تمسك بأدابه ، ووقف عند حدوده . وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تحلوا بأداب الدين فكانوا هم الفائزين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » عباد الله : إن الإنسان مهما وقى من قوة ليس فى استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ، ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج . وإنه مسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس لتبادل المنافع التى لا بد منها . إذن فاجتماع أفراد الإنسان ضرورى لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم فى هذه الحياة . ولكن محال أن تكفل لهم سعادة أو ينظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل ، يردع الظالم عن ظلمه ، وينصف المظلوم من ظلمه ، ويقيف الجميع عند حد الاعتدال فى جميع شئون الحياة ومراقبتها . هذا القانون الذى يقيع النفوس عن الشر ، ويكفها

عن العدوان ، هو الدين لا سواء — الدين هو الذى يقومُ الطباع ويهذب النفوسَ ويظهرُها من أدران النقائص والردائل . فيحترّم عليها الحقّ والحسد ، والعش والنفاق ، والتقاطع والبغى والإضرار بالناس ويوجبُ العدلَ والمساواة ، والصدق والأمانة ، والإخلاصَ والوفاء . وينهض بالمتمسكين به ، والمهتدين بهديه ، إلى منازل الرفعة والكمال . وإذا كانت الأديانُ السماويةُ قد اتفقت على الدعوة إلى الله تعالى ، والحثّ على التحلى بالآداب العالية والخلال الحسنة ، فإن الدين الخفيف قد اختص من بين سائر الأديان بأنه أكلها معنى وأجملها صورة ، وأوضحها بياناً ، وأقواها حجة وبرهاناً ، وأوفاهها بمصالح البشر الدنيوية والأخروية . بل هو الصراط السوى والمنهج التويم . من سلكه فقد اهتدى ، ومن انحرف عنه ضلَّ وغوى « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . دين يخاطب العقول ويألف الأفهام ويمتزج بالأرواح ويتغلغل في أعماق القلوب حتى يأخذ له منها مقراً ، ولا تجد مما أرادها منها مفراً — دين يبهز العقول بآيات لا تشبّه بأعمال الساحرين ، وحيل الماكرين ، ولكنه الحق اللامع ، والنور الساطع ، والذهب الإبريز ، جميل له منه عليه شواهد — دين أساسه التوحيد ، وروحه الإخلاص والمحبة ، وشعاره العدل والمساواة ، والتسامح والإحسان ، والطهارة والرحمة . فلا عبادة فيه إلا ما يظهر النفوس من ظلمة الرجس والعصيان ، ويغرس فيها روح التعاون والاجتماع ، ولا معاملة فيه إلا ما يحفظ نظام العالم من القوضى والاضطراب ، ويكفل راحة المجتمع في تبادل المنافع الحيوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أيها الناس : هذا قبس من أنوار دينكم القويم ، ونبذة من أخلاقه الكريمة ، وآدابه الراقية ، ذكرناكم بها لنعلموا عليها ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين . فاتقوا الله ربكم وتمسكوا بدينكم وجئوا في إمارة الجمل والابتداع ، وعليكم بكتاب الله وسنة رسول الله . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . « فإن توليتهم فاعلموا

أثما على رسولنا البلاغ المبين » . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف
النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات . احفظ الله
يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن
بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله
لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله
عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى .

فى وجوب الاعتصام بالدين

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، وأعز من تمسك بآدابه ووقف
عند حدوده ، وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله
البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم
الله به ، واجتنبوا ما نهىهم عنه . فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها . وما عند الله
خير للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . قال الله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً
فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . (عباد الله) إن الله تعالى قد وهب
للناس عقولاً : وأكرمهم بتكليف شرعى ، وقانونٍ بحكمٍ سماوى . ينقادون
لأحكامه فلا تختلف بهم الآراء ، ويخضعون لأوامره فلا تلعب بهم الأهواء ،
« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . فإن العقول البشرية وحدها
لا تهتدى إلى كل ما فيه صلاحها فى العاجل فضلاً عن الآجل . فالجتمع الإنسانى
لا بد له من الدين ، وإلا كان الناس كالسباع الحيوانية والوحوش البرية — وقد
كان المسلمون سادة أقوياء ، أعزاء أصفياء . يوم كانوا متمسكين بدينهم ، مهتدين
بهديه واقفين عند حدوده . وقد تبدلت قوتهم ضعفاً ، وانقلب عزمهم ذلاً من يوم
تركوا العمل به ، وأعرضوا عن هديه ونصائحه . يا قوم إن فلاح الأمة وسعادتها
فى العاجل والآجل موقوف على شيء واحد ، ألا وهو التمسك بالدين الذى أمرت
أن تدين به ، وتقف عند حدوده ، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه . فإن الدين

ما شرع إلا بهذيب النفوس . ومنعهما من الشهوات الرديئة ، وحفظ النظام من
 القوضى والاضطراب . فلا صلاح للناس إلا به . ولا سلامة لهم من مخاطر الشقاء إلا
 به . الدين أكبر زاجر للضماير ، وأعظم مصلح للسرائر . رقيب في الخلوات ، نصوح
 في الملآت . الدين أحكم قانون لإصلاح الحياة واستقامتها ، وأنفع وسيلة لتنظيمها
 وسلامتها . بما أرشد إليه من سعادة الدنيا والآخرة ، وما كان به سعادة الدنيا
 والآخرة فحق العاقل أن يكون به متمسكا ، وعليه محافظاً . وإجمالاً إن الدين
 الخفيف أساس العمران ، والسبيل الوحيد إلى سعادة الدارين ، وما بلغت الأمة
 الإسلامية في إبان نشأتها تلك الدرجة العليا : من العز والقوة ، إلا بالوقوف عند
 حدود الدين . فكانت عاملة بوصاياه ، محافظة على نصائحه ؛ ناشرة للفضيلة ؛
 محاربة للنقيصة ، حاكمة بالعدل في الصديق والعدو ، صادقة في الأقوال والأفعال ،
 مخلصه في جميع الأحوال . ففتحت في أقل من ثمانين سنة أكثر مما فتحه أكبر
 دولة في عدة قرون . فيا أيها المسلمون : اتقوا الله وخافوا عواقب ما أنتم عليه من
 التهاون بأمور الدين ، فإنه لا حياة إلا بالدين ، ولا سعادة في الآخرة والأولى إلا بالدين .
 يا قوم راقبوا الله وتمسكوا بدينكم وأحموا سنة نبيكم تفلحوا وتنصروا : « إن
 تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قال : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله
 وسنة رسوله » .

الإنسان — مآله ومصيره

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار كسب وعمل ، والآخرة دار ثواب وعقاب . الذي
 خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، وأشهد ألا إله
 إلا الله الدائم الباقي بعد فناء خلقه . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي
 إلى الله بإذنه . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين جاهدوا في الله حق
 جهاده ففازوا أعزة وماتوا سعداء . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « كل شيء هالك

إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » . أيها الناس — كل مدة في الدنيا إلى انتهاء وكل حى فيها صائر إلى الفناء . وكل شىء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فبينما الإنسان يجرى في ثياب صحته ، متمتعاً بنعمة العافية ، فرحاً بقوته وشبابه ، لا يخطر له الضعف على قلبه ، ولا الموت على بال . إذ هجم عليه المرض ، وجاءه الضعف بعد القوة ، وحل الهم من نفسه محل الفرج ، والكدر مكان الصفاء ، ولم يعد يؤنسه جليس ، ولا يريحه حديث . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قد سئم ما كان يرغبه في أيام صحته ، وصار لا يشتهي الغذاء ، ويكره تناول الدواء ، على بقاء في لبه ، وصحة في عقله . يفكر في عمر أفناه ، وشباب أضاعه ، ويتذكر أموالاً جمعها ، ودوراً بناها وقصوراً شيدتها ، وضياعاً جداً وكداً في حيازتها . ويتألم لدنيا يفارقها ، ويترك ذرية ضعفاً يخاف عليهم الضياع من بعده ، مع اشتغال نفسه بمرضه وآلامه ، وتعلق قلبه بما يجعل شفاءه . ولكن ما الحيلة إذا استفحل الداء ولم يقد الدواء ، وحرار الطبيب ويئس الجيب : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » . عند هذا يستشعر الندم على ما مضى ، ويحس بعواقب التفريط والإهمال ، وقد تغير لونه ، وغارت عيناه ، ومال عنقه وأنفه ، وذهب حسنه وجماله ، وخرس لسانه ، وصار بين أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل ، ويسمع ولا ينطق . يقلب بصره فيمن حوله من أولاده وأهله ، وإخوته وأقاربه ، وأحبابه وجيرانه : ينظرون ما يقاسيه من كرب وشدة . ولكنهم عن إنقاذه أو تخفيف كرب عاجزون . وبعد أن كانوا يحبون حياته وبقائه صاروا يتمنون موته وراحته . وهو يعلم أنه عما قليل مأخوذ من بينهم ؛ حيث لا يقدر على منعه ، ولا يستطيعون رد روحه إلى بدنه : « فلولاً إذا بلغت الخلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولاً إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » . ثم لا يزال يعالج سكرات الموت ويشد به النزاع وقد تتابع نفسه واختل نبضه ، وتعطل سمعه وبصره ، كما تعطل قبل ذلك لسانه حتى إذا جاء الأجل ونفذ القضاء ، وفاضت روحه إلى السماء . صار جثة هامدة ،

وجيفة بين أهله وعشيرته ، قد استوحشوا من جانبه ، وتباعدوا من قربه ، ومات اسمه الذى كانوا يعرفونه ، كما مات شخصه الذى كانوا يأنسون به ، وأصبحوا يقولون (الميت) بعد أن كانوا ينادونه باسمه حياً إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أخذه الفاسل فجرده من ثيابه ، وصار يقلبه بين يديه عرياناً ، ويضع يده فى سوءته وعورته وقد كان يستحى من ذلك ويخجل منه حال حياته . ثم أدرج فى أكفانه كما يدرج المتاع فى لفافته ، وبعد الصلاة عليه يحملونه إلى حفرة عميقة ضيقة . مظلمة موحشة . وتركوه فيها وحيداً فريداً ، لا أنيس له ولا رفيق سوى عمله ورحمة مولاه ، فيضمه القبر وتحضره الملائكة ، يسألونه عن اعتقاده فى الله ورسوله وكتابه ، وعن طاعته وعبادته ، وكيف كانت معاملته للناس . أما المؤمن الطائع فلهم موقف مكرم مرحوم وأما المنافق العاصى فضطرب مخذول مهان معذب . والقبر بعد ذلك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . فياعباد الله كفى بالموت واعظاً فأكثرنا من تذكره ، وأطيلوا التذكر فيما بعده من مخاوف القبر وأهوال يوم القيامة . فإن تذكر الموت يحمل على الاستعداد له ، ويكف المرء عن الشرور والغواية ، ويهون عليه كثيراً من هموم الدنيا ، والدنيا كلها متاعب وهموم ، والآخرة راحة وصفاء : « وإن الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون » . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين . ومن لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر لنعمائى ، فليطلب له رباً سواى » . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . وتقول فى الخطبة الثانية : (أيها الناس) الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل . والناس فيها أقسام ثلاثة ، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، والسابقون المقربون ، ولكل قسم منها جزاء مناسب لعمله ، فإن كان المرء من السابقين

المقربين فله بعد الموت راحة ورحمة ، وإحسان عظيم ، ورزق كريم ، ونعيم يفوق الوصف . وإن كان من أصحاب اليمين فله أنس وتحيات من إخوانه أصحاب اليمين ، مع تكريم الملائكة له : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وإن كان من أصحاب الشمال فله ماء شديد الحرارة ، يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، يتناوله بعد أن يأكل من الزقوم طعام الأثيم ؛ يغلى في البطون كغليان الماء على النار . قال الله تعالى في هذه الأقسام الثلاثة إجمالاً بعد الموت : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ، إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » . وأما العاصي الذي مات على غير توبة فيعاقب على جريمته ، ثم يتفضل الله عليه بدخول الجنة آخر الناس . فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتوبوا إلى الله قبل ألا تتوبوا .

في فضل بناء المساجد

الحمد لله الذي أضاف المساجد لنفسه تشريفاً لقدرها فقال تعالى : « وأن المساجد لله » وحث على عمارتها تسهيلاً للعبادة وعناية بأمرها . وأثنى على من أحيائها ببناء أو عبادة ، وجعلها موضع التجلي والتحلى . لا إله غيره ، ولا معبود سواه . وأشهد ألا إله إلا الله يسجد له من في السموات والأرض . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء والشفيع يوم العرض . اللهم صل وسلم على هذا النبي البهي ، أول من أسس المساجد في الإسلام . وعلى آله وصحبه الذين أثنى الله عليهم بقوله : « رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » عباد الله : المساجد بيوت الله ، فيها يعبد ، وفيها يذكر اسمه . حقاً إنها بيوت الله ، وإن من شأن الكريم أن يكرم من زاره في بيته ، وأن المساجد في الأرض مزار الملائكة في السماء . منها تصعد الأعمال ،

وإليها تنزل الرحمة — وإذا كانت العلماء حماة الدين ، ومصاييح الهدى . فالمساجد حصون الأمان لمن تعلق بها قلبه وأخلص لله في عمله . يعمُرُ المساجد أهل الغيرة على الدين . والحب للإسلام ، والصدق في الإيمان . تُبنى المساجد لإقامة الشعائر وإظهار أعلام الدين ، لا لنوم فلان ولا للتحدث مع فلان ، تبنى المساجد فيفرح بينائها أهل السماء والأرض ، ويجعلها الله مهبط الرحمة والرضوان . تبنى فتدعى بيوت الله . فطوبى لمن شيدها ، وطوبى لمن فيها تعبد . المساجد فيها تقام شريعة المصطفى ومنها تصدر فضائل الأمة — أيها الناس : إن المساجد تشهد يوم القيامة لمن بناها أو أحيها بالذكر والطاعة . وإن المساجد من أعلام الدين إذا بُنيت ، ومن علامات النصر والخير إذا عرف حقها المؤمنون . عرّف هذا أهل الخير قبلكم : فبنوا المساجد مثلكم ، ولم يتركوها عرضة للضياع ، بل وقفوا لها من الغلات ما يوصون حياتها ، ويضمن بقاءها ، وقد فرحوا بها يوم افتتاحها ، وفرح معهم بها أهل الأرض والسماء . وقد فارقوا الدنيا وتركوا آثارهم ومساجدهم شاهدة لهم بصدق الإيمان وقوة العزيمة . وإن إقامة هذا المسجد العظيم للسان ناطق ، وشاهد صادق ، على حب من أقامه للخير ، وغيرته على شعائر الدين . فلئن دعونا للأولين السابقين ، وشكرنا لهم حسن صنيعهم ، فلن يفوتنا أن نضرع إلى الله الكريم أن يتقبل أعمالكم ، ويمجّزكم أحسن الجزاء وأعظم الأجر . ففي الحديث القدسي : « عبدى إذا لم تشكر من أجريت الخير على يديه لم تشكرنى » . اللهم كما أكرمت المساجد في البلاد أكثر للمساجد من أهل الغيرة والإصلاح ، وأكثرت المساجد من أهل الهدى والاستقامة ، حتى يبقى الدين وتبقى الشعائر يارب العالمين . في الحديث القدسي عن رب العزة : « إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإن زوّارى فيها عُمّارها ، فطوبى لمن تطهر فى بيته وزارنى فى بيتى ، وحقّ على المزور أن يكرم زائره » . وفى الصحيحين « من بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته فى الجنة » — وفى رواية : بنى الله له بيتاً فى الجنة .

عظات متنوعة

يذكرها المرشد في المناسبات ، من الحكم والأحاديث النبوية والقدسية ، وآثار السلف ، وملح تاريخية ، وفكاهات أدبية ، في الشؤون الاجتماعية — فمن الحكم المأثورة : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض سمع الأذن لا ينفع مع غفلة القلب . شيثان لا يعرف فضلهما إلا من فقدهما الشباب والعافية . حلاوة الظفر تمحو مرارة الصبر . ومن الحكم قول الخارت ابن كلدة طبيب العرب : المعدة بيت الداء ، والحية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد . غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه . في الدنيا عمل ولا حساب ، وفي الآخرة حساب ولا عمل . للشدائد تدخر الرجال . وقال الإمام على رضي الله عنه : عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالانعام عليه . من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن . لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستفيد يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله . السكوت عن الأحق جوابه . إن لم تكن ملجأ تصلح ، فلا تكن ذباباً تفسد . من غرّب الناس تخلّوه . خير الأعمال أحلامها عاقبة ، وخير مالك ما نفعك . لا تعد نفسك من الناس مادام الغضب غالباً عليك . من أطاع غضبه أضاع أدبه . من عُرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عُرف بالكذب لم يجز صدقه . آفة المروءة خلف الوعد . من اتكل على زاد غيره طال جوعه . إذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك . وقال عيسى عليه السلام : ألا أخبركم بخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى قال : من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقه ، ويشوقكم إلى الجنة عمله . وقال للحواريين : محبباً لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل . وفي الحديث القديسي عن رب العزة : يا ابن آدم لا تخف من سلطان مادام سلطاناً باقياً ، وسلطاناً لا ينفد أبداً . يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك ، فإنك إن طلبتني وجدتني ، وإن أنست بغيري فتئت وفاتك الخير كله ، يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب ؛ وقسمت لك رزقك

فلا تتعب . إن كثر فلا تفرح ، وإن قل فلا تجزع . وفيه : عبدى إن رصيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندى مذموماً . وفيه أحب ثلاثاً وحبى ثلاث أشد : أحب أهل السخاء وحبى للفقير السخى أشد ، وأحب المتواضعين وحبى للغنى المتواضع أشد ، وأحب التائبين وحبى للشاب التائب أشد — وأبغض ثلاثاً وبغضى ثلاث أشد : أبغض البخلاء وبغضى للغنى البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين وبغضى للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفساق ، وبغضى للشيخ الفاسق أشد . وفيه : عبدى أخذك الشيطان منى لا لعجزى ولكن لضعفك أنت . وفيه : عبدى كم أتجيب إليك بالنعم وتتبعنى إلى بالمعاصى . خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد . وفيه يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد كما لا أطالبك بعمله ، فإنى لم أنس من عصاى فكيف من أطاعنى . وفيه يقول الله تعالى : من استسلم لقضائى وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى ، كتبت له صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، فليخرج من تحت سمائى وليطلب له ربا سواى وفيه يا ابن آدم خلقتك بيدي وربيبتك بنعمتى ، وأنت تخالفنى وتعصينى ، وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم ؟ . وفيه : مأكلاً حياء من يطعم فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحتى على من يحل بطاعتى . وفيه : إني أهمُّ بمذاب عبادى ، فانظر إلى عمار المساجد وجلساء القرآن ، وولدان الإسلام ، فيسكن غضبى . وفيه : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم لأقبلوا ، هذا بالمدبرين عنى ، فكيف بالمقبلين على . وفيه : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامة . آمنته بالمد جعلت له الأمان . رواه ابن حبان فى صحيحه . وفيه يا عبادى إني أوجدتكم من العدم بقدرتى ورزقتكم من الطيبات ، وأتممت عليكم نعمتى ، وأرسلت لكم الرسل الكرام لتعرفوا

أحكام شريعتي ، فلماذا تعرضون عني وأنا الغني الكريم ؟ فوعزتي وجلالي لئن أطلعتموني لنصرتكم على أعدائكم ، وإن سألتموني كفت قريباً منكم ومجيباً لدعائكم ولكن عصيتموني فوقعتم في الدل والعذاب الممين ، ومن كلام ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة ، والموت يأتي بغتة ، فمن زرع خيراً يوشك أن يزرع رغبة ، ومن زرع شراً يوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل ما زرع ما قل وكفى خير مما أكثر وألهي ، خير الغني غني النفس وخير الزاد التقوى . والحمر جماع الإثم ، والنساء حبال الشيطان . والشباب شعبة من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية . إني لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة . من لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً ، أطلب قلبك في ثلاث مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة . فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك ، قيل لبعض الحكماء : أي شيء أنفع للإنسان ؟ قال : عقل يولد به ، قيل فإن فاته ذلك ؟ قال كرم يستره — قيل فإن فاته ذلك ؟ قال أدب يقوّمه . قيل فإن فاته ذلك ؟ قال صمت يلزمه . قيل فإن فاته ذلك ؟ قال قبر يحويه . وقال بعض الحكماء : اعمل للدنيا بقدر مُعامك فيها ، واعمِل للآخرة بقدر مُعامك فيها ، واعمِل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمِل للنار بقدر صبرك عليها . ثلاثة يضيع المعروف عندهم : اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والشرير فإنه يرى الذي أسديت إليه مخافة شره ، والأحمق فإنه لا يدري مقدار ما صنعت إليه . ثلاثة يستأنس بهم ، الصديق المصافي : والولد البار ، والزوجة الصالحة ، جليس الخير غنيمة ، وجليس الشر شيطان ، جليس السوء كالقَيْن إن لم يحرق ثوبك دخنه ، خير المال ما أخذ من الحلال وصرف في النوازل ، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في الآثام . وجه تشبيه الدنيا بالماء (١) أن الماء جار بالطبع ، يجري ولا يستقر كذلك الدنيا لا تستقر (٢) قليل الماء يكفي وكثيره يهلك (٣) الماء إذا طال حبسه تغير وفسد واستحال في حق متناوله سقماً ، كذلك الدنيا لمسكها أذى وبلاء

من الحكم : إذا لم يكن من الموت بد ، فمن العجز أن تكون جباناً ،
 وإذا كان يثلك من زجاج ، فلا ترم الناس بالحجارة . قيل للعباس بن مرداس
 في الجاهلية : ألا تشرب الخمر ؟ . فقال : ما أنا بأخذ جهلى بيدي فأدخله جوفى ،
 ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وأمسى سفيهم . وقال : ألا إن شارب الخمر
 عدو عقله ، ومن عادى عقله فقد عادى نفسه ، ومن عادى نفسه فهو عدو الناس
 أجمعين ، شبه الشيء منجذب إليه ، روى أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء ،
 وكان بالمدينة أخرى فنزلت المسكية على المدنية ؛ فدخلت على عائشة رضى الله عنها
 فأضحكتها فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبها ، فقالت : صدق الله ورسوله
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها
 ائتلف وما تناكر منها اختلف » . رواه الحسن بن سفيان في مسنده ، وهو عند
 البخارى تعليق مختصر . ودخل عبد الله بن جعفر مكة ومعه أصحابه فلما أصبح قام في
 أهل مكة خطيباً فقال : يا أهل مكة عرفناكم في ليلة واحدة . قالوا : وكيف ذلك ؟
 قال : جئنا وفيها أختيارنا وأشرارنا فنزل أختيارنا على أختياركم وأشرارنا على أشراركم
 فلذا عرفناكم في ليلة واحدة ، ولو أن مجلساً فيه تسعة وتسعون مؤمناً ومنافقاً واحد
 جلس المنافق على مثله وبالعكس ، فشبّه الشيء منجذب إليه : والطيور على أشكالها
 تقع . كان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف
 من الآخر يناسبه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الطباع
 والأوصاف فلا بد أن يفترقا « راجع الإبداع الطبعة الرابعة صفحة ٤٣٣ » * وقال
 بعض الحكماء يعدد مرافق الدنيا : تطلب الدنيا لثلاث : للغنى والعزة والراحة ،
 فمن قنع استغنى ، ومن زهد فيها عز ، ومن قل سعيه استراح . وقال المأمون في
 تقسيم الإخوان : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة
 كاللدواء يحتاج إليه أحيانا ، وطبقة كاللحاء لا يحتاج إليه أبداً . وقال الإمام على
 رضى الله عنه : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل .
 فأما الرجل فذو رأى والشورى ، وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا بشاور .
 وأما الذى ليس برجل فالذى لا رأى له ولا يشاور .

الدين والمدنية الحاضرة

دل البحث على أن المدنية الحاضرة قامت على العلم والمال والنظام والقوة . فما عظم سلطان أمة وسادت العالم لأنها تلبس زيا خاصا ، أو لأن المرأة فيها متهتكة ، أو لأن أبناءها توردوا على دينهم ، وفسقوا عن أمر ربهم ، وخرجوا على تعاليمه ورفضوا العمل بوصاياه . فبالعلم اكتشف النافع واختراع المفيد ، والوقوف على أسرار الطبيعة ، واستخدامها في اقتصاديات المراء وفي شئون الحربية ، ليتمكن من نشر نفوذه على الأمم ، ومد سلطانه على الشعوب . وليس يكون شيء من ذلك بتهتك المرأة ولبس القبعة . ولولا المال ما انتصر في حروبه ، واستقام له الأمر في داخلته ، وتم له تحقيق رغباته . ولو تجرد من النظام لما تهيات له تلك المشروعات والشركات والجمعيات والمجالس والحكومات ، وما إلى ذلك مما يضمن السعادة والعظمة في شئونه الداخلية والخارجية . وبالقوة تنشر الدولة نفوذها وتخضع الشعوب لأمرها ، ولو تجردت منها ولبس شخص منها ألف قبعة وقبعة لما تم له امتلاك شعب أو إخضاع أمة أو مد سلطان أو نشر نفوذ . وإجمالا إذا تجردت أمة من العلم والمال والنظام والقوة ثم وجد فيها مائة ألف مليون من فاسدى الأخلاق والمتمردين على الله تعالى ما تم لها سعادة ولا كان لها رقى تفاخر به — للأمم أن يقلد بعضها بعضا في وسائل القوة وأسباب النظام في المناهج الاقتصادية والوجوه الحيوية والأدبية لأن المعارف البشرية مشاعة بين الأمم ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الأمم الحاضرة بعضها بعضا ، ولا عار في ذلك ، فتلك سنة الله في خلقه ؛ من سماحة الدين أنه لو أتلف مسلم خمر الذمى أو خنزيره يضمنها بالقيمة . ويحكى أن نصرانياً مرَّ بفرس له على عائير عمر رضى الله عنه فعشَّره . ثم مر به ثانياً فهمَّ أن يعشَّره فقال النصرانى . كلما مررت بك عشَّرتنى إذا يذهب فرسى كله . فتركه عنده وذهب إلى عمر رضى الله عنه . فلما دخل المدينة أتى المسجد فوضع يده على عتبة الباب فقال : يا أمير المؤمنين أنا الشيخ النصرانى . فقال أمير المؤمنين : أنا الشيخ الحنفي ؛ فقص

النصراني القصة . فقال عمر رضى الله عنه : أتاك الغوث . فنكس رأسه ورجع إلى ما كان عليه . فظن النصراني أنه استخف بظلامته فرجع كالحائب . فلما انتهى إلى فرسه وجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبقه : إنك إن أخذت العشر مرة فلا تأخذ مرة أخرى . فقال النصراني : إن ديناً يكون العدل فيه بهذه الصفة لحقيق أن يكون حقاً فأسلم . وعشره بعشره بالضم أخذ منه العشر ، ومنه العاشر . وقفت أعراية على جماعة فقالت لهم : ما الكرم يرحمكم الله ؟ قالوا : بذل المعروف والإيثار على النفس . قالت : هذا في الدنيا . فما هو في الدين ؟ قالوا : طاعة الله سبحانه وبذل الجهد في العبادة واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده . قالت : أفتريدون بذلك جزاء ؟ قالوا : نعم . قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . فقالت : سبحانه الله ! ! فإذا أعطيتكم واحدة على أنكم تأخذون عشرأ ؛ فأين الكرم ؟ قالوا : فما هو يرحمك الله . قالت أن يُعبد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء يفعل بكم مولاكم ما شاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم أنكم تريدون شيئاً بشيء .

إذا اشتد الكرب هان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ؛ فقال : ألسم تذهبون فراغاً وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة . فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين ، فشكوا ذلك إلى إبليس . فقال : ألسم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة لكم نصف دهركم . فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار ، فشكوا ذلك إلى اللعين فقال : الآن جاءكم القرج . فالبثوا أن أصيب سليمان ميتاً على عصاه . فإذا كان هذا في نبي من الأنبياء لا يعمل إلا بأمر الله تعالى ويقف عند حده فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية هل تكون مع التناهي إلا منقرضة وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة ؟

السن بالسن

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن عمته أم الربيع لظمت جارية فكسرت ثنيتها . فطلبوا إليهم العفو فأبوا ، والأرش فأبوا إلا القصاص ، فاخصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص . فقال أنس بن النضر : أنكسر ثنية أم الربيع قال : والذي بعثك بالحق نبياً لا تكسر ثنيتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنس كتاب الله القصاص » . فرضى القوم فعمقوا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . متفق عليه . روى أن رجلاً سراً بأبي الدرداء وهو يغرس شجر الجوز ، فقال : أغرس هذا وأنت شيخ كبير وهو لا يُطعم إلا في كذا وكذا عاماً ؟ فقال : ما على أن يكون لى أجره ويأكل منه غيرى . ومرت أنوشروان على رجل يغرس شجر الزيتون فقال : ليس هذا وأوان غرسك الزيتون ، وهو شجر بطيء الإثمار . فأجابه : غرس من قبلنا فأكلنا ونغرس لئلا كل من بعدنا . فقال أنوشروان : زه : أى أحسنت . وكان إذا قال زه يعطى من قيلت له أربعة آلاف درهم . فقال : أيها الملك كيف تعجب من شجرى وإبطاء ثمره فما أسرع ما أثمر . فقال : زه ؛ فزيد أربعة آلاف أخرى . فقال الرجل . كل شجر يثمر فى العام مرة وقد أثمر شجرى فى ساعة مرتين . فقال : زه ؛ فزيد مثله . فضى أنوشروان فقال : إن وقفنا عليه لم يكفه ما فى خزائننا . روى أن عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسبحان فأصابهما الجوع وقد اتنيا إلى قرية ، فقال لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية . وقام عيسى يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة . فأبطأ عليه انصراف عيسى ؛ فأكل رغيفاً ، فأنصرف عيسى فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى . فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فذكاه فأكل منه ، ثم قال عيسى للظبي : قم ياذن الله فإذا هو يشتد ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف ؟ قال : ما كانا إلا اثنين . فمضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده فشوى به على الماء حتى جاوزا الماء . فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى

أراك بهذه الآية من صاحب الرغيف ؟ قال ما كانا إلا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها لبنٌ ثلاث من ذهب ، فقال عليه السلام : واحدة لى وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عليه السلام : هى لك كلها . وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن . فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام ، فذهب فقال أحد الباقيين : نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا . قال الآخر : نعم . وقال الذى ذهب يشتري الطعام أجعلُ فى الطعام سما فأقتلها وأخذ اللبن ، ففعل . فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذى جاء به فاتا . فمر بهم عيسى وهم حولها صرعى ، فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها * وقال أزدشير لابنه : يا بنى إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس . وما لم يكن له حارس فضائع . يا بنى اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد وبشرك لأهل الدين . وسرك لمن عناء ما عناك ، ولتكن من أهل العقل ، وكان يقال الدين والسلطان توأمان . وقال بُزْجَمَهَر : سُوْسُوا أحرار الناس بمحض المودة . والعامه بالرغبة والرهبه والسفلة بالتهديد والخافة * وقال معاوية رضى الله عنه : إني لا أضع سيفي حيث يكفينى لسانى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها . ونحوه قول الشعبي : كان معاوية كالجلجل الطب — وهو الحاذق بالشئ — لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه * قال ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدب أو علم أو دين * من حسن السياسة : أمر عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك * وقال لقمان لابنه : يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة . لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه * من دعاء عيسى عليه السلام : اللهم لا تُشمت بى عدوى ، ولا تسو بى

صديق ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى . ومن دعاء عائشة
 رضى الله عنها : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك
 من النار وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك
 وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تجعل
 عاقبة أمرى رشداً رحمتك يا أرحم الراحمين * كان خالد بن الوليد رضى الله عنه مثلاً
 أعلى فى شجاعته وطاعته وإخلاصه : روى أنه قال عند موته : لقد شهدت مائة
 زحف أو زهاءها وما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وهما أنا ذا
 أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء * قال حكيم : موت الجبان
 فى حياته وحياة الشجاع فى موته فموتوا لتعيشوا فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .
البغى ونقص العهد : فى الحديث « أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر
 عقاباً البغى واليمين الفاجرة » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على
 جبل لذلك الباغى . وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والمكر
 والنكث قال الله تعالى : « إنما بغىكم على أنفسكم » ، « ولا يحق المكر السيء
 إلا بأهله » ، « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » * حكى أن سائلاً قال لبعض
 العلماء : أين تجذ فى كتاب الله معنى قولهم : الجار قبل الدار ؟ قال فى قوله تعالى :
 « ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لى عندك بيتاً فى
 الجنة » فطلبت الجار قبل الدار . وروى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم
 أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتنى على ذلك بشاهد من
 كتاب الله تعالى وإلا قتلتك . فقرأ عليه « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب
 ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى »
 فعيسى ابن بنته . فسكت * عن محمد بن كعب القرظى قال : دخلت على عمر بن
 عبد العزيز رحمه الله فى مرضه الذى مات فيه فجعلت أحيّد النظر إليه ، فقال لى :
 يا ابن كعب مالك تُحيّد النظر إلى ؟ قلت : لما نخل من جسمك وتغير من
 لونك . قال فكيف لو رأيتنى بعد ثلاثة فى قبرى وقد سألت حذقتى على
 وجنتى ، وابتدر فى وأنى صديداً ودوداً ، كنت لى أشد تُكرة . أعد

على حديثاً كنتُ حدثتنيهِ عن ابن عباس . قلتُ سمعتُ ابن عباس يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل شيء شرفاً وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، ومن أحب أن يكون أعز الناس فليتنق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ثم قال ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من نزل وحده ومنع رفده ، وجلد عبده ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من يُبغِض الناس ويُبغضونه » * إن عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيّه فاجتنبوه ، وأمر مختلف فيه فإلى الله ردوه * إبراهيم عليه السلام — يدعى أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده ، وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأولى إسحاق ومنه جميع أنبياء بني إسرائيل ، وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى عليهما السلام ودين موسى يسمى باليهودية : نسبة إلى يهود أحد أسباط إسرائيل ، أو هو السبط الأكبر الذي كان منه جلة ملوك بني إسرائيل ، ودين المسيح يسمى النصرانية نسبة إلى الناصرة ، وهي أول قرية علم بها المسيح ، فقال العرب : ناصيري ونصراني . وكان هو يدعى الناصري . والفرع الثاني كان منه إسماعيل وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً اشريعة إبراهيم . مر إبراهيم بن آدم بسوق البصرة فاجتمع الناس عليه وقالوا : يا أبا اسحاق مالنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء (١) عرقم الله فلم تؤدوا حقوقه (٢) زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته (٣) قرأتم القرآن فلم تعملوا به (٤) أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها (٥) قلتم

إن الشيطان عدوكم ولم تخالفوه (٦) قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها (٧) قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها (٨) قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له (٩) انقبتهم من النوم فاشتغلتم بعبود الناس ونسيتم عيوبكم (١٠) دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .
 حكى عن بعض الصوفية أنه قال لتلميذه : مات صنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟
 قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال أجاهده . قال هذا يطول ، ولكن أرأيت لو
 مررت بغنم فنبحك كلها ومنعك من العبور مات صنع ؟ قال : أكابده وأرد عليه
 جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك .
 والمستعاذ منه الشيطان وأعوانه والنفس والهوى والدنيا . كان الإمام أبو حنيفة رحمه
 الله يقول هذه الآية « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » أخوف آية في القرآن
 حيث أوعده الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه . من
 حفظ الله لرسوله ماروى السكبي عن أبي صالح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 غزا محاربا وبني أمار فنزلوا ولا يرون من العدو واحداً ، فوضع الناس أسلحتهم
 وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له ، وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادي
 والسماء ترش ، فخال الوادي بينه وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال : قتلتني الله إن لم أقتلك . ثم انحدر من
 الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه
 وقد سل سيفه من غمده ، فقال يا محمد من يعصمك مني الآن ؟ فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : الله عز وجل . ثم قال : اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت
 ثم هوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب على وجهه من
 زأخة زلخها بين كتفيه ، فبدر سيفه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه
 ثم قال : يا غورث من يمنعك مني الآن ؟ قال : لا أحد . قال عليه الصلاة والسلام
 تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك ؟ قال لا ، ولكني
 أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك أحداً . فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
 سيفه فقال غورث . والله لأنت خير مني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا

أحق بذلك منك . فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فأمن بعضهم
قال : وسكن الوادى فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه
وأخبرهم بالخبر « متفق عليه زأخه بالرمح يزأخه زجه وطعنه . بنى عامل للرشيد
قصرأ حذاء قصره فبنى به ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن
يرى أثر نعمته ، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك على فأعجبه كلامه . فى
التحذير من الدين : عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « كنا جلوساً عند
النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتى بجنابة فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ .
قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه ثم أتى بجنابة أخرى فقالوا :
يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟
قالوا : ثلاثة دنائير فصلى عليه » . لعله صلوات الله وسلامه عليه علم أنها تفى بدينه .
« ثم أتى بالثالثة فقالوا صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه
دين ؟ قالوا : ثلاثة دنائير . قال : ضلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه
يا رسول الله وعلى دينه . فصلى عليه « متفق عليه ، من آداب الإسلام عن أنى سميد
الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس على
الطرقات فقالوا : مالنا بد منها إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال : فإن أبيتم إلا
المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ،
وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر » رواه البخارى .

الإسلام دين المساواة

فى صحيح البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها أن قریشاً أهمتهم المرأة
الخنزومية التى سرت فقالوا من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترىء
عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اتشفع فى حد من حدود الله
ثم قام فخطب قال أيها الناس : إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف
تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت

محمد سرقت لقطع محمد يدها . وقال أهل التحقيق طيب العيش يكون بأمر أربعة :
 (١) عبادة المنعم سبحانه مع أكل الحلال (٢) الرزق الحلال الطيب (٣) القناعة في
 الدنيا والرضا منها باليسير كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : في دعائه اللهم قنني
 بما رزقتني (٤) رزق يوم بيوم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
 كان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً : والقناعة وحدها تكفي لهذا ، لأنه
 ألا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحرير ص فإنه أبدأ في كد
 وعناء ، وعيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه . (١) لعلمه أنه تعالى
 مدبر حكيم فكان راضياً بكل ما قدره وقضاه ، أما الجاهل فلا ، فكان أبدأ في
 عناء وشقاء (٢) إن البلاء هينة عليه لكونها فعل الإله ، فأما الجاهل فهي شديدة
 عليه عظيمة التأثير في نفسه (٣) المؤمن يعلم خمسة لذائد الدنيا وسرعة زوالها فلا يهتم
 لقواتها بخلاف الجاهل فلا يعرف سعادة تغايرها فلا جرم يعظم حرصه بوجودها ،
 وغمه بفقدانها . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ،
 ولا الفاحش ولا البذيء » . رواه الترمذي بإسناد صحيح . والطعان هو الوقاع في
 أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة ، واللعان الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة
 الله تعالى والفاحش ذو الفحش في كلامه وأفعاله والبذيء الفاحش في منطقة وإن
 كان الكلام صدقاً . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم
 حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب
 السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لا نصرنك ولو بعد حين » رواه الترمذي بإسناد
 حسن من حديث أبي هريرة . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « يوشك أن تداعى
 عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ قال :
 بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم
 المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب
 الدنيا وكرهية الموت^(١) تداعي يدعو بعضها بعضاً للاجتماع على اذلالكم وسلب مافي

(١) رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة مرفوعاً .

أيديكم — والأكلة جمع آكل ككتاب وكتبة — وغشاء السيل هو ما يحمله من الزبد والأشياء الطافية على وجه الماء مما لا قيمة له ولا نفع فيه . ضربه مثلاً للمسلمين إذ أذهبت ريحتهم وتفرقت كلمتهم — والحديث من أعلام النبوة ، وقد تحقق في هذه الأيام فلقد صار المسلمون اليوم لشدة تنازع الدول القوية عليهم بمثابة القصاص اجتمع عليهم الأكلة الجياع .

فضيلة الإحسان

حكى أن امرأة جاءت إلى حسان بن سنان فسألته شيئاً ، فجعل ينظر إليها فإذا هي امرأة جميلة ، فقال : يا غلام ، أعطها أربع مائة درهم ، فقيل له : إنها تسألك درهما . فقال : لما نظرت إلى جمالها خشيت أن تقع في معصية ، فأحببت أن أغنيها عسى أن يرغب فيها أحد فيتزوجها . وقال الإمام الثوري : الإحسان أن تحسن إلى المسيء ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة .

في الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . ويروى أن رجلاً سب الأحنف بن قيس وهو يماشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله ههنا ، فإني أخاف إن سمعتك فتيان الحى أن يؤذوك . وقال رجل لأبي ذر رضى الله عنه : أنت الذي نفاك معاوية من الشام ؟ لو كان فيك خير ما نفاك ، فقال : يا ابن أخي إن ورأى عقبة كؤوداً ، إن نجوت منها لم يضرني ما قلت ، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت . وقال رجل لأبي بكر رضى الله عنه : والله لأسببَنَّك سباً يدخل القبر معك ، قال : معك يدخل لا معي . وقال رجل لعمرو بن العاص : والله لأنفرغن لك ، قال : هناك وقعت في الشغل ، قال : كأنك تهددني ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرأ ، قال : وأنت والله لئن قلت لى

عشرًا لم أقل لك واحدة . وشم رجل الشعبى فقال له : إن كنت صادقًا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك . وشم رجل أبا ذر الغفارى رضى الله عنه فقال : يا هذا لا تغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعًا ، فإننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . وصر المسيح عليه السلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شرًا فقال خيرًا ، فقيل له : إنهم يقولون شرًا وتقول لهم خيرًا ، فقال : كل واحد ينفق بما عنده . قيل للأحنف بن قيس : من أحلم ؟ أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهل منكم ؛ إن معاوية يقدر فيحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس به أو أدانيه . وقيل لقيس ابن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وقالوا : مَا قَرْنُ شَيْءٍ أَزِينُ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ ، وَمَنْ عَفُو إِلَى قُدْرَةٍ . وقال الحسن : المؤمن حلیم لا يجهل وإن جهل عليه ، وتلا قوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا . وقال يزيد بن أبى حبيب : إما كان غضبى فى نعلى ، فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت . وقال الإمام على رضى الله عنه : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستغفرنى الشيطان بعزة السلطان ، فأنا لك اليوم ما تناله منى غدًا ، انصرف إذا شئت . وقال الأحنف بن قيس : آفة الحلم الذل ، ولا حلم لمن لا سفيه له ، وما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال النابغة الجعدي :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادى تحمى صفوه أن يكدر
ولما أنشد هذا البيت للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يفيض الله فاك » .
فعاش مائة وثلاثين لم تنفض له ثَنِيَّة .

فى الغيرة على الوطن

خرج أحد الملوك ذات يوم يتفقد جيشه ، وبينما هو يحوس خلال صفوفهم رأى جنديًا تتألق على صدره سلسلة ذهبية ، وقد ربط فى نهايتها رصاصة بدل

الساعة ، فأراد الملك أن يعرف السبب ، فسأله باسمًا : كم ساعتك ؟ فأجابه الجندي : إن ساعتى يا مولاي لا تعين الزمن ، ولكنها تذكرنى دائماً بواجب الذود عن الوطن ، فسر الملك من إجابته ، ووهب له ساعته الخاصة مكافأة له .

فى ثبات الفقير وغرور الغنى

فى صحيح البخارى عن خبّاب رضى الله عنه قال : كنت قيناً فى الجاهلية ، وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بحمد ، فقلت : لا أ كفر حتى يميّتك الله ثم يبعثك ، قال : دعنى حتى أموت وأبعث ، فسئلتنى مالاً وولداً ، فأقضيتك ، فنزلت : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ، كلا سنكتب ما يقول ، ونمد له من العذاب مذباً ، ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » . القين : الحداد .

فى صحيح البخارى من حديث جابر بن عبد الله يقول : « جاءت ملائكة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فن أجاب الداعى دحل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا : أوّلوها له يفقهها . فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم فن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس » .

* روى الإمام المقدسى عن أبى ذر الغفارى قال : أوصانى خليلى بأربع كلمات هن إلى أحب من الدنيا وما فيها ، قال لى : « يا أما ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثود ، واخلص العمل فإن الناقد بصير » . * وروى أن سفانة بنت حاتم الطائى فى غزوة الطائف حين

وقعت في الأسر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : شكرتك يدُ افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد اغتنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة » ترجو بذلك أن يمن عليها بإطلاق سراحها . فقال : « يا على جهزها على جملين وردّها إلى أهلها مكرّمة » ففعل ذلك على رضى الله عنه وكرم الله وجهه * قيل للحكيم : ما السرور ؟ فقال : عقل يقيمك ، وعلم يزيناك ، وولد يسرك ، ومال يسعك ، وأمن يريحك ، وعافية تجمع لك المسرات * وقالت عائشة رضى الله عنها : من شقوتنا أن الله تعالى قدمنا حين ذكرت الشهوات : إشارة إلى قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » هذه الستة أنواع هي المشتبهات التي يحبها الناس وحبا مزيّن لهم ، وله مكانة من نفوسهم (أولها) النساء وجهن لا يعلوه حب لشيء آخر من متاع الحياة ، فهن مطمح النظر وموضع الرغبة ، وسكن النفس ومنتهى الأنس ، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال في كدّهم وكدّهم ، فكلم افتقر في حبه غنى ، وكلم ذل بعشقه عزيز . (الثاني) حب البنين فاكثف بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم . (الثالث) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، أى كثرة المال وهو مما أودع في الفراز — ولفظ القنطار معناه العقدة المحكمة من المال وهو ما يعبر عنه التجار الآن بالصر أو الصرة — وقنطار مقنطر مكمل على المبالغة . (الرابع) الخيل المسومة وهي الراعية ، وقيل المطهمة الحسان ، وقيل المعلقة — وكل من الراعية التي تقتنى للتجارة ، والمطهمة التي يقتنيها الأغنياء للمفاخرة من متاع الدنيا الذي يتنافس فيها . (الخامس) الأنعام وهي الأبل والبقر والغنم . (السادس) الحرث : الزرع والنبات وهو قوام حياة الإنسان والحيوان (ذلك) ما يستمتع به الناس في حياتهم الأولى ، والله تعالى عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة ، فلا ينبغي أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد للعظيم الباقي . من كلام عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة إبليس وأهلها حرثون له فيها .

ذكاء صبي وشجاعته

مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً بصبيبة يلعبون بينهم عبد الله بن الزبير ، فلما رأوه فروا إلا عبد الله ، فقال له عمر : لم لم تفر مع أصحابك ؟ فقال : لم أكن مذنباً فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقه فأوسع لك * قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة ، وقالوا : لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ، ومنهم من يقول : نعمل ذلك تفاؤلاً حتى نتعزى من الذنوب كما تعزينا من الثياب ، وكانت المرأة منهم تتخذ سترًا تعلقه على حقوبها لتستر به عن الحس وهو ، قرش ، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك ، وكانوا يصلون فى ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً . فقال المسلمون : يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك . فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا — وهذا من بدع الجاهلية : التى هدمها الإسلام * قدر الإمام على رضى الله عنه الدنيا بثلاثة أيام يوم مضى قد عرفت مافيه : ويوم أنت فيه فأنت فيه إن كنت من أهله ، ويوم يأتيك فلا تدري أنت من أهله أو أنت من الراحلين * من الحكم الماثورة : إطاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال على رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه — أى فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية . وقال بعض الحكماء : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال غيره : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع والبصاحب رفعة فى الثوب فلينظر أحدكم بم يرفع ثوبه . وقال : إذا حاجبت فلا تغضب فإن الغضب تطعم عنك الحجة ويظهر خصمك عليك . فى حسن الاستشفاع : قال ابن

المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل. فقلت : يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله تعالى : من كانت له عند الله يد فليقدم فلا يتقدم إليه إلا من عفا عن مذنب . فأمر بإطلاقه . وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر فافعل ما يحبه من العفو ، وأمر المهدي بضرب عنق رجل فقام إليه الناسك العظيم والواعظ الحكيم ابن السماك فقال له : إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق قال أمير المؤمنين : فما يجب عليه ؟ قال ابن السماك أن تعفو عنه ، فإن كان من أجر كان لك دوى ، وإن كان من وزر كان علىّ دونك . فحلى سبيله — وروى الأصمعي قال : عزم عبد الله بن علي على قتل بنى أمية بالحجاز فقال له عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب : إذا شرعت بالقتل في أكتفائك فعن تباهي بسلطانك فاعف الله عنك . من الأمثال السائرة « إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » وأصله أن ثلاثة ثيران أحدها أبيض والثاني أحمر والثالث أسود تمردت على صاحبها وفرت إلى البادية فالتقت ببعض الوحوش فطعم فيها ، ورأى أن لا قبل له بها وجها لوجه ، فعمد إلى الحيلة ، فمقد معها صداقة بحجة أنها تأكل العشب وهو يأكل اللحم فلا زحام بينه وبينها ، فليكن الجميع على تعاون : هو يرشدها إلى العشب وهي ترشده إلى اللحم « صغار الصيد » فلما قدم جاء إلى الثورين : الأسود والأحمر ، وقال : إن لوني ولونكما متقارب وغير ظاهر ، ولكن الثور الأبيض مكشوف اللون يرشد الناس إلى اقتناصنا فهلا أعنتاني عليه ليخلص لكما العشب ونأمن كشف الناس لنا بسببه ؟ فأجاباه فافترسه . ثم بعد حين جاء إلى الأسود بمثل ذلك فأحس الضعف فأجاباه فافترس الأحمر . فلما انفرد بالأسود جاء ليفترسه فتبين له خطأ ما ارتكب أولا وثانيا وقال هذا المثل . وصار مثالا لمن يتخاذل عن نصرة إخوانه طمعا في النجاة من مثل مصيرهم فيعجل لنفسه في اللحاق بهم .

في حسن الجوار

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه . أى من علامة كمال الإيمان أن يحسن المسلم حوار أخيه

بالبشر وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وتحمل الجفا وما إلى ذلك من حسن المعاشرة . وكان من دعاء داود عليه السلام : اللهم إني أسألك أربعة وأعوذ بك من أربعة . أسألك لساناً ذا كراً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً صابراً ، وزوجة تعينني في دنياي وآخرتي . وأعوذ بك من ولد يكون عليّ سيّداً ، ومن امرأة تُشيبني قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون نعيماً للغيرى ووبالاً عليّ ، ومن جار سوء إن رأى مني حسنة كتّمها ، وإن رأى مني سيئة أفشاها . وكان لأبي حنيفة رحمه الله جار إسكافي بالكوفة يعمل نهاره كله ، فإذا جن الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك وخمر فيطبخ اللحم ويشوى السمك ويأكل ويشرب ، فإذا دب فيه السكر أنشد أضعأوبى وأى فتى أضعأوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم لا يزال يهذى ويردد البيت ويصيح إلى أن يغلبه الشكر وينام . وكان الإمام أبو حنيفة يقوم الليل كله في عبادة ربه ، ويسمع صياح الرجل وإنشاده . فقد صوته في بعض الليالي فسأل عنه فقيل أخذه العسس « رجال الشرطة » منذ ثلاثة أيام وهو محبوس في سجن الأمير . فصلى الإمام الفجر وركب بغلته وسار إلى أن استأذن على الأمير فقال : ائذنوا له وأقبلوا به راكباً حتى يطاء بساطي هذا بحافر بغلته . فلما دخل أجلسه الأمير مكانه وقال : ما حاجة الإمام ؟ فقال له : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر باطلاقه . فقال : نعم وكل من أخذه من تلك الليلة إلى يومنا هذا إكراماً لجار الإمام . ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين . فركب الإمام وتبعه جاره الاسكافي ، فلما وصل إلى داره قال له الإمام : أترانا قد أضعناك ؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جازاك الله خيراً عن حسن الجوار ورعايته ، والله على ألا أشرب بعدها خمرأ . فتأب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه * ومن ورع عمر بن عبد العزيز ما حدث ابن السماك قال : كان عمر بن العزيز يقسم تفاحاً بين المسلمين فجاء ابن له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه وفك يده وأخذ تلك التفاحة وطرحها في التفاح ، فذهب إلى أمه مستعبراً (باكياً) فقالت له : مالك أى بنى ؟ فأخبرها ، فأرسلت بدرهمين فاشتريت له تفاحاً وأطعمته ورفعت منه لعمر ، فلما فرغ بما بين يديه دخل إليها فأخرجت له طبقاً من التفاح . فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته

فقال رحك الله والله إن كنت لأشتهيه . وأتى بماء قد سخن في فخ الأمانة فسكره ولم يتوضأ منه . وقال يوماً أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين والله ما عندنا عود حطب نوقده به ، فذهبوا بالقمم إلى مطبخ المسلمين ثم جاؤا بالقمم فقالوا : هذا القمم يا أمير المؤمنين وهو يفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ فلعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ، قالوا : نعم . قال : ادعوا لي صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جر لو تركته لتلحد حتى يصير رماداً ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال أدوا إليه ثمنه * في تربية الأولاد : روى أن عتبة بن أبي سفيان أوصى مؤدب ولده فقال : ليكن أول إصلاحك بنى إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما فعلت ، والقبيح ما تركت . وعلمتهم كتاب الله ، ولا تملهم فيتركوا ، ولا تدعهم فيهجروا ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة لهم ، وهددهم بي ، وأدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء ، واستزدني بأدبهم أزدك . ولا تتكلن على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك * أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إذا كنت وحداك فاحفظ قلبك ، وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، وإذا كنت على الطعام فاحفظ بطنك . فهذه ثورتك السلامة والصحة * بالتمسك بالدين انتصروا على أعدائهم * قدمت الروم على هرقل منهزمة وهو بانطاكية فدعا رجلاً من عظمائهم فقال : ويحكم أخبروني ماهؤلاء الذين تقاتلونهم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟ — يعني العرب — قالوا بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : وياكم فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون . قال : إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فبالسكم كما تصفون ، وهم كما تزعمون ؟ قال الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له من أين هو ؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ، وتركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد في الأرض . قال : صدقتني ، والله لأخرجن من هذه القرية ، فإلى في صحبتكم خير وأنتم هكذا * في بر الوالدين . جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن لى أما بلغ بها من السكر أنها لا تقضى حاجتها (البول والغائط) إلا وظهرى لها مطية ، فهل قضيتها ؟ أى حقها ، قال ، لا ، لأنها كانت تفعل معك ذلك وهى تتمنى بقاءك وأنت تفعل معها ذلك وأنت تتمنى موتها . أى فرق بين من يصنع الجليل عن رضا وإخلاص ، ومن يصنعه على خلاف هذا * ظاهرة كريمة . روى أنه حصلت مجاعة فى زمن أبى بكر وكان عثمان رضى الله عنه كثير المال ، وقد جاءه ألف راحلة من الشام تحمل قمحا وأرزا وزبيباً وزيتاً . فجاءه تجار المدينة وساموه فى شرائه ، فقال : كم تربحوننى ؟ فقالوا : الدرهم بدرهمين . فقال : قد أعطيت زيادة ؟ قالوا : بخمسة . قال : زادونى فقال التجار : ليس فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليه أحد فى المساومة . قال : إن الله قد أعطانى بكل درهم عشرة دراهم ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا لا . قال فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . وتصدق بالأحمال جميعها إيماناً واحتساباً لوجه الله . فما بقى من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه وأهله . هكذا أدبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأداب الإسلام السمح ، وعودهم على أخلاقه السكرية (٢) ومن محبتهم للرسول : أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد أن أحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنت فى أهلك ! فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وأنى حاس فى أهلى . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب

أصحاب محمد محمد . وكذلك قال خبيب بن عدى صاحبه وأنشد :
 وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيناي في غير مجزع
 ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان في الله مصرعى
إقامة العدل ورد المظالم . قال، ابن حميد : إني لواقف على رأس المأمون يوماً
 وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه (وقد هم بالقيام) امرأة عليها هيئة السفر
 وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فنظر
 المأمون إلى يحيى بن أكرم فقال لما يحيى وعليك السلام ورحمة الله يا أمة الله تكلمى
 في حاجتك فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلدُ
 تشكو إليك عميدَ القوم أرملةً عدا عليها فلم يترك لها سبداً
 وابترَّ من ضياعي بعد منعتها ظلماً وفرَّق مني الأهل والولدُ
 فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها يقول :

في ذون ما قلت زال الصبر والجلدُ عني وأفرح مني القلبُ والكبدُ
 هذا أوان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعدُ
 والجلس السببُ إن يقض الجلوسُ لنا ننصفك منه وإلا المجلسُ الأحَدُ

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت
 السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال وعليك السلام ورحمة الله . أين الخصم ؟
 فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومات إلى العباس . ابنه . فقال
 يا أحمد بن خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصومة ، فجعل كلامها يعلو كلام
 العباس ، فقال لها أحمد بن خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك
 تكلمين الأمير ، فاخفضي من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق
 أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وعاقب العباس بظلمه لها وأمر
 بالكتابة لها إلى العامل ببلدها أن يؤجر لها ضيعتها ويحسن معاوتها وأمر لها
 بنفقة . وعن الربيع أنه قال : ما رأيت رجلاً أثبت جناناً ولا أربط جأشاً من رجل

رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني بإحضاره فأحضرتة ودخلت به إليه فقال له المنصور : قد رفع إلينا خبرُ الودائع التي عنك لبني أمية فأخرج لنا منها . فقال : يا أمير المؤمنين أوارث أنتَ لبني أمية ؟ . قال لا . قال : فوصي أنتَ لبني أمية ؟ . قال لا . قال فما سؤالك عن مافي يدي من ذلك ؟ قال : فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين في حقهم ، فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم . فقال : يا أمير المؤمنين نحتاج في ذلك إلى إقامة البينة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين ، فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : صدق الرجل ياربيع ، ما وجب عليه عندنا شيء ، ثم بش في وجهه ثم قال : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتي أن تُنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم إثم خاصي لديك ، وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين . قال : ما هي ؟ قال : أن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك ، فوالله ما لبني أمية عندي ، ولا في يدي ودعة ، ولكنني لما مثلت بين يديك ، وسألتني رأيت ما قلته أقرب إلى الإخلاص والنجاة . فقال : ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به إلينا ، فجمعت بينهما فقال : يا أمير المؤمنين هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق ، فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وكذب عليه خوفاً من الوقوع في يده ، فقال المنصور للرجل : نسألك أن تصفح عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه ، وأبرأته من المال ، وأعطيته ثلاثة آلاف أخرى ، فقال المنصور : ما على ما فعلت من مزيد في الكرم * السعادة في ترك الكذب والتهرام الصدق * ورد أن أعرابيا أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : إني أريد أن أتبعك غير أنى علمتُ أنك تنهى عن الزنا والسرقة وشرب الخمر ، ولا طاقة لى بترك جميعها ، فإن قنعت منى بواحدة منها اتبعتك ، فعاهده صلى الله عليه وسلم على ترك الكذب ، فصار

كلما هم بزنا أو سرقة أو شرب الخمر : قال : كيف أصنع إن سألتني النبي صلى الله عليه وسلم فإن صدقته حدثني وإن كذبتني فقد عاهدته على ترك الكذب ، فكان ذلك سبباً لترك الفواحش كلها ، وتاب وحسنت توبته ، فقال لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسن ما داويتني فجزاك الله ماجزى نبياً عن أمته — أو كما ورد ، وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إذا حدثتك نفسك بمعصية الله فاعصه حيث لا يراك ، أو كل رزق غيره أو اخرج من داره ، ولا ريب أن أى واحد من هذه الثلاثة محال لذاته .

شهادات الأجانب للإسلام

لسنا نريد من ذكر شهادات الأجانب لذلك الدين القويم إقامة البراهين على أنه الدين الحق دين الرقي والمدنية فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل . وقد برهن على نفسه بنفسه . وإنما نريد بهذا أن نذكر للناس أن عقلاء الأمم الأجنبية الذين نظروا إليه بالعيون الصحيحة ، والعقول السليمة المطلقة من قيود الهوى والتعصب الممقوت علموا أن القرآن الحكيم هو منبع الرقي والسعادة وأن الإسلام أساس المدنية والحضارة في كل مكان وزمان . ولو استقصينا كل شهاداتهم لطال بنا الكلام لا سيما أن فريقاً عظيماً منهم تصدى للدفاع عن دين الإسلام وألقوا في ذلك المؤلفات القيمة الناطقة بالحق . وقد انتشرت في بلاد الشرق والغرب ، فلذلك نكتفي ببعض شهادات أشهر علماءهم وفلاسفتهم قال : « دوديانوس الوزير الفرنسي » : جاء الإسلام مخالفاً لكثير من الأديان التي ضاعت حقيقتها ولكنه جاء منزهاً عما لا يقبل من الخرافات والأباطيل .

ومن عجيب أسره والدليل على صدقه أنه كرم المسيح وعظمه وإن خالف المسيحيين في تقرير أن المسيح بشر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله . والإسلام مكلل للإنسانية لانغموس فيه ، وهو يقرر الوحدةانية . فلمن من التناقض والمعارضة العقابية .

الإسلام أمر بالمساواة والاشتغال بالعمل ، وتنزه الإسلام عن الرهبانية . أما تأخر أهله فنأشئ من أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير مرامه . وقال الفيلسوف (كارلايل) الإنجليزى فى كتابه « الأبطال وديانة الأبطال » أى دليل تريد على صحة قول من يدعى لك أنه بقاء أقوى من أن يبنى لك بيتاً كبيراً يسمع الملايين ، من المتانة بحيث يبقى مئات السنين ، كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من أن يأتى للناس بدين يهديهم به ويدفعهم فى طريق الحياة الفاضلة ، وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثنى عشر قرناً ، ألا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف يمر من يد ويدين ثم يُضبط ويعرف أنه زائف ، فلا يرفع به أحد رأساً ، ولكن الإسلام هدى العقول كل هذه الأجيال وأهله أشد اعتداداً وتمسكاً به من أية أمة بدينها فى الأرض . وقال جوستاف ابون فى كتابه « حضارة العرب » : إن التعاليم الأخلاقية التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة . فقد حض على الصدق والإحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا إلى الاستمسك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهود ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ورعى الأرمال والقيام على اليتامى ، ووصى فى عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة تلك هى الآداب السامية التى دعا إليها القرآن وهى أسمى بكثير من آداب الإنجيل . وإنها لشهادة رجل عرف الحق من طريق النظر الصحيح فأثبت عليه مروءته أن يكتمه . وقال الفيلسوف الإنجليزى « برناردشو » لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل نجيل من الناس . لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ؛ وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذمى ، ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصماً

للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلاً مذهماً فرأيت به بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفي القرن التالي ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فنعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها فهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي . وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد حتى ليكن أن يقال : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ . وما يلفت نظر الباحث في حديث هذا الفيلسوف المنصف قوله : إن أوروبا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشاكلها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صل الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . فهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل عرف حقيقة الإسلام وأدرك كيف يؤثر بجماله في القلوب ، ويتسلط بجلاله على النفوس : وليس برناردشو أول من أدرك هذا فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوت الفيلسوف الألماني المتوفى سنة (١٨٣٢ م) وهو يعتبر من أكبر رجال الألمان علماً وعقلاً . يؤثر عنه أنه نظر في الإسلام وأعجبه فقال : إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه . وقال الفيلسوف (كيزو) الفرنسي صاحب تاريخ التمدن الأوربي : إن الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيه الخاطبين في عشواء العماية ، والقصدح في سيرتهم هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء

والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد ، كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الأغلب . وفى القرآن من ذلك ما لا يحصى كثرة ، وقلماء يوجد من الأديان ، ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد ، أو الوحدة فى الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحداً ، مما تنبذه بداهة العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالسكنه ولا بالوجه ، ولا يهتدى لدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه ، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ، فن نحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه لكنه يعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل بقر بوجوده وأما الثانى فمطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ، وقال الحكيم جوستاف لوبون : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب فللدين أثر كبير فى تهذيب الأمم وتربية مشاعرها ووجدانها وترفية عواطفها . فإذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، إذ ما كاد يتصل بالأمّة العربية ذلك الإصلاح الروحى المدنى حتى انتشر العدل ، وزال النفاق والرياء والظلم والعدوان ، وأطلقت العقول من قيودها التى ظلت أدهاراً ترسف فيها ، وتبدلت حال الأمّة العربية بحال خير منها . ١٠١ .

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وكان الفراغ من تأليفه صباح اليوم التاسع من ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم ٥

على محفوظ

طبع هذا الكتاب طبق خطة الدراسة ومنهجها لقسم لإجازة الدعوة

والإرشاد على نظام القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦

دليل كتاب هداية المرشدين

المطلب	صفحة
مقدمة الكتاب ومقدمة الطبعة الخامسة	٢ - ٤
ترجمة المؤلف ونشاطه	٧ - ١٢
الفصل الأول : التعريف بالدعوة - معناها - أنواعها - الحاجة إليها - وجوب تبليغها - حكم من لم تبلغه الدعوة .	١٣ - ٢٤
الفصل الثاني : السنن العامة في دعوة الرسل - هدى سيدنا محمد في نشر الدعوة - أصول الدعوة : الحجج البالغة .	٢٥ - ٤٨
الأساليب الحكيمة - الآداب السامية - السياسة الحكيمة - هدية في تربية أصحابه ، أثره فيها كتيبه ورسله إلى الملوك والأمم - كتابه إلى ملك الروم - حديث أبي سفيان - كتابه إلى النجاشي - كتابه إلى كسرى - كتابه إلى المقوقس - كتابه إلى ملك البحرين - كتابه إلى ملك اليمامة - كتابه إلى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق	٤٩ - ٥٨
الفصل الثالث : أشهر الدعاة من عهد الرسول وهدبهم في الدعوة .	٥٩ - ٧٠
واجب العلماء	
الفصل الرابع : في الوعظ والإرشاد - أثره في تهذيب النفوس .	٧١
الفصل الخامس : القصص والقصص في الصدر الأول - اختلاف السلف في مدح القصص وذمهم - القصص المذموم ، القصص الحمود . الاسرائيليات ثلاثة أنواع - أمثلة من النوع الثالث	٦٤
الفصل السادس : الوعظ في القرن السادس وتقدير الأمراء له .	٨٣
الفصل السابع : آداب الداعي - أول واجب على الداعي - العمل بعلمه - الحلم وسعة الصدر - الشجاعة في الجهر بالحق - العفة - القناعة	٨٧ - ١٠٣

المطلب	صفحة
قوة البيان — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة — علم التاريخ العام — علم النفس — علم تقويم البلدان — علم الأخلاق — معرفة الملل والنحل — العلم بلغات الأمم التي يراد دعوتها — علم الاجتماع . . .	٩٩ — ١٠٢
قوة الثقة بالله تعالى — التواضع وبجانبه العجب — ألا يبخل بتعليم ما يُحسن الوقار والرياسة — كبر الهمة وعلو النفس — الصبر في مقام الدعوة — التقوى والأمانة	١٠٣ — ١٠٦
آدابه السكالية — الورع — محبة الإصلاح — التخلق بالحلل الحميدة — الإخلاص لله في العمل — دوام المراقبة	١١١ — ١١٦
آداب الداعي مع السامعين — التعريض في الخطاب — التلطف في القول ذكر المدعو بالخير — فراسة الداعي في السامعين	١١٧ — ١٢١
الفصل الثامن : ما يلزم المرشد اجتنابه . الخوض في دقائق علم السلام ، التحدث مع العوام بما لا تعقل معناه — صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها	١٢٢ — ١٣١
الفصل التاسع : السجع والأشعار في الوعظ — السجع القبيح والحسن — الأشعار والجائز منها في الوعظ وما لا يجوز .	١٣٢ — ١٤٠
الفصل العاشر : مراجع الوعظ وهي قسمان أولية وثانوية	١٤٠
الفصل الحادي عشر : أنواعه والسير فيها على منهج القرآن الحكيم	١٤٣
الفصل الثاني عشر : إعداد الموعظة وتحضير الموضوع قبل إلقائه	١٤٦
أمثلة مختارة من الحكم الثرية البالغة — قصيدة أبي الفتح البستي	١٤٧ — ١٦٧
أمثلة من الملح التاريخية — أمثلة من الفكاهات الأدبية السامية	١٦٨ — ١٧٧
الفصل الثالث عشر : ضرب الأمثال في العظة — مثل الجليس الصالح والجليس السوء . إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها . إنما مثلي ومثل ما بعثنى الله به — ملك آخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً — العمل الصالح هو صاحب	١٧٧ — ١٧٨

المطلب	محتوى
النافع — أهل الدنيا في تعلقهم بها — كيفية توزيع	
الجزء على الحسنات والسيئات	
الفصل الرابع عشر : رعاية المرشد لمقتضى الحال — ما خاطب به	١٨٨ — ١٩١
المشركين — الرد على منكر البعث	
الفصل الخامس عشر : الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في	١٩٢ — ٢٠٠
إرشاد الناس — الترغيب في جنس الطاعات — الترغيب	
في أنواع الطاعات والفضائل النفسية	
الترهيب ، وإنه أربعة أضرب (الأول) ذكر الآيات	٢٠١ — ٢٠٦
والأحاديث المخوفة للذنين — معاصي الآباء وشؤمها	
على الذرية	
(الثاني) حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم	٢٠٧
من البلاء	
(الثالث) كل ما يصيب العبد من المصائب والبلاء	٢١٠
بسبب جنائياته	
(الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من	٢١٥
العقوبات على آحاد الذنوب	
الفصل السادس عشر : التحذير من المعاصي بالخوف من الله — ما ورد	٢١٩ — ٢٢٨
في فضله — ما يورث الخوف — خوف العلماء —	
خوف عموم الخلق — القرآن كله مخوف لمن تدبر.	
الفصل السابع عشر : بيان معنى سوء الخاتمة وأنه نوعان	٢٢٩
الفصل الثامن عشر : أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف	٢٣٤
أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في الخوف	٢٣٥
الفصل التاسع عشر : الحث على المسارعة إلى صالح العمل	٢٤١
الفصل العشرون : سنة الله تعالى في الهداية والإضلال	٢٤٥
نماذج في مواظب القرآن الحكيم — الموعظة الأولى الكمالات	٢٥٣ — ٢٦٣
النفسية — حكمة تعيين الجهة في الصلاة — سر التوجه	
إلى بيت المقدس أولا والرجوع عنه إلى الكعبة	
الموعظة الثانية : صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق	٢٦٣
الموعظة الثالثة : النهي عن الانهماك في طلب الدنيا	٢٦٨

صحيفة

الطلب

- الموعظة الرابعة : هداية القرآن الحكيم إلى السعادة . . . ٢٧٣
- نماذج في مواعظ السنة النبوية - الموعظة الأولى الحث على الكسب ٢٧٩
- من طريقة الحلال - مضار البطالة . . .
- الموعظة الثانية : علامات النفاق وأنه نوعان : اعتقادي وعملي ٢٨٤
- الموعظة الثالثة : الزواج وعادات الناس - على ولي البنت أن يحسن ٢٨٧
- اختيار الخاطب - رعاية حقوق الزوجية - وصية
- أب حكيم لابنته عند زفافها - وصية أم حكيم
- لابنتها كذلك
- نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية . . . ٢٩٥
- المحاضرة الأولى : سر مشروعية القتال في الإسلام - ما جاء في
- مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم . . .
- المحاضرة الثانية : الرق في الآسلام - حرية النفس . حرية العقل ٣٠٩
- المساواة في نظر الدين
- المحاضرة الثالثة : سر تعدد الزوجات ٣١٦
- المحاضرة الرابعة : سر تعدد زوجات المصطفى - زواجه بزينب بنت ٣١٩
- جحش وما فيه من المصالح الاجتماعية
- المحاضرة الخامسة : الحث على الوفاء والتفكير من الاخلاف . . . ٣٢٩
- » السادسة : إعداد النشء ليكونوا رجالا . . . ٣٣٥
- » السابعة : الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع . . . ٣٤١
- » الثامنة : الانسان في الشدة والرخاء ٣٤٦
- » التاسعة : الاقتصاد وأثره في الفرد والجماعة . . . ٣٥١
- » العاشرة : الحسد وآثاره السيئة في المجتمع . . . ٣٥٥
- » الحادية عشرة : الغضب وسوء عاقبته ٣٦٢
- » الثانية عشرة : الانسان هو المقصود من العالم . . . ٣٦٩
- » الثالثة عشرة : من الإنسان؟ ضرورة الشرع لسعادة البشر . ٣٧٤
- المحاضرة الرابعة عشرة : عبرة خلقية من سيرة النبي صلوات ٣٧٩
- الله وسلامه عليه
- نماذج من أشهر مواعظ السلف الصالح ٣٨٧

المطلب	صحيفة
خطبة التحذير من إيذاء المسلمين	٤٦٤
« الدين أو أسرار التشريع	٤٦٧
« حقوق الأبناء على الآباء	٤٦٩
« حقوق الآباء على الأبناء	٤٧٢
« إرشاد الصائم	٤٧٤
« سر مشروعية الصوم	٤٧٧
« سر مشروعية الصلاة	٤٧٩
« وداع رمضان	٤٨١
« عيد الفطر	٤٨٤
« التحذير من العودة إلى المعاصي بعد رمضان	٤٨٥
« الاتحاد والتحذير من التفرق	٤٨٧
« الاتحاد وأثره في نجاح السلف	٤٨٩
« الغش في المعاملات وسوء عاقبته	٤٩١
« مضار الزنا — مسجوعة	٤٩٣
« الزنا وعواقبه — رسالة	٤٩٥
« عيد النحر	٤٩٦
« الاقتصاد والتحذير من الاسراف والتبذير	٤٩٩
« الدين ضروري للحياة	٥٠١
« وجوب الاعتصام بالدين	٥٠٣
« الإنسان مآله ومصيره	٥٠٤
« فضل بناء المساجد	٥٠٧
« عظات متنوعة يذكرها المرشد في المناسبات	٥٠٩
« شهادات الأجانب للإسلام	٥٣٣

المطلب	صحيفة
وعظ العلماء للأشرار وتقديرهم له — حلم أمير وثبات امرأة	٣٩٤
ما يجب أن يراعى في وضع خطب المنابر	٤١٠
نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية في أهم الحوادث	٤١٥
خطبة في وراثته الأرض بالعمل الصالح	٤١٥
خطبة في بيان الحكم الصالح	٤١٨
« أثر الدين في تهذيب النفس	٤٢٢
« أهملنا ديننا فساءت حالنا	٤٢٥
« خروج النساء إلى المقابر في اللوالم والأعياد	٤٢٧
« سبب الشقاء مخالفة الدين	٤٣٠
« التحذير من الربا	٤٣٢
« المحافظة على الصلوات	٤٣٤
« تأليف الجمعيات التعاونية	٤٣٦
« مواساة البؤساء	٤٣٨
« أثر الصلاة في الفرد والمجتمع	٤٤١
« الاعتبار بالموت	٤٤٤
« التحذير من تبرج المرأة	٤٤٧
« التحذير من تقليد الأجانب	٤٥٠
« أثر الدين في السعادة	٤٥٣
« تناول المسكرات والمخدرات	٤٥٥
« خروج النساء خلف الجنائز	٤٥٧
« ذم الكبر والتحذير منه	٤٦٠
« مضار شهادة الزور	٤٦٢

مراجع الكتاب

التي منها اقتبست ليرجع إليها من أراد الزيادة من العلم

- ١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعلامة أبي السعود .
 - ٢ — تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا .
 - ٣ — إحياء علوم الدين للامام الغزالي .
 - ٤ — زاد المعاد للامام ابن القيم .
 - ٥ — سيرة ابن هشام .
 - ٦ — الشفاء للقاضي عياض .
 - ٧ — تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ محمد بك الحنوري .
-

كتب المؤلف

- ١ — هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة .
- ٢ — الإبداع في مضار الابتداع .
- ٣ — الخطابة .

وتطلب من نجل المؤلف الأستاذ محمد جمال الدين علي محفوظ بالمنزل رقم ١٠
شارع الأمير بشير بالحلمية الجديدة بالقاهرة ومن المكاتب الشهيرة .

رقم الإيداع ٤٣١٠ - ١٩٧٩

دار النصر للطباعة والإعلامية
٢ شارع نياطين - شبرا - القاهرة
تليفون ٥٥٢٢١

